تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

جمع و شرح

فريق من الباحثين

بإشراف و مشاركة

الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سليمي ، محمد حسن

تغريدات الصالحين ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

محمد حسن سليمي - ط ١، مكة المكرمة ، 1444 هـ

2186 ص؛ 17×24 سم

ردمك: 978-603-8350-81-2

1- الوعظ و الإرشاد 2- الحسنات و السيئات أ. العنوان

ديوي 213 1444/2820

رقم الإيداع: 1444/2820

ردمك: 978-603-8350-81-2

الطبعة الأولى (1444هـ - 2023م)

دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

dar.taibagreen123

dar.taiba

@dar_tg

dar_tg

dartaibagreen@gmail.com

yyy.01@hotmail.com

012 556 2986

055 042 8992

مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

تَغرِيداتُ الصَّالِحِينَ

أَلفُ حِكمةٍ رائعةٍ في ميادينِ التَّربيةِ الإيمانيَّةِ

جَمْعُ وَ شَرْحُ

فَرِيقٍ مِنَ البَاحِثِينَ

بإشْرَافِ وَ مُشَارَكَةِ

الأستاذِ الدّكتور مُصطفى مَخْدُوم

المجلّد الأوّل

دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع علمٌ يُنتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نحمدك اللهم، أنت صاحب الكمال، ومشرق الجمال، ومنبع العظمة والجلال، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك. كما نحمدك اللهم علىٰ نِعمٍ أسديتَها، ومننٍ أعطيتَها، نحن عاجزون عن شكرها، ومحتاجون إلىٰ دوامها.

مولانا هديتَ القلوبَ برحمتك، وبهرتَ العقولَ بقدرتك، وسطَّرتَ الأقدار بعلمك، وقسمتَ الأرزاقَ بحكمتك، وقدَّرتَ الآجالَ بقدرتك، فلا تحرمْنا عطاءَك بتقصيرنا، ولا تُضِلَّنا عن صراطك بجهلنا، ولا تطردْنا عن بابك بغفلتنا، ولا تُشْقنا في الدنيا بزلاتنا، ولا تحرمْنا في الآخرة عفوَك بشقاوتنا.

أنت الغني ونحن الفقراء، وأنت القوي ونحن الضعفاء، وأنت العليم ونحن الجهلاء، علِّمْنا من واسع علمِك، وأفِضْ علينا من خزائن حكمتك، وانشرْ علينا من واسع رحمتك.

ونصلي ونسلم علىٰ خاتم أنبيائك، وسيد أصفيائك، الذي بعثتَه بالحكمة الرائعة، والحجة الساطعة، والرحمة الواسعة، فارتفعتْ معالمُ الدين، وسطعتْ أنوارُ اليقين بفضلك يا أرحم الراحمين، وارحم اللهم أصحابَه الطاهرين، وآله المقرَّبين، اللهم آمين.

وبعد، فإن أهمَّ العلاقات للإنسان هو علاقته بخالقه ومولاه، فإن صلحتْ صلحتْ وراءها علاقاته الأخرىٰ، وإن فسدتْ فما تنفعه قرابةُ المقربين ولا شفاعة الشافعين ولا محبة الناس أجمعين.

ونجاح هذه العلاقة هو حجر الزاوية، وبيت القصيد، وعلىٰ مداره تدور سعادةُ الإنسان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، فهذا وعد إلهي للمؤمن بربه، والعاملِ بطاعته أن يحييه في الدنيا حياة طيبة، ويجزيه في الآخرة بثواب هو أعظم من ثواب الدنيا.

وكلمة (الحياة الطيبة) تلقي بظلالها علىٰ جميع جوانب الحياة، وأساسها سرور القلب، وراحة الضمير، وبرد اليقين، وعز القناعة، وطمأنينة الرضا، كما قال بعض الصالحين: «إنه لتمرُّ بي أوقاتٌ، أقول فيها: إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيّب»(١).

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «والحياة الطيبة تشمل وجوهَ الراحة من أيِّ جهةٍ كانت»(٢).

كما أن ظلال هذه الكلمة (الحياة الطيبة) تمتد لتشمل عمومَ الزمان والمكان، والدنيا والآخرة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في جحيم هنا وهنالك»(٣).

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (١/ ٩٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٦).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٥٩).

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنةً، يُعطىٰ بها في الدنيا ويُثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَم بحسناته في الدنيا، حتىٰ إذا أفضىٰ إلىٰ الآخرة لم تكن له حسنة يُعطىٰ بها خيرًا»(١).

لكن الطريق إلىٰ الله تعالىٰ فيه عقبات كؤود، ومزالق وعوائق، إنْ لم ينتبه لها السائرون وقعوا في مزلَّة مَدْحضة، وهاوية مهلكة، بسبب الجهل أو مرض القلب.

ومن أسباب السلامة من ذلك الاعتصام بالله، والاستماع إلىٰ نصائح الصالحين، ووصايا السابقين، ممن ساروا في هذا الطريق، وأدركوا ما فيه من المخاطر والعلل، ومواطن الزلل، فمن علامات التوفيق وأمارات التأييد أن يستمع العاقل بقلبه إلىٰ هذه المواعظ والنصائح التي صاغها الصالحون بناءً علىٰ تجارب عمليّةٍ وتأملاتٍ عميقةٍ.

وهذه النصائح وروائع الكلم وجواهر الحِكَم، منثورة في بطون الكتب، ومبعثرة في ثنايا الصحف، تجد بعضها في الشرق، وبعضَها في الغرب، وكثير منها في غير مظانها من البحث، فرأينا الحاجة ماسَّةً إلىٰ جمع هذه الجواهر في عقدٍ واحدٍ، ونظمها في سلكٍ فردٍ، ليظهر أنوارها ويجمع شملها، ويسهل علىٰ القارئين الاطلاع عليها، والاستفادة من معانيها، ولا سيما الجيل المعاصر الذي يتوخىٰ طريقَ الصالحين، ويتبع آثار المؤمنين، حرصًا منهم علىٰ لزوم جادتهم القويمة ومسالكهم المستقيمة.

وجيلنا اليوم فتح عليه باب التواصل، وباب التبادل للمعلومات والأفكار بصورة سريعة ومؤثرة، لكنه غرق في كومة من الركام الفكري، والثقافة الضحلة، والتغريدات البائسة التي لا تُصلِح دنياه، ولا تعمِّر أخراه، فبات عمره ضائعًا في ثقافة التفاهة وتفاهة الثقافة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣٥) برقم: (٢٨٠٨)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٣) برقم: (١٢٢٥).

وهو جيل حريٌّ به أن يطلع علىٰ تغريدات الصالحين، ووصايا أهل اليقين، ومواعظ أهل العلم والإيمان التي تمثل أضواء حمراء تمنع، أو صفراء تحذّر، أو خضراء تأذن بالسير في طريق اليقين والإيمان.

وقد آثرْنا تسمية هذه النصائح والحكم بالتغريدات لأمرين:

(١) تماشيًا مع الذوق العصري، وتقريبًا للعقول ومخاطبتها بما يفهمه عموم الناس، ويتناغم مع مصطلحاتها وأدبياتها.

(٢) أنَّ هذه الجواهر هي بمثابة تغريدات البلابل وألحان الطيور وسواجع الحمام، يسمعها السامع ويقرؤها القارئ فيُحِسُّ في ثنايا قلبه بسعادةٍ غامرةٍ وراحةٍ عظيمةٍ، يسلُو بها في حياة الجهاد وجهاد الحياة.

والغَرَد والتغريد في لغة العرب هو التطريب في الصوت والغناء، وأصله تغريد الطيور[(١)]، **قال امرؤ القيس:**

يُغَـرِّدُ بالأسـحارِ في كُـلِّ سُـدْفَةٍ ... تَغَـرُّدَ مَيَّـاحِ النَّـدَامىٰ المُطَـرِّبِ[(٢)]

وقال سويد بن كُراع العُكلي:

إذا عرضَـتْ داويـةٌ مدلهمـةٌ ... وغـرَّد حاديهـا، فَـرَيْنَ بهـا فِلْقـا[(٣)(٤)]

وإضافة التغريدات إلىٰ الصالحين لقصد التقييد بهم مراعاة لموضوع التغريدات، وهو التربية الايمانية وما يزرع الصلاح والهداية في القلب، ويعلق النفس بخالقها، ويحمسها في سيرها، ويرشدها في طريقها.

(١) ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ١٩٧)؛ لسان العرب لابن منظور (٣/ ٣٢٤)؛ تاج العروس للزبيدي (٨/ ٤٦٥).

(٢) ديوان امرئ القيس (ص: ٧٥).

(٣) يعني عملْنَ بها داهيةً أو سيرًا عجبًا. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ١٣٢).

(٤) إصلاح المنطق لابن السكيت (ص: ٢٢).

وحرصنا في انتقائنا لها أن نختار منها ما يجمع بين جمال اللفظ وروعة المعنىٰ، يجمع بين اللفظ الرائق والمعنىٰ الفائق بقدر اجتهادنا، ولا ندعي العصمة ولا الإحاطة بكل جواهر الكلم لأسلافنا الصالحين وعلمائنا السابقين، ولكنه جهد المقل، ومبدأ الانطلاق نحو جمع أوسع وأعمق في سلسلة متلاحقه بإذن الله تعالىٰ.

۞ منهج الكتاب:

واجتهدنا في كتابنا هذا على المنهج التالي:

(١) وثَّقنا هذه التغريدات من مصادرها الأصلية والفرعية التي بلغ عددها ٩٥ كتابًا، ولا نقتصر في الغالب علىٰ مصدر واحد.

(٢) إذا تعدّدتْ نسبة التغريدة إلىٰ أكثر من قائل فإننا نضيفها إلىٰ الأقدم تاريخًا، والأسبق وفاة، مع الإشارة في الهامش إلىٰ الآخرين، إلا إذا كانت صياغة المتأخر أجمل أو أشمل فإننا نعتمدها لهذا المعنىٰ، مع الإشارة في الهامش إلىٰ الآخرين.

(٣) هناك بعض التغريدات المكررة ذكرناها في أكثر من موضع باعتبار أن التغريدة تتضمن معاني من أبواب مختلفة، فنذكر الحكمة في كل باب مع شرح ما يتعلق بالباب فقط، والإشارة في الهامش إلىٰ المواضع الأخرىٰ.

(٤) حرصنا علىٰ شرح المفردات الغريبة من مصادرها اللغوية الموثوق بها، مع ذكر الشرح والبيان لمعنىٰ التغريدة وشواهدها من النصوص الشريفة، وكلام العلماء السابقين، وذلك باعتبار أن هذه التغريدات موجزة، قليلة الألفاظ، لكنها واسعة المعنىٰ.

(٥) تجنبنا التغريدات المشكلة في ظاهرها أو المتصفة بالغموض، أو المغرقة في المصطلحات الموهمة.

(٦) خرَّجْنا الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية مع الإشارة قدر الإمكان إلىٰ درجتها من حيث الصحة وعدمها.

(٧) قمنا بإعداد فهارس متنوعة بهدف تيسير الوصول إلىٰ المعلومة حسب رغبة القارئ، فهناك فهرس للأبواب الرئيسية التي بلغتْ ٦٢ بابًا، وفهرس للعناوين الفرعية، وهناك فهرس للتغريدات والحكم التي بلغتْ ١٠٠٠ حكمة، وفهرس للأعلام الصالحين الذين بلغ عددهم ٢١٨ علمًا، وعدد التغريدات لكل علم وموضعها من الكتاب، وفهرس لتراجم الأعلام وفهرس للمصادر والمراجع للكتاب كلّه وقد بلغت نحوًا من ٥٠٠ مصدر، والفهرس العام للموضوعات.

ولا أنسى أن أشكر الإخوة الباحثين الذي شاركوا في إعداد هذا العمل، ومنهم:

- الشيخ محمد حسن سليمي
- الشيخ عبد الله عبد الجليل الشيخلوي
- الشيخ طارق أيمن شعباني
- الشيخ محمد وحيد سليمان
- الشيخ آدم محمد بعاق
- الشيخ عطاء الله هاشم

نسأل الله ﷻ أن يبارك في هذا الكتاب، ويعم نفعه كل من طالعه واستفاد منه، ويجعله حجة لنا عند لقائه، والحمد لله رب العالمين.

المشرف العام
الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم
١/١٠/٢٠٢٢م

باب اليقظـة من الغفلـة

١

قِصَر النظر في رؤية النِّعَم

قال أبو الدرداء[١] رضي الله عنه: «من لم يرَ للَّه عليه نعمة إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ فقهُه، وحضر عذابُه»[٢].

المعنى الإجمالي

من قلة الفهم وقصر النظر أن يكتفي العبد بالنظر إلىٰ نعم الله أنها تلك النعم المتصلة بالمطعم والمشرب، فإذا قَلَّ طعامه أو شرابه اعتقد أنه في ابتلاء شديد، بينما الناس غارقون في نعم الله، ولكن الغفلة وإلف النعم جعلت نظر أكثر الناس قاصرًا علىٰ النعم الظاهرة.

والقارئ لسورة الرحمن يجد أن قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣] قد تكررت إحدىٰ وثلاثين مرة، والسورة تناولت نعمًا تشمل حياة العبد كلها، في دنياه وآخرته، وما من نعمة من نعم الله إلا وهي تُذَكِّر العبد بربه؛ فتكشف

(١) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس، وقيل: عويمر بن عامر، الخزرجي الأنصاري، مشهور بكنيته، كان من عِلية أصحاب رسول الله ﷺ، وقد حدَّث عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وشهد معه مشاهد كثيرة، آخىٰ النبي ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي، توفي بالشام سنة ٣١هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٤/ ٣٥١)، الاستيعاب لابن عبد البر (٣/ ١٢٣٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٣٣).

له عن جمال الخلق وإبداعه وإحسان خلقه، وأن العبد مهما عمل من أعمال صالحة في عمره كله فإنه لن يفِ بحق نعمة واحدة من تلك النعم.

نعم الله وآلاؤه ليست في مطعم ومشرب وملبس فقط؛ بل هي أوسع من هذا الفهم القاصر، فكل ما يجريه الله علىٰ عباده من النعم في ليله ونهاره، في نومه ويقظته، في حله وترحاله، إنما هي من نعم الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨]. فمن ذلك نعمة الحفظ بالليل والنهار من الذي يكلؤ العبد ويرعاه، وهو في غفلته عن ربه. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

إن من لم يقيد نعم الله بحمده وشكره للبارئ المعطي الوهاب الباسط ﷻ فإن هذه النعم تتفلت منه، وقد لا تعود إليه مرة ثانية بسبب كفرانه النعم؛ وقد ضرب الله مثلًا القرية التي أنعم عليها بنعمة الأمن والرزق، ولكنها لم تشكر تلك النعم، ولم تعترف بها، فنزل بها العذاب، قال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

٢

بائع آخرته بدنيا غيره

قال عمر بن عبد العزيز(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ لجلسائه: «أخبروني بأحمق الناس»، قالوا: رجل باع آخرته بدنياه، فقال عمر: «ألا أنبئكم بأحمق منه؟» قالوا: بلى، قال: «رجل باع آخرته بدنيا غيره»(٢).

بيان المفردات

الأحمق: هو القليل العقل(٣).

المعنى الإجمالي

إن من الحماقة أن يبيع الإنسان دينه بدنياه، والهدىٰ بالضلالة، والعذاب بالمغفرة، فيكون في الآخرة من المغبونين الخاسرين، قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:٨٦]،

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي القرشي، أبو حفص، الإمام العادل، خامس الخلفاء الراشدين عند الكثير، ولد سنة ٦٣هـ، وقيل: واحد وستين، وتولىٰ الخلافة سنة ٩٩ إلىٰ أن مات في سنة١٠١هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٧/ ٣٢٤)، والتاريخ الكبير للبخاري (٦/ ١٧٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٣٢٥).

(٣) ينظر: المخصص لابن سيده (١/ ٢٦٧).

وقال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٧٥].

فهؤلاء الحمقىٰ الذين يستبدلون الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، ولو كانت عندهم مسكة عقل، وبقية خير ما تنازلوا عن دينهم واشتروا ما يفنىٰ بما يبقىٰ.

وأحمق من هؤلاء من يبيعون دينهم لأجل دنيا غيرهم، فلا دنيا أفادوا منها، ولا سلموا من الإثم والسوء؛ ومن أمثلة هذا الصنف: مَن يُقدِمون علىٰ ظلم الناس ليوفروا الرفاهية المزعومة لأسيادهم، ومَن يقتلون الناس ظلمًا وعدوانًا ليحيا أرباب نِعَمِهم، ومَن يؤذون العباد بغير حق ليعيش أربابهم بسلام.

وقد بيَّن النبي ﷺ خطورة هذا العمل بقوله: «إن من أسوأ الناس منزلة من أذهب آخرته بدنيا غيره»(١).

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٤/ ١٥١) برقم: (٢٥٢٠)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٢) برقم: (٣٩٦٦).

٣

كثرة الضَّحك غفلة

قال الحسن البصري[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضحك المؤمن غفلة من قلبه»[٢].

المعنى الإجمالي

إن كثرة الضحك تميت القلب، وتدل علىٰ عدم معرفة حقيقة ما ينتظر العبد بعد الموت، أو عدم الاهتمام بذلك، وهذا يدل علىٰ طيش وخفة عقل؛ فالأهوال التي تتنظر العبد بعد موته لو فكر في شيء يسير منها لما استطاع أن يَفْتَرَّ له ثغره عن ضحك أو أن يتكلم بما فيه لغو، ولذلك جاء في الحديث: «يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا»[٣]. فبين النبي ﷺ أن سبب كثرة الضحك هو قلة المعرفة بما أعده الله تعالىٰ وما ينتظر العباد بعد الموت من الأهوال.

وقد كان رسول الله ﷺ قليل الضحك، وكان جُلُّ ضَحِكه التبسم؛ فعن

---

(١) الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، الفقيه، القارئ، الزاهد العابد، سيد زمانه، إمام أهل البصرة، التابعي الكبير، ولد في خلافة عمر، سمع كبار الصحابة، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٦٣)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١٢/ ١٩٠).

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ١٧٠)؛ المصنف لابن أبي شيبة (١٤/ ٥٢٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٩) برقم: (٦٦٣١).

سماك بن حرب قال: «قلت لجابر بن سمرة ﵁: أكنتَ تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم، كان طويل الصمت قليل الضحك، وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشيء من أمورهم فيضحكون، وربما تبسم»(١). وعن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسُّمًا»(٢).

قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة:٨٢]، قال أبو رُزَين «يقول الله: أمْر الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا؛ فإنهم سيبكون في النار بكاء لا ينقطع»(٣).

فالإفراط في الضحك والقهقهة فيه غفلة عن المصير؛ قال يحيىٰ بن معاذ الرازي: «أربع خصال لم يبقين للمؤمن ضحكًا ولا فرحًا: همُّ المعاد، -يعني: همَّ الآخرة- وشُغل المعاش، وغمُّ الذنوب، وإلمام المصائب»(٤)، يعني ينبغي للمؤمن أن يكون مشغولًا بهذه الأشياء الأربعة لتمنعه عن الضحك؛ فإن الضحك ليس من خصال المؤمن.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/ ٤٠٥) برقم: (٢٠٨١٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٢١/ ٢٠١) برقم: ٢١٥٨). قال العراقي: رجاله رجال الصحيح غير شريك، وهو ثقة. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (٣/ ١٤٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٦٠١) برقم: (٣٦٤٢)، وقال: صحيح غريب.

(٣) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٣٩).

(٤) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين للسمرقندي (ص: ١٩٨).

٤
الغفلة عن الإعداد والتزود

قال الحسن البصري ﵀: «عجبًا لقوم أُمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحُبِس أوَّلهم على آخرهم، فليت شعري ما الذي ينتظرون!»(١).

المعنى الإجمالي

إن من أعظم الغفلة وأشدها أن يرىٰ العبد قوافل الموتىٰ والراحلين عن الدنيا لا تتوقف، ويغفل عن مصيره المرتقب الذي لا يختلف عن مصائر من سبقوه، فإنّ من غرائب الأمور وعجائبها أن يعلم العباد بأن رحيلهم إلىٰ الله مُحَتَّمٌ لا ريب فيه، ثم يغفلون عن الإعداد والاستعداد ليوم الرحيل الذي أعلمهم الله به في كتابه الكريم؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١].

وفي يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيُسمِعُهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون(٢). وهذا الهول العظيم من أهوال يوم القيامة يستوجب علىٰ العباد أن يكونوا علىٰ استعداد للقاء الله علىٰ الوجه الذي ينجيهم من تلك

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٢٢٠)؛ ونسب هذا القول في الحلية إلىٰ صالح المُرّي. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٦٥).

(٢) ينظر: حديث الشفاعة وما ذكر فيه من أهوال يوم القيامة، أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٨٤) برقم: (٤٧١٢).

الأهوال؛ وذلك بالتزود بالزاد الذي أمرهم الله به من الإيمان والتقوىٰ والأعمال الصالحة التي تكون سببًا بعد رحمة الله ورضاه في دخوله الجنة والنجاة من النار.

وإن كان التقصير والتفريط فلن يكون مع العبد سوىٰ حسراته وأسفه علىٰ ما فرط في جنب الله من تركه للطاعة، وغفلته عنها، وإجابته لداعي النفس والهوىٰ والشيطان؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٨].

٥

نسيان السيئات

قال بلال بن سعد[(١)] رحمه الله: «ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غِرَّة»[(٢)].

بيان المفردات

غِرَّة: الغِرّة: الغفلة، واغترَّ بالشيء: خُدِع به[(٣)].

المعنى الإجمالي

العبد المؤمن إن وفقه الله لعمل الطاعات، فلا ينبغي له التوقف عندها، فإن حلاوة الطاعة إن لم يعقبها استغفارٌ لله تعالىٰ وطلب القبول فقد يؤتىٰ العبد من قِبَلها؛ إذ يبقىٰ يُشيد بما فعله من الطاعات، ولا يدري ما الله صانع به أَقُبِلَت منه أم لم تُقْبل؟ فالطاعات الجالبة للحسنات وإن كثرت في زعم صاحبها فإنها لا تخلو من

---

(١) بلال بن سعد بن تميم، السَّكُوري، الشامي، أبو عمرو، الإمام الرباني الواعظ شيخ أهل دمشق وإمام جامعها، كان لأبيه سعد صحبةٌ، وروىٰ عنه الأوزاعي وعامر بن شراحيل، توفي سنة: ١٢٢هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٢/ ٥٠٧)؛ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (١١/ ١٥٥).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٧٦)، وروي هذا القول عن يحيىٰ بن أبي كثير، ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٦٨).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٧٦٨).

التقصير وحب السمعة والرياء.

ونسيان العبد لسيئاته والتغافل عنها نوعٌ من الغفلة، فالسيئات بابها واسعٌ؛ منها: سيئات الجوارح من سمع وبصر ويدين ورجلين، وكل جارحة لا يعلم عدد السيئات التي وقعت منها إلا الله تعالىٰ. وسيئات القلب من الشرك بالله، والانحراف عن هديه وشرعه، ونسيان ذكر الله، ومن عجب وغرور وكبر وفخر وخيلاء وحقد وحسد وشحناء وبغضاء، كل تلك المعاصي والسيئات أنَّىٰ لعبد مسلم أن يتجاهلها وينساها ويغفل عنها! فإن تجاهل وغفل ونسي ولم يتب فإنها تقف أمامه بادية يوم القيامة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر:٤٨].

٦

النظر إلى عظمة الله قبل المعصية

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت»(١).

المعنى الإجمالي

ينبغي للإنسان ألا ينظر إلىٰ صغر المعصية التي يعصي بها ربَّه، ولكن لينظر إلىٰ عظمة وقدرة الله الذي عصاه بتلك المعصية، فالذنب مهما كان صغيرا أو كبيرا كله مخالفة له لأمر الله وخروج عن طاعته.

ليست الخطيئة بصغرها أو كبرها؛ إذ لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، وهذا الأمر معلومٌ عند أرباب السلوك الإيماني. أما من يستهينون بالمعصية، ويرونها صغيرة لا تستأهل أن تُذْكَر أو تقارن بغيرها من المعاصي فإنهم قد أضافوا إلىٰ معصيتهم معصية أخرىٰ، وهي استخفافهم بمقام الله تعالىٰ وعظمته وكبريائه، وهذا جُرْمٌ -إن استمر عليه العبد- فإنه يزحزحه عن عبوديته لله تعالىٰ.

ومن التحقق بالتوبة أن يستعظم العبد ذنوبه، فإنه يقال: إن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله تعالىٰ، ويقال: إن استصغار الذنب كبيرة؛ قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٧٦).

عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مَرَّ علىٰ أنفه»(١)، وقال أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالًا لهي أدقُّ في أعينكم من الشعر، إنْ كُنّا نعُدُّها علىٰ عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»، أي: المهلكات(٢).

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلىٰ عظم من عصىٰ به رأىٰ الصغيرة كبيرة سواء في المعصية.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٦٤٩٢).

٧

الغفلة عن الأجل

قال الربيع بن عبد الرحمن[(١)] رحمه الله: «قطعتنا غفلة الآمال عن مبادرة الآجال، فنحن في الدنيا حيارى لا ننتبه من رقدة إلا أعْقَبتنا في أثرها غفلة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على أمته في إبعادها عن الحرص وطول الأمل؛ حتى لا تتشتت في أودية الدنيا وشعابها، فتهلك كما هلك من كان قبلها من الأمم.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: خطَّ النبي ﷺ خطًّا مُربّعًا، وخطّ خَطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطَّ خُطُطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به -أو: قد أحاط به- وهذا الذي هو خارج أمَلُه، وهذه الخُطُط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نَهَشَه هذا، وإن

(١) الربيع بن عبد الرحمن السلمي، البصري، المعروف بابن بَرَّة، وصفه أبو نعيم بالمشوِّق إلى الحبور والمسرة، يروي عن الحسن البصري، روى عنه محمد بن سلام البصري، أهملت المصادر تاريخ وفاته، توفي أواخر القرن الثاني الهجري غالبا. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٢٩٨)، وتكملة الإكمال لابن نقطة (١/ ٢٨٦).

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ٦٨).

أخطأه هذا نَهَشَه هذا»[١].

مثَّل النبي ﷺ أمل ابن آدم وأجله وأعراض الدنيا من الآفات والعاهات كالمرض والجوع والعطش وغيرها بالخطوط، فجعل أجله الخط المحيط، وجعل أمله وأعراضه خارجة من ذلك الخط، ومعلوم أن ذلك الخط المحيط به الذي هو أجله أقرب إليه من الخطوط الخارجة منه، وفي هذا تنبيه من النبي ﷺ لأمته على تقصير الأمل، وألا يلهيهم الأمل عن الأجل، فمن غُيِّبَ عنه أجلُه فهو حَرِيٌّ بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه في حال غفلته، وابن آدم مجبول على الأمل[٢]؛ كما في الحديث: «لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل»[٣].

فمن لم يتخذ أهبته واستعداده للقاء الله فإن الغفلة التي أحاطت به لا تتركه -إن لم يتداركه الله برحمته- حتى يصبح في عداد الموتى، وحينها ينتبه من رقدته وغفلته، فالناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا[٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٧).
(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٥٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤٢٠).
(٤) قولٌ مأثورٌ، وليس بحديث، روي عن بشر بن الحارث. ينظر: حديث الزهري لعبيد الله بن عبد الرحمن الزهري (ص: ٦٧٠).

٨

اقتران الرجاء بالطاعة

قال معروف الكرخي[(١)] رحمه الله: **«رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحُمْق»**[(٢)].

بيان المفردات

خذلان: هو: تركك نصرة أخيك، وخذلان الله للعبد: ألا يعصمه من السوء[(٣)].

الحمق: قلة العقل، وقد حَمُقَ الرجل بالضم حماقة فهو أحمق، وحمِق أيضًا بالكسر[(٤)].

المعنى الإجمالي

إنَّ الله عز وجل رحيم، ورحمته وسعت كل شيء، ولكنه لا يكتب رحمته إلا لمن تحققت فيه أسباب الرحمة التي حددها الله في كتابه، وذلك في قوله تعالى:

---

(١) معروف بن فيروز أو الفَيْرُزان البغدادي، أبو محفوظ، بركة عصره، من عبّاد أهل العراق وزهّادهم، توفي سنة ٢٠٠هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٨٠)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٣٣٩).

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ٣٢٣).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٤/ ٢٤٤)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ١٤٠).

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٤٦٤).

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، وكذلك كتبها لمن خالف وعصىٰ ولكنه عاد وتاب إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:٥٤]، فمن تحقق بذلك فقد وجبت له رحمة الله.

وقد أمر الله تعالىٰ عباده باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم مقترنًا بالتخويف من عذاب الله، فقال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر:٥٥]، فرجاءُ العبد لرحمة ربه حُسنُ ظنٍ بمولاه، لكن لا بد من اقتران حسن الظن والرجاء بحسن العمل، أما إن رجا العبد رحمة ربه أن يعطيه مما يعطي عباده الصالحين، وهو مصرٌّ علىٰ المعاصي والسيئات، وباق علىٰ غفلته، فهو خذلان من الله لعبده، وقلة توفيق له للاهتداء إلىٰ طاعة الله تعالىٰ؛ إذ كيف يرجو عبد أجرةً من عملٍ لم يعمله؟! وأي خذلان أشد من استمراء المعاصي وترك الأخذ بأسباب النجاة! وأي حمق أشد من طلب الرحمة ممن لا يستحقها!

٩

ترك الطاعة بعد وجود لذَّتها

قال أبو سليمان الداراني[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس العَجَب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العَجَب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها!»[٢].

المعنى الإجمالي

يُكثِرُ الواصفون لحال المحبين من أهل الدنيا كيف يصبرون علىٰ فراق محبوباتهم، وما كانوا عليه من اللذات والنعيم؟ وهذا حال محبي الدنيا ولذاتها، فكيف بمن فتح الله له بابًا ليصل به إليه، وقام العبد بإغلاقه علىٰ نفسه بمعاصيه وآثامه!

إن العجب ليس بمن لمن يصل إلىٰ حال الموصولين بحبل الله، الذائقين للذة الطاعة، ولكن العجب بمن كان موفقًا بلذة الطاعة فانتكس، وترك ما كان عليه، كيف يكون صبره وحاله بعد الترك؟ فحاله أشبه بمن غزلت غزلًا فشدته وأحكمته، ثم جعلته بعد ذلك ممزقًا أنكاثًا.

(١) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني، الإمام الكبير، الزاهد، شيخ أهل الشام في زمانه، روىٰ عن الثوري والعطاردي وجماعة، له كلام جميل وحكم كثيرة تروىٰ عنه، ولد في حدود ١٤٠هـ وتوفي سنة ٢٠٥هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ١٠٦)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٣٢٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٦٢).

لقد كان النبي ﷺ يدعو الله بالثبات على الأمر، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤١١) برقم: (٣٤٠٧)؛ وأحمد في مسنده (٢٨/ ٣٣٨) برقم: (١٧١١٤)؛ وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٥) برقم: (٩٣٥)؛ والطبراني في الكبير (٧/ ٢٧٩) برقم: (٧١٣٥).

١٠

الاشتغال بالناس قاطع عن ذكر الله

قال منصور بن عمار[(١)] رحمه الله: «من اشتغل بذكر الناس انقطع عن ذكر الله تعالى»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الانشغال عن الناس بالله تعالىٰ وذكره من أولىٰ أولويات المسلم؛ ومن أشغل نفسه بتتبع أحوال الناس وتقصيها فإنه ينقطع عن ذكر الله.

وقد حذر الله تعالىٰ من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكره، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩]، فمن شغله الفرح بهذه الزينة، وملك قلبه حب هذه الشهوات، فقد ألهاه عن ذكر لله عز وجل[(٣)].

وليس العيب في المال والولد، وإنما في الانشغال بهما؛ لأن الوله بالمال والولد

(١) منصور بن عمار بن كثير، أبو السري، السلمي، الخراساني، الواعظ، سكن بغداد وحدث بها عن جماعة، وأوتي الحكمة، وقدم مصر وجلس يقصُّ، كان من أحسن الواعظين كلاما، ومن حكماء المشايخ، توفي سنة ٢٢٥هـ. ينظر: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٤/ ٣٢٣)، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٥/ ٢٥٩).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١١٦).

(٣) رياضة النفس للحكيم الترمذي (ص: ٤٣).

يلهي عن ذكر الله ﷻ، كما قال الله ﷻ في تنزيله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٤٦]، ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦].

فإذا كان النهي موجها للمؤمنين أن لا ينشغلوا بأموالهم وأولادهم عن ذكر الله، كي لا يقعوا في الخسارة في الدنيا بتركهم ذكر الله، وفي الآخرة بخسارتهم رحمة الله ورضوانه، فكيف يكون الحال بالانشغال بالناس؟

ويقصد بترك الانشغال بالناس الانشغال بهم فيما لا فائدة للعبد من ورائه، وذلك بتتبع عيوبهم، ورصد عثراتهم وزلاتهم، وتعييرهم بما لم يستطيعوا بلوغه من أمور دنياهم.

أما إن كان الانشغال بهم لتخفيف معاناتهم، وتقديم النفع لهم، فهذا مما امتدحه النبي صلىٰ الله عليه، قال: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف، ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس»[1]. وكذا تبصيرهم بطريق الله وتعبيدهم له، فهذا هو شغل الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين من الناس.

ولا يمكن التعارض بين ذكر الله تعالىٰ وبين السعي في مصالح العباد لقضائها أو للدلالة علىٰ أي خير يعود نفعه علىٰ الفرد والمجتمع، فالموفق من جمع الله له بين الأمرين، والمخذول من ترك ذكر الله، وظل متتبعًا لأحوال الناس.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٥٨) برقم: (٥٧٨٧).

١١

الغفلة أعظم بلاء

قال أحمد بن أبي الحواري[١] رحمه الله: «ما ابتلى الله عبدًا بشيء أشد من الغفلة والقسوة»[٢].

المعنى الإجمالي

يأتي صلاح القلوب ببعدها عن الغفلة؛ «لأن أصحاب القلوب إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا طردها عن قلوبهم، خربت قلوبهم حتى تقسو بعد الرأفة، وتجف بعد الصفوة، فخراب النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة، وخراب القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة»[٣].

ولم تكن عقوبة أقسى على العبد من قساوة قلبه وغفلته وإعراضه عن ربه سبحانه وتعالى؛ وذلك لأنها أعظم بلاء وبلية أن يجد العبد نفسه مبتلىً بالغفلة عن الله ورسوله وطاعتهما، وأن يسمع المواعظ والرقائق من سنة وسيرة رسول الله ﷺ ومن

(١) أحمد بن ميمون، وقيل: أحمد بن عبد الله بن ميمون، أبو الحسن التغلبي الغطفاني الدمشقي، من قدماء مشايخ الشام، تكلم في علوم المحبة والمعاملات، وصحب أبا سليمان، وأخذ طريقة الزهد من أبيه، توفي سنة ٢٣٠، وقيل: ٢٣١، وقيل: ٢٤٥هـ. ينظر: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٥/ ١٦٧)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ١٠٠٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٣)؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٦٨).

(٣) لطائف الإشارات لعبد الكريم القشيري (٣/ ٤٢).

صالحي الأمة فلا يرق قلبه، ولا تدمع عينه؛ وهذا ما آل إليه حال أهل الكتاب الذين حذرنا الله تعالىٰ من أن نكون مثلهم فقال: ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦].

١٢

الشهوات سببها الغفلة

قال أحمد بن خضرويه البلخي[(١)] رحمه الله: «لا نومَ أثقلُ من الغفلة، ولا رِقَّ أمْلَك من الشهوة، ولولا ثِقَل الغفلة ما ظفرتْ بك الشهوة»[(٢)].

بيــان الـمفردات

أمْلَك: مأخوذ من الملك، وهو: تمام القدرة واستحكامها[(٣)]. والمعنىٰ: أنه لا عبودية تسيطر علىٰ العبد مثل سيطرة الشهوة عليه.

ظفِرَتْ: الظَّفَر: الفوز بما طلبتَ، والظَّفَر: هو العُلُوُّ علىٰ الْمُناوِئ المنازع[(٤)].

الـمعنى الإجمــالي

إن تقديم العبد لشهواته الدنيوية علىٰ مراد الله تعالىٰ يوقعه في الغفلة التي تبعده عن طريق الخير والصلاح، وقد ذكر الله تعالىٰ عن الكافرين استحبابهم الحياة الدنيا

(١) أحمد بن خضرويه، أبو حامد البلخي، من كبار مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخشبي وحاتما الأصم، رحل إلىٰ أبي يزيد البسطامي، توفي سنة ٢٤٠هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٧).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٣٥٢)؛ المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٢/ ٣٨٩)؛ معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٣٤٠).

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ١٩١).

علىٰ الآخرة، فكان جزاؤهم أن طبع الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وكانوا من الغافلين، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨].

والغفلة والشهوة تخدم إحداهما الأخرىٰ؛ فلولا الغفلةُ والبعدُ عن الله تعالىٰ لما ظفرت بالعبد المسلم شهوةٌ تحرفه عن غايته وهدي رسوله ﷺ. والغفلة إذا استحكمتْ بالقلوب والعقول غطَّتْ علىٰ القلب بالران الكثيف، وعلىٰ العقول بعدم التفكير بالعواقب والنهايات الوخيمة، فإن العبد يتجرأ علىٰ الله بكل معصية من المعاصي التي تقودها الشهوات بكافة أشكالها؛ من شهوة الفرج وشهوة البطن والكلام والنظر وشهوة المال وأخذ مال الناس بالباطل وغير ذلك من الشهوات.

فيصبح العبد رقيقًا وعبدًا ضعيفًا أمامها، فلا إرادة تدفعه نحو معالي الأمور، ولا عزيمة تبعده عن الشهوات، ولا واعظ من قلبه أو عقله أو من غيره يذكره بالله تعالىٰ وبوعده ووعيده، فيبقىٰ علىٰ نومة غفلته حتىٰ تأتيه منيته، فيصحو علىٰ حسرة وندامة.

١٣

علامة الاستدراج

قال السَّرِيّ السَّقَطي[١] رحمه الله: «من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس»[٢].

بيان المفردات

الاستدراج: هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بُعدًا من الله تعالىٰ[٣].

المعنى الإجمالي

إن الله عز وجل إذا أراد بعبده خيرًا أنساه رؤية طاعاته، وجعل ذنبه وعيوب نفسه ماثلة أمام عينيه، وجعل همه كله في إصلاح عيوبه والتخلص من ذنوبه، وهذا عين الرحمة؛ لأن ذلك يدفعه إلىٰ دوام الاستغفار والتوبة، ومحاولة إصلاح عيوب نفسه والسعي في تزكيتها؛ قال محمد بن كعب: «إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل فيه ثلاث

(١) السَّرِي بن المغلس، أبو الحسن السَّقَطي البغدادي، الإمام القدوة، كان من المشايخ المذكورين، وأحد العبَّاد المجتهدين، صحب معروفا الكرخي، ولد في حدود ١٦٠هـ وتوفي سنة ٢٥٣هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٠/ ٢٦٠)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ١٨٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٥٧).

(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأيوب بن موسىٰ القريمي الكفوي (ص: ١١٣).

خصال: فقهًا في الدين، وزهادةً في الدنيا، وبصرًا بعيوبه»(١).

وإذا أراد الله بعبده شرًّا جعل حسناته نُصب عينيه، وأنساه سيئاته وعيوب نفسه، فلا يرىٰ من نفسه إلا خصال الخير، وذلك يدفعه إلىٰ الكبر والترفع علىٰ الناس، فلا يزال كذلك حتىٰ يدخل النار.

فالكيّس العاقل من اهتم بإصلاح نفسه، ثم يصلح غيره دون تشهير بعيوب الناس أو ازدرائهم لما يحملونه من ضعف إيماني، أو تردٍّ في المعاصي، فما وُجِد الأخ إلا لسد نقص أخيه، وإصلاح خلله وعيبه.

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٩٥).

١٤

أصناف الناس مع المعاش والمعاد

قال يحيى بن معاذ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناس ثلاثة: فرجل شغله معاده عن معاشه، فتلك درجة الصالحين، ورجل شغله معاشه لمعاده، فتلك درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه عن معاده، فتلك درجة الهالكين»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الناس في الدنيا لا يخْلُونَ من أن يكونوا أحد أصناف ثلاثة؛ فإما رجلٌ شغله العمل للآخرة عن عمل الدنيا، فلا يرىٰ من شغل الدنيا إلا حدَّ البلاغ والكفاف، وما عدا ذلك ففضول يجتنبه، فهو يكثر من العبادات فرائضِها ونوافلِها، ويحسب لكل فكرة وخطرة وكلمة حسابها في ميزان الله؛ فيقلل من الكلام والطعام والمنام، فلا تراه إلا صائمًا قارئًا قائمًا داعيًا باكيًا، وهذه الدرجة هي درجة الصالحين من صالحي هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم إلىٰ يوم الدين.

(١) يحيىٰ بن معاذ الرازي، أبو زكريا، من كبار المشايخ، له كلام جيد ومواعظ مشهورة، أحد رجال الطريقة، قال القشيري في حقه: نسيجُ وحده في وقته، له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة، توفي سنة ٢٥٨هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٦/ ١٦٥)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ١٥).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٦).

وإما رجلٌ قد وظَّف أمر معاشه في الدنيا، وجعل كل ذلك لله تعالىٰ، فما يقوم به من كسب المعيشة ليس لذات المعيشة، وإنما لأجل أن يعف نفسه من ذل السؤال وإهانة النفس والتقليل منها عند الناس، وهذا مطلب شرعي، وهو مأجور علىٰ ذلك.

إن كل هذه الأعمال العبادية الناتجة من كسب المعيشة قد جعلت كل فعل منها عبادة من العبادات، وهذه درجة الفائزين.

والصنف الثالث وهو أبأس الأصناف الثلاثة؛ إذ جعل كل همه في حياته السعي في كسب المعاش، ولم يُدخِل الآخرة في حسابه، فهذا من الذين قال الله عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢].

١٥

الخوف من النار أولى

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة»(١).

المعنى الإجمالي

خوّفَ الله عباده من النار، وذكر مصير الكافرين أنهم وقود النار، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر:١٦].

ورد في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار، الآن حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قعرها»(٢).

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٦/ ٣٠٦)؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٠) برقم: (٢٨٤٤).

والنصوص القرآنية والحديثية في الترهيب والتخويف من النار كثيرة، تجعل العباد يبادرون إلىٰ طاعة الله رجاء رحمته وجنته، والبعد عن معاصيه خوفًا من ناره، غير أنهم يخافون من نقصان معيشتهم من فقر أو جوع، مع أن الله قد ضمن لهم الرزق، ولا يخافون من نار الله وعذابها؛ لأنهم يعولون علىٰ عفو الله، لكنهم لا يتذكرون أنه شديد العقاب كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [البقرة:١٩٦].

١٦

تَوَهُّمك الوصول إليه بجهدك جهل

قال أبو يزيد البسطامي[(١)] رحمه الله: «غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهَّمت أني أذكره، وأعرفه، وأُحبّه، وأطلبه، فلمّا انتهيت رأيت ذكرَه سبق ذكري، ومعرفتَه تقدّمت معرفتي، ومحبتَه أقدم من محبتي، وطلبني أوّلًا حتى طلبته»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يذكر أبو يزيد أنه في بدايات سيره إلىٰ الله عز وجل قد ضلّ فهمه وجانبه الصواب في عدة أمور؛ حيث توهَّم أنه كان يفعل هذه الأشياء من نفسه، ولم يَدْرِ أنه لولا هداية الله له وتوفيقه وأنه الذي عرَّفه به وأعانه علىٰ ذكره، وهو الذي أحبه، إذ لولا محبة الله له كيف له أن يحبه! ولولا أن الله قَبِلَه وطلب أن يأتي إليه، فأنىٰ له أن يهتدي إلىٰ معرفة ربه! ولولا تقدير الله السابق فأنىٰ له أن ينال القرب!

فكل فضل ونعمة يعيش فيها المؤمن الذي سلك الطريق إنما هي من الله، عليه

---

(١) طَيْفور بن عيسىٰ بن شَرْوَسَان أبو يزيد البسطامي، سلطان العارفين، الزاهد، من كبار مشايخ الصوفية، له لسان في المعارف والتدقيق، وفي العلوم والمكاشفات، توفي سنة ٢٦١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٨٦)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ٣٤٥)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٥/ ٤٢٩).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٧٢)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٤).

أن يعرف فضل الله عليه في ذلك، وأنه لولا توفيق الله وهدايته لما استطاع أن يخطو إليه خطوة، وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]، فالفضل كله لله، ولولا تثبيت قلب المقبل عليه لضلّ وما وصل، فقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤]، فإذا قال لنبيه ذلك، فكيف بك!

ويدل على صحة ما قاله أبو يزيد: قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤]، حيث بدأ تعالى بمحبته؛ لأنها الجالبة والموجبة لمحبة عباده له، ولا يحب الله إلا من أحبه الله(١).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ [التوبة:١١٨]، فتوبة الله عليهم سبقت توبتهم إليه.

وحديث: «إذا مَضَى شَطْر الليل، أو ثلثاه، ينزِل اللهُ ﷻ إلى السماء الدنيا، فيقول: هل مِن سائلٍ يُعْطَى! هل مِن داعٍ يُستجاب له! هل مِن مُستغْفِرٍ يُغفَرُ له! حتى يَنْفَجِر الصبح»(٢). فقد دعا الله عباده وطلبهم إلى مناجاته قبل أن يدعوه ويطلبوه.

(١) ينظر: التفسير البسيط لعلي بن أحمد الواحدي (٧/ ٤٣٠).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٧٦)، برقم: (٧٥٨).

١٧

قُبح الغفلة عن الله

قال مَمْشاد الدينوري[(١)] رحمه الله: «ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن بِرّك، وما أقبح الغفلة عن ذكر مَن لا يغفل عن ذكرك»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن من أقبح الغفلات غفلة العبد عن طاعة ربه، الذي لا ينقطع بره عن عبده، المتفضل عليه بكل أنواع النعم والخيرات، نعم الله وبره وفضله يتنزل على العبد، والعبد يقابل ذلك الفضل بالإعراض والغفلة والإساءة؛ فهو لا يأتمر بأمر الله، ولا ينتهي عن نهيه، ولا يستجيب لدعائه وندائه إذا دعاه لما يحيي قلبه، ويسعده في الدنيا والآخرة؛ قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤].

إن الله قد مَنَّ على عباده بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]، لكن هذه

(١) ممشاد الدينوري، الزاهد المشهور، كان من أولاد الملوك فتزهد وصحب أبا تراب النخشبي وغيره، وكان عظيم الشأن، توفي سنة ٢٩٩هـ. ينظر: النجوم الزاهرة لجمال الدين الظاهري (٣/ ١٧٩)، وسلم الوصول إلى طبقات الفحول لحاجي خليفة (٣/ ٣٤٨).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٤٣).

النعم لم يقابلوها بالطاعة والشكر، وكأنهم من أوجدوا أنفسهم، وسيروا لها الخيرات والمنافع، ومنعوا عنها المضرات والمساوئ.

إن حق الله تعالىٰ علىٰ عباده أن يُعبدَ ولا يُشرك به، وأن يُذكَرَ فلا يُنسىٰ، وأن يُشْكَر فلا يُكفر. لكن العباد واقعون- إلا من رحم الله- في شرك وشقاق واستخفاف بالله تعالىٰ، وغفلة عن حمده وشكره وذكره، فتمرُّ الساعات والأيام والشهور والسنين ولسان العبد لم يذكر الله تعالىٰ، وهذه من أعظم غفلات العبد؛ إذ إنه لو ذكر ربه لانشرح صدره، واهتدىٰ قلبه، واتجه عقله إلىٰ تحري الخير والابتعاد عن الشر.

وما كانت هذه الغفلة منهم إلا لاغترارهم بحلم الله عليهم، وجهلهم بمقام الله تعالىٰ وقدره العظيم الجليل، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: ما الذي خدعك وسوَّل لك حتىٰ أضعت ما وجب عليك[١]. ولما قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآيات قال: «غَرَّه والله جهْلُه»[٢].

(١) معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٥/ ٢٩٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم لعبد الرحمن بن محمد التميمي (١٠/ ٣٤٠٨).

١٨

أعظم الغفلة

قال ابن عطاء الأدمي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربه، وغفلته عن أوامره، وغفلته عن آداب معاملته»(٢).

المعنى الإجمالي

الغفلة علىٰ مراتب؛ فأعظمها غفلة العبد عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي خلقه فسواه فعدله، فلا يرجوه ولا يخافه، ولا يدعوه ولا يلجأ إليه، وقد ذكَّر نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه بالله تعالىٰ، وعاتبهم علىٰ غفلتهم عنه، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].

وإن العبد لا يزال بخير وعافية في دينه ما دام ذاكرًا لله موقِّرًا له، فإذا ما غفل عنه وشرد عن هديه وصراطه، فقد أوقع نفسه في المهلك، وحاقت به المحن والخطوب.

---

(١) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس، الصوفي، البغدادي، الأدمي، كان من ظراف المشايخ، له لسان في علم القرآن، من الشيوخ الموصوفين بالعبادة والاجتهاد، وكثرة الدرس للقرآن، وأسند الحديث، توفي سنة ٣٠٩، وقيل: ٣١١هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ١٦٤)؛ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٦/ ٤٧٠).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢١١).

ومن الغفلة أن يغفل العبد عن أوامر الله تعالىٰ فلا يلتزمها، ويغفل عن نواهيه فلا يجتنبها.

ومن الغفلة ترك الأدب في معاملة العبد لربه ﷻ، فإن المعاملة مع الله ﷻ لها جملة من الآداب، لا ينبغي للعبد أن يتجاهلها، ومن تلك الآداب:

أن تكون علاقة العبد مع ربه غير مبنية علىٰ المصلحة والمنفعة؛ بحيث لا يدعوه ويسأله إلا حين يصاب بمكروه أو يمسه الضر والمرض، ثم إذا كشف عنه الضر والسوء نسي ربه، وأعرض عنه، ولم يخطر علىٰ باله أن يقوم بشكر ربه الذي منّ عليه بكشف الضر، قال تعالىٰ واصفًا شناعة هذا الفعل: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٢].

ومن آداب المعاملة مع الله ﷻ: ألا يقابِل العبد قضاءَه بالتَّبرُّم والاعتراض، بأن يقول: ماذا فعلت حتىٰ يبتليني الله بكذا؟ فهذا من سوء الأدب مع الله ﷻ، فإن المسلم يُسَلِّم لربه ويرضىٰ بقضائه.

١٩

السرور بالمضرة

قال محمد بن علي الترمذي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفى بالمرء عيبًا أن يَسُرُّه ما يضره»[2].

المعنى الإجمالي

كفىٰ بالمرء المسلم عيبًا ونقصًا أن يظل متمسكًا بما يضره لا بما ينفعه، ويزين له شيطانه وهواه أنه يحسن صُنعًا، وهو يغتر بالشيء العابر الذي يُعدُّ صورةً لا حقيقة، وحلمًا لا واقعًا؛ فيقوم بأفعال يظن أن بها سعادته بينما فيها كل الضرر، وقد تودي به إلىٰ الهلكة.

وهناك أشياء كثيرة يُسَرُّ بها كثير من الناس مع أن فيها كل الضرر؛ منها: تضييع الأوقات باللهو واللعب، وفي ذلك خسران كبير؛ فالوقت من أَجَلِّ النعم؛ إذ به يتزود الإنسان لآخرته، فكيف يفرح بذهابه فيما لا ينفعه ويعود عليه بالضرر!

(١) محمد بن علي بن الحسن، أبو عبد الله، الترمذي، الحكيم، الإمام الحافظ، العارف، الزاهد، من كبار مشايخ خراسان، لقي أبا تراب النخشبي وابن خضرويه، وغيرهما، له التصانيف المشهورة، كتب الحديث ورواه، توفي سنة ٣٢٠هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٥)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٤٣٩).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٦).

ومنها: الفرح والسرور بإقبال الدنيا وكثرة عرَضها الذي يُلهي عن ذكر الله وعن القيام بالواجبات، وهو ما كان يخافه ﷺ علىٰ أمته، حيث جاء في الحديث: «أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلىٰ البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالَحَ أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدِم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافَوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلىٰ رسول الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟» فقالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يَسُرُّكم، فوالله ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسِطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم»[١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٢) برقم: (٢٩٦١).

٢٠

مفاسد الاشتغال بالنفس والدنيا

قال أبو سعيد بن الأعرابي[١] رحمه الله: «اشتغالك بنفسك يقطعك عن عبادة ربك، واشتغالك بهموم الدنيا يقطعك عن هموم الآخرة»[٢].

المعنى الإجمالي

الاشتغال بالنفس بتدبر أحوالها، والسعي للوصول بها إلىٰ غاياتها وأهدافها، إذا زاد عن حد التوسط والاعتدال، فإن ذلك يقطعه عن العبادة لله تعالىٰ؛ وذلك أن العبادة لا بد أن تكون هي ما يشغل العبد في حياته، ولا حرج عليه أن ينظر إلىٰ أشغال نفسه بأنها جزءٌ من عمله العبادي، لا أن تكون منفصلة العرىٰ عنه، فمن لم يشغل نفسه بالخير شغلته بالشر.

إن أكثر ما يشغل العباد أنفسهم به من الهموم همُّ المعيشة، وتدبر أمرها، فيصابون بالهموم والأحزان، وكثرة الحسرات علىٰ فوات ما أرادوه منها، وينسون أن الله وحده هو من يدبر الأمر كله؛ فهو يدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض، فما

(١) أحمد بن محمد بن زياد، أبو سعيد، العنزي، البصري ثم المكي، الصوفي، شيخ الحرم، الإمام المحدث، شيخ الإسلام، صنف كتبا كثيرة، سمع الحديث ورواه، كان من جلة مشايخ الصوفية وعلمائهم، توفي سنة ٣٤١هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٢٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٢٧).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٢٢).

علىٰ العبد إلا السعي والبذل، فما حصل عليه من خير ونعمة فليحمد الله عليه، وما لم يجد شيئا من سعيه فلا يحزن، بل يحمد الله كذلك.

إن الاشتغال بهموم الدنيا كلها التي لا تنتهي، تبعد عن هم الآخرة وهو الأهم الأكبر، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من الهم والحزن؛ ذلك أن الهم يصرف العبد إلىٰ ما أهمه وأحزنه، فتكون كل كلماته وفكره وحركاته معبرة عن همومه الدنيوية.

ومن جعل همه الله والدار الآخرة كفاه الله هموم الدنيا كلها، وجعل كل صعب في حياته ذلولًا، وكل عسر يسرًا، وكل محنة منحة، وكل بلاء عطية ورفعة.

٢١

الاشتغال بأحوال الناس ضياع

قال أبو عثمان المغربي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من اشتغل بأحوال الناس ضيع حاله»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الاشتغال بأحوال الناس نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود أن يسعىٰ العبد في نفع الناس والتيسير لهم والتنفيس عن كروبهم، أو أن يقضي حوائجهم ليكون الله في حاجته؛ لأن من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة.

فالاشتغال بالناس بما يفيدهم وينفعهم، ويضع عنهم بعض همومهم ومتاعبهم له أجر كبير، فهو من النفع الذي يبقىٰ أجر فاعله وذكره.

والمذموم من الاشتغال بالناس الذي يضيع علىٰ العبد عمره وحاله: أن ينشغل العبد بعيوب الناس عن عيبه؛ فيبدأ في البحث عن عيوبهم، ويتصيد أخطاءهم

(١) سعيد بن سلّام أبو عثمان المغربي القيرواني، نزيل نيسابور، الإمام القدوة، شيخ الصوفية، لقي مشايخ مصر والشام، من كبار المشايخ، له أحوال وكرامات، كان بمكة ثم خرج منها لمحنة وقدم نيسابور، توفي سنة ٣٧٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/ ٣٢٠)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٣٨٨).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٥٩).

وعثراتهم، ولا يتحرج من البحث عن خصوصياتهم، وما لا ينبغي معرفته عنهم. وقد قال النبي ﷺ: «طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[١].

وهذا مسلكٌ خطيرٌ، لما فيه من تضييع لمصلحة الفرد نفسه؛ فهو ينسىٰ نفسه، ويضيع شؤونه الخاصة به من الالتفات إلىٰ عيوبه ليصلحها، وإلىٰ نقصه ليزيله، وإلىٰ جهله ليتعلم العلوم النافعة، وإلىٰ كسبه ومعاشه، وكذلك إلىٰ ما ينفع الناس من إدخال السرور عليهم بنفعهم ودفع الضرر عنهم، وينتقل إلىٰ ما يضره ويضر عباد الله المسلمين.

وقد حذَّر النبي ﷺ من تتبع عورات المسلمين، وهدد من يفعل ذلك بفضح الله له وكشفه ولو كان في مأمنه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادىٰ بصوت رفيع، فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلىٰ قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تُعَيِّروهم ولا تَتَّبعوا عوراتهم؛ فإنه من تَتَبَّع عورة أخيه المسلم تَتَبَّع الله عورته، ومن تَتَبَّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»[٢].

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٢/ ٣٤٨) برقم: (٦٢٣٧)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٤٢) برقم: (١٠٠٧٩). قال العراقي: أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء لزين الدين العراقي (ص: ١٠٤١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٤٤٦) برقم: (٢٠٣٢)، وقال: حسن غريب.

٢٢

الإنسان أبصر بنفسه من غيره

قال ابن عطاء الله السكندري[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجهلُ الناس مَن ترك يقينَ ما عنده لظنٍّ ما عند الناس»[٢].

بيان المفردات

اليقين: الأمر الثابت المتحقق[٣].

الظنّ: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتىٰ قويت أدّت إلىٰ العلم، ومتىٰ ضعفت جدًّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم[٤].

المعنى الإجمالي

كل إنسان يعرف نفسه معرفةً يقينية، ويعرف كمّ التقصير الواقع منه في أداء حق الله عليه، ويتيقن من كثرة أخطائه وذنوبه، ويعلم ما يلازمه من عيوب لا يكاد

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، أبو الفضل، تاج الدين، السكندري المالكي، الصوفي، الواعظ المذكّر بالقاهرة، كان رجلا صالحا عالما يحضره مجالسه خلق كثير، مؤلف الحكم وغيرها، توفي سنة ٧٠٩هـ. ينظر: النجوم الزاهرة لجمال الدين (٨/ ٢٨٠)؛ ودرة الحجال لابن القاضي (١/ ١٣٨).

(٢) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤٣).

(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ١٠٦٦).

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٣٩).

يتخلص منها، ولو ظهر أمام الناس بأنه صاحب تقوىٰ وصلاح أو تظاهر بذلك فإنه في قرارة نفسه يعلم علم اليقين حقيقة نفسه المذنبة الخطاءة، قال تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

أما معرفة الناس للإنسان فهي في أقصىٰ حالاتها معرفةٌ ظنية غير يقينية قد تكون خطأً أو صوابا؛ فهي تستند إلىٰ ما يراه الناس من هذا الإنسان أو ما يسمعونه أو ما ينقل إليهم عنه، وكل هذه الأمور المرئية أو المسموعة أو المنقولة لا تعكس إلا الجانب الظاهر من حال الإنسان، أما الجانب الباطن فهو غيب عن الناس لا يطلعون عليه ولا يدرون به، وكثيرا ما كان ظاهر الإنسان يخالف باطنه بل قد يكون عكسه تماما.

والتفكير السليم يقتضي أن يكون حكم الإنسان علىٰ نفسه مستندا إلىٰ اليقين لا إلىٰ الظن؛ لذلك ينبغي الأخذ باليقين الذي يعرفه الإنسان عن تقصيره وعيوبه، وترجيحه علىٰ الظن الذي عند الناس بأنه صاحب صلاح وتقوىٰ، وبناء علىٰ ذلك يشعر المسلم دائما بالخوف من ذنوبه، ولا يغترّ بثناء الناس الحسَن عليه، بل يبقىٰ محاسبا لنفسه علىٰ تقصيرها، ساعيا في تربيتها وإصلاحها.

أما إذا ترك الإنسان معرفته اليقينية عن عيوبه وأعرض عنها صفحا، ثم رجّح حكم الناس المظنون عليه والذي لا يستند إلا إلىٰ ظاهر حاله، فقد خالف الصراط السوي في التفكير، وكان أكثر الناس جهلا.

٢٣

النهي عن الغفلة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمَّن ناصيتك بيده»(١).

بيان المفردات

الغفلة: الترك والسهو(٢).

الناصية: قُصاص الشعر في مقدّم الرأس(٣)، والمقصود بقوله «ناصيتك بيده»؛ أي: أمرك راجع إليه.

المعنى الإجمالي

أقسم الشيطان بعزة الله أنه لن يكفّ عن محاولة إغواء بني آدم حتىٰ يضلهم عن سواء السبيل، وحتىٰ يكونوا معه من الخالدين في نار جهنم: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، فالشيطان عدو مسلَّط علىٰ بني آدم، لا يغفل عنه لحظة ولا يتركه ساعة من الزمن.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٧١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٤٩٧).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٤٠/ ٩٠).

وعداوة الشيطان للإنسان تقتضي من الإنسان أن يتخذ الشيطان عدوًّا له، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦]، وهذه العداوة تقتضي من الإنسان أن يخالف الشيطان ويعصيه، وأن يعبد الله حق عبادته ليكون من المحميّين من كيد الشيطان ومكره، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

لكنّ هذا الشيطان الذي لا يغفل عن الوسوسة للإنسان يخنس ويهرب عند ذكر الله تعالىٰ فهو ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس:٤]، لذلك فالإنسان بحاجة دائمة إلىٰ الإكثار من ذكر الله وطاعته، كما هو بحاجة للالتجاء إلىٰ الله والاعتصام به ليردّ عنه شر الشيطان.

٢٤

الاهتمام بما ضُمِن لك عما طُلب منك

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «اجتهادُك فيما ضُمِن لك وتقصيرُك فيما طُلِب منك دليلٌ على انطِماسِ البصيرةِ منك»[١].

بيان المفردات

اجتهادك: الاجتهاد في الشيء: استفراغ الجهد والطاقة في طلبه.

البصيرة: ناظر القلب، وهي عينٌ في القلب تُدرَك بها الأمورُ المعنوية، كما أن العين تُدرِك الأمورَ الحسيةَ[٢].

المعنى الإجمالي

اجتهادك أيها العبد في الذي ضمنه الله تعالىٰ لك من الرزق، ثم تفريطك فيما طلبه الله منك من العبادة، دليلٌ واضحٌ علىٰ عمىٰ البصيرة منك[٣].

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٩).
(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٩)؛ وتعليقات يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم العطائية (ص: ٥٩).
(٣) تعليقات يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم العطائية (ص: ٥٩).

أما دليل الجزء الأول من الحكمة: فقد أخبر الله سبحانه أنه قد ضمن أرزاق المخلوقات بقوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦]. كما بيَّن تعالىٰ ما هو المطلوب من العباد تجاهه، بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١]. وكذا قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج:٧٧].

وأما دليل الجزء الثاني من الحكمة: فقد أخبر الله ﷻ أخبار ما سلف من الأمم وأهل القرىٰ، الذين أقبلوا بكليتهم علىٰ ما ضمنه الله لهم، وتركوا أمرَه وعصوا رسلَه، وسبب ذلك انطماس بصائر قلوبهم واستيلاء الغفلة عليهم، فلم يقبلوا هدىٰ الله الذي جاء به رُسُلُه، قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠١].

فإذا أراد الله خذلان عبده أشغله بأمور الدنيا ومحبتها والميل إليها، فينشغل عما هو واجب عليه وطُلِب منه السعيُ إلىٰ تنفيذه، فلا يزال كذلك حتىٰ يطمس اللهُ نورَ بصيرته، فيجتهد في طلب ما هو مضمون من الرزق المقسوم، ويقصِّر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم(١).

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٩).

٢٥

نظرة النفس والقلب إلى الأكوان

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الأكوانُ ظاهرُها غِرَّةٌ، وباطنُها عِبْرَةٌ، فالنفسُ تنظرُ إلى ظاهرِ غِرَّتِها، والقلبُ ينظر إلى باطنِ عِبْرَتِها»[(١)].

بيان المفردات

الأكوان: جمع كون، والمراد بها: المكوَّنات[(٢)].

الغِرَّة: هي المخاطرة والغِشُّ، والغرر بمعناها، يقال: غرَّه فاغترَّ؛ أي: خادعه، والاغترار: المخاطرة والتعرض للهلاك والانخداع[(٣)].

المعنى الإجمالي

إن المكونات التي فيها حظٌّ للنفس من متاع الدنيا وزهرتها، ظاهرها غرةٌ، أي: سبب في الاغترار بها؛ لِحُسنِها وبهجتِها، وباطنها عبرة، أي: سبب في الاعتبار بها؛ لقبحِها وخِسَّتها، فالنفس تنظر إلى غرتها الظاهرة فتغتر بها حتى تُهلِك صاحبَها.

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٣٦).
(٢) شرح الحكم العطائية للبوطي (٣/ ٤٨).
(٣) مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض (٢/ ١٣٠).

والقلب، أي: العقل، ينظر إلىٰ عبرتها الباطنة، فيعتبر بها ويَسلَم مِن شرِّها(١).

هذه الدنيا التي من حولنا، لها ظاهر سطحيٌّ تراه العينُ وتتأثَّر به النفسُ، ولها باطنٌ خفيٌّ يُدرِكه العقلُ المتدبِّر؛ فأما ظاهرها السطحي فزينة وزخارف تأخذ الأبصارَ وتغرُّ النفوسَ، وأما باطنها الخفي فمبعثٌ للاعتبار ومصدرٌ للحذر من سوء العواقب، لمن تأمَّلها بعقله ونظر إليها بالعين المتطلعة إلىٰ النتائج. والمراد بالنفس هنا الغريزة الحيوانية الموجودة في جميع البشر وسائر الحيوانات. وكل ما يحتاج إليه الإنسان من متاع الحياة الدنيا لاستمرار عيشه وللنهوض بواجباته التي كلَّفه اللهُ بها، لا يُعَدُّ من الدنيا -في المصطلح الديني- التي يتحدث عنها ابن عطاء الله في هذه الحكمة(٢).

مصداق الجزء الأول من الحكمة في الآيات الكثيرة التي تتحدث عن حقيقة الحياة الدنيا الفانية وحقيقة الحياة الأخروية الأبدية، مثل قوله تعالىٰ علىٰ لسان الرجل الذي آمن من آل فرعون: ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر:٣٩]. وكقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء:٧٧]. وقال سبحانه عند بيانه لحقيقة الدنيا والتحذير من الاغترار بها: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠].

وأما الجزء الثاني، فقد حصل لعدد من الصحابة الكرام ﷺ ما أشار إليه ابن عطاء الله؛ فقد ورد أن النبي ﷺ لقي رجلًا، يقال له: حارثة في بعض سِكَكِ

---

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٧٨).

(٢) شرح الحكم العطائية للبوطي (٣/ ٤٨-٤٩).

المدينة، فقال: «كيف أصبحتَ يا حارثة؟» قال: أصبحتُ مؤمنًا حقًا. قال: «إن لكل شيءٍ حقيقةً، فما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفتُ نفسي عن الدنيا، فأظْمَأْتُ نهاري، وأسْهَرت ليلي، وكأني بِعَرشِ ربي - وفي رواية: أنظر إلىٰ عرش ربي - باديًا، وكأني بأهل الجنة - وفي رواية: أنظر إلىٰ أهل الجنة - في الجنة يَتنعَّمُون، وأهلِ النار في النار يُعذَّبون، فقال النبي ﷺ: «أصبتَ فالْزَمْ، مؤمنٌ نوَّرَ اللهُ قلبَه»(١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٦٢٢) برقم: (٣١٠٦٤)؛ والبزار في مسنده (١٣/ ٣٣٣) برقم: (٦٩٤٨)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٦٦) برقم: (٣٣٦٦)؛ وعبد بن حميد في المنتخب (١/ ١٦٥) برقم: (٤٤٥)؛ وأورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١٢/ ٢٩١) برقم: (٢٨٧٣). قال ابن رجب: حديث مرسل، وقد روي مسندًا بإسناد ضعيف. ينظر: فتح الباري لابن رجب (١/ ١٩٠).

٢٦

علامـة الاغترار

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار»[١].

بيـان المفردات

الحزن: انقباض القلب لفوت محبوب أو خوف حصول مكروه[٢].

النهوض: القيام والتحرك بسرعة[٣].

الاغترار: الانخداع[٤].

المعنى الإجمـالي

كل لحظةٍ تمرّ على المسلم ولا يعمرها بطاعة الله تكون سببا للحسرة يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها»[٥]، ولذلك يشعر المسلم بالحزن والندم على فوات الطاعات

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله (ص: ١١٤).

(٢) شرح الحكم لزروق (ص: ١٢٣).

(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٩٥٨).

(٤) مختار الصحاح للرازي (١/ ١٩٧).

(٥) المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٩٤).

منه؛ ومن أمثلة ذلك ما حصل مع ابن عمر رضي الله عنهما حين بلغه قول النبي ﷺ: «من خرج مع جنازة من بيتها وصلىٰ عليها ثم تبعها حتىٰ تدفن كان له قيراطان من أجر، كل قيراط مثل أحد، ومن صلىٰ عليها ثم رجع كان له من الأجر مثل أحد» فلما تأكد ابن عمر رضي الله عنهما من صحة ذلك ضرب بالحصىٰ الذي كان في يده الأرض، ثم قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[١].

وهذا الحزن الذي ينتاب المسلم علىٰ فوات الطاعات دافعه هو الشعور بالحسرة والندم علىٰ تفويت الأجر العظيم الذي كان سيأخذه لو قام بهذه الطاعات، وكذلك استحضاره للتقصير في عبادة الله وتضييع العمر في غير مرضاته، فهذا الحزن نابع من الندم الذي يكون في القلب ثم تظهر العلامات التي يعبر فيها الإنسان عنه مثل الاستغفار والبكاء، ثم يتولد عند المرء نتيجة لذلك دافعية ونشاط، فينهض ويسارع لعمل الطاعات.

أما إذا ادعىٰ الإنسان أنه نادم وحزين علىٰ فقدان الطاعات لكنْ لم ينعكس الندم علىٰ أعماله ولم يتحرك ويسارع لفعلها؛ فهذا الندم هو ندم كاذب غير صحيح، إذ لو كان صادقا في ندمه لدفعه الندم إلىٰ تصحيح خطئه والإكثار من الطاعات، قال ذو النون رحمه الله: «الاستغفار من غير إقلاعٍ توبة الكاذبين»[٢]، بل إن هذا الحزن الكاذب علامة علىٰ انخداع هذا الإنسان؛ حيث إن هذا الحزن ليس مفيدا ونافعا، كما أن صاحبه يظن أنه قد فعل شيئا تجاه ما فاته وأنه من التوابين المنيبين مع أنه ليس كذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢ / ٨٧) برقم: (١٣٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣ / ٥١) برقم: (٩٤٥).
(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (ص: ١٢١).

٢٧

الخـذلان الحقيقي

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الخِذلانُ كلُّ الخذلان أن تتفرَّغَ من الشواغل ثم لا تتوجَّهَ إليه، وتقلَّ عوائقُك ثم لا ترحلَ إليه»[(١)].

بيـان المفردات

الخِذلان: ترك النصرة والمعونة[(٢)].

المعنى الإجمـالي

كثير من الناس يتمنىٰ في قراراة نفسه أن يسلك سبيل الطاعات، وأن يكون من العبّاد والصالحين، لكن كثرة مشاغله، وتنوع واجباته وأعماله الشخصية والأسرية والاجتماعية، كل ذلك يحول بينه وبين التوبة والإنابة، فيقع في فخ التسويف الذي لا ينتهي، كلما خرج من عمل دخل في عمل آخر، وكلما انتهت مشغلة جاءت مشغلة أكبر منها، وكما قيل:

لقد كنتُ أشكوكَ الحوادثَ بُرهةً ... وأستمرِضُ الأيامَ وهْي صحائحُ
إلىٰ أن تغشّتْني وُقِيتَ حوادثٌ ... تبيّن أن السالفاتِ منائحُ[(٣)]

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٣٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٠٢).

(٣) تفسير أبي السعود (١/ ٦).

فالخلو من الشواغل، والسلامة من المعوقات، من أعظم الأسباب المعينة علىٰ الانطلاق والسلوك في طريق الطاعات والقربات، كيف لا والوقت متاح والذهن صاف من الهموم؟ فإذا تيسرت هذه الحالة فالواجب علىٰ الإنسان أن يسارع في التوجه إلىٰ مولاه واغتنام هذه الفرصة، قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستًا؛ ما تنتظرون إلّا غنىٰ مُطْغيا؟! أو مرضا مُفْسدا؟! أو كِبَرا مُفَنِّدا؟! أو موتا مُجْهزا؟! أو الدجال؟! فشرٌّ منتظر، أو الساعة؟! والساعة أدهىٰ وأمرّ!»[1].

أما إذا تيسر للإنسان وقت الفراغ، وانزاحت عن كاهله المشاغل والعوائق، ثم أخذ يخترع أشياء ليتسلىٰ بها، ويبحث عن كل ما يلهي ويضيع الوقت، بدل أن يستثمر وقته في طاعة الله والسعي إلىٰ رضوانه، فهذا هو الخذلان والحرمان، قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[2]، قال ابن الجوزي رحمه الله: «قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون مُتفرِّغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مُستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم ولو لم يكن إلا الهرم»[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣٢٠) برقم: (٨٠٠١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤١) برقم: (٢٣٠٦)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (١١/ ٤٢١) برقم: (٦٥٤٢)؛ والطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٢) برقم: (٣٩٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم: (٦٤١٢).

(٣) نقله ابن حجر عن ابن الجوزي في فتح الباري (١١/ ٢٣٤)، ولم أجده في كتب ابن الجوزي التي بين يدي.

٢٨

طلب الفاني عمًى في البصيرة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «العَجَب كل العَجَب ممن يَهرُب ممن لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾»[1].

بيـــان الـمفردات

الانفكاك: الانفصال والمفارقة[2].

الـمعنى الإجمــالي

تقتضي العقل والحكمة أن يطلب الإنسان رضىٰ مولاه الذي خلقه وسواه، وأنعم عليه بكل أنواع النعم، والذي يجري كل شيء بتقديره ومشيئته، كذلك يقتضي العقل والحكمة أن يسعىٰ الإنسان في عمران داره الدائمة التي سيمكث فيها ولا يفارقها، وهذه الدار هي الدار الآخرة، كما يقتضي العقل أن لا يلهث وراء المتاع الزائل، وأن لا يجعله أقصىٰ همه ولا غاية مراده.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٠١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٤٧٧).

ومن أعجب العجب أن تنعكس الموازين، فيُطلب الزائل ويُترك الدائم، ويُطلب رضىٰ من لا يملكون نفعا ولا ضرا ولا حولا ولا قوة، ويُهرب ممّن ناصية الإنسان بيده وأمره كله راجع إليه، وقد ذكر الله هذه المفارقة في كتابه حين قال سبحانه: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧]، والدار الآخرة أي: الجنة، خير أي: أفضل، وأبقىٰ أي: أدْوَم من الدنيا، وقال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ يرجع»(١).

وقال مالك بن دينار: «لو كانت الدنيا من ذهب يفنىٰ، والآخرة من خزف يبقىٰ، لكان الواجب أن يؤثَر خزفٌ يبقىٰ علىٰ ذهب يفنىٰ، قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقىٰ والدنيا من خزف يفنىٰ»(٢)؟!

وإيثار الفاني علىٰ الباقي، وطلب رضىٰ المخلوقين بدل رضىٰ الخالق، ليس إلا انحرافا في الوجهة، وعمًىٰ في البصيرة، وهذا من عمىٰ القلب، مصداقا لقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، أي فإن الأبصار والأسماع طرق لحصول العلم بالمبصرات والمسموعات، والمدرِك لذلك هو الدماغ، فإذا لم يكن في الدماغ عقل كان المبصر كالأعمىٰ والسامع كالأصمّ، فآفة ذلك كله هو اختلال العقل(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٦) برقم: (٢٨٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٤).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٢٨٩).

٢٩

الاستدراج بالمعاصي

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «خَفْ مِن وجودِ إحسانِهِ إليك ودوامِ إساءَتِك معه؛ أن يكون ذلك استدراجًا لك، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾»(١).

بيـان المفردات

الاستدراج: هو التدريج شيئًا فشيئًا، وهو مأخوذ من: دَرَجَ الصبيُّ؛ أي: أخذ في المشي شيئًا بعد شيء، ومنه الدرج الذي يُرتقىٰ عليه إلىٰ العُلُوِّ. **فالمستدرَج:** هو الذي تؤخَذ منه النِّعمُ شيئًا بعد شيء وهو لا يشعر. قال تعالىٰ: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢]؛ أي: نأخذهم بالنعم حتىٰ نجُرَّهم إلىٰ النِّقَم وهم لا يشعرون، وهو أن يُلقِي في أوهامهم أنهم علىٰ شيء وليسوا كذلك، يستدرجهم بذلك حتىٰ يأخذهم بغتة(٢).

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله (ص: ٧٦).

(٢) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٣١١)؛ وإيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٧٠)؛ وشرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٦٥-٦٦).

المعنى الإجمالي

خَفْ أيها الإنسان من دوام إحسان الله تعالىٰ إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق، مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير وعدم شكرك له سبحانه، أن يكون ذلك استدراجًا منه تعالىٰ، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢]، أي: كلما أحدثوا خطيئةً جدَّدْنا لهم نعمةً ونسَّيْناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٣] أي: نُمِدُّهم بالعوافي والنعم حتىٰ نأخذهم بغتة(١).

وقال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]. أي: فلما غفلوا عما ذُكِّروا به من العقوبة والعذاب، فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم وتمكَّنوا منها ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ بالهلاك ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير. وهكذا عادة الله في خلقه: أن يرسل إليهم من يُذكِّرهم بالله ويدلُّهم علىٰ الله، فإذا أعرضوا عنه وردُّوا عليه قولَه بسط عليهم النعم، حتىٰ إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمَّرهم الله وأخذهم بغتة، ليكون ذلك أشدَّ في العقوبة(٢).

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٧٠-١٧١).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٧١).

٣٠

الإعــراض عن الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كيف يرجو أن تنصلح الأشياء له من أعرض عن مُصْلِحها؟»(١).

المعنى الإجمــالي

تتنوع الظروف التي تمر على الإنسان، وتختلف الحاجات والأشياء التي يريد أن تستقيم له وتنصلح معه، من حاجات نفسية أو بدنية، وحاجات فردية أو أسرية أو اجتماعية، وأشياء آنية أو مستقبلية، وكل هذه الأشياء التي يسعى الإنسان إلى إصلاحها أمرها عائد وراجع إلى الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢-٨٣].

إذن فمن أراد إصلاح كل أموره لزمه أن يتوجه إلى الله، وأن يتوكل عليه، وأن يدعوه ويتضرع إليه، وأن يقبل عليه بالطاعة والعبادة والإنابة، فمن أقبل على مولاه الكريم فتح له أبوب الخير، ويسر أمامه كل الصعاب، وكفاه ما أهمه وأغمّه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٣٠).

لكن من أعجب الأشياء أن يُعرض الإنسان عن ربه ثم يرجو صلاح أمره، وأن يطلب التيسير والتسهيل وهو لم يتوكل على اللطيف الخبير، فإن الله سبحانه هو الذي عمّ الوجودَ لطفُه وجوده، ولا سبيل إلى أي خير ولا صلاح إلا بالإقبال على الله سبحانه وعدم الإعراض عنه، فإن من أعرض عن الله وُكل إلى نفسه، ومن وُكل إلى نفسه فقد وُكل إلى صفات العجز والضعف التي لا ينفك عنها البشر، وقد علمنا النبي ﷺ الدعاء عند الكرْب والشدة فقال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتَك أرجو، فلا تكِلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»(١).

وكما قال الشاعر:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأوَّل ما يجني عليهِ اجتهاده(٢).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٠) برقم: (٩٧٠)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٨٤) برقم: (٥٠٩٠).

(٢) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ينظر: الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي (١/ ١٧٧).

٣١

مصيبة الغفلة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مَن نَزَلَتْ به فاقةٌ فلم تُرجِعْه إلى الله، فمصيبتُه بالغفلةِ عن اللهِ أعظمُ مِن مصيبتِهِ بِالفاقةِ»(١).

بيان المفردات

الفاقة: هي الحاجة والفقر(٢).

المعنى الإجمالي

إن من نزلت به حاجة أو ضرورة من فقرٍ أو شدةٍ أو مرضٍ ونحو ذلك، ولم تكن هذه المصيبة التي نزلت به سببًا لعودته إلىٰ الله ووقوفه بين يديه تائبًا ضارعًا منكسرًا، رافعًا حاجاته إليه ومستعينًا به علىٰ قضائها، فلم يردعه ما أصابه ولم يُرجِعه إلىٰ الله، فهذا يدل علىٰ غفلته عن الله، ووقوع الران علىٰ قلبه، وكونه معرَّضًا لسخط الله وعقابه، فمصيبته بهذه الغفلة التي وقع فيها هي أعظم بكثير من تلك المصيبة الدنيوية التي نزلت به؛ لأن ما أصيب به من ذهاب مالٍ أو وفاة حبيبٍ أو ألمٍ شديدٍ ومرضٍ عضالٍ كله أمر دنيوي، لكن الغفلة إذا تمكنت من العبد تكون

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله (ص: ١٣٠).
(٢) مشارق الأنوار في صحاح الآثار للقاضي عياض (٢/ ١٦٥).

سببًا لفساد آخرته، وحرمانه من رحمة الله وعفوه في الآخرة، ومن دخوله في الجنان، وهذه المصيبة أعظم وأكبر من تلك المصيبة الدنيوية، إن كانوا يعقلون.

والله تعالىٰ عندما يبتلي عبدًا من عباده بمصيبة في بدنه أو ماله أو أهله؛ إنما يريد بذلك أن تدفعه هذه المصيبة إلىٰ بابه، حتىٰ يُقبِل عليه تائبًا نادمًا عما عمل من المعاصي. فهي إشارة إلهية ومنحة ربانية - إن فهمها الإنسانُ - يُرسلها اللهُ إلىٰ مَن أراد أن يهديَ قلبَه، فإذا لم يفهم الإنسان هذه الإشارة، فذلك لتمكُّن الغفلة منه وانهماكه في الشهوات، ويُخشىٰ عليه إن لم يتب ويرجع أن يُختَم علىٰ قلبه؛ فيخسر آخرتَه وقد خسر الدنيا.

ذكر الله تعالىٰ في كتابه الكريم قصص الأقوام والأمم السالفة التي أصابهم ما أرسل عليهم ليرُدَّهم إلىٰ صراط مستقيم، فلم يزدهم ذلك إلا بعدًا عن الله، وكان سببًا لهلاكهم، قال الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

٣٢

الاشتغـال بغير المهم

قال عبد الرزاق القاشـاني[١] رحمه الله: «من اشتغل بما لا يعنيه ضيَّع ما يعنيه»[٢].

المعنى الإجمـالي

إن اشتغال المسلم بما يعنيه وترك ما لا يعنيه هو من حسن وكمال إسلامه، قال ﷺ: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٣]، ومعنى «ما لا يعنيه»؛ أي: ما لا يهمه ولا يفيده في دينه ودنياه. هذا الحديث قاعدة عظيمة فيما يأتي الإنسان وما يذر، فالمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين: فمنهم المحسن في إسلامه، ومنهم المسيء؛ فالمحسن من انشغل بما يعنيه من أمور الإسلام الظاهرة والباطنة، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥]، والمسيء من لم يترك ما لا يعنيه، كما هو مفهوم الحديث.

فعلى المرء أن يهتم بما فيه نجاته وسعادته، وذلك منحصر فيما يجلب له

(١) عبد الرزاق بن أحمد بن أبي الغنائم محمد الكاشاني أو القاشاني، جمال الدين، العارف بالله، عالم، مفسر، له شرح فصوص الحكم لابن عربي، وشرح منازل السائرين، توفي سنة ٧٣٠هـ. ينظر: معجم المؤلفين لعمر كحالة (٥/ ٢١٥)؛ والأعلام للزركلي (٣/ ٣٥٠).

(٢) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة لعبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٨) برقم: (٢٣١٨)، وقال: غريب.

مصالح آخرته، ويدفع عنه مفاسدها، وفيما يجلب له مصالح دنياه ويدفع عنه مضارّها، وهذا ما دعا النبي ﷺ إلىٰ الحرص عليه بقوله: «احرص علىٰ ما ينفعك»(١)، وما سوىٰ ذلك فإنه لا يعنيه ولا يهمه، وذلك شامل لجميع الأنشطة التي لا تحقق المصلحة ولا تدفع المضرة(٢).

ومما لا يعني: الخوض في شؤون الآخرين وخصوصياتهم، وتفاصيل أحوالهم، وقد ورد النهي عن الخوض في مثل هذا بحديث: «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»(٣). و«قيل وقال» هو الخوض في أخبار الناس، وحكايات ما لا يعني من أحوالهم وتصرفاتهم، «وكثرة السؤال»: أي سؤال الإنسان عن حاله وتفاصيل ما لا يعنيه مما في إظهاره حرج(٤).

ومما لا يعني أيضًا: الانشغال ببعض جوانب العلم ومسائله التي يقل نفعها أو ينعدم، وتشغل دراستها عما ينفع؛ سأل رجل الإمام مالك عن زبور داود، فقال له مالك: «ما أجهلك! ما أفرغك! أمَا لنا في: نافع عن ابن عمر عن نبينا ما يشغلنا بصحيحه عما بيننا وبين داود عليه السلام؟»(٥).

قال أبو علي الكاتب: «إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

(٢) ينظر: معلم في تربية النفس لعبد اللطيف بن محمد الحسن (ص: ٢٢-٢٣).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٦٨) برقم: (٨٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٥) برقم: (٥٩٣).

(٤) ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (١٢/ ١١).

(٥) الجامع لأخلاق الراوي والسامع للخطيب البغدادي (٢/ ١٦١).

(٦) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٦٠).

٣٣

أخسر الناس صفقة

قال ابن القيّم[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخسَرُ الناس صفقةً من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسرُ منه من اشتغل عن نفسه بالناس»[(٢)].

بيان المفردات

الصفْقة: البَيْعة[(٣)].

المعنى الإجمالي

الخاسر في صفقة البيع أو التجارة هو الذي حصّل سلعةً خسيسة وضيّع السِّلْعة الغالية الثمينة، أو مَنْ يضيّع فرصة الربح الكثير عن طريق الاشتغال بما لا يجلب له الربح، وفي هذه الحكمة يُستعار عن خسارة الصفْقة بالانشغال عن طاعة الله ومرضاته ويستعار عن السلعة الرخيصة بتضييع الإنسان وقته فيما لا ينفعه أو فيما

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد أبو عبد الله، شمس الدين، الزرعي الدمشقي، الإمام العلامة، المتفنن في علوم كثيرة، أقرب تلاميذ ابن تيمية، ألف تصانيف كثيرة، منها: إعلام الموقعين، وزاد المعاد، والطرق الحكمية. ولد في سنة ٦٩١هـ في دمشق، وتوفي فيها سنة ٧٥١هـ. ينظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٢/ ١٩٥)؛ والأعلام للزركلي (٦/ ٥٦).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ٨١).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٢٦/ ٢٧).

يعود بالضرر عليه.

فمن أنواع خسران الصفقة أن يشتغل الإنسان عن عبادة الله تعالىٰ بتلبية شهوات نفسه ومراعاة مُتَعِها، ومثل هذا الصنف يكون فيه شبه بالحيوانات علىٰ قدر انغماسه في هذه المُتَع، وهذه من صفات الكفار التي يجب علىٰ المسلم أن يحرص كل الحرص علىٰ مخالفتها وعدم الوقوع فيها، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣].

ومن خسران الصفقة كذلك أن يشتغل الإنسان بالناس عن طاعة الله وعبادته، فيشغل نفسه بغيبة الناس والكلام عنهم، ومتابعة ما لا يعنيه من أمورهم، وهذا الصنف أشد خسرانا من الصنف الأول الذي اشتغل بالملذات، إذ إن الصنف الأول حقق لنفسه نوعا من النفع في الظاهر، لكنّ من يشتغل بالناس لم ينفع نفسه ولم يُطِع ربَّه، فخرج خاسرًا خُسرانًا كاملًا.

٣٤

الضـلال آخـر العمـر

قال ابن القيم رحمه الله: «أغبى الناس من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل»(١).

المعنى الإجمالي

يشير كلام ابن القيم رحمه الله إلىٰ خطر تأخر العبد في الإقبال بفتور الهمة، وخطر ضلاله في آخر الطريق باقتراف المعاصي، فربما تكون ساعة الفتور أو الضلال هي ساعة الخاتمة، فيكون قد ضل في آخر سفره، وإنما سماه سفرا لأن الدنيا دار انتقال والعبد فيها عابر سبيل، يمكث فيها برهة ويغادر إلىٰ دار القرار.

فالعاقل من يجاهد نفسه، ويجتهد في العبادة، ويواظب علىٰ الطاعة، ويسارع في التوبة، ولا يغتر بعمله، ولا يغلب رجاؤه خوفه، فالخوف من الخاتمة من شيم الصالحين؛ لأنهم يدركون معنىٰ قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالخواتيم»(٢)، ويعلمون أنهم مهما بلغوا من المراتب والدرجات في الدنيا هم في خطر من سوء الخاتمة، فيخافون أن تخذلهم ذنوبهم وخطاياهم فيختم لهم بما لا يريدون والعياذ بالله(٣).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٥٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٤) برقم: (٦٦٠٧)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٧٤) برقم: (١١٢).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٦٦)؛ الداء والدواء لابن القيم (١/ ٣٨٦).

جاء في الحديث عن ابن مسعود ﷺ، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٢) برقم: (٦٥٩٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٤) برقم: (٢٦٤٣)، واللفظ له.

٣٥

قِصَر نظر الجاهل

قال ابن القيم رحمه الله: «شهوات الدنيا كلُعَب الخيال، ونظر الجاهل مقصور على الظاهر، فأما ذو العقل فيرى ما وراء السِّتر»(١).

بيان المفردات

لُعَب الخيال: هي ما يسمى بخيال الظل، وهي لعبة قديمة أصلها من الهند أو الصين، وانتشرت في البلدان لا سيما مصر زمن الدولة العبيدية ثم المملوكية، وهي من مصنوعات خشبية على هيئة إنسان أو حيوان، يحركها رجل خلف الستار، ويحكي معها قصة، كانت تقدم في الأعراس والمقاهي حتى جاءت الرسوم المتحركة التي أنتجها الغرب فاستبدلوها عن خيال الظل(٢).

المعنى الإجمالي

قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:٣٢]، وجاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خَضِرَة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٤)، وهو مأخوذ من كلام ابن الجوزي في المدهش (١/ ٣١٩).
(٢) موجز دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المؤلفين (١٥/ ٤٧٩٥).

الدنيا، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[١].

فالله سبحانه يبين لنا في هذه المقارنة بين الحياتين حقيقة الدنيا، ويشبهها باللعب الذي لا يجدي نفعا، وباللهو الذي يُشغِل صاحبه عمَّا يعنيه؛ لندرك أن نعيمها زائل، وملذاتها فانية.

والرسول ﷺ يشير في وصفه الدنيا بقوله: «حلوة خضرة» إلىٰ معنيين بارزَين؛ أولهما: حسن منظرها ونضارتها ولذتها، والآخر: سرعة فنائها وانقضائها[٢].

وكلام ابن القيم رحمه الله منضوٍ تحت هذين النصين، فهو يشبه شهوات الدنيا بلعب الخيال؛ من جهة أن الجهلاء ينظرون إلىٰ ظاهرها وهي دمىٰ متحركة، بينما العقلاء يدركون ما وراء الستر وأن هناك من يحركها ويستنطقها، كما يدركون أن الدنيا زائلة وفانية؛ لأن الدنيا زائلة فانية، وهي كالخيال بالنسبة للآخرة، وشهواتها مؤقتة لا تدوم لذتها ولا تنفع صاحبها، وإن الجاهل نظره مقصور علىٰ ما يظهر له منها فقط، لا يرىٰ آثارها وما يترتب عليها، فيغتر بها وينقاد لشهواتها، بخلاف العاقل؛ فإنه يدرك آثارها، ويعقل حقيقتها، فيكون حذرا من إتيانها، ويحرص علىٰ أن يعمل ما ينفعه في دنياه وآخرته.

قال الشاعر:

رأيت خيال الظِّلِّ أعظم عبرة ... لمن كان في أوج الحقيقة راقي
شخوص وأشكال تمرّ وتنقضي ... وتفنىٰ جميعًا والمحرّك باقِ[٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٢).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٧/ ٥٥).

(٣) نسبت لابن الجوزي رحمه الله، ينظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٦/ ١٧٦)؛ ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا للخفاجي (ص: ١٦٣).

باب التوبة والندم

٣٦
الـداء والـدواء

قال الربيع بن خُثَيم[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ثم لا تعود»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

تعتلُّ الأبدان بالأسقام والأوجاع، وما أكثر الأمراض التي يبتلي الله العباد بها، وما شفاؤهم إلا منه تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، وتمرض القلوب أيضا بالذنوب؛ فإن القلب خلقه الله معافىً، حتىٰ تمرضه وتهلكه الذنوب، وليست الذنوب المهلكة هي كبائرها وفواحشها، بل كل الذنوب حتىٰ محقراتها، وهي ما يصغره الناس، ويستخفون بها، فإنها تجتمع علىٰ العبد حتىٰ تهلكه، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الأعمال فإنهن يجتمعن علىٰ الرجل حتىٰ يُهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل

(١) الربيع بن خثيم بن عائذ، أبو يزيد الثوري، الكوفي، من سادة التابعين وفضلائهم، أحد الأعلام، الإمام القدوة، العابد، أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه، روىٰ عن الصحابة، قليل الرواية كبير الشأن، حدَّث عنه جماعة، توفي سنة ٦٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢٥٨)؛ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/ ٦٤٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٠٨).

ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتىٰ جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»(١).

فالذنوب أدواء، ولا دواء لها سوىٰ التوبة والاستغفار، وقد جعل الرسول ﷺ الاستغفار غفرانًا للذنوب، وإن كانت مثل زبد البحر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده مائة مرةٍ حُطتْ عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر»(٢).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٣٦٧) برقم: (٣٨١٨)؛ والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢١٢) برقم: (١٠٥٠٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ موقوفًا علىٰ ابن مسعود (١٠/ ٣١٦) برقم: (٢٠٧٦٢). وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (١٠/ ١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٥).

٣٧

الذنوب سبب الكآبة

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن العبد المؤمن ليعمل الذنب فلا يزال به كئيبًا»(١).

بيان المفردات

كئيبًا: الكآبة: سوء الهيئة، والانكسار من الحزن(٢).

المعنى الإجمالي

تأتي الكآبة والحزن فيجثمان على قلب العبد، بعد أن كان فرحًا مسرورًا، ثم تظلم عليه الدنيا، وتصبح أحواله معكوسة منكوسة، فلا يعلم سببًا لذلك، لكن عند التأمل يجد أن السبب في ذلك الأمر المفاجئ هو الذنب الذي أحدثه، يقول ابن الجوزي رحمه الله: «فمتى رأيتَ -وفقك الله- تكديرًا في حال فتذكر ذنبًا قد وقع؛ فقد قال الفضيل بن عياض: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُقِ دابتي وجاريتي، وقال أبو سليمان الداراني: من صَفَىٰ صُفيَ له، ومن كَدَر كُدِّر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله»(٣).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٥٨).

(٢) مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٧٧٥).

(٣) ذم الهوىٰ لابن الجوزي (ص: ١٨٥).

ولا تزول كآبة العبد وحزنه، ويتبدل حاله من غم إلىٰ رضا وفرح، ومن ظلمة إلىٰ إشراق ونور إلا بعد إقلاعه عن الذنب، وإدامته الاستغفار؛ ليزول عنه ما به.

٣٨

انتهاء المعاصي بالموت

قال حبيب الفارسي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من سعادة المرء إذا مات ماتت معه ذنوبه»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يموت ابن آدم ويبقىٰ ذِكْره وأثرُه الحسن، أو يبقىٰ شره وشرره منتشرًا في العالمين. وإن من سعادة العبد أن تموت ذنوبه بموته فلا تبقىٰ؛ فهي آثامٌ مقتصرة عليه لا تتعداه إلىٰ غيره.

قال بعض الصالحين: «لا تذنب، فإن كان لا بد فلا تحمل غيرك علىٰ الذنب فتكسب ذنبين، وقد جعل الله تعالىٰ هذا المعنىٰ وصفًا من أوصاف المنافقين في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة:٦٧]، فمن حمل أخاه علىٰ ذنب معه فقد أمر بالمنكر

(١) حبيب بن محمد العجمي، أبو محمد الفارسي، من ساكني البصرة، كان صاحب المكرمات مجاب الدعوات، صحب الحسن البصري وابن سيرين، وروىٰ عنه جعفر بن سليمان وصالح بن بشير المري وغيرهم، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٤٩)؛ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٧/ ١٩٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٥٣).

ونهىٰ عن المعروف»(١).

فالذين أذنبوا ذنوبًا في حياتهم، وغوي بها أناس من بعدهم فذنوبهم لا تتوقف عنهم؛ وذلك كالذين يروجون للمحرمات والشهوات ويدعون لها، ويبنون لها مؤسسات ومنظمات تشجع علىٰ الكفر والإلحاد، والفجور والعصيان، والذين يتركون بعد وفاتهم مسلسلات هابطة شاركوا في أدائها، وأغاني فاحشة أدوها بأصواتهم، يتركون ذنوبهم جارية بعد وفاتهم؛ فكم من غاوٍ غوىٰ بسببهم، وانحرف بتأثره بما سمعه من أغانيهم، وقرأه من كتبهم وأفكارهم المنحرفة الضالة، وشاهده من مسلسلاتهم وأفلامهم التي تثير الغرائز وتطلقها في المحرمات، فيحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم إلىٰ يوم القيامة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥].

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٠٩).

٣٩

البكاء على الذنب

قال يزيد الرقاشي[(١)] رحمه الله: «إذا أنت لم تبكِ على ذنبك فمن يبكي لك عليه بعدك؟!»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يبكي الناس على فقدانهم لأشيائهم وأقاربهم وأحبابهم، ولكنهم قد لا يبكون على تفريطهم وتقصيرهم في طاعة الله، أو على المعاصي التي اجترحت جوارحهم.

إنَّ من علامات توفيق الله العبد في توبته وإنابته إلى الله تعالى أن يبكيَ على ما سلف من ذنوبه، وعلى تفريطه في جنب الله، والبكاء على الذنوب من خشية الله يدلُّ على عِظَم مقدار الله في قلب العبد.

فالعبد إن لم يبك على ذنوبه وتقصيره وإسرافه على نفسه في دنياه، فمن ذا الذي يقوم مقامه بالبكاء عليه بعد مماته، إن الباكين عليه بعد موته من أقربائه وأصدقائه لفراقه لهم، لكن لا يبكي أحد ذنوبه التي ارتحلت معه، وهنا تأتي اليقظة من العبد على نفسه، فيقول لها: يا نفس توبي قبل أن تموتي، ابك على ذنوبك قبل

(١) يزيد بن أبان الرقاشي، أبو عمرو البصري، القاصّ، من زهاد أهل البصرة، وكان أحد الوعّاظ البكّائين، وله مواعظ، وكان من كبار الخائفين، توفي قبل سنة ١٢٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٣٦١)، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١١/ ٣١١).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٥).

أن لا يبكي عليك أحد. وكان أبو هريرة ﵁ ممن أثر عنهم البكاء قبل وفاته، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي على بُعد سفري وقلة زادي، وإني أمسيت في صعود ومهبطة على جنة ونار، ولا أدري إلى أيهما يؤخذ بي»[١].

يقول أبو إسحاق الإلبيري:

إذا أنا لم أنُحْ نفسي وأبكي ... على حَوبي بِتَهْتَانٍ[٢] سَكُوبِ
فمَنْ هذا الذي بعدي سيبكي ... عليها من بعيدٍ أو قريبِ[٣]

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٢٦).
(٢) تهتان: مطر ساعةٍ ثم يفتر ثم يعود، يقال: هتن المطر والدمع يهْتِنُ هتنًا وهتونًا وتهْتانًا: إذا قطر متتابعًا. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٢١٦).
(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ص: ٣٤).

٤٠

الاهتمام بالذنب أنفع من بعض الحسنات

قال عون بن عبد الله[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «اهتمام العبد بذنبه داعٍ إلى تركه، وندمه عليه مفتاحٌ للتوبة، ولا يزال العبد يهْتمّ بالذنب يُصيبه حتى يكون أنفع له من بعض حسناته»[٢].

المعنى الإجمالي

إن من علامة اعتناء الله بعبده ولطفه به أن يجعل زلته التي وقع فيها سببا لتوبة نصوح، وذل خاص، وانكسار بين يديه، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الزلة، فتكون تلك الزلة أنفع له من حسنات كثيرة من هذه الجهة بالنظر إلىٰ النتيجة التي آل إليها الأمر، وأما في نفس الأمر، فلا مقارنة بين الذنب والحسنة، فضلا عن أن يكون أنفع منها[٣].

فينبغي للعبد ألا ينسىٰ ذنبه، ويفكر فيما اقترف حتىٰ يُحدِث له ذلك انكسارًا

(١) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، الهذلي، الكوفي، أبو عبد الله، الإمام القدوة، العابد، الزاهد، حدث عن أبيه وابن المسيب وابن عباس وابن عمرو وطائفة، من عباد أهل الكوفة وقرائهم، توفي سنة بضعة عشرة ومائة. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١٠٣)؛ تهذيب التهذيب لابن حجر (٨/ ١٧١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٥١).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٢٦).

وذلًا وخضوعاً، حتىٰ قال بعضهم: متىٰ ما تهتَ عن الطريق فارجع إلىٰ ذنبك تجد الطريق. ومعنىٰ ذلك أن العبد إذا رجع إلىٰ ذنبه انكسر وذل، وأطرق بين يدي الله ﷻ خاشعًا ذليلًا خائفًا، وهذه هي طريق العبودية(١).

فالتوبة من الذنب استدراك من العبد علىٰ ذنوبه؛ ومما يدل علىٰ الاستدراك فيها أن العبد يجمع فيها بين الأزمنة الثلاثة: الماضي فيندم علىٰ فعله؛ وهذا هو مفتاح التوبة وخطوته الأولىٰ، والحاضر فيترك ما هو عليه من المعاصي والذنوب، والمستقبل فيعزم علىٰ عدم العودة إلىٰ ما كان عليه.

والتوبة المقترنة بشروطها تمنح صاحبها شعورًا بميلاد نفسي جديد؛ إذ التائب من الذنب كمن لا ذنب له(٢).

ومما يدل علىٰ أن الوقوف عند الخطأ والذنب خير معين للتوبة الصادقة النصوح، أن التوبة أثمرت أعمالًا صالحة كان من ثمارها تبديل السيئات إلىٰ حسنات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢١٩و٢٢٠).

(٢) فقه الاستدراك لمحمد بن محمد الأسطل (ص: ٣٠).

٤١

قلبُ التائب رقيق نقيّ

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «قلب التائب بمنزلة الزجاجة؛ يؤثِّر فيها جميع ما أصابها، والموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرِّقَّة أقرب، فداوُوْها من الذنوب بالتوبة»[1].

المعنى الإجمالي

قلبُ التائب كالزجاجة البيضاء في صفائها ونقائها، يصل إلىٰ قلبه الذكر والموعظة فيزداد بريقه ولمعانه، فهو شديد التأثر والانفعال، وكما أن الزجاجة تتأثر مما يصيبها من سواد وتراب وشوائب فإن القلب يصاب بالران والسواد والقسوة، ومن صفات التائبين رقةُ القلوب؛ فتتأثر قلوبهم وتخشع لسماع المواعظ، وتلين لذلك جوارحهم عند سماع أمر الله تعالىٰ ونهيه ووعده ووعيده.

والتائبون بسبب رقة قلوبهم سريعو العودة إلىٰ الله تعالىٰ أكثر من غيرهم، فإذا عملوا سوءًا ذكروا الله فعادوا إليه، وعلامة تغير قلوبهم ما يصيبها من غطاء يحول بينها وبين التأثر والانتفاع بذكر الله تعالىٰ، وهم يعلمون أن لا عودة إلىٰ صفاء ونقاء ورقة القلب والانتفاع بالذكر والموعظة إلا بالتوبة إلىٰ الله، والبكاء من خشيته،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٥٠).

وذكره ذكرا كثيرًا. فقد جاء من رواية الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليُغان[١] علىٰ قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»[٢].

---

(١) يغان: يُغطىٰ علىٰ قلبي، وأصله من الغين؛ وهو: الغطاء، وكل حائل بينك وبين شيء فهو غينٌ، ولذلك قيل للغيم: غينٌ. ينظر: معالم السنن للخطابي (ص: ٢٩٥)؛ والمعلم بفوائد مسلم للمازري (٣/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧٢) برقم: (٢٧٠٢).

٤٢
الباعث على التوبة

قال الحارث المحاسبي[(١)] رحمه الله: «الذي يبعث العبد على التوبة ترك الإصرار، والذي يبعثه على ترك الإصرار ملازمة الخوف»[(٢)].

بيـان المفردات

الإصرار: «التّعقّد في الذّنب والتّشدّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه»[(٣)].

المعنى الإجمالي

إن الذي يبعث التائب في توبته وأوبته وإنابته لربه أنه لا يريد مبارزة الله بالمعاصي، ولا الإصرار عليها مع علمه بخطئها، وسوء عاقبتها. قال الله تعالىٰ عن بعض صفات من يسارعون إلىٰ مغفرته وجنته: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

(١) الحارث بن أسد، أبو عبد الله المحاسبي البصري، الزاهد المشهور، العارف، شيخ الصوفية، له كتب في الزهد، منها: الرعاية، ورسالة المسترشدين، وآداب النفوس، توفي سنة ٢٤٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ١١٠)؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٥٧).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٦٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٤٨١).

والخوف مانع من الإصرار؛ لأن الخائف لا يحمله حلم الله وصبره وعفوه أنْ يستمر علىٰ ظلمه لنفسه بالمنكرات والمعاصي، بل يتذكر الله في كل أحواله فيعود إليه تائبًا. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١].

فإذا أراد المؤمن ترك الإصرار فليلزم مخافة الله تعالىٰ، وإنه قد يستدرج العاصي ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

٤٣

فخـر التائـب

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «للتائب فخر لا يعادله فخر: فرح الله بتوبته»(١).

المعنى الإجمالي

في الحديث: «إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢)، وفي حديثٍ آخر: «إنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»(٣).

ويحق للتائب أن يفخر بتوبته فخرا لا يوازيه فخر؛ لأنه فخر مصحوب بشكر الله علىٰ توفيقه الذي يسر للتائب التوبة، وهو فخر التائب بأن الله يفرح بتوبته فرحًا عظيمًا، كما روىٰ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرضٍ فلاةٍ، فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتىٰ شجرةً، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٤)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٩) باختلافٍ يسير.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٧) برقم: (٣٥٣٧) وقال: حسنٌ غريب؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٥٥٨) برقم: (٦٤٠٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٣) برقم: (٢٧٥٩).

أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[١].

فليفرح التائب بتوبته، لأنها سبب لفرح الله تعالىٰ، وهذا معنىٰ يوجب الافتخار بالتوبة فخرا لا يُخرِجه إلىٰ العُجب والغرور.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٤) برقم: (٢٧٤٧).

٤٤

أنــواعِ التوبــة

قال ابن عطاء الأدمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة؛ فتوبة الإنابة: أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة: أن يتوب حياءً من كرمه»[(١)].

المعنى الإجمالي

لقد فرَّق العلماء بين الإنابة والتوبة؛ «بأن التائب قد يرجع من خوف العقوبة، والمنيب يرجع استحياءً لكرمه تعالىٰ»[(٢)].

روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود:٧٥]، أن «المنيب هو المقبل إلىٰ طاعة الله، وقال مجاهد وعكرمة: هو المخبت، وقال قتادة: هو التائب»[(٣)].

إن الإنابة هي «الرجوع إلىٰ الطاعة، والنزوع عما كانوا عليه»[(٤)]، وفي ذلك

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢١٣).

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٨/ ٥٨٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٩).

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ٣١٢).

يقول تعالىٰ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:٣١].

وتوبة العبد منيبًا تائبًا مخبتًا راجعًا من كل ذنوبه ومعاصيه تدل علىٰ خوفه من الله تعالىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤]، وفي الآية تهديدٌ وتخويفٌ واضحان لكل من لم يُنبْ إلىٰ ربه ويستسلم له بالعذاب الذي لا يجدون من ينصرهم ويمنعهم من دون الله تعالىٰ.

وتوبة الاستجابة: أن يُقبل العبد علىٰ ربه تائبًا نادمًا مستغفرًا حياءً من كرم الله وفيوض رحمته وإحسانه.

٤٥

توبة الخاصة

قال أبو إسماعيل الهروي(١) رحمه الله: «توبةُ الخاصة من تضييع الوقت؛ فإنّه يدعو إلى دركِ النَّقيصة، ويُطفئ نورَ المراقبة، ويُكدِّر عينَ الصُّحبة»(٢).

بيان المفردات

الدرَك: هو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، ودرك النقيصة النزول إليها وبلوغها(٣).

يُكَدِّر: من الكَدَر وهو نقيض الصفاء(٤).

---

(١) عبد الله بن محمد بن أحمد، أبو إسماعيل الهروي، الأنصاري، الحافظ، الواعظ، شيخ الإسلام، إمام في الحديث والتفسير والتصوف، ولد سنة ٣٩٦هـ، من كتبه: منازل السائرين، وتفسير القرآن، وذم الكلام، توفي سنة ٤٨١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٥٠٣)؛ الأعلام للزركلي (٤/ ١٢٢).

(٢) منازل السائرين للهروي (ص: ١٥)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١٣).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢٦٩).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ٦٣).

المعنى الإجمالي

توبة الخواص وهم أهل العلم المتقدمون في السلوك تكون من تضييع أوقاتهم، وليس المقصود بتضييع الوقت هنا إضاعته بالاشتغال بالمعاصي، والإعراض عن الواجبات؛ لأن هذا المعنىٰ ليس للخاصة، بل للعامة، وإنما المقصود بالوقت عند الخواص هو زمن الإقبال علىٰ الله تعالىٰ بالمراقبة والحضور والاستغراق في المشاهدة، والقرب من الكمال، فتضييع ذلك الحين الذي يرقىٰ به المحافظ عليه إلىٰ الكمال يؤدي إلىٰ تأخره في المسير، ونزوله إلىٰ دركات النقصان؛ فالعبد سائر لا واقف، فإما يتقدم أو يتأخر.

ويؤدي إلىٰ انطفاء نور المراقبة؛ لأن المراقبة تمنح العبد نورا كاشفا لحقائق المعرفة والعبودية، فتضييع الوقت بالانشغال بالأغيار يحجب عنه ذلك النور.

ويؤدي كذلك إلىٰ تكدر عين الصحبة مع الله في مقام المشاهدة؛ لأن المحافظ علىٰ وقت الإقبال تكون له معية خاصة بحسب حفظه وقته، فمن كان مع الله كان الله معه، ومن انشغل عن الله حرم من المعية الخاصة[١].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١٣)؛ شرح منازل السائرين لعبد الرزاق القاشاني (ص: ٥١).

٤٦
المعاصي قيدٌ يَفُكُّه الاستغفار

قال ابن الجوزي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعاصِي سلسلة فِي عنق العَاصِي لَا يفكه مِنْهَا إِلَّا الاسْتِغْفَار وَالتَّوْبَة»(٢).

بيان المفردات

السلسلة: هي اتصال الشيء بالشيء(٣).

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقل(٤) قلبه، وإن عاد

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري البغدادي، الحنبلي، جمال الدين، الشيخ الإمام، الحافظ المفسر، الواعظ، صاحب التصانيف، ولد سنة ٥٠٩ أو ٥١٠هـ، سمع من نيف وثمانين شيخا، حدَّث عنه جماعات، من كتبه: زاد المسير، وتذكرة الأريب، وكتاب الموضوعات الكبرى، توفي سنة ٥٩٧هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٤٥٥)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٨/ ١٠٩).

(٢) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٣) جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٢٠٤).

(٤) سُقِل: سقل لغة في صقل، وسقلت السيف؛ أي: جلوته. ينظر: الأفعال لابن حداد (٣/ ٥٥٢)؛ شمس العلوم لنشوان الحميري (٥/ ٣١٢٥).

زيد فيها حتىٰ تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»(١).

فالمعصية تترك أثرًا سلبيًّا في قلب العاصي، ويكون أثرها كالنقطة شبه الوسخ في المرآة، فإذا كثرت المعاصي تتراكم آثارها، وتجعل علىٰ قلب صاحبها غشاوة، وتورث أمراضا نفسية في القلب هي أشد علىٰ الإنسان من أمراض البدن، كالهم والغم والضيق والحزن، فيظلم قلبه، ويصيب الوهن بدنه، وتمحق البركة في عمره، وتسوَدُّ الحياة في عينيه، ويحرم من العلم والرزق، وتحصل وحشة بينه وبين أهل الخير، وتعسر أموره وتغلق الأبواب الخير في وجهه(٢).

والاستغفار والتوبة هما باب الصلح مع الله سبحانه، وهما بمثابة الدواء لداء المعصية، والمطهر لأوساخها العالقة في القلب، والمفتاح لقفل السلسلة التي ضيقت عنق المذنب بالمعاصي، فهما تُزيلان عن قلب التائب الغشاوة، وتُحرِّراه من قيد المعصية، وتُعيداه إلىٰ ما كان عليه قبلها من الراحة والأنس والطمأنينة، وتبعثا فيه الهمة والنشاط من جديد، ليقوىٰ علىٰ الطاعة ويكون من المتقين الذين بشرهم الله بالجنة حيث قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٠) برقم: (٩٣٠)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥) برقم: (٦)؛ والنسائي في الكبرىٰ (٩/ ١٦٠) برقم: (١٠١٧٩)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

(٢) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٥١).

٤٧

مراتب التوبة

قال ابن غانم المقدسي[(١)] رحمه الله: «توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من غَفَلات القلوب، وتوبة خاصة الخواص من كل شيء سوى المحبوب»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يرىٰ رحمه الله أن التوبة مراتب تتفاوت بتفاوت العبيد، وتختلف باختلاف منازلهم في أحوالهم ومقاماتهم، فتوبة العامة تكون بالاستغفار باللسان والندم بالقلب من الذنوب والمعاصي، وتوبة الخواص المتقدمين في السلوك تكون بمراجعة الطاعات ورؤية التقصير الحاصل فيها من غفلات القلب وزلات اللسان، وتوبة خاصة الخواص العارفين بالله الواصلين إليه تكون بالانقطاع عن كل شيء سوىٰ الله سبحانه، والالتفات في كل شيء إليه، وعدم رؤية أي منفعة أو مضرة إلا منه، وعدم الركون إلا إليه[(٣)].

---

(١) عبد السلام بن أحمد بن غانم، أبو محمد، عز الدين، الأنصاري المقدسي ثم القاهري، شيخ واعظ، شاعر، صاحب نظم رائق، من كتبه: تفسير القرآن العظيم، ومختصر الشفا، وحل الرموز. توفي سنة ٦٧٨هـ. ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٧/ ٥٦١)؛ ومعجم المؤلفين لعمر كحالة (٥/ ٢٢٣).

(٢) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ٦٩).

(٣) ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (١/ ٥٢٥).

فكل عبد مفتقر إلىٰ التوبة ولو كان من الواصلين؛ لأنه لا يخلو أحد من البشر عن ذنب، وإنما يختلف ذنبه عن ذنب غيره بحسب حاله ومقامه؛ إذ لكل حال طاعات وذنوب وحدود وشروط.(١)

وشتان بين من يتوب من الزلات، ومن يتوب من الغفلات، ومن يتوب من طمأنينة القلب إلىٰ غير خالق البريات(٢).

(١) ينظر: الغنية لطالبي طريق الحق ﷺ لعبد القادر الجيلاني (١/ ٢٣١).

(٢) ينظر: الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢١٢)؛ الغنية لطالبي طريق الحق ﷺ لعبد القادر الجيلاني (١/ ٢٣١).

٤٨

الولي ليس معصومًا

قال ابن تيمية[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ليس من شرط وليِّ الله أن يكونَ معصومًا»**[٢].

بيـان المفردات

العصمة: في اللغة المنع، وهي ملكة اجتناب المعاصي مع التَّمكُّن منها[٣].

المعنى الإجمـالي

العصمة منحة إلهية اختصَّ الله تعالىٰ بها أنبياءه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولم يمنحها وجوبًا لغيرهم، فكلُّ من دون الأنبياء من الأولياء والصِّدِّيقين والصَّالحين مُعرَّضون للخطأ وللوقوع في الذَّنب، وإن كان الله يحفظهم فضلًا وكرمًا من الكبائر أو الإصرار علىٰ الصَّغائر.

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين، الحراني الدمشقي الحنبلي، الإمام شيخ الإسلام، ولد سنة ٦٦١هـ، المتفنن في العلوم، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، تصانيفه كثيرة، منها: السياسة الشرعية، ومنهاج السنة، ودفع تعارض العقل والنقل، وغيرها. توفي في السجن سنة ٧٢٨هـ. ينظر: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١/ ٧٤)؛ الأعلام للزركلي (١/ ١٤٤).

(٢) الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٩٣)؛ وفي هذا المعنىٰ قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس من شرط البدلية والولاية العصمة، ليس بعد الأنبياء معصوم، العصمة من جملة خصائصهم». ينظر: جلاء الخاطر في الباطن والظاهر لعبد القادر الجيلاني (ص: ١٩٤)؛ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس من شرط وليِّ الله العصمة». ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٦١).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٣٣/ ١٠٠).

فالله تعالىٰ ذو الجلال والإكرام يحب أن يرىٰ انكسار عباده المذنبين بين يديه، ويحب أن يتفضل عليهم بالمغفرة لهم والعفو عنهم، كما جاء في الحديث عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لو لا أنَّكم تذنبون لخَلَق الله خلقًا يذنبون، يَغفِرُ لهم»(١). ويحكىٰ عن إبراهيم بن أدهم ﷺ أنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لي، فكانت ليلة ظلماء فيها مطر شديد فخلا المطاف، فدخلت الطواف وكنت أقول فيه: اللهم اعصمني اللهم اعصمني، فسمعت هاتفًا يقول لي: يا ابن أدهم أنت تسألني العصمة، وكل الناس يسألوني العصمة، فإذا عصمتكم فلمن أرحم(٢).

وكون أحد أولياء الله الصالحين يخطئ أو يذنب لا ينقص من قدره عند الله، ولا يخرجه من دائرة الولاية، بل ربما يرفع منزلته، ويعلي مقامه، بتوبة نصوح من ذلك الذنب توجب له تواضعًا وانكسارًا وقربًا من الله تعالىٰ.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٤٨).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٦٣).

٤٩

التوبة واجبة على الفور

قال ابن القيم رحمه الله: «تأخير التوبة ذنبٌ تجب له التوبة»(١).

المعنى الإجمالي

التوبة من الذنوب واجبة لأن الله أمر بها في كتابه وأمر بها رسوله ﷺ ورتب عليها الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود:٣]، وقال النبي ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢).

والتوبة واجبة علىٰ الفور لا يجوز تأخيرها أو التكاسل فيها، وتأخير التوبة ذنب يحتاج إلىٰ توبة، فأوامر الله ورسوله كلها علىٰ الفور إذا لم يقم دليل علىٰ جواز تأخيرها، وتأخير التوبة سبب لتراكم الذنوب والرَّيْن علىٰ القلوب، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِت في قلبه نُكْتة(٣)، فإن هو

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٧).

(٣) النُّكتة: أثر قليل كالنقطة، شِبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١١٤).

نَزَع[١] واستغفر وتاب صُقِلت[٢]، وإن عاد زيد فيها، حتىٰ تعلوَ قلبه، فهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»[٣].

فإذا تاب المسلم من الذنب بقي عليه توبة أخرىٰ، وهي توبته من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، بحيث يتوب توبة نصوحا من جميع الذنوب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم:٨].

(١) نزَع: نزع عن كذا: انتهىٰ عنه. مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٧٣).

(٢) صُقِلَت: الصقل: الجلاء. لسان العرب لابن منظور (١١/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

٥٠

التذلل والانكسار لله تعالى

قال ابن القيم رحمه الله: «**تالله ما نفعه عند معصيته عِزُّ** ﴿ ٱسْجُدُواْ ﴾، **ولا شرف** ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾، **ولا خصيصة** ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾، **ولا فخر** ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، **وإنما انتفع بِذُلِّ** ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾»(١).

المعنى الإجمالي

أي ما نفع آدم عليه السلام عند معصيته العز الذي منحه الله إياه عندما أمر الملائكة ليسجدوا له، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤].

وما نفعه الشرف بتعليمه الأسماء كلها وتفضيله على سائر خلقه بما فيهم الملائكة بالعلم؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١].

ولم ينفعه أيضا خصيصة الخلق بيديه سبحانه كما أخبرنا بقوله: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص:٧٥]. والفخر بالنفخ فيه روحه سبحانه القائل: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩].

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٢).

وإنما الذي نفعه هو التذلل بين يديه سبحانه والتضرع إليه بالتوبة والدعاء مع الاعتراف بالخطأ والضعف وظلم النفس، حيث قال: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

فالله سبحانه يحب أن يرىٰ في عباده التحقق بصفة العبودية من خلال إظهار الفقر إليه، والاعتراف بالعجز والضعف له، والتذلل والانكسار والتضرع بين يديه، فمن تحقق بالعبودية أحبه الله، وتقبَّل توبته، وأعلىٰ مقامه، ورفع قدره علىٰ سائر خلقه.

٥١

التوبــة ثمـن المغفـرة

قال ابن القيم رحمه الله: «سلعة ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ لا تُبْذَل إلا بثمن ﴿ لِّمَن تَابَ ﴾، خارجًا من سَبيكة ﴿ وَءَامَنَ ﴾، عن سِكّة ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا ﴾، مِن دارِ ضرْبِ ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾»[(١)].

بيــان الـمفردات

السبيكة: القطعة المذوَّبة من الذهب أو الفضة[(٢)].

السِّكّة: حديدة منقوشة كتب عليها يضرب عليها الدراهم[(٣)].

دار الضَّرْب: مكان سكّ العملات المعدنيّة من قبل الحكومة[(٤)].

الـمعنى الإجمــالي

في قوله تعالىٰ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢] بشرىٰ بمغفرة الذنوب للتائبين، حيث تدلّ صيغة المبالغة في كلمة «غفّار» علىٰ كثرة مغفرة

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ١٢١٣).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٤٣٨).
(٣) تاج العروس للزبيدي (٢٧/ ٢٠٢).
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر (٧٨٤).

الذنوب وشمولها، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغَتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقُرابها مغفرة»[١].

ومغفرة الذنوب والعفو عنها سلعة ثمينة يجب أن يقدم العبد في سبيلها التوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء والثبات على ذلك، فكأنّ التوبة هي دينار ذهبيّ دفع ثمنا لهذه السلعة، وهذا الدينار الذهبي مرّت عليه مراحل أثناء تصنيعه، فالاهتداء هو المكان الذي تضرب فيه الدنانير، والإيمان هو السبيكة التي تذاب لتصنيعها، والعمل الصالح هو السِّكّة التي يُنقش بواسطتها على الدينار، فكما لا يخرج الدينار حتى يمرّ بجميع هذه المراحل، فكذلك التوبة يجب أن يكون معها الإيمان والعمل الصالح والاهتداء.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٩) برقم: (٣٥٤٠).

٥٢

قبول العذر لعدم قصد المخالفة

قال ابن القيم ﵀: «لَمَّا عَلِمَ السيِّدُ أنَّ ذنبَ عبدِهِ لم يكنْ قصدًا لمخالفتِهِ ولا قدحًا في حكمتِهِ؛ علَّمَهُ كيف يعتذرُ إليه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾»(١).

المعنى الإجمالي

«كُلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ»(٢)، ولكنَّ دوافع الوقوع في المعصية عند المكلفين مختلفةٌ، فمنهم مَن يعصي اللهَ جرأةً على الله واعتراضًا عليه وقدحًا في حكمته؛ كما في معصية إبليس ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة:٣٤]، وعارض ربَّه ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٦١]، فهذا لا تنفعُه موعظةُ الناصحين، ولا يردعُه هلاكُ العاصين، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

ومنهم من يعصي الله لضعفٍ في عزيمته أو تأويل في تصرّفه أو رغبة في تحصيل مصلحة، وليس مقصوده الجرأة على الله والقدح في حكمته، كالمعصية التي وقع

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٣) برقم: (٦٤٣٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٩) برقم: (١٠٤٨).

فيها آدم عليه السلام، فالوقوع في المعصية عند هؤلاء يعقبُها ندمٌ يقطِّعُ القلوبَ، ودموعٌ تحرقُ الجفونَ، همٌ وقلقٌ، سَهَرٌ وأَرقٌ، يذكرونَ مقامَهم بينِ يديْ الله يومَ القيامةِ لو ماتوا علىٰ تلك المعاصي، فيلهمهم اللهُ التوبةَ والإنابةَ والانكسارَ بين يديه، فيتوبون ويستغفرون، وعن الذنوبِ يُقلِعون، ويتوب اللهُ عليهم[1]،﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وهكذا إذا سَلِم للعبد أصلُ العبودية لم يقدح فيه الذنب، لأنَّ الله حين عَلِمَ أنَّ ذنبَ عبده لم يكن قصدًا لمخالفته، ولا جرأةً علىٰ محارمه، ولا قدحًا في حِكمته، ولكنّها غلباتُ الطَبع، وتزيينُ النفس والشيطان، ألهمَه التوبة، وقبلَها منه، كما عَلَّم أبانا آدمَ عليه السلام كيف يعتذر إليه، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧][2].

(١) ينظر: خطبة بعنوان: (حال الناس مع المعصية) https://khutabaa.com/ar.

(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٩٣)؛ موسوعة فقه القلوب لمحمد إبراهيم التويجري (١/ ٥٥٩).

باب الإيمان وفضله

٥٣

ذروة الإيمان

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب عز وجل»[(١)].

بيان المفردات

ذروة: بكسر الذال وضمها، وذروة كل شيء أعلاه[(٢)].

المعنى الإجمالي

لا يصل المؤمن إلى أعلى مرتبة في الإيمان إلا حين تتحقق فيه مواصفاتٌ عاليةٌ من الصبر لحكم الله تعالى؛ إذ أمر الله نبينا محمد ﷺ بالصبر لحكمه فقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور:٤٨]، وقال أيضًا: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٢٤].

وصبر المؤمن لحكم ربه يكون بعدم اعتراضه أو السؤال عن حكمته، بل يقبل ويرضى بحكم الله وقضائه وقدره، فما أحكام الله وأقضيته في عباده إلا خيرًا لهم.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢١٦).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٣٤٥)؛ مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل لجمال الدين الصديقي (٢/ ٢٣٤).

والتوكلُ هو محضُ الإيمان، لأنه فَرِيضَة علىٰ الْعباد وَلَا يكون الإيمان إلا بتوكل، والتوكل يزِيد وَينْقص كَمَا أن الايمان يزِيد وَينْقص، وَالنَّاس يتفاضلون فِي التَّوَكُّل والإيمان علىٰ قدر الْيَقِين(١).

وإخلاص التوكل لله تعالىٰ بالعلم اليقيني أن الله هو الذي أعطىٰ ويسر وفتح وذلل الصعاب بعلمه بحسن توكل عبده عليه وتمام إخلاصه له، وقد حضنا رسول الله ﷺ علىٰ إخلاص التوكل علىٰ الله، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون علىٰ الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٢).

ولن يبلغ المؤمن ذروة الإيمان وأعلاه إلا بالتسليم المطلق لله تعالىٰ، والاستسلام لجميع أحكامه الشرعية والقدرية والكونية، فلا يجد في نفسه حرجًا من كل ذلك، بل الاستسلام والإذعان الذي يمثل التطبيق العملي للإسلام والإيمان معًا، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، ويقول تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

---

(١) آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٩٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٥٢) برقم: (٢٠٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٦٦) برقم: (٢٣٤٤)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٦٦) برقم: (٤١٦٤).

٥٤

حقيقة الإيمان

قال عبيد بن عمير[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمانُ بالتمني، ولكنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ»[(٢)].

المعنى الإجمالي

ليس الإيمان رغبة يرغب بها الراغب فتتحقق له، لكنه اعتقاد وقول وعمل، لا يمكن لأي منها أن يتخلف عن الآخر.

فالإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لساني ولا عمل بدني، ولا عمل ذهني؛ إن الإيمان إدراك عقلي، ويقين جازم لا يزلزله شك ولا شبهة، وعمل متواصل يزداد به المؤمن إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

والإيمان ليس شيئًا ثابتًا، بل يزداد بالطاعات، وينقص بالمعاصي.

(١) عبيد بن عمير بن قتادة، أبو عاصم، الليثي، قاضي أهل مكة، من أبلغ الناس، مخضرم، ولد في حياة النبي ﷺ، روىٰ عن عمر وعلي وعائشة وغيرهم، توفي سنة ٦٤هـ. ينظر: طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٢٢)؛ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال لصفي الدين اليمني (ص: ٢٥٥).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٧٢).

٥٥

نـور الإيمـان

قال ابن الجوزي رحمه الله: «النَّارُ مُسْعَرةُ الضِّرام، لَا يُطْفِئُ لهيبَها إلَّا نورُ الإِيمَان»(١).

بيـان المفردات

مُسْعَرة: مشتقةٌ من «سَعَر»، والسين والعين والراءُ أصلٌ واحدٌ يدل على اشتعال الشيء واتِّقاده وارتفاعه، يقال: سَعَرْتُ النار وأسْعَرْتُها، فهي مُسْعَرةٌ ومَسْعورة، من ذلك: سعيرُ النار، وهو شدة حرّ جهنم، واسْتعارُها: تَوَقُّدُها(٢). ونارٌ مُسَعَّرَة: أي مُهَيَّجَة مَوْقُودَةٌ مُشْعَلَةٌ، شَديدٌ حَرُّها(٣).

الضِّرام: جمعٌ، مفرده: ضَرَمٌ وضَرَمَةٌ، وهو ما دَقَّ مِن الحَطَبِ ولَمْ يَكُنْ جَزْلًا ممّا يُسرع اشتعالُ النار فيه(٤).

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٧١٤)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٧٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٥٦)؛ تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي (ص: ٧٠٨).

(٤) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٧/ ٣٧)؛ جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٧٥٢)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٩٧١)؛ لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٣٥٥).

المعنى الإجمالي

إنّ نورَ الايمان مصدرٌ للأمن والراحة والطمأنينة والسّكون والهناء، فإذا استنار قلبُ المؤمن بنور الايمان أقبلتْ وفودُ الخيرات إليه مِن كلّ جانب، كما أنه إذا أظلم أقبلتْ سحائب البلاء والشّر عليه مِن كلّ مكان(١)، قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٢-١٣]، فيعطي الله المؤمنين نورًا يوم القيامة علىٰ قدر أعمالهم، يمشون به علىٰ الصراط، ويعطي المنافقين أيضًا نورًا خديعة لهم، فيطفأ نور المنافقين، ويبقىٰ نور المؤمنين(٢).

ولمّا كان الكفرُ هو السببُ في الخلود في النار، فإنّ النجاة منها تكون بالإيمان، وبه يفوز المؤمن بالجنّة وينجو مِن دخول النّار ومن البقاء فيها، لأنّ نورَ الإيمان يطفئ لهيبَ النار، وهو عدم دخولها لمن شاء الله، أو عدم الخلود فيها للمؤمن(٣)، جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أنّه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: ماذا ينجي العبدَ من النار؟ قال: «الإيمانُ بالله»(٤)، وكذلك فإنّ المؤمنين يتوسّلون إلىٰ ربّهم بإيمانهم كي يخلصهم من النار، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٦]، ويقول النبي ﷺ: «يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ،

(١) ينظر: الداء والدواء لابن القيم (ص: ١٢٥).
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٧/ ٢٤٥)؛ تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٣٥٠).
(٣) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم لمجموعة من المؤلفين (٣/ ٧٤٩).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٥٨٩) برقم: (٣٠٩٧٢)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٤) برقم: (٣٠٥٧)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٥٦) برقم: (١٦٥٠).

ثم يقول الله تعالىٰ: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقالُ حبّةٍ مِن خَرْدَلٍ من إيمان، فيَخْرُجون منها قد اسْوَدُّوا»(١).

فشتّان بين مَن مَنّ اللهُ عليه بالهُدىٰ، ونوَّر قلبَه بالإيمان ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور:٣٥]، وبين مَن يعيش في ظلمات الذنوب والمعاصي ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٤٠].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣) برقم: (٢٢)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١١٤) برقم: (١٨٣).

باب الإخلاص وتصحيح النية

٥٦

إخلاص النيــة

قال عمر بن الخطاب[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس»[٢].

المعنى الإجمــالي

كان الصالحون إذا التقوا يوصي بعضهم بعضًا بثلاث، وإذا غابوا كتب بعضهم إلىٰ بعض: «من عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح فيما بينه وبين الله كفاه الله الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[٣].

ولقد وصف الله أنبياءه بالمخلصين في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ فقال عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وعلىٰ قراءة فتح اللام في (المخلصين) يكون معناه:

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي، أبو حفص، الملقب بالفاروق، أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين، أحد المبشرين بالجنة، صاحب رسول الله ﷺ، شهد بدرا والمشاهد كلها، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وأسلم بمكة قديمًا، واستشهد سنة ٢٣هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٧/ ١٦٤)؛ أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤/ ١٣٧)؛ الكمال في أسماء الرجال لعبد الغني المقدسي (١/ ١٥٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٥٠).

(٣) ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٦٢).

المختارين الذين اختارهم الله واختارهم لعبادته، وعلىٰ قراءة كسر اللام يكون المراد: المخلِصين في الطاعة[١]. وقال عن نبيه موسىٰ ﷺ ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم:٥١].

ومن ثمار إخلاص العبد نيته لله تعالىٰ أن يكفيه الله ما يهمه ويقلقه فيما بينه وبين الناس؛ فلا يخشاهم ولا يقلق من تدابيرهم ومكرهم، فهو مع ربه الذي أخلص له العمل، وربه ﷻ يكفيه السوء والشر.

إنَّ من أسماء الله الحسنىٰ الكافي، وقد ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٦]؛ أي: يكفيه المشركين حتىٰ لا يصلوا إليه، والتخويف الذي يخوِّفُ المشركون النبي ﷺ تخويفهم له بأوثانهم[٢].

وجاءت القراءة بالجمع (عباده)[٣] لتبين أن الكفاية ليست كفاية الله لعبده ورسوله ﷺ فحسب، بل لكل أنبياء الله ورسله السابقين وجميع عباده المؤمنين[٤].

---

(١) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (١٢/ ٢٤٠).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ١١٢).

(٣) وهي قراءة أبي جعفر المدني وحمزة والكسائي الكوفيين، ينظر: الكنز في القراءات العشر لأبي محمد الواسطي (٢/ ٦٣٠).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ٢٩٣).

٥٧

صفات المؤمنين

قال عبد الله بن مسعود[١] رضي الله عنه: «كونوا ينابيعَ العلم، مصابيحَ الهُدى، أحلاسَ البيوت، سُرُجَ الليل، جُدُدَ القلوب، خُلْقانَ الثياب، تُعرَفون في السماء وتَخْفَون على أهل الأرض»[٢].

بيـــان المفردات

أَحْلاس: جمع حِلْس، وهو بالكسر: كساء على ظهر البعير تحت البَرذَعة، وما يُبسَط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع، والمراد به الملازمة للبيوت، يقال: فلان حِلْسٌ من أَحلاس البيت: للّذي لا يبرحه[٣].

سُرُج: جمع سِراج، وهو المصباح[٤].

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن، الهذلي، المكي، البدري، الإمام الحبر، فقيه الأمة، الصحابي الجليل، كان من السابقين الأولين، وهاجر الهجرتين، ومناقبه غزيرة، روى علما كثيرا، حدث عنه طوائف، توفي سنة ٣٢هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٦١)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٧/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣١٧) برقم: (٢٦٤)؛ وابن أبي الدنيا في الخمول والتواضع (٢/ ٣٥٩) برقم: (١٦).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ١٨١)؛ القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص ٥٣٨).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٢٩٧).

جُدُد: جمع جديد، وهو نقيض القديم[(١)].

خُلْقان: جمع خَلَق، وهو القديم البالي[(٢)].

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة المسعودية تتضمن دعوة المسلمين ولا سيما طلاب العلم إلىٰ التخلق بهذه الصفات الحميدة ليكونوا ينابيع للعلم والحِكمة، ويكونوا مصابيح الظُّلَم يهتدي بهم الناس في ظلمات الجهل، ويلازموا البيوت في الفتن أو عند غلبة الظن بالوقوع فيها، فإنها الأستر والأسلم آنئذ، كما ورد في قوله ﷺ: «إِن بينَ أيديكم فِتنا كقِطَعِ الليلِ المُظلِم، يُصبِح الرجلُ فيها مؤمنًا ويُمسِي كافرا، القَاعِد فيها خيرٌ من القائِم، والقائم فيها خيرٌ من الماشِي، والماشِي فيها خيرٌ من السّاعي»، قالوا: فما تأمُرُنا؟ قال: «كُونُوا أَحلَاسَ بُيوتِكُم»[(٣)].

والظاهر من الحديث بأن الملازمة للبيت تكون عند الفتنة أو عند عدم الفائدة في النصح، وإلا فالعلماء مطالبون بالخروج والاختلاط بالناس للدعوة ونشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح العباد والبلاد، وليكونوا كالسراج الزاهر في الليل المظلم بعبادتهم ومناجاتهم لربهم، وتتجدَّد قلوبهم بالإيمان وكثرة الأذكار والاستغفار، متواضعين في هديهم ولباسهم، مخلصين في عملهم لا يعملون

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٤٥٤)؛ القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ٢٧١).

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ٨٨١).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/ ٤٣٢) برقم: (١٩٦٦٢)؛ أبو داود في سننه (٦/ ٣١٩) برقم: (٤٢٦٢)؛ وأصل الحديث في الصحيحين، عدا قوله: فماذا تأمرنا؟ إلخ. ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٩٨) برقم: (٣٦٠١)؛ ومسلم (٤/ ٢٢١١) برقم: (٢٨٨٦).

للشهرة أو كسب قلوب الناس، فإن تحققوا بتلك الصفات عُرفوا عند أهل السماء، وخفي أمرهم على أهل الأرض.

يلاحظ هنا أن قوله: «خُلقان الثياب» ليس دعوة إلى ترك الثياب الجديدة وتعمّدِ لُبس القديمة، فإن الإنسان إذا كان قادرا فيستحب له لبس الجديد والنظيف كما جاء في الحديث: «إن الله يُحبّ أن يرى أثَرَ نعمته على عبده»[1]، وحديث: «إن الله جميل يحب الجمال»[2]. ولبس الثوب الجديد والنظيف من الجمال والنعمة ومدعاة للمغفرة، كما ورد في الحديث: «ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كَسَاني هذا من غير حولٍ مني ولا قوةٍ، غُفِر له ما تقدّم مِن ذَنْبه»[3]، والعابد الصالح يلبس القديم إذا لم يجد غيره، ولا يتعمد لُبسه لإظهار زُهده وصلاحه، فإن الورع الكامل هو في إخفاء الزهد والعبادة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/ ٤٦٨) برقم: (٨١٠٧)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ١٢٣) برقم: (٢٨١٩)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦/ ١٣٨) برقم: (٤٠٢٣)؛ الحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٧) برقم: (١٨٧٠)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٨/ ٣٠٩) برقم: (٥٨٧٢).

٥٨

طلب الدنيا بعمل الآخرة

قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من أقبح الرغبة أن تعمل للدنيا بعمل الآخرة»[٢].

المعنى الإجمالي

من البلاء الذي ابتلي به بعض العُبَّاد والعلماء أن جعلوا عمل الآخرة مطية للدنيا، وفي هذا السلوك فتنة عظيمة عليهم وعلىٰ أتباعهم ومحبيهم، ففيه فتنة للتابع والمتبوع معًا. روىٰ أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ انه قال: «بشِّر هذه الأمة بالسناء، والتمكين في البلاد، والنصر، والرفعة في الدين، ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة نصيبٌ»[٣].

(١) مطرف بن عبد الله بن الشخير، أبو عبد الله الحَرشي، وكانت لأبيه صحبة، تابعي جليل ومن رواة الحديث، قيل إنه ولد في حياة رسول الله ﷺ، وتوفي بعد طاعون في سنة ٨٧هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ١٤٢)؛ المعارف لابن قتيبة (ص: ٤٣٦).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٩٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ١٤٧) برقم: (٢١٢٢٤)؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦) برقم: (٧٨٦٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣١٨)؛ وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (١٠/ ٢٢٠) برقم: (١٧٦٤٦).

وطلب الدنيا بعمل الآخرة من عقوبة موت القلب، فقد سئل الحسن رحمه الله عن عقوبة العالم؟ فقال: «موت القلب، فقيل له: فما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة»(١).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢١٥).

٥٩

الانتفاع بما خرج من القلب

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «لا ينفع القلبَ إلا ما خرج من القلبِ»(١).

المعنى الإجمالي

للموعظة والذكرىٰ نفعها ووقعها علىٰ القلب الذي يخشىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلىٰ:١٠]، ولا ينتفع القلب من ذكرىٰ إلا حين تخرج من قلب قد امتلأ بحرارة الإيمان، فأوقد جذوة ناره في قلوب من يُذَكِّرُهم، فاشتعلت في شهواتهم فأحرقتها، وفي شبهاتهم فبدَّدتها.

والفؤاد الذي يملؤه الظلام لا يضيء للسالكين الطريق، والقلب الذي فيه الثلج لا يبعث في قلوب السامعين حرارة الإيمان، فالكلام الذي يخرج من اللسان لا يجاوز الآذان، ولو حوىٰ جواهر البلاغة ودرر البيان، ورُبَّ كلمةٍ تسمعها من عاميٍّ جاهل تَهُزّك هزًّا، وتبعث في قلبك الخشوع، وتُسيل من عينيك الدموع، وخطبة طويلة حوَت جواهر البلاغة ودرر البيان تسمعها فلا تحرك منك شعرة واحدة(٢)!

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٨٨).
(٢) ينظر: فصول في الدعوة والإصلاح لعلي الطنطاوي (ص: ١٠٣).

إن المواعظ والنصائح والرقائق لا تؤتي ثمارها إلا إذا كانت قد خرجت من قلب تقيّ نقيّ، من قلب تملؤه الغيرة والحب لدين الله، والمحبة والشفقة على المنصوحين، فإنهم إن شعروا بصفاء ونقاء قلب ناصحهم وواعظهم فإن نصحه وموعظته تدخل على القلوب فتلامس مواضع الداء، فتكون لها شفاء ناجعًا وبلسمًا شافيًا بإذن الله تعالى.

٦٠

العبرة بالباطن

قال شُفَيّ بن ماتع الأصبحي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرجلين ليكونان في الصلاة مناكبهما جميعًا، ولَمَا بينهما كما بين السماء والأرض»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يؤدي العباد عملًا واحدًا، لكنهم يختلفون في نياتهم ومقاصدهم، وفي أدائهم وإقامتهم للأعمال؛ فمنهم من يؤدي العمل بغير إتقان وإجادة، ومنهم من ينقص في أداء العمل، ومنهم من يؤدي العمل تاما مكتملا وبه روح الإخلاص والخشوع. ومن أمثلة ذلك الصلاة التي يؤديها كثير من المصلين، لكنهم يختلفون بين أدائها وإقامتها، والفرق بين الأداء والإقامة أن الأداء يكون بإتمامها بكل مقتضياتها من الشروط والأركان والسنن، لكن هذا الأداء قد يكون جسدًا بلا روح، أما الإقامة فإنها تجمع بين الأداء والخشوع، والخشوع هو روح الصلاة وجوهرها؛ ولذا فقد جاء الأمر في القرآن كله، وكذا في الأحاديث الشريفة بإقامة الصلاة، وليس بأدائها.

---

(١) شفي بن ماتع، أبو سهل، وقيل: أبو عبيد، الأصبحي المصري، كان عالما حكيما، روىٰ عن ابن عمرو بن العاص وأبي هريرة، وروىٰ عنه جماعة، توفي سنة ١٠٥هـ. ينظر: تاريخ ابن يونس المصري لعبد الرحمن بن أحمد الصدفي (١/ ٢٣٧)؛ الكاشف للذهبي (١/ ٤٨٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٦٧).

ومن الأحاديث التي تدل علىٰ أهمية إقامة الصلاة إقامة تامة كاملة ما رواه عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن الرجل الصلاة فأتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة: حفظك الله كما حفظتني، فترفع، وإذا أساء الصلاة فلم يتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة: ضيعك الله كما ضيعتني، فتُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِق فيُضرب بها وجهُه»(١).

ولهذا فإن المصلين الذين يلبون نداء الصلاة، ويصفون صفوفا وراء إمام واحد، قد تساوت أقدامهم، وتحاذت أكتافهم، يتفاوتون في خشوعهم، ويختلفون في قبولها وردها؛ فمنهم من تقبل منه صلاته كاملة، ومنهم من يقبل نصفها أو ربعها أو ثمنها أو سدسها، ومنهم من يخرج من الصلاة كما دخل فيها؛ لا يدري عن صلاته شيئًا. والعلة في هذا الأمر توافر الخشوع لدىٰ المقبول وافتقاده لدىٰ من لم يقبل.

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ٤٧٩) برقم: (٥٨٦)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٥٠١) برقم: (٢٨٧١)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢٦٣) برقم: (٣٠٩٥)؛ قال الهيثمي: فيه عباد بن كثير، وقد أجمعوا علىٰ ضعفه. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (١/ ٣٠٢).

٦١

تفَقُّد النية قبل العمل

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رحم اللّٰه عبدًا وقف عند همِّه؛ فإنّ أحدًا لا يعمل حتى يَهِمّ، فإن كان للّٰه ﷻ مضى، وإن كان لغير اللّٰه أمسك»[(١)].

المعنى الإجمالي

الوقوف علىٰ المقاصد والنيات والإرادات قبل بدء الأعمال أحد شَرطَيْ قبول الأعمال عند الله. وهذه الوقفة يحتاجها كل عبد مسلم قبل أن يشرع في عمله، فإن كانت لله أمضاه وأتمه، وإن كانت لغير الله توقف وحاسب نفسه. وقد ورد عن أُبَيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قوله: «من أصبح وأكبر همه غيرُ الله ﷻ فليس من الله».[(٢)] ولذلك بارك الله في أعمال وأحوال الصالحين السابقين من هذه الأمة، ويرجع السبب في ذلك أنهم ما فعلوا فعلا ولا قالوا قولا إلا بعد تأكدهم من صحته وسلامة مقصده، وأنهم يريدون به ابتغاء رضوان الله تعالىٰ، لكن حين أضحىٰ كثير من الناس في هذا الزمن لا يحسبون للإخلاص حسابا، ولا يخشون من انحراف النية عن مسارها الذي يريده الله ويرضاه، كان النقص في الأعمال، وانعدام البركة والتوفيق فيها.

---

(١) أخبار الشيوخ وأخلاقهم لأبي بكر المروزي (ص: ١٨٦)؛ وشعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٤١١).
وعبارة المروزي: «فإن كان لله مضىٰ وإن كان عليه أمسك».

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠).

يقول الحارث المحاسبي ﷺ عن تصحيح الإرادة: «واعلم أن لذة الرياء وحلاوته لذة تخالط القلوب وتجري في العروق، فاحذرْ ذلك في ابتداء أول العمل، وفاتِشِ الهمةَ ونقصَ تصحيحِ الإرادةِ، وكن في ذلك كله مراقبًا لله وحده».(١)

(١) آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٤٦).

٦٢

ضرورة الإخلاص

قال ميمون بن مهران[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أعمالكم قليلة، فأخلصوا هذا القليل»[٢].

المعنى الإجمالي

أحبُّ الأعمال إلىٰ الله أدومها وإن قلَّ؛ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يُدْخِل أحدَكم عمَلُهُ الجنةَ، وأن أحبَّ الأعمال إلىٰ الله أدْوَمُها وإن قَلَّ»[٣].

إنَّ الإخلاص يُنَمِّي العمل القليل ويباركه؛ ومما يدلل علىٰ ذلك: أن رجلًا أتىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَنَّعًا بالحديد، فقال: يا رسول الله، أُقاتِل أو أُسْلِم؟ قال: «لا، بل أسلم ثم قاتل» فأسلم، فقاتل فقتل، فقال: «هذا عَمِل قليلًا وأُجِرَ كثيرًا»[٤].

---

(١) ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب، مولىٰ بني أسد، تابعي وفقيه أهل الجزيرة، سمع ابن عمر وابن عباس وأم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، روىٰ عنه ابنه عمرو وجعفر بن برقان والأعمش، ولد سنة ٤٠، ومات سنة ١١٨هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٩/ ١١٥)؛ تاريخ دمشق لابن عساكر (٦١/ ٣٣٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٤).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٢٨١) برقم: (١٨٥٤٢).

وجاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال: «أَخْلِص دينَك يكفِك العملُ القليل»[1].

لكنْ إن كان هذا العمل القليل لا إخلاص معه، فإن العبد يصبح رصيده من الحسنات صفرًا إلا أن يتداركه الله برحمته ولطفه. ولو فرضنا أن الإنسان كثير العمل فهو محتاج إلى الإخلاص ليحفظ عملَه، فكيف بصاحب العمل القليل، فهو أشدُّ ما يكون إلى معنى الإخلاص لقلة عمله.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٦) برقم: (٧٩٣٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: غير صحيح.

٦٣

من عمل السرّ

قال حسان بن عطية[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «صلاة الرجل عند أهله من عمل السر»[(٢)].

المعنى الإجمالي

ورد في الآية أن إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]؛ وكما ورد في الحديث فضل من يُبالغ في التَّسَتُّر عند الصدقة؛ ففي حديث السبعة الذين يُظلِّهم الله في ظله عدّ منهم: «ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتىٰ لا تعلم شمالُه ما تُنْفِق يمينُه»[(٣)]. فإذا كانت لصدقة السرّ هذا الفضل فإن ذلك ينطبق علىٰ كل الأعمال الصالحة، ومن ذلك الصلاة، فصلاة السرّ أفضل من صلاة العلن، إلا الفريضة؛ فقد ورد أن النبي ﷺ كان يصلي النافلة في بيته؛ وجاء عنه أنه قال: «أفضل

(١) حسان بن عطية، أبو بكر، الدمشقي، المحاربي مولاهم، الإمام، الحجة، روىٰ عن الصحابة، وحدث عنه كبار التابعين، توفي في حدود ١٣٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٤٦٦)؛ تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمِزّي (٦/ ٣٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٧٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم: (١٤٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٣) برقم: (١٠٣١).

الصلاة صلاة المرء في بيته، إلا المكتوبة»[١].

وصلاة الرجل في بيته تُكتب له أنها من أعمال السرّ، وإن كانت مع وجود أهله؛ فالعبد الصالح يحبّ أن يُسِرّ صلاته، بحيث تُحسب له من أعمال السرّ، فيشق عليه أن يجد مكانًا في بيته لا يراه أحد وهو يصلي، ولذلك جاءت البشرىٰ من هذا التابعي الجليل حسان بن عطية أن صلاة الرجل في بيته تُعدّ من عمل السرّ.

إن من عمل لله عملًا فأسره فقد أحب أن ينفرد الله ﷻ بعلم ذلك العمل منه، ومعناه أن يستغني بعلم الله في عمله عن علم غيره، وإذا استغنىٰ القلب بعلم الله أخلص العمل فيه، ولم يُعرِّج علىٰ من دونه، فإذا علم جل ذكره بصدق قصد العبد إليه وحده، وسقط عن ذكره من دونه أثبت ذلك العمل في أعمال الخالصين الصالحين المؤثرين لله علىٰ من سواه[٢].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٤٧) برقم: (٧٣١)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٨) برقم: (٧٨١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٦٤).

٦٤

تعَلُّمُ النيــة

قال يحيى بن أبي كثير(١) رحمه الله: **«تعلموا النية؛ فإنها أبلغ من العمل»**(٢).

المعنى الإجمــالي

ما يميز العبد المؤمن عن غيره هو أن نيته مقدمة علىٰ عمله، فهو يفقه حقيقتها وارتباطها بغيرها، فلا تكون نية بدون تعلمٍ للوازمها؛ ذلك لأن «العمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله في أعمال الكفار والمنافقين: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف يُطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولىٰ علىٰ كل عبد أراد طاعة الله أن يتعلم النية أولًا لتحصل المعرفة ثم

(١) يحيىٰ بن صالح الطائي اليمامي، أبو نصر، روىٰ عن أنس بن مالك، الإمام، الحافظ، أحد الأعلام، قال أيوب: ما بقي علىٰ وجه الأرض مثل يحيىٰ بن أبي كثير، كان من العباد، توفي سنة ١٣٢هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٨/ ٣٠١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٢٧).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٧٠).

يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلىٰ النجاة والخلاص»[1].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٦٢).

٦٥

صعوبـة معالجـة النيـة

قال سفيان الثوري[(١)] رحمه الله: «ما عالَجْتُ شيئًا أشدّ عليَّ من نيتي؛ لأنها تَفَلَّتُ عليّ»[(٢)].

بيـان المفردات

عالَجْتُ: يقال: عالجتُ الشيء: إذا زاولْتُه، وعالَج؛ أي: حاول واجتهد وبذل وسعه[(٣)].

المعنى الإجمـالي

النية هي الباعث على العمل؛ فهي تسبق العمل وتصاحبه، والله تبارك وتعالى قد حضَّ عباده على إخلاص النية في أكثر من موضع، وامتدح عباده المخلصين من أنبيائه

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري الكوفي، تابعي التابعين، شيخ الإسلام والمسلمين، فقيه ومجتهد ومحدث، صاحب أحد المذاهب المندثرة، ولد سنة: سبع وتسعين، روى له الأصحاب الستة، توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٩٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٢٩).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٦٤).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٣٣٠)؛ تكملة المعاجم العربية لرينهارت بيتر آن دوزي (٧/ ٢٧٩).

ورسله؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف:٢٩]، ويقول أيضًا: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البينة:٥].

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئٍ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها او امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»(١).

وليست النية بالأمر الهين؛ فلربما تسرَّب الرياء وحب الثناء والمحمدة وكان مصاحبًا للعمل، فتغلب صاحبها فتفسد عليه عمله، ويذهب معه بَريقُ الإخلاص.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٤٠) برقم: (٦٦٨٩)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٤٨) برقم: (١٩٠٧).

٦٦

الدعــاء والإخــلاص

قال عبد الواحد بن زيد[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فُرْقَة بينهما»[(٢)].

المعنى الإجمــالي

يجيب الله دعاء عبده إن دعاه بإخلاصٍ وصدق مُتَحَرِّيًا أوقات الإجابة، وآتيًا بجوامع الكلم، ومُبْتَعِدًا عن الاعتداء في الدعاء.

وإن العبد ليحس بلذة دعائه حين يجد قربًا من الله لم يعهده من قبل، ويلهم ألفاظ الدعاء فينساب على لسانه ويتدفق تدفق النهر، ويقشعر جسده ويلين قلبه وتدمع عيناه.

لقد كان الرسول ﷺ يحثُّ على الإخلاص في الدعاء؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب

---

(١) عبد الواحد بن زيد، أبو عبيدة، البصري، الزاهد، القدوة، شيخ العباد، حدث عن الحسن وعطاء وجماعة، كان يسرح في الشام، توفي سنة ١٧٧هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٧٨)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٥/ ٢٤٩).

(٢) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص:٣٧)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٥٦).

دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاهٍ»(١).

ومما قيل في معنىٰ هذا الحديث: «ادعوه معتقدين لوقوع الإجابة؛ لأن الداعي إذا لم يكن متحققًا في الرجاء لم يكن رجاؤه صادقًا، وإذا لم يكن الرجاء صادقًا، لم يكن الدعاء خالصًا، والداعي مخلصًا، فإن الرجاء هو الباعث علىٰ الطلب، ولا يتحقق الفرع إلا بتحقق الأصل»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١/ ٢٣٥) برقم: (٦٦٥٥)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٣) برقم: (١٨٢٣)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٦٥) برقم: (٣٤٧٩)، وقال: حديث غريب.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن (شرح مشكاة المصابيح) لشرف الدين الطيبي (٥/ ١٧١٣).

٦٧

أثـرُ النيـة

قال عبد الله بن المبارك[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُكثِّرُه النية، ورُبَّ عملٍ كثيرٍ تُصَغِّرُه النية»[٢].

المعنى الإجمالي

إنَّ سرَّ تفاوت منزلة الناس في مراتبهم هو تفاوتُهم في نيّاتهم؛ لأنَّ الأعمالَ تتفاضل بتفاضل ما في قلوب أصحابها من الإيمان والإخلاص، فالإخلاصُ إذا تمكَّن من عملٍ كان سببًا لمضاعفة أجر صاحبه؛ حتىٰ لو كانتْ الطاعةُ في ظاهرها يسيرةً أو قليلةً، وقد أخبرُ النبي ﷺ عن أعمالٍ صغيرةٍ غُفر لأصحابِها ببركة إخلاصهم؛ كحديثِ صاحب البطاقة التي فيها «لا إله إلا الله»[٣]، وحديثِ البغيِّ التي سقت كلبًا فغفرَ اللهُ لها[٤]، وقصةِ الرجل الذي أماط الأذىٰ عن الطريق

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح، المروزي التميمي، أبو عبد الرحمن مولىٰ بني حنظلة، من أعلام الأمة، فقيه ومحدث ومجاهد، أدرك جماعة من التابعين، جمعت فيه خصال الخير، وله كتاب الزهد والرقائق وكتاب الجهاد وغيرها، ولد سنة ١١٨هـ وتوفي سنة ١٨١هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ٣٧٦)؛ التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٢١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٤٠٠).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤٦١) برقم: (٢٢٥)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٦) برقم: (٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٣٠) برقم: (٣٣٢١)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٤٤) برقم: (٢٢٤٥).

فغفرَ الله له(١).

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ﷺ: «فهذه سقتْ الكلبَ بإيمانٍ خالصٍ كان في قلبها فغُفر لها، وإلا فليس كُل بغيٍّ سقتْ كلبًا يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحَّىٰ غُصْن الشَّوك عن الطريق؛ فَعَلَهُ إذْ ذاك بإيمانٍ خالص، وإخلاصٍ قائمٍ بقلبه، فغُفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كُلُّ من نحَّىٰ غُصن شَوك عن الطريق يُغفر له»(٢).

وفي المقابل متىٰ كان أداءُ العبد للطاعة بدون إخلاصٍ لله وصدقٍ معه كان مُعَرَّضًا للوعيد الشديد؛ لحديث الثلاثة الذين هُم أولُّ مَن تُسعَّر بهم النارَّ يوم القيامة(٣)، وهم شهيد وعالم قارئ ومنفق، عملوا من أجل أن يقول الناس: هذا شهيد، وهذا عالم، وهذا منفق، وحديث: «لا تَعَلَّموا العلم لِتُباهوا به العلماء، ولا لِتُماروا به السفهاء، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٢) برقم: (٦٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٣١) برقم: (٤٣٧).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/ ٢٢١).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ١٧٠) برقم: (٢٥٤)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٨) برقم: (٧٧)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٨٦) برقم: (٢٨٩)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٦٩) برقم: (١٦٣٥)؛ قال العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء لزين الدين العراقي (ص: ٧٢).

٦٨

خـير العمـل أخفـاه

قال الفضيل بن عياض[1] رحمه الله: «خير العمل أخفاه، وأَمْنَعُه من الشيطان، وأَبْعَدُه من الرياء»[2].

المعنى الإجمالي

لا يزال الشيطان يضخم الأعمال الصالحة أمام العبد حتىٰ يخرجها من الستر والخفاء إلىٰ الكشف والوضوح، ولو علم العبد أن خفاء الأعمال أدعىٰ للإخلاص لما أظهر أعمالَه للناس.

لقد جعل الله إخفاء الصدقات التي تعطىٰ للفقراء خيرًا من إظهارها، فقال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١].

إن إخفاء المتصدق لصدقته حتىٰ لا تعلم شماله ما أعطت يمينه جعل جزاؤه

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود، أبو علي التميمي اليربوعي، الخراساني الكوفي، ثم المكي، الإمام القدوة، الثبت، شيخ الإسلام، له مواعظ وقدم راسخ في التقوىٰ، توفي سنة ١٨٦، وقيل: ١٨٧هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٤٢١)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٣/ ١٠٤).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٦).

أن يظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله[١]، وخروج المتعبد القائم لله تعالىٰ في جوف الليل من تحت غطائه ودثاره يجعل الله جزاءه قرة أعين، كما قال تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم: (١٤٢٣).

٦٩

لا يصح عملٌ إلا بنية

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا عملَ لمن لا نيةَ له، ولا أجرَ لمن لا حِسبةَ له»[(١)].

بيان المفردات

حِسبة: الاحتساب: طلب الأجر، والاسم الحسبة[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن العمل الصالح لا يكون صحيحًا إلا إن كان ذا نية خالصة صائبة، ولا يؤجر العبد علىٰ عمله إلا إن احتسب الأجر وطلبه من ربه؛ مثال ذلك من يغسل أعضاء وضوئه للنظافة والتجمل فقط، لا من أجل أن يتصف بصفة الإيمان التي قال عنها الرسول ﷺ: «ولن يحافظ علىٰ الوضوء إلا مؤمن»[(٣)]. ومن يمتنع عن الطعام والشراب نهاره كله، لا بقصد الصيام الشرعي، وإنما ليحمي نفسه من الأمراض.

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٦).

(٢) المخصص لابن سِيده (٤/ ٥٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٣١١) برقم: (١٠٣٧)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠) برقم: (٤٤٦).

ومن يسهر ليله كله مهمومًا مغمومًا بقضايا الدنيا، لا متفكرًا في آيات الله في نفسه والكون من حوله.

لقد جُعلت النية شرطًا قبل مباشرة الأعمال كالوضوء والصلاة والصيام وغيرها من الأعمال، كما جاء في الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنية»[(١)]. ومن احتسب أجره عنده الله أعطاه الله ما احتسبه من الأجر؛ كما في صيام رمضان وقيام ليلة القدر؛ ففي الحديث: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنْبِه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنْبِه»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٤٠) برقم: (٦٦٨٩)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٤٨) برقم: (١٩٠٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٦) برقم: (١٩٠١)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٧٧) برقم: (٧٦٠).

٧٠

صعوبة تخليص النية

قال يوسف بن أسباط[(١)] رحمه الله: «تخليص النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد»[(٢)].

المعنى الإجمالي

طولُ اجتهاد العبد في إثبات العمل والمداومة عليه فيه صعوبةٌ بالغةٌ؛ وذلك لوجود العوائق التي تقف أمام العمل قبل البدء به، وعند القيام به بترك إتمامه.

والاجتهادُ في بلوغ الغاية منه مع وجود فساد النية وعدم تخليصها وجعلها لله وحده، يجعلُ ما فعله العبد مردودًا عليه؛ ذلك لأن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصًا.

وقد جاء في هذا الأمر تخويفٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، من ذلك ما رواه أبو سعيد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادىٰ مُنادٍ: مَن كان أشرك

(١) يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني، أبو يعقوب، الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، كان من خيار أهل زمانه، من عبّاد أهل الشام وقرائهم، توفي سنة ١٩٥هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٧/ ٦٣٨)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ١٦٩).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٥٧).

في عمل عمله لله أحدًا فليَطلب ثوابَه من عند غير الله ﷻ؛ فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/ ١٦١) برقم: (١٥٨٣٨)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٩١) برقم: (٤٢٠٣)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٢٢٠) برقم: (٣١٥٤)، وقال: حديث غريب.

٧١

من علامات الإخلاص

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص»(١).

المعنى الإجمالي

السائر إلى الله تعالى يحتاج إلى فترات خَلْوة يختلي فيها بربه، ويحاسب فيها نفسَه، ويراجع أعماله ليتأكد من صحة سيره على الصراط المستقيم، وتوفير هذه الخلوة بشكل دوري يحتاج إلى مصابرة ومجاهدة في ظل زحمة الحياة وأشغالها.

وفي الخلوات وبُعد العبد عن أنظار العباد، تظهر آثار الأعمال الصالحة من عدمها؛ فإن كانت الأعمال الصالحة حاجزةً مانعةً لقبائح الأعمال أمام الناس، وكان الصبر عن المعاصي سلوكًا يتحلى به العبد في كل أحواله، فإنَّ ترك انتهاك محارم الله في الغيب والخلوة علامةٌ من علامات إخلاص العبد لربه تعالى؛ إذ يخشى العبد المخلص على عمله الذي سعى له كثيرًا، وتحمل بسببه كل المشاق والمتاعب كي يصل إلى الإتمام والإتقان أن يصير هباء منثورًا.

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٩).

لقد وصف الله عباده المتقين بأنهم يخشونه في الغيب، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]، وجعل الله المغفرة والأجر الكبير لمن يخشون ربهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك:١٢].

٧٢

سرُّ الحكمة الإخلاص

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن شَخَص إلى الله بقلبه انفجرت ينابيع الحكمة من قلبه وجرت على لسانه»[١].

بيان المفردات

شخَصَ بقلبه: يقال: أشخص بصره: مدّه ولم يَطْرِف، ومادة شخص تدل على الارتفاع[٢]. فمعنى: شخص بقلبه: توجه به نحو الله ولم يُرِد سواه.

المعنى الإجمالي

إنَّ القلب يتشرب ما يُلقَى إليه؛ فإن كان العبد مُتَطَلِّعًا إلى الدنيا وشاخصًا إليها بقلبه وجوارحه فإن همه وفكره وكلامه يكون عن الدنيا، وإن كان القلب متَّجهًا نحو الله والدار الآخرة فإن القلب يكون صافيًا نقيًا ممتلئًا إيمانًا وحكمة، ويظهر أثر الإيمان الذي امتلأ به قلبه على لسانه، فلا يقول إلا قولًا فصلًا، لا إثم ولا فضول

(١) الفوائد والأخبار لابن حمكان الهمذاني (ص: ١٤٩)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٢)، بلفظ قريب.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٢٥٤)؛ وتهذيب اللغة للأزهري (٧/ ٣٦).

فيه، وإن قال ووعظ تفجرت ينابيع الحكمة على لسانه؛ فاللسان يغترف من القلب مما به من خير أو شرّ؛ قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

٧٣

الخسـارة في الريـاء والعصيان

قال إبراهيم الخوَّاص[(١)] رحمه الله: «الخاسر من راءى الناس بأحسن أعماله، وبارَزَ بالقبيح مَن هو أقرب إليه من حبل الوريد»[(٢)].

بيـان المفردات

حبل الوريد: الوريد: هو عرق مما يلي مُقَدَّم العنق، والمقصود بحبل الوريد هنا: الروح[(٣)].

(١) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق الخوَّاص، صوفي، كان أوحد مشايخه في وقته وممن يذكر بالتوكل وكثرة الأسفار على التجريد، وله كتب مصنفة، من أقران الجنيد، صحب أبا عبد الله المغربي. توفي في جامع الري سنة ٢٩١هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ٤٩٣)؛ الأعلام للزركلي (١/ ٢٨).

(٢) ثلاثة مجالس من أمالي أبي عبد الله الروذباري (ص: ٢١)؛ ونسبه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية إلى ابن الأعرابي، بلفظ: «أخسر الخاسرين من أبدى للنَّاس صَالح أَعماله وبارز بالقبيح من هُوَ أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد». ينظر: طبقات الصوفية (ص: ٣٢١).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة صحاح العربية للجوهري (٢/ ٥٥٠)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٨٦٥).

المعنى الإجمالي

إن الخسارة الحقيقية والمصيبة الكبرىٰ أن يكدح العبد في الدنيا، ويتقرب بأنواع القرب والطاعات وهو يظن أنه يحسن عملًا، فإذا بطاعاته قد ذهبت أدراج الرياح، وما قبل الله منها شيئًا، بل أحبط عملَه كله، وذلك بسبب داء قد خفي عنه ألا وهو الرياء، فالمرائي يعمل العمل وفي نيته أن يراه الناس ويعجبوا بعمله، فلذلك لا يقبل الله منه؛ لأنه لم يرد وجه الله في عمله، والله لا يقبل إلا ما كان خالصًا له.

قال ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قال: قلنا: بلىٰ، فقال: «الشرك الخفي؛ أن يقوم الرجل يصلي فيُزَيِّن صلاتَه لما يرىٰ من نظر رجل»(١).

ومن تعظيم العبد لربه ألا ينتهك محارمه عند خلوته بنفسه وابتعاده عن أعين الناس؛ فإن الله مطلع عليه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بل ينبغي أن يكون في سرّه أشد خشية لله من علانيته؛ لأنه قد ورد تحذير شديد لمن ينتهك محارم الله في الخلوة؛ فعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله عز وجل هباء منثورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله صِفهم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أمَا إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/ ٣٥٥) برقم: (١١٢٥٢)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٩١) برقم: (٤٢٠٤)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٥) برقم: (٦٤١٣). قال البوصيري: هذا إسناد حسن. ينظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه لأبي العباس البوصيري (٤/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤١٨) برقم: (٤٢٤٥)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٤٦) برقم: (٤٦٣٢). قال أبو العباس البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. ينظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري (٤/ ٢٤٦).

٧٤

الإخلاص سرّ

قال الجنيد[1] رحمه الله: «الإخلاص سر بين الله والعبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيُمِيْلُه»[2].

المعنى الإجمالي

الإخلاص لله تعالىٰ أحد شرطَيْ قبول الأعمال عند الله تعالىٰ، وهو يعسُر علىٰ كثير من العلماء والعُبَّاد والدعاة وغيرهم من عموم المسلمين؛ فقد يقوم العبد المسلم بعمل صحيح شرعًا لكنه يفتقد هذا الركن الركين والشرط الوثيق فتكون أعماله مردودةً عليه.

ولخطورة الرياء في محق الأعمال الصالحة نبَّه النبي ﷺ وحذَّر أمته من الرياء، وذلك في حديثه الذي ذكر فيه أول من تُسعَّر بهم نار جهنم، وهم: الشهيد، وقارئ القرآن، والمتصدق[3].

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم، النهاوندي ثم البغدادي، القواريري، شيخ الصوفية، ولد سنة نيف و٢٢٠هـ، تفقه علىٰ أبي ثور، وسمع من السري السقطي والمحاسبي، أتقن العلم ثم أقبل علىٰ شأنه، ونطق بالحكمة، توفي سنة ٢٩٧هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/ ٦٦)؛ الأعلام للزركلي (٢/ ١٤١).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٦١).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

إن الإخلاص سرٌّ خفيٌّ بين العبد وربه، حتىٰ إن الملك المكلَّف بكتابة الأعمال الصالحة لا يطَّلعُ علىٰ الإخلاص، ولا يطلع عليه الشيطان فيحرفَه ويضله ويغويه، ولا يكون لهوىٰ النفس حظٌّ فتميله عن وجهته ومقصده، فهو لله وبالله ومع الله.

لقد كان الصحابة الكرام ومن بعدهم من صالحي الأمة يجعلون الإخلاص أساسًا في كل أعمالهم، فلم ينشروها أو يذيعُوها بين الناس، فكتب الله لأعمالهم البقاء والقبول بين الناس.

٧٥

الإخـلاص عزيـز

قال يوسف بن الحسين[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعزُّ شيءٍ في الدنيا الإخلاص؛ وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لونٍ آخر»[(٢)].

بيـان المفردات

أعزُّ شيءٍ: يقصد بالعزة هنا: القلة والنُّدْرة، يقال: عزَّ الشيءُ: إذا قَلَّ حتىٰ لا يكاد يوجد من قلته[(٣)].

المعنى الإجمـالي

يفرح العباد بأعمالهم الصالحة التي عملوها، ما كان منها مقصورًا عليهم أو متعديا نفعه إلىٰ الآخرين من العباد، لكنهم ما وقفوا وقفات محاسبة مع تلك الأعمال هل قُصد بها وجه الله وابتغاء مرضاته؟ أو أن الباعث لها والدافع من ورائها

(١) يوسف بن الحسين بن علي، أبو يعقوب، الرازي، الإمام، العارف، شيخ الصوفية، أكثَرَ الترحال، قال السلمي: كان إمام وقته، لم يكن في المشايخ أحد علىٰ طريقته في تذليل النفس وإسقاط الجاه، توفي سنة ٣٠٤هـ. ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/ ٢٢٠)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/ ٢٤٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٦٢).

(٣) العين للخليل بن أحمد (١/ ٧٦).

هو حب المحمدة والثناء، والسعي لأن تكون للعبد مكانة عند العباد.

لقد أوضح الله تعالىٰ أمره للرسول ﷺ بالإخلاص فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢]. وقال ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

إن المتأمل في أحوال الناس يجد أن الإخلاص أصبح عزيزًا قليلًا نادرًا، والسبب يعود إلىٰ ضعف التربية الإيمانية التي من أسسها التربية علىٰ الإخلاص، والابتعاد عن الدوافع الأخرىٰ التي يكون هوىٰ النفس وحظوظها هي من تقف وراء تلك الأعمال.

٧٦

السلامة من النفاق طريق الوفاء

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إِنمَّا يَقْدِر على الوفاء بِعهد يوم الْمِيثاق مَن كان سليمًا من النفاق»(١).

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان -يعني عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثم كلمهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]»(٢).

العهد هو الذي أخذ الله علىٰ عباده في عالم الذر عندما أخرج من صلب آدم عليه السلام ما يكون من ذريته إلىٰ يوم القيامة، وأخذ ميثاقهم أنه ربهم فأعطوه ذلك، ويوم الميثاق هو ذلك اليوم.

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٦٧) برقم: (٢٤٥٥)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧) برقم: (٧٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي؛ والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ١٠٢) برقم: (١١١٢٧).

والنفاق هو الداء العضال، وكثيرا ما يخفىٰ علىٰ من تلبَّس به[1]، فيعمل العمل ويظن نفسه محسنا لكنه في الحقيقة خاسر، يذهب عمله هباء، فيجازىٰ بما يحسبه حسنة بالسيئة، وقد بين الله سبحانه في كتابه العزيز خطر النفاق وخصاله وصفات أهله وأثرهم في إيذاء المؤمنين، لنكون من النفاق وأهله علىٰ حذر، ومن أبرز خصال النفاق الإخلاف بالوعد وعدم الوفاء بالعهد.

لذا يرىٰ ابن الجوزي رحمه الله أن الذي يستطيع الوفاء بذلك العهد هو الذي يسلم من النفاق. سلمنا الله منه ومن أهله.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٥٣٥).

٧٧

التوحيد وسيلة الوصول

قال ابن الجوزي ﷺ: «بغية كل مريد لا تُنال إلا بالتوحيد»[١].

بيان المفردات

بغية: البغية: طلب الشيء، ومن معانيها: الحاجة[٢].

مريد: المريد يأتي عند أهل التصوف بمعنى المحب السالك، وبمعنى المقتدي، وهو الذي نوَّر الله عين بصيرته بنور الهداية حتى ينظر دائما إلى نقصه فيسعى دائما إلى طلب الكمال.[٣]

التوحيد: هو الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد، وفي اصطلاح أهل السلوك: تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان. وهو ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة، وإفراده بالعبادة[٤].

---

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٣٧/ ١٧٩).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (٢/ ١٥١٤).

(٤) التعريفات للجرجاني (ص: ٧٩).

المعنى الإجمالي

بغية المريد القرب من المحبوب سبحانه والوصول إليه[١]، ولا يكون الوصول إليه إلا بمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإخلاص له، والتخلي عن فضول الدنيا الشاغلة عنه، والتجرد عما سواه، فلا يرىٰ إلا فعله، ولا يسمع إلا كلامه، ولا يُقبِل إلا عليه[٢].

(١) ينظر: ميزان العمل للغزالي (ص: ٤٠٣).

(٢) ينظر: الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (٢/ ٢٦٩).

٧٨

الإخـلاص روح العمـل

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها»(١).

بيـان المفردات

صور قائمة: صورة كل مخلوق: هيئة خِلْقته(٢).

الروح: النفس التي يحيا بها البدن(٣).

المعنى الإجمـالي

يُشَبِّه الإمام ابن عطاء رحمه الله الأعمال الصالحة الخالية من الإخلاص بالأشخاص الذين لا روح فيهم، وكما لا تكون الحياة في المخلوقات بدون الروح فكذلك لا يكون النفع في الأعمال دون وجود سر فيها غير مرئي هو الإخلاص.

والإخلاص: هو أن لا يشوب العمل ولا يخالطه أي قصد آخر سوىٰ قصد مرضاته سبحانه، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٢١).

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٢٠).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٣/ ٢٩١).

محض التقرب إلىٰ الله تعالىٰ فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلىٰ الله تعالىٰ عن جميع الشوائب(١).

والإخلاص يضاده الشرك، فإذا كان أصل العمل فيه شرك كان عملا باطلا غير مقبول عند الله؛ مصداقا لما جاء في الحديث القدسي: «قال الله ﷻ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه»(٢).

وأصل الشرك المحرم: اعتقاد شريك لله تعالىٰ في إلهيته، وهو الشرك الأعظم، ثم يأتي في مراتب الشرك: الإشراك في العبادة وهو الرياء، وهو أن يفعل شيئا من العبادات التي أمر الله تعالىٰ بفعلها له لغير الله، والإخلاص هو السر الخفي في الأعمال الصالحة.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥).

٧٩

الرحيل النافع

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا ترحل من كونٍ إلى كون فتكون كحمار الرَّحى؛ يسير والمكانُ الذي ارْتَحل إليه هو الذي ارتحَلَ عنه، ولكن ارْحَل من الأكوان إلى المكوِّن، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾»[(١)].

بيان المفردات

الكَوْن: المُكَوَّن المخلوق، وهو كل ما عدا الله[(٢)].

الرَّحى: الآلة المعروفة التي يُطحَن بها[(٣)].

المعنى الإجمالي

في هذه الحكمة يشبه ابن عطاء الله رحمه الله من ينتقل في توجهه من مخلوق إلى مخلوق بأنه كالحمار الذي يدور حول الطاحون، فهو يتحرك ويتعب لكنه يبقى في مكانه الأول، وفي هذا التشبيه مبالغة في تقبيح حال من يعمل هذا، ودعوة لهم إلى

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٥).
(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (١/ ٣٧٦).
(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣١٢).

حسن الأدب ليكون انتهاء سيرهم إلىٰ الله وعكوف قلوبهم عليه[١].

وقد جاء في الحديث: «فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله ﷺ، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»[٢]، فلو تأملنا قوله: «فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه» لعلمنا أن الاعتبار ليس قائما في الانتقال من مكان إلىٰ مكان آخر وإنما هو بالقصد والغاية التي ينتقل الإنسان من أجلها.

وهذا المعنىٰ ليس محصورا في الهجرة بالأبدان، بل هو شامل لرحلة السير إلىٰ الله وطلب مرضاته؛ فغاية المسلم في رحلته الإيمانية هي التي تحدد هل تحقق سفره ووصل إلىٰ هدفه، أو انتقل من التوجه إلىٰ صنف من المخلوقات مما عدا الله إلىٰ صنف آخر من المخلوقات مما عدا الله؟! فيكون في حقيقة الأمر قد راوح مكانه ودار في حلقة مفرغة.

ومن أمثلة هذا التوجه الخاطئ: أن يترك المسلم طلب أمور الدنيا لكن يتوجه بطلبه إلىٰ تحصيل مقامٍ يُمدح عليه بين الناس مثل أن يقال عنه: عابد أو تقيّ، أو يتوجه إلىٰ طلب تحصيل الكرامات والثمرات العاجلة لطاعته.

بل إن التوجه إلىٰ طلب الجنة ونعيمها لا بد أن يكون باعتبارها كرامة وفضل من الله يكرم به عباده المؤمنين، وليس باعتبار ما فيها من طعام وشراب ومتع لِذاتها، فالمسلم لا يكون غاية أمله شيئا آخر في الدنيا ولا في الآخرة بأن يكون هذا الشيء هو قصده وأمله وإنما باعتبار أنه فضل من الله عليه، وقد قيل في معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٤٢]: مِنْه ابتداء المنّة وإليه انتهاء الآمال[٣].

(١) شرح الحكم للنفري (ص: ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٩٥١) برقم: (٤٧٨٣)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٤٦) برقم: (١٩٠٧).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٢٥٥).

٨٠

إشـراق البدايــة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»[١].

بيــان المفردات

أشرق: أضاء وتلألأ حُسْنًا[٢].

المعنى الإجمــالي

إذا سلك الإنسان طريقًا يسعىٰ فيه إلىٰ التقرب من الله ونيل مرضاته فإن آخر هذا الطريق ونتيجة هذا السعي مرتبط بأوله؛ فإذا كانت بدايته مضيئة مشرقة بالرجوع إلىٰ الله والصدق والإخلاص له كان تمام أمره مضيئًا مُشرقًا بالوصول إلىٰ ما يطلب، فمن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته.

وإشراق البداية إنما يكون برؤية العبد لفضل الله عليه أن وفقه للعمل الصالح، والتبرّي من الحول والقوة في كل فعل، والاعتماد علىٰ حول الله وقوته[٣]؛ لأن

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٢).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ١٧٥).

(٣) شفاء السقم لباراس (ص: ٢١٧).

الإنسان إذا ظن أن هذا العمل الصالح الذي يقوم به يرجع فضله إليه لا إلىٰ الله كان هذا الظن حجابا يمنع عنه الإشراق والأنوار.

ومن الجدير بالذكر أن إشراق النهاية المعبر عنه في هذه الحكمة أو النُّجح في النهاية بحسب تعبير الحكمة السابقة ليس محصورا في النجاح في الظاهر فقط، فإذا باشر المسلم عملًا التزم فيه بأوامر الله وتعليماته، واستعان فيه بالله ﷻ، ثم لم يحالفه النجاح الدنيوي في النهاية؛ فإن عدم الحصول علىٰ النتيجة الحرفية لما طلبه لا يعني عدم النجاح في حقيقة الأمر[١]؛ لأن نجاح المسلم الحقيقي هو نجاح الآخرة وذلك بأن يكون عمله صحيحا مقبولًا ينال به ثواب الله ورضوانه، فإذا حصل له هذا فأعظِم به من نجاح، وأكرِم به من فوز وفلاح.

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (١/ ٣٧٦).

٨١

مُبَشِّـرات النجـاح

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مِنْ علامات النُّجح في النهايات الرجوعُ إلى الله في البدايات»(١).

بيــان الـمفردات

النُّجْح: بمعنىٰ النجاح، وهو الفوز بالمطلوب وإدراك الغاية(٢).

الـمعنى الإجمــالي

غاية كل مسلم في هذه الحياة هي الوصول إلىٰ معرفة الله ومرضاته، ولا سبيل إلىٰ هذه الغاية إلا بالرجوع إلىٰ الله والاعتماد عليه اعتمادًا كليًّا.

والرجوع إلىٰ الله يكون بالافتقارِ إليه، ومعرفة أنه لا حول ولا قوة إلا به، ومعرفةِ أن الطاعات والصالحات إنما هي فضل محض من الله علىٰ العبد، وإخلاصِ النية لله وحده لا لمطلب آخر من حظوظ النفس أو من متاع الدنيا، والإكثارِ من الدعاء .والالتجاءِ إلىٰ الله بالهداية والتثبيت والعصمة من الزيغ والضلال، والقيامِ بحقوق الله من ترك المحرمات وأداء الواجبات، ثم الإكثار من

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٢).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٦١١)؛ والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٩٠١).

التطوع والقربات.

فإذا كانت بداية سعي الإنسان على هذا النحو كانت هذه البداية علامة دالة على أنه سينجح ويصل إلى مطلوبه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

أما إذا اعتمد الإنسان على نفسه وإمكاناته وظن أن ذلك كفيل بإيصاله إلى النجاح فقد ضل سواء السبيل ولم يصل إلى ما يريد، فقد علّمنا النبي ﷺ دعاء المكروب: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»[1]، فإن الاتكال على النفس والرجوع إليها آفة خطيرة تحول بين المسلم وبين غايته؛ إما بالانحراف أثناء الطريق، أو بالانقطاع وعدم الاستمرار.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٠) برقم: (٩٧٠)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٨٤) برقم: (٥٠٩٠).

٨٢

أنفع العمل

قال ابن القيّم رحمه الله: «أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص، وعن نفسك بشهود المِنّة؛ فلا ترى فيه نفسَك ولا ترى الخلق»(١).

بيـان المفردات

المِنّة: مَنّ فلانٌ على فلانٍ: إذا عظّم الإحسانَ وفَخَر به وأبدأ فيه وأعادَ حتى يُفْسدَه ويُبَغِّضَه(٢).

المعنى الإجمـالي

العمل الصالح المقبول هو العمل الذي تحققت فيه الصفات التي تدل على صدق العبد في عبادته لمولاه عز وجل، وأن لا تشوب العمل الشوائب المفسدة له أو التي تنقص من أجره وثوابه، ومن هذه الشوائب التي تدل على خلل في صدق العبد أثناء أداء العمل الصالح: شائبة الرياء وشائبة الإعجاب بالعمل.

وقد جاء التحذير من الرياء في نصوص كثيرة، منها قول الله عز وجل في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاءِ عن الشرك، مَنْ عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركْتُه

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٨٠).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤١٨).

وشِرْكَه»(١)، والرياء نوع خفيّ من أنواع الشرك، حيث يقصد الإنسان أن يراه الناس أثناء أداء العمل ويحب أن يقولوا عنه إنه شخص صالح.

وكذلك إعجاب المرء بنفسه وبعمله هو من الأدواء الخطيرة المفسدة للعمل الصالح، حيث يظن الإنسان أنه أفضل من غيره من الناس لأنه قام بهذا العمل، ويرىٰ نفسَه في نفسِه عظيما.

وفي هذه الحكمة يبين ابن القيم رحمه الله طريقة التخلّص من آفة ملاحظة الناس وآفة الإعجاب بالنفس اللتين قد تشوبان العمل الصالح، فآفة ملاحظة الناس وريائهم يتخلّص منها المسلم عن طريق الإخلاص لله عز وجل وحده، وطلب مرضاته خالصة دون أي أحد سواه، والطريقة للتخلّص من الإعجاب بالنفس هو تذكر فضل الله ومنّته المتواصلة؛ إذ لولا فضل الله لما وُفّق العبد لهذا العمل الصالح، ولولا عونه لما تيسر للعبد أن يقوم بهذا العمل، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥).

٨٣

العمـل العبثيّ

قال ابن القيم رحمه الله: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر؛ يملأ جِرابه رملاً يُثْقِلُه ولا ينفعه»(١).

بيـان الـمفردات

الجِراب: وِعاء الزاد(٢).

الـمعنى الإجمـالي

يشترط في العمل الصالح تحقق أمرين حتىٰ يكون مقبولا عند الله تعالىٰ: أن يكون خالصا لوجه الله سبحانه، وأن يكون العمل موافقا للسنة وفاعله مقتديا بالنبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل حتىٰ يكون خالصا صوابا، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان علىٰ السنة»(٣).

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٦٦).

(٢) مختار الصحاح للرازي (١/ ٤٢).

(٣) تفسير الثعلبي (٢٧/ ٩١).

فإذا خلا العمل من الإخلاص، بأنْ أراد فاعله من ورائه حظا من حظوظ الدنيا، أو خالف سنّة النبي ﷺ وهدْيَه، فعند ذلك يكون هذا العمل مجرد حركات شكلية لا تسمن ولا تغني من جوع، بل إن هذا العمل يكون ضارا علىٰ صاحبه، حيث يتعب ويجتهد بسببه ثم لا ينال عليه الأجر والثواب، جاء في الحديث: «رُبَّ صائمٍ حظُّه مِن صيامه الجوع والعطش، ورُبَّ قائمٍ حظُّه مِن قيامه السهَر»(١).

وهذا العامل بغير إخلاص لله وبغير اقتداء بسنة النبي ﷺ يشبه المسافر الذي ملأ زوّادته رملًا بدل أن يملأها طعامًا، فهو يتعب في حملها علىٰ ظهره طول الطريق، لكنه لا ينتفع منها شيئًا.

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٤٢٠) برقم: (١٩٩٧)؛ وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٥٧) برقم: (٣٤٨١)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٣١) برقم: (١٥٧٦).

٨٤

أسبـاب الوصـول

قال ابن القيم رحمه الله: «المطلبُ الأعلى موقوفٌ حصولُه على هِمَّةٍ عاليةٍ ونيةٍ صحيحةٍ، فمَنْ فقدهما تعذَّر عليه الوصولُ إليه»(١).

بيـان المفردات

الهمّة: ما يبعث العبدَ للمقصود صرفًا، والهمّةُ العاليةُ هي الهمةُ التي تعلّقتْ بالله وحده(٢).

المعنى الإجمـالي

إنَّ الاشتغالَ بالله والغفلةَ عمَّا سواه هو المطلبُ الأعلىٰ والمقصدُ الأسنىٰ للعبد، وحصولُ هذا المطلب موقوفٌ علىٰ أمرين: همةٌ عالية، ونيّةٌ صحيحة، ذلك لأنَّ الهمَّة إذا كانتْ عاليةً تعلَّقتْ بالله وحده دون غيره، وإذا كانت النيةُ صحيحةً سلك العبدُ الطريقَ الموصلة إليه؛ فالنية تُفْرد له الطريقَ، والهمةُ تُفرد له المطلوبَ؛ فإذا توحَّدَ مطلوبُه والطريقُ الموصلة إليه كان الوصولُ غايتَه. وأمّا إذا كانت همَّتُهُ سافلةً تعلقتْ بالسُّفليات ولم تتعلَّق بالمطلب الأعلىٰ، وإذا كانت النيةُ غيرَ صحيحة

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢١٠).

(٢) ينظر: موسوعة فقه القلوب لمحمد بن إبراهيم التويجري (٢/ ١٧٧٣).

كانت طريقُهُ غيرَ مُوصلةٍ إليه[١].

فمدارُ الشأن على همّة العبد ونيَّته، وهما مطلوبُهُ وطريقُهُ، فإذا رأى اللهُ ﷻ مِن عبده صدقَ النية، ووصل إليه منه عملٌ عليٌّ، أخذ بيده إليه واعتنى به أشد من عناية الأب الشفيق بولده؛ فدبَّر له الأمور، وأصلح له الأحوال[٢]، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٤-١٠].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٢٢)؛ الفوائد لابن القيم (١/ ٢١٠).

(٢) ينظر: أسرار المحبين في رمضان لمحمد حسين يعقوب (ص: ٩).

٨٥

أضداد الإخلاص

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء»(١).

المعنى الإجمالي

ذلك لأن الإخلاص أن يصدق العبد النية في عمله فلا يبتغي به إلا وجه الله؛ فالله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له.

ومصداق ذلك ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢١٩).

من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه ثم ألقي في النار»(1).

فالإخلاص أساس العمل، به يعظم الصغير من العمل، وبه يحقر الكبير منه، ومن علاماته الزهد في السمعة والشهرة، واستواء المدح والذم من الناس؛ لأن العبد المخلص يعلم أنه هو أعرف بنفسه من الناس، وأعلم بصحة عمله منهم، فلا ينتظر مدحهم ولا يغره ثناؤهم، ولا يضره ذمهم.

ومِن شرح ابن القيم رحمه الله لحكمته هذه قوله: «فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل علىٰ الطمع أوَّلًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل علىٰ المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة؛ فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؛ سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يُسَهِّل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه؛ لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئا سواه. وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده؛ كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مَدْحي زَينٌ وذَمِّي شَيْن، فقال ﷺ: «ذلك الله ﷻ»(2)؛ فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح مَن كُلُّ الزين في مدحه وكُلُّ الشين في ذمه»(3).

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

(2) الحديث أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٠٧) برقم: (٣٢٦٧)، بلفظ قريب، وقال: حسن غريب؛ وأحمد في مسنده (٢٥/ ٣٦٩) برقم: (١٥٩٩١).

(3) الفوائد لابن القيم (١/ ٢١٩).

٨٦

الإخلاص شرط القبول

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمَّا صادَ الكلبُ لِربِّه أُبِيح صيدُه، ولمَّا أمسك على نفسه حَرُم ما صاده»(١).

المعنى الإجمالي

هذا تنبيه بحكم شرعي يتعلق بصيد الكلب المعلَّم، شبَّه ابن القيم به العملَ الصالح الذي يعمله العبدُ بالصيد، فكما أن الكلب إذا صاد لنفسه لا يحل صيده، لأنه لم يقم بأمر سيده، بل نظر في مصلحة نفسه، كذلك العبد إذا لم يقم بالعبادة اتباعًا لأمر ربه وإخلاصًا له، بل طلبًا لرغباته الشخصية، لم يطب عمله فلم يُقبَل، لأن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، فالعمل الخالي من الإخلاص كالصيد المحرم الذي لم يطب، ولم يحلَّ أكلُه، فهو غير مقبول.

هذه الحكمة تتحدث عن أهمية الإخلاص في أعمال العباد، إذا قام العبد بعبادة أو طاعة مما أمر به الله تعالىٰ، لكن قصد بذلك مدح الناس له، أو التباهي علىٰ الآخرين، أو قام بها مُكرَهًا من غير اختيار، فكل ذلك يحول بينه وبين قبول عمله عند الله. قال ﷺ: «إنَّ الله لا يقبل من العمل إلَّا ما كان له خالصًا،

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١١٤).

وابْتُغِيَ به وجهُه»[١].

وذكر ﷺ ثلاثة أصناف من الناس: الشهيد، والعالم القارئ، والغني المنفق، وقد قاتل الشهيد ليُقال عنه: جريءٌ شجاع، وتعلّم العالمُ ليُقال عنه: عالمٌ وقارئ لكتاب الله، وأنفق الغني مالَه ليُقال عنه: جَوَاد سَخِيّ، وقد قيل ذلك، مع أنهم زعموا أنهم قصدوا بذلك وجه الله، فلم يقبل الله منهم، ثم أمر بهم فأُلقُوا في النار[٢].

(١) أخرجه النسائي في سننه (٦/ ٢٥) برقم: (٣١٤٠).

(٢) هذا خلاصة حديث طويل مر وسيمر في أكثر من موضع في هذا الكتاب، أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

٨٧

العمل والإخلاص

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو نفع العلم بلا عمل لما ذَمّ الله سبحانه أحبارَ أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذَمّ المنافقين»(١).

المعنى الإجمالي

العلم ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو وسيلة إلىٰ العمل، فالعلم كالشجرة، والعمل كالثمرة، ولا ثمرة إلا بشجرة، ولا خير في شجرة لا ثمر لها.

وقد ورد الوعيد الشديد في الذي يُعلِّم الناس ويأمرهم وينهاهم ولكنه يعمل بخلاف ذلك، فعن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(٢).

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية»(٣).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢١) برقم: (٣٢٦٧).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣١).

وقد ذم الله أهل الكتاب بسبب عدم انتفاعهم بالعلم، فقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:٥]. فشبههم بالحمار الذي يحمل علىٰ ظهره كتبًا لا يدري ما فيها، فلا يستفيد منها.

وكما أن العلم لا ينفع بدون عمل، فكذلك العمل لا ينفع بدون إخلاص؛ ففي الحديث: «قال الله ﷻ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشِرْكَه»(١).

بل إن الذين يعملون لغير وجه الله هم أول من يقضىٰ عليهم بالنار يوم القيامة، جاء في الحديث: «إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه: رجلٌ استُشهد، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجلٌ تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتِيَ به، فعَرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجلٌ وَسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحب أن يُنْفَق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب علىٰ وجهه ثم ألقي في النار»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

باب التحذير من الرياء وحب الشهرة

٨٨

إيثار الخمول على الشهرة

قال فُضالة بن عُبَيد[١] رضي الله عنه: «إن استطعت أن تَعرِفَ ولا تُعرَف فافعل»[٢].

المعنى الإجمالي

إن مقام العبد عند الله لا يقاس بمقامه ومكانته عند الناس، فكم من مشهور رفيع المقام عند الناس لا يساوي عند الله شيئا، وكم من رجل خامل الذكر لا يؤبه له هو عند الله في أعلىٰ المقامات، ففي الحديث: «كم مِن أشعث أغبَرَ ذي طِمْرين لا يُؤْبَه له لو أقسم علىٰ الله لَأَبَرَّه»[٣]. والطِّمر: الثوب الخَلِق البالي، وذو طمرين: الذي عليه ثوبان باليان[٤].

ولذلك لم يكن السلف يلتفتون إلىٰ الشهرة ولم يتعرضوا لها، فإن وقعت من

(١) فضالة بن عُبَيد بن نافذ، أبو محمد، الأنصاري، الأوسي، الصحابي، من أهل بيعة الرضوان، الفقيه، شهد أُحُدًا وما بعدها وفتح الشام ومصر، وَلِيَ الغزو لمعاوية، ثم ولي قضاء دمشق له، وكان ينوب عنه إذا غاب، توفي سنة ٥٣، وقيل: ٥٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١١٣)؛ الأعلام للزركلي (٥/ ١٤٦).

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٩٩) بلفظ: «إن استطعتَ أن تَعرِفَ، ولا تُعرَفَ، وتَسمَع، ولا تكلَّم، فافعل»؛ المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٢٩٩)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ١٦٤) برقم: (٣٨٥٤)، وقال: حسن غريب.

(٤) ينظر: المعجم الأوسط للطبراني (٢/ ٩٩٦)

قِبَل الله تعالىٰ فروا منها، وكانوا يؤثرون الخمول، فهذا أويس القرني خير التابعين عندما رآه عمر قال له: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلىٰ عاملها؟ قال: أكون في غَبَراء الناس أحب إليَّ، ولما انكشف أمره وفطن له الناس انطلق علىٰ وجهه، وأخفىٰ أمر نفسه مخافة الفتنة(١).

وأكثر ما يتعرض لهذه الفتنة هم العلماء، ولذلك كان سيدنا عمر رضي الله عنه يخشىٰ علىٰ أهل العلم هذه الفتنة، قال سليم بن حنظلة: «بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه، إذ رآه عمر، فعلاه بالدرة، فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع! فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع»(٢).

وفي الحديث: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»(٣)، والخفي: الذي لا يبغي الشهرة ولا يتعرض للناس من أجلها.

وقال بشر بن الحارث: «ما أعرف رجلًا أحبَّ أن يُعرَف إلا ذهب دينُه وافْتُضِح»(٤).

ومع هذا فالمؤمن كيِّسٌ فَطِن، يعرف الأشياء خيرها وشرها، ويعلم حقائق الأعمال، ولا يخفىٰ عليه من أمر الناس والمجتمع ما ينبغي أن يعلمه، فعدم شُهرته لا تعني جهله بأحوال الناس.

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ١٨٩) برقم: (٢٥٤٢).
(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ٧٦)؛ وقد ورد هذا عن ابن مسعود، ينظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ١٥٣).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٤) برقم: (٢٩٦٥).
(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٤٣).

٨٩

عدم الإخلاص يُذْهِب العمل

قال الربيع بن خُثَيم ﵀: «كل ما لا يُبْتَغَى به وجهُ الله تعالى يَضْمَحِلّ»(١).

بيـان المفردات

يَضْمَحِلّ: اضمحل السحاب: إذا انقشع، واضمحل الشيء: إذا ذهب(٢).

المعنى الإجمـالي

ما كان لله دام وأثمر، وجعل الله به أجرًا عظيمًا، سواء أكان العمل قليلًا أم كثيرًا، فكل أقوال الإنسان وأفعاله إن لم يكن الإخلاص ضابطًا لها فإنها تضمحل وتتلاشىٰ كأن لم تكن، ولذلك قال الله تعالىٰ لنبينا محمد ﷺ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:١١].

والمؤمن يرجو لقاء الله، وهو لذلك يقدم الأعمال الصالحة الخالصة التي لا يشرك فيها مع الله أحدًا كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، أما إذا فُقِد شرط الإخلاص لله تعالىٰ في

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٠٧).

(٢) شمس العلوم ودواد كلام العرب من الكُلوم لنشوان الحميري (٦/ ٤٠٠٢).

العمل لم يقبله الله كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

٩٠

داء الشهـرة

قال إبراهيم بن يزيد النخعي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كفى بالمرء شرًّا أن يُشار إليه بالأصابع في دينٍ أو دنيا، إلا من عصم الله»[٢].

المعنى الإجمـالي

كان من سلوكيات السلف الصالح من العلماء وغيرهم أنهم لا يحبون أن يشتهروا ويُشارَ إليهم بالأصابع؛ ذلك أنَّ العبد في الخفاء تتربىٰ نفسه علىٰ التواضع والبعد عن التكبر، ومن أبرز هؤلاء التابعي الجليل أويس القرني، وكان النبي ﷺ قد ذكره باسمه وصفته، وحث من يدركه من الصحابة أن يطلبوا منه الدعاء، فأدركه عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في إمارته، فطلب من أويس الدعاء، فدعا له، ولما أراد عمر أن يوصي به إلىٰ أحد ولاته رفض أويس، ودخل في غمار الناس، ولم تعرف أين وجهته[٣].

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران النخعي اليماني ثم الكوفي، الإمام الحافظ، فقيه العراق، من التابعين، روىٰ عن طائفة، كان بصيرا بعلم ابن مسعود، واسع الرواية، كثير المحاسن، توفي سنة ٩٦هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ٣٨٨)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٢٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٣٢).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦٩) برقم: (٢٥٤٢)، وقد ذكرنا موضع الشاهد بتصرف.

وما جاء حب الشهرة إلا حين ضعُفَ الإيمانُ بالله تعالىٰ، وظهرت حظوظ النفس، وحب التطلع إلىٰ المقامات العلىٰ.

والأولىٰ للمسلم أن لا يقصد الشهرة، لكن إن اشتهر دون طلبه ورغبته؛ لتميزه بعلم من العلوم، أو بقوة فتواه، وجهره وصدعه بالحق، وجاهد نفسه بالإخلاص لله تعالىٰ، فإن ذلك الأمر لن يضره بإذن الله تعالىٰ، ولا يزال معه من الله حفيظٌ وظهيرٌ.

٩١

الصادق يحب الخفاء

قال أيوب السختياني[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما صدق عبدٌ إلا سرَّه أن لا يُشْعَر بمكانه»[٢].

المعنى الإجمالي

العبد الصادق في توجهه إلىٰ الله وقصده في عباداته كلها من أقوال وأفعال، لا يحب أن يَشعر أحدٌ من الخلق بمكانه في العمل؛ فهو يؤدي أعمالًا كثيرةً لا يعلمها إلا الله، بل يصاب بالحزن لو اطلع عليها الناس دون معرفته وقصده.

والشواهد علىٰ إخفاء الصالحين لطاعتهم كثيرة، وما ذاك إلا لأنهم لا يرجون الثواب والأجر إلا من الله تعالىٰ؛ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنْ كان الرجل لقد جمع القرآن وما يَشْعر به جارُه، وإن كان الرجل لقد فقُه الفقه الكثير وما يَشعر به الناس، وإنْ كان الرجل لَيُصلي الصلاة الطويلةَ في بيته وعنده الزَّوْر (أي: الزائرون والضيوف) وما يَشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان علىٰ ظهر الأرض من عملٍ

(١) أيوب السختياني، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان العنزي مولاهم، البصري، الآدمي، من صغار التابعين، الإمام الحافظ، سيد العلماء، سمع من كبار التابعين، توفي في طاعون البصرة سنة ١٣١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ١٥)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٦١٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نُعيم (٣/٦).

يقدرون على أن يعملوه في سرٍّ فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم ﷻ»(١).

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٤٥).

٩٢

حب الشهرة

قال إبراهيم بن أدهم[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما صَدَقَ عَبدٌ أحبَّ الشُّهرةَ»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن حب الشهرة وطلبها من أعظم الآفات التي تفسد علىٰ المرء دينه وتقدح في إخلاصه، وتسلك بصاحبها إلىٰ الشرك الأصغر (الرياء)، وهي مرض خفي لا يكاد يتفطن له إلا من نوّر الله بصيرته، والزهد في الشهرة أشد علىٰ النفس من الزهد في الدنيا، فقد يزهد الإنسان في المال، ويقنع من اللباس والطعام بالدون، ويصبر عن شهوات الدنيا المادية، ولكنه يرغب في الرئاسة والجاه والشهرة، ويسعىٰ إلىٰ تحصيل ذلك؛ إما بالعلم، أو بالوعظ، أو بمجرد الزهد ليشار إليه أنه زاهد، فهذا قد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم الشرين، لأن حب الشهرة يدفع صاحبه إلىٰ الرياء والكذب والحسد ليصل إلىٰ مطلوبه.

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور، أبو إسحاق العجلي الخراساني البلخي، نزيل الشام. الإمام، العارف، القدوة، سيد الزهاد، ولد في حدود المئة، حدَّث عن أبي إسحاق السبيعي ومنصور وطائفة، توفي سنة ١٦٢هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٣٨٧)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٥/ ٢٠٩).

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٦٤٤)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣١).

ومن سيطر عليه حب الشهرة فقد أضرّ أشد الضرر بنيته؛ إذ لا يكاد يسلم له عمل من الرياء؛ ويصبح أكبر همه أن يُحسن في عمله لأجل سماع ثناء الناس، وهذا ينافي الإخلاص والصدق.

وكان السلف يكرهون الشهرة ويحذّرون منها، يقول ابن المبارك: قال لي سفيان: «إياك والشهرة، فما أتيت أحدًا إلا وقد نهىٰ عن الشهرة»(١). وقال حماد بن زيد: «كنا إذا مررنا علىٰ المجلس ومعنا أيوب فسلم، ردوا ردًّا شديدًا، فكان ذلك يَغُمُّه»(٢).

وقال الفضيل رحمه الله: «إن قدرت علىٰ أن لا تُعرف فافعل، وما عليك أن لا تُعرف! وما عليك أن لا يُثْنىٰ عليك! وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت محمودًا عند الله تعالىٰ!»(٣).

وليست الشهرة مذمومة بذاتها، ولكن المذموم حبُّها وطلبُها والسعي للوصول إليها، لكن إن كانت الشهرة من الله تعالىٰ من غير طلب فليست بمذمومة؛ كأن يكون الإنسان متخصصًا في مجال ما، ويكون متقنًا لتخصصه، فيكتسب بذلك شهرة، فهذا لا بأس به؛ إذ إن هدي الإسلام وجوب الإخلاص لله تعالىٰ في كل الأحوال والأقوال والأفعال، والمتابعة للشرع الحكيم، فإن قام المسلم بهذين الشرطين، وأتت الشهرة عرضًا دون طلب فلا بأس بذلك.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٣).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٧٨).

٩٣

ترك العمل من أجل الناس

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «تَرْكُ العمل لأجل الناس هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك»(١).

المعنى الإجمالي

الإخلاص من الأمور التي تتطلب من العبد سؤالًا مستمرًا لله تعالىٰ أن يجعل أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته خالصة لوجهه الكريم؛ فلا يعمل العبد عملا يبتغي به وجه الناس ورضاهم، فالعمل لأجل الناس شركٌ؛ إذ أشرك المخلوقين بالخالق سبحانه، ولا يترك العمل لأجل الناس حتىٰ لا يقولوا عنه بأنه مُرَاءٍ؛ لأنه لاحظ نظر الناس إليه، وهذا ينافي الإخلاص، فالإخلاص أن يعمل العمل مخلصًا به لله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر:١٤]، ذلك أن اليسير من الرياء شرك، وقد أخبر معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «اليسير من الرياء شرك»(٢). والعافيةُ أن يعافي الله العبد من العمل لأجل الناس، ومن تركه العمل خوفًا من الرياء.

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٤١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٤) برقم: (٤)، وقال: حديث صحيح، ولم يُخَرِّج في الصحيحين، وقال الذهبي: صحيح ولا علة له.

إن من ترك العمل الصالح لأجل أن يقول الناس: إن فلانًا مخلص، هو من الرياء كمثل من أتىٰ بالعمل لأجل الناس، فالترك والفعل سواء، بل إن الترك نوع من أنواع الفعل، كما قال في مراقي السعود:

.... والترك فعلٌ في صحيح المذهب[(١)].

وأما إن ترك العمل الصالح خوفًا من دخول الرياء عليه عند العمل، فهذا لم يقع في الرياء، بل فرَّ منه، ولكنه من ضعف نفسٍ وقلة فهمٍ، فإن الشيطان يرغب في ترك العبد للعمل الصالح ويدخل عليه من باب الخير، وإنما الواجبَ علىٰ العبد في هذه الحالة أن يجاهد نفسَه علىٰ الإخلاص ويُقبِل علىٰ العمل ويُصفِّي نيتَه من الشوائب.

(١) نثر الورود شرح مراقي السعود لمحمد الأمين الشنقيطي (١/ ٥٥).

٩٤

الخشـــوع المكــروه

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «كان يُكْرَه أن يُرى على الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه»(١).

المعنى الإجمالي

الخشوع خشوعان: خشوع محمود؛ وهو ما توافق فيه خشوع القلب مع خشوع الجوارح، وخشوع مذموم؛ وهو إظهار الخشوع بالجوارح وليس للقلب منه نصيب، فكم مِن مُدَّعٍ خشوعًا وليس له منه حظٌّ، فالخاشع لا يرائي الناس بِطَأْطَأَةِ رأسه، واقشعرار جسده دون أن يطابق خشوعه الظاهري بما يمارسه عند خلوته في صلاته أو دعائه في بيته.

لقد فسَّر علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٢]، فقال: «الخشوع خشوع القلب، وأن لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا»(٢).

إن مما يكره في الخشوع أن يُرىٰ العبد خاشعا في جوارحه أكثر مما هو في قلبه، ومما يستدل علىٰ تلك الكراهة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأىٰ رجلًا مطأطئ الرأس، فَقَالَ: «يا صاحب الرَّقَبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرِّقاب، إنما الخشوع في

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٧٧).

(٢) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ١٨٨).

القلوب»(١)، وأيضًا ما ذُكِر عن أبي أمامة ﷺ، أنه رأىٰ رجلًا يبكي في المسجد في سجوده، فقال: «أنتَ أنتَ لو كان هذا في بيتك»(٢).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٩٦).
(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٥٠).

٩٥

عقوبــة المُتَزَيِّن بما ليس فيــه

قال سفيان بن عيينة[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تَزَيَّن للناس بشيء يعلم الله تعالى منه غير ذلك شانه الله»[(٢)].

بيــان المفردات

شانه الله: الشَّيْن: نقيض الزين، وقد شانَه يشينُه شينًا[(٣)].

المعنى الإجمــالي

المتزين بما ليس فيه لا يستطيع الثبات علىٰ حاله؛ لأنه يعلم أن الحال الذي تزيا بها هي حال المتصنع بما ليس عنده وما ليس فيه؛ كمن يُظهِرُ زهدًا وورعًا وقلبه يغلي بحب الدنيا، يتمنىٰ لو يُعطاها ولا يُعطىٰ أحدٌ سواه، ومثل الذي يكثر من دعائه وبكائه بين يدي الناس إذا ذُكر الله تعالىٰ والدار الآخرة، فإذا خلا بنفسه

---

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، أبو محمد، من تابعي التابعين، محدث الحرم المكي، أصله من الكوفة وانتقل إلىٰ مكة، سمع عن الزهري وعمرو بن دينار، وروىٰ عنه ابن المبارك والشافعي وغيرهم، ولد سنة ١٠٧، وتوفي سنة ١٩٨هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٨/ ٥٩)؛ الثقات لابن حبان (٦/ ٤٠٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٧١).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٦/ ٢٨٦).

لم يجد ما كان يجده بين الناس من الخشوع والبكاء وكثرة الدعاء.

إن الله تعالىٰ لا يرضىٰ لعبده أن يعيش حياة التزلف والتقرب للمخلوقين علىٰ حساب دينه وعبادته، فيكون كمن يتقن دوره التمثيلي عن رجلٍ صالحٍ، فإذا انتهىٰ الدور عاد إلىٰ حالته الطبيعية من التهاون وترك الالتزام.

وقد بين النبي ﷺ شناعة مثل هذا العمل فقال: «المتَشَبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَي زور»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم: (٥٢١٩)، ومسلم في صحيحه (٦/ ١٦٨) برقم: (٢١٢٩).

٩٦

الريـــاء خفيّ

قال الشافعي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَعْرِف الرياءَ إلا المخلصون»[(٢)].

المعنى الإجمـــالي

لا يَعرف خطرَ الرياء وشرَّهُ إلا المخلصون؛ لأنهم يعرفون أنه يخالف أوامر الله ورسوله ﷺ بترك الرياء، والإخلاص لله في القول والعمل، ويمحق العمل كله، فيُرَدُّ علىٰ صاحبه، ويوم القيامة يكون من المفضوحين المعذبين؛ فأما فضحه فكما جاء من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادىٰ مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك»[(٣)].

---

(١) محمد بن إدريس بن العباس، أبو عبد الله، القرشي المطلبي الشافعي، المكي ثم المصري، الإمام، عالِم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، صاحب المذهب، ولد سنة ١٥٠هـ، من كتبه: الرسالة، واختلاف الحديث، والأم، توفي سنة ٢٠٤هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/ ٣٩٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٥٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٤١٨) برقم: (١٧٨٨٨)، وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٦) برقم: (٤٢٠٣).

وجاء من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه: رجل استُشهِد، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استُشْهِدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فَسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار. ورجلٌ تعلّم العلمَ وعلَّمَه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به، فعَرَّفَه نِعَمَه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليُقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجلٌ وسَّعَ الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به، فعَرَّفَه نِعَمَه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ مِن سبيلٍ تُحب أن يُنْفَق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال: هو جَوَاد، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار»(١).

فالعلم الدقيق والفهم الدقيق يُعين الإنسانَ علىٰ مداخل الشيطان ودقائق الرياء التي لا ينتبه لها الجاهلون.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

٩٧

التزين بالباطل

قال الشافعي رحمه الله: «من تَزَيَّن بباطلٍ هُتِكَ سِتْرُه»[١].

المعنى الإجمالي

الله يحب الستر، ومن ستره لعبده في الآخرة أن يدنيه، ويضع عليه كنفه وستره، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُدْني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه ويَستُره، فيقول: أتَعْرِف ذنب كذا؟ أتَعرِف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أَيْ رب، حتىٰ إذا قَرَّرَه بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه هلك، قال: سَتَرْتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَىٰ كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]»[٢].

ويستر الله عبده في الدنيا، فلا يفضحه بما يجري منه من الذنوب، بل يستر عليه، حتىٰ إذا أصر واستكبر وتظاهر وتهتك، هتك ستره، وفضحه علىٰ رؤوس الخلائق، وإذا لم يفعله به في الدنيا فعله في الآخرة عند اجتماع الخلائق[٣].

(١) مناقب الإمام الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٨) برقم: (٢٤٤١).

(٣) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين للشوكاني (ص: ٤٤٣).

وإن الباطل الذي يتزين به أهله لا يسترهم؛ فهو ثوب صفيقٌ شفافٌ يشف عن العورات، ويهتك السوءات.

ومن يتزينون بالباطل كذبًا وزورًا إنما يستعجلون فواتهم، وهتك ستر الله لهم؛ فالمرء مستور بستر الله، ولن يترك الله أهل الباطل يتزينون بباطلهم وغيهم، بل هو كاشفٌ حالهم، ومظهرٌ قبيح أعمالهم للعباد.

٩٨

التطلُّع إلى الشهرة

قال بشر بن الحارث الحافي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجد حلاوة الآخرة رجلٌ يحب أن يَعرِفَه الناس»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إذا صدق العبدُ وأخلص عملَه، فإنه يجدُ للطاعة حلاوة ولذةً، وكأنه يعيش في جنة الله تعالىٰ، وهذا ما أجاب به حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين سأله النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة»؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: «لكل حقٍّ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانِك»؟ فقال في جملةِ جوابه: وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة في الجنة يتزاورون، فقال رسول الله ﷺ: «عرفت فالْزَم»[(٣)].

(١) بِشر بن الحارث بن عبد الرحمن، أبو نصر، المشهور بالحافي، ولد في مرو سنة: ١٥٠هـ، وسكن بغداد ومات بها سنة: ٢٢٧هـ، الرباني القدوة، سمع من حمّاد بن زيد، وإبراهيم بن سعد، وطبقتهما، وعني بالعلم، ثم أقبل علىٰ شأنه. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧/ ٥٤٥)؛ وفيات الأعيان لابن خلِّكان (١/ ٢٧٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم: (٣٣٦٧)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٥٨) برقم: (١٠١٠٦)؛ قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلىٰ الكشف عنه. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبي الحسن الهيثمي (١/ ٥٧).

إنَّ العارف بربه تعالىٰ يرىٰ أن الله عجَّل له من نعيم الآخرة ما يجد حلاوته في قلبه وفعله؛ وذلك حين تكون أقواله وأفعاله ابتغاء الله والدار الآخرة، وأما من أحب أن يرىٰ الناس أفعاله فيمتدحونها، وتكون له المنزلة عندهم بأفعاله، فإنه لا يجد حلاوة الآخرة؛ لأنه قد قدَّم ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، وما يكون فيه ضره علىٰ ما فيه نفعه، ويفتقد لذة الآخرة والإيمان في قلبه.

٩٩

من أحبَّ أن يُعرف افتُضِح

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «ما أعلم أحدًا أحب أن يُعرَف إلا ذهب دينه وافْتُضِح»(١).

المعنى الإجمالي

إن حب المعرفة ينافي الإخلاص، فمن كان همه في عمله أن يُعرف ويشتهر بين الناس فإنه عمله يذهب هباءً منثورًا لا يقبل الله منه شيئًا؛ كما في الحديث: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(٢).

إن العامل الذي يعمل عملًا ويريد أجره من غير رب العمل، لن يجد شيئًا قليلًا ولا كثيرًا، وفي يوم القيامة يفتضح المراؤون فضيحة كبيرة إذ يجدون أعمالهم مردودة عليهم؛ ففي الحديث عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادىٰ منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك»(٣).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٦) برقم: (٤٢٠٣)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣١) برقم: (٤٠٤).

١٠٠

عقوبـة الريـاء

قال ذو النون المصري[(١)] رحمه الله: «من تَزَيَّن بعمله كانت حسناته سيئات»[(٢)].

المعنى الإجمالي

من جعل عمله لله خالصًا وترك التزين والتصنع للآخرين رزقه الله القبول، وعاش بين الناس حياةً حسنة، ومن تزين لغيره فضحه الله ما لم يتب إليه[(٣)].

إنَّ المرائي والمتزين والمتصنع للناس يعمل عملًا هو من الصالحات والقربات، كقيام الليل، والصدقة على الفقراء والمساكين، لكنه إن قصد بعمله رئاء الناس، ولم يبتغ به وجه الله تعالى، فإنه يُحيلُ أعماله الصالحة إلى سيئات؛ بسبب أن تلك الأعمال الصالحة التي تظاهر وتزين بها أمام الناس لتجعل له مقامًا ومكانة، أصبحت مردودة عليه، بل كتبت عليه أوزارًا وسيئات، وكل ذلك بسبب انحراف نيته، وريائه للناس.

---

(١) ثوبان بن إبراهيم، أبو الفيض الإخميمي، المشهور بذي النون المصري، من أعلام التصوف، أوحَد وقته علما وورعا وحالا وأدبا، من كتبه: الأدعية والأذكار في الأوراد، وأرجوزة في الكيمياء، وحلّ الرموز في الخط، توفي سنة ٢٤٥هـ. ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧/ ٤٠٢)؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٣١٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٢).

(٣) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي (ص: ١٦٥).

وقد ذكر الله مثالًا في القرآن الكريم عن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، وكيف يصبح حالهم؛ إذ تزينوا بالإنفاق ليصلوا إلىٰ الناس، فردَّ الله عاقبة أمرهم خُسْرًا، قال تعالىٰ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٦].

١٠١

السقوط من عين الله

قال السَّريّ السَّقَطي رحمه الله: «من تَزَيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله عز وجل»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن التزين والتحسن للآخرين بإظهار ما ليس عنده كَلابِسِ ثَوْبَي زُور[(٢)]، أو كمُظْهِرٍ شبعًا ورِيًّا وهو يعاني من مسغبةٍ وفقرٍ شديدين، وسبب سقوطه من عين الله تعالىٰ كذبه وادعاؤه ما ليس فيه، والأصل في العبد المسلم أن يتوافق باطنه مع ظاهره، وقد جاء الإسلام ليهتم بإصلاح الباطن والظاهر معًا؛ فليس من المقبول أبدًا أن يكون العبد في ظاهره الصلاح والتدين، وباطنه خاوٍ من معاني الإيمان الذي مستقره القلب.

إن اكتفاء العبد بإصلاح ظاهره، وادعاءه أمام الناس الكمال في العبادة والعمل، دون أن يكتمل بناؤه الإيماني، يجعله يسقط سقوطًا مذلا ومخزيا في الدنيا بانكشاف حاله، ويكون سقوط هذا المدَّعي عند أول امتحان يتعرض له، وقد ورد في هذا

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٥٧).

(٢) جاء من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني، فقال رسول الله ﷺ: «الْمُتَشَبِّع بما لم يُعْطَ كلابِس ثوبي زور»، أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٨١) برقم: (٢١٢٩).

المعنىٰ قول الشاعر:

مــن تحلَّــىٰ بحليــةٍ ليســتْ فيــه فَضَــحَتْهُ شــواهِدُ الامتحــانِ(١)

وسقوطه في الآخرة بعدم مجازاته علىٰ أعماله، وعذابه علىٰ ما كان منه من كذب وزور في الصلاح والعبادة.

(١) عدة المريد الصادق لشهاب الدين زرُّوق (ص: ٦٣)

١٠٢

إخفاء الكرامات

قال أبو عمرو الدمشقي[(١)] رحمه الله: «كما فرضَ اللهُ تعالى على الأنبياء إظهارَ الآياتِ والمعجزات، فكذلك فرض على الأولياء كتمانَ الكرامات»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يشترك كلٌّ من المعجزات والكرامات في أنها أمر خارق للعادة أجراه الله على يد النبي أو الولي، لكن تختلفان من حيث الغرض الذي أجراها الله لأجله؛ فالمعجزات والآيات التي يظهرها الله على يد أنبيائه الهدف منها هو الشهادة للنبي بأنه مرسل من عند الله، ومن أمثلة ذلك ناقة صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف:٧٣]، وبما أن الهدف من المعجزة هو الشهادة بصدق النبي إذن فيجب عليه أن يظهرها للناس ويعلمهم بها حتى تقوم عليهم الحجة ويتحقق الهدف منها.

---

(١) أبو عمرو الدمشقي، أهملت المصادر ذكر اسمه ونسبه، الزاهد، من كبار مشايخ الصوفية، من أجلِّ مشايخ الشام، عالم بعلوم الحقائق، صحب أبا عبد الله بن الجلاء، من أفتى المشايخ، توفي سنة ٣٢٠هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٤٦)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٢١٦)؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (٤/ ١٠٣).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (٨/ ٢٢٣).

لكن كرامات الأولياء الهدف منها هو تثبيت قلوب عباد الله الصالحين في مواجهة الصعوبات التي تواجههم في مسيرتهم الإيمانية من أذىٰ الناس ومعاندتهم، فهي نوع من البشرىٰ الخاصة التي ينعم الله بها عليهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وبما أن الهدف من الكرامات خاص بمن ينعم الله بها عليهم فلذلك يجب كتمانها وعدم نشرها، لأن في نشرها ضررا علىٰ العبد الصالح نفسه بأن تكون مدعاة للعجب والاغترار، كما أنها قد تكون سببا للتشويش والتلبيس علىٰ عوام الناس.

والمقصود هو أن لا يقوم الولي نفسه بالتحديث بكرامته والاستشراف إلىٰ أن يعرفها الناس، لكن إذا علم بها الناس دون قصد منه فلا يؤاخذ الولي بذلك، كما حصل مع مريم وزكريا عليهما السلام حين رآها تأكل الطعام في غير موسمه فأخبرته أنه رزق من عند الله، كذلك قد يجد الولي دافعًا لإظهار الكرامة لسبب يقتضي ذلك، وليس من أجل التحالي بها أمام الناس، كما لو أظهرها لرد كيد أعداء الدين أو المستهزئين به.

١٠٣

الريــاء والإخــلاص

قال جعفر الخُلْدي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرق بين الرياء والإخلاص: أن المرائي يعمل ليُرَى، والمخلص يعمل ليَصِل»[(٢)].

المعنى الإجمالي

هناك فروق كبيرة بين الرياء والإخلاص، وبين المرائي والمخلص؛ من حيث المنطلق والوجهة والغاية؛ فالرياء مُنْطَلَقُه الخوف من ذمِّ الناس، وغايته الحرص على القرب منهم. ومنطلق الإخلاص حب الله، والقصد فيه هو وجه الله والوصول إلى رضاه، ونسيان الناس وترك الاهتمام بهم في إنشاء الأعمال بدئها وختمها، وغايته طلب القبول والرضا من الله، والرفعة في درجات الجنة العالية.

إنَّ المخلص لا يهتم بثناء الناس ومدحهم، أو تقريعهم وهجائهم، والمرائي يبذل جهده ووقته، وما يملكه للوصول إلى قلوب الناس، والناس متقلبون متغيرون ذوو طبائع وأمزجة متباينة. والمخلص عمل ليصل إلى الله بقلبه وجوارحه،

(١) جعفر بن محمد بن نصير، أبو محمد الخواص، بغدادي المنشأ والمولد، أحد شيوخ الصوفية، صحب الجنيد وأبا الحسين النوري ورويما وغيرهم، وكان المرجع إليه في علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم، توفي ببغداد سنة ٣٤٨هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٣٢٦)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٨١).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٢٧).

والمرائي عمل ليصل إلىٰ الناس، فما كان لله يبقىٰ، وما كان لغيره يزول ويفنىٰ.

وقد خلَّد التاريخ ذكر صاحب النَّقْب الذي عُرِفت قصته، وما عُرِفَ اسمه إلىٰ يومنا هذا، وسبب ذلك صدق صاحب النقب وإخلاصه؛ وقصته: أن مسلمة بن عبد الملك حاصر حِصنًا، فندب الناس إلىٰ نَقْب منه، فما دخله أحد، فجاء رجلٌ مِن عُرْض الجيش فدخله، ففتحه الله عليهم، فنادىٰ مَسْلمة: أين صاحب النَّقْب؟ فما جاءه أحد، فنادىٰ: إني قد أمرت الأَذَنَ (أي: الخدم) بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلّا جاء، فجاء رجل، فقال: استَأذن لي علىٰ الأمير، فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتىٰ مسلمةَ، فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا: ألّا تُسَوِّدوا اسمه في صحيفة إلىٰ الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو، قال: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب[1].

---

(١) ينظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٢٦٦)؛ المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٤/ ٢٠٠)؛ تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٨/ ٣٦).

١٠٤

إظهـار المحـاسن جهـل

قال أبو عمرو بن نجيد[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أظهر محاسنه لمن لا يملك ضَرَّه ولا نفعه فقد أظهر جهله»[2].

المعنى الإجمـالي

اعتاد كثير من الناس أنهم لا يظهرون تميزهم ومحاسن أعمالهم إلا عند من يملكون لهم النفع ويدفعون عنه الضر؛ وإن كان البشر لا يملك أحدهم أن يأتي بالخير لنفسه أو يدفع عنها الشر إلا بإذن الله تعالىٰ.

إنَّ إظهار المحاسن والصفات النبيلة والأعمال الصالحة للبشر ابتغاء مدحهم واتقاء ذمهم وسخطهم، يُنْبِئُ عن جهل شديد بحقيقة البشر الذين لا يملكون لأنفسهم ضرًا، ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا نشورًا، ولذا فإن علىٰ المؤمن أن يحيا حياته خالصة لله دون التفات لمدح البشر أو ذمهم.

---

(١) إسماعيل بن نجيد بن أحمد، أبو عمرو السلمي النيسابوري، الفقيه الشافعي، صحب أبا عثمان الحيري، ولقي الجنيد، كان من أكبر مشايخ وقته، سمع الحديث ورواه، توفي سنة ٣٦٦هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٣٣٩)؛ الروض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم لأبي الطيب المنصوري (١/ ٣٧٢).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٤١).

ويجب على العبد المسلم ألا يجعل شيئًا من عمله- قَلَّ أو كثُر- لغير الله، قال الله تعالىٰ عمن يعبدون غيره من المعبودات: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٥].

١٠٥

الخير في الخلوة والقلّة

قال أبو بكر الوَرَّاق[(١)] رحمه الله: «وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقِلّة، وشرهما في الكثرة والاختلاط»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يجد العابد لربه خيري الدنيا والآخرة في خلوته بربه وبعده عن الناس، وفي قلة ما يملكه، والشر كامن في الكثرة والاختلاط بالناس، لما في ذلك من الشرور.

ولقلة الاختلاط والخلوة بالنفس محاسن كثيرة، منها كثرة التأمل في حال النفس، وما يعتريها من أعراض وأمراض تؤخرها عن بلوغ الغاية، ومحاسبتها ومعاقبتها ومشارطتها، وكذا التفكير فيما يحتاجه العبد من أمور دينه ودنياه. وهذا لا يكون مع الكثرة في المال والخلطة، التي من نتائجها أنها تفسد على القلب سكينته، وعلى النفس اطمئنانها، وعلى الروح تعلقها بخالقها سبحانه وتعالى.

(١) أبو بكر محمد بن عمر بن علي الوراق البلخي الحكيم، المعروف بابن زنبور، أصله من ترمذ وأقام ببلخ، صحب ابن خضرويه وغيره، له الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والآداب، وأسند الحديثَ، توفي سنة ٣٩٠هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤/ ٥٧)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص١٧٨).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٢٣).

والخلطة بالناس مع الصبر على أذاهم فيها خير للعبد، كما ورد في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «المؤمن أو المسلم الذي يُخالطُ الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ أو أفضل من المؤمن الذي لا يخالطُ الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

والخلطة بالناس لا تكون خلطة يذوب فيها العبد ذوبانًا تختفي فيها شخصيته، بل هي تلك الخلطة المميزة، التي يستطيع بها العبد أن يميز بين الخير والشر؛ فإذا كان في مجلس لا يذكر فيه الله، أو يُستهزأُ بالله وكتابه ورسوله، فلا يقعد معهم، حتى يكونوا في أمر آخر غير ما كانوا عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٠]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام:٦٨].

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣/ ٣٩٩) برقم: (١٩٨٨)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٩٣) برقم: (٢٦٢٢٠).

١٠٦

شناعة الرياء

قال الفاريابي[١] رحمه الله: «الرياء لا يقبله الحقّ، ولا يحمَدُه الخلق»[٢].

المعنى الإجمالي

الرياء إذا رافق الأعمال الصالحة كان سببا لردّها في وجه صاحبها وعدم قبولها عند الله سبحانه وتعالى، جاء في الحديث القدسي: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشِركَه»[٣]، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا شيء له»، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابْتُغِيَ به وجهُه»[٤].

---

(١) محمود بن أحمد بن أبي الحسن، أبو المحامد، وقيل: أبو القاسم، عماد الدين، البخاري، الفاريابي، الحنفي، وقد يعرف باللؤلؤي، واعظ، فاضل، جمّاعة، اهتم بعلم الأخلاق والتصوف وجمع الأخبار والآداب والرقائق، من كتبه: خالصة الحقائق، وجلائل الأخبار، وخلاصة المقامات، توفي سنة ٦٠٧هـ. ينظر: معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١٢/ ١٤٥)؛ الأعلام للزركلي (٧/ ١٦١).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥).

(٤) أخرجه النسائي في سننه (٦/ ٢٥) برقم: (٣١٤٠)؛ قال المنذري: رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد. ينظر: الترغيب والترهيب للمنذري (١/ ٥٥).

وكذلك الحال في أعين الناس بالنسبة للمرائي، فإنه وإن حصل له بعض المدح من الناس لأنهم ينظرون إلىٰ ظاهر أعماله، فإنهم لا يحبونه ولا يحمدونه، لأن قلوب العباد بيد الله ﷻ يقلبها كيف شاء، والمرائي يبغضه الله فيبغّضه إلىٰ قلوب العباد، قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول: إني أُبْغِض فلانًا فأبغضه، قال: فيُبْغِضُه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبْغِض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[1].

كما أن المرائي سرعان ما ينكشف أمام الناس ويظهر لهم قصده ومراده، فمهما حاول الإنسان أن يخفي ذلك فإنه يظهر في فلتات لسانه وتصرفاته، **وكما قيل:**

ثوب الرياء يَشِفُّ عمَّا تحته ... فإذا الْتَحَفْتَ به فإنك عاري[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١) برقم: (٣٢٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٠) برقم: (٢٦٣٧).

(٢) البيت لعلي بن محمد التهامي. ينظر: دمية القصر وعصرة أهل العصر لعلي بن الحسن الباخرزي (١/ ١٤٣).

١٠٧

آفة حب الظهور

قال محمد ابن الظهير الإربلي[(١)] رحمه الله: «الظُّهور يَقْصِم الظُّهور»[(٢)].

بيان المفردات

الظُّهور: بالضم تأتي بمعنى بدوّ الشيء الخفي، يقال: ظَهر الشيء ظُهورًا: تَبَيَّن، وتأتي بمعنى الظَّهْر الذي هو خلاف البطن، ويكون من لَدُن مُؤخّر الكاهِل إلى أدنى العَجُز للإنسان[(٣)].

يقصم: القصم: دَقُّ الشيء وكَسْرُه حتى يَبِيْنَ ويُفْصَل، يقال للظالم: قَصَمَ اللهُ ظَهْرَهُ[(٤)].

(١) محمد بن أحمد بن عمرو ابن الظهير، أبو عبد الله الإربلي، مجد الدين، الحنفي، الأديب، ولد سنة ٦٠٢هـ بإربل، سمع ببغداد من مشايخها، وكان من كبار الحنفية، ودرس بالقيمازية، وهو من أعيان شيوخ الأدب. توفي سنة ٦٧٧هـ بدمشق. ينظر: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٣/ ٣٠١)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٢/ ٨٧).

(٢) ينظر: الصبر مطية النجاح لابن الظهير الإربيلي (ص: ٥٤)، ذكرها فيه بحذف المضاف، وأصلها: حب الظهور يقصم الظهور، وبدونها أيضًا يستقيم المعنى، ولكن الأول أشهر.

(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٥٢٠ و٥٢٧).

(٤) المصدر السابق (١٢/ ٤٨٥).

المعنى الإجمالي

تشير الحكمة إلىٰ داء خفي في نفوس الناس وهو داء حب الشهرة والظهور، وهذا داء يبتلىٰ به حتىٰ الصالحون، فيعمل أحدهم عملا يفترض أن يقربه إلىٰ الله، ولكن لحبه للشهرة ونيته الفاسدة يجعله يبعد عن الله ويستحق العذاب يوم القيامة، كما جاء ذلك في حديث أبي هريرة ﵁ سمعه من النبي ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأتي به فعرّفه نِعَمه فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار...»[(١)]، وهكذا بعض أعمال أخرىٰ ذُكِرَتْ في الحديث.

والشرع قد بين أهمية الإخلاص في العمل في مواضع كثيرة، وناط صحته بصحة النيات، فمن أراد الشهرة والظهور بين الناس أحبط اللهُ عمله، وألبسه لباس المذلة؛ كما قال ﷺ: «من لبس ثوب شهرةٍ في الدنيا ألبسه الله ثوب مَذَلّةٍ يوم القيامة»[(٢)]. ويلاحظ أنه أحيانًا تأتي الشهرة والسمعة للمرء نتيجة أعماله الصالحة وعلمه وزهده وتقواه بدون إرادته وقصده، وهذا لا بأس به إذا كانت نيته صالحة وعمله خالصا لوجه الله، بل قد تكون علامة لمحبة الله له، ولكن ينبغي له أن يتفقد قلبه دائما لئلا يدخله الشيطان من هذا الطريق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ٤٧٦) برقم: (٥٦٦٤).

١٠٨

خمــول البدايــات

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ادْفِن وجودَك في أرضِ الخُمول، فما نبَتَ مما لم يُدفَن لا يَتِمُّ نِتاجُه»[١].

بيــان الـمفردات

الخمول: الخفاء، والخامل هو الخفي[٢].

نتاجه: النِّتاج: الحمْل[٣]، وتمام النتاج يكون حين يوضع كاملًا.

الـمعنى الإجمــالي

يشير ابن عطاء رحمه الله في هذه الحكمة إلىٰ قانون من قوانين التربية والسلوك ومرحلة لا بد منها في طريق السير إلىٰ الله سبحانه وتعالى، حيث ينبغي علىٰ السالك في هذه الطريق أن يدفن وجوده بعيدا عن الشهرة متواريًا عن أضوائها لمدة من الزمن، وعليه الاجتهاد في هذه المدة ليصفّي سريرته من الشوائب، لأن تربية النفس ورعايتها لا تتأتّىٰ مع الشهرة والأضواء بل إن الأضواء ستكون سببا في دخول

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٢٥).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٤/ ٢٧٣).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣٧٤).

الشوائب في نية السالك وفي حرفها عن الإخلاص.

وهذا القانون التربوي في حياة الإنسان يشبه القانون ذاته في عالم النبات؛ فالنواة التي يراد استنباتها ستنمحق وتموت إذا ألقيت رأسا على وجه الأرض وتُرِكتْ ظاهرة بين الأتربة والحجارة، لكن إذا دُفنت في ظلمات التراب حتى تنضج وتنبعث خصائصها فسوف تخرج بقوة وتؤتي نتاجها بالشكل الصحيح، فظهور النبات يمر إذن بمرحلتين، مرحلة التأسيس حين يكون في باطن الأرض، ومرحلة النمو والعطاء حين يكون على ظهرها(١).

وهذا لا يعني الاستمرار على هذه الحالة دائما دون الانتقال إلى مرحلة البروز والاختلاط بالناس، فإن النواة لو بقيت في الأرض دون نماء وظهور لظاهر الأرض فهي نواة فاسدة أو ضعيفة، وإنما هي مرحلة في أول البناء ثم ينتقل إلى غيرها.

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (١/ ١٥٦-١٥٧).

١٠٩

الرياء الخفي

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك»(١).

المعنى الإجمالي

أصل الرياء: طلب المنزلة في قلوب الناس برؤيتهم خصالَ الخير(٢)، والأصل في الرياء أن يكون أمام الناس وعلىٰ مرأىٰ من أعينهم، وهذا النوع من الرياء هو الرياء الظاهر الجليّ، وثمت نوع آخر من الرياء هو الرياء الخفي الذي يكون بعيدا عن أعين الناس، قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «إن الرجل ليطوف بالكعبة وهو يرائي أهل خراسان، فقيل له: وكيف؟ قال: يحِبُّ أن يقول فيه أهلُ خراسان: إن فلانا مجاور بمكة علىٰ طواف وسعي فهنيئا له».(٣)

فالرياء الخفي هو أداء العمل الصالح بعيدًا عن مرأىٰ الناس مع تمني الحصول علىٰ مدح الناس ورضاهم والحظوة عندهم، فهذا النوع من الرياء اشترك

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٢١).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٩٧).

(٣) تنبيه المغترين للشعراني (ص: ٢٨).

مع النوع الأول في المحصلة التي يطلبها المرائي وهي إجمالًا ابتغاء نوع من الثواب من عند الناس.

والرياء بنوعيه الجليّ والخفيّ من الخصال المذمومة التي تحبط الأعمال وتجلب سخط الله علىٰ المرائي؛ قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»(١).

والباعث علىٰ الرياء هو ضعف في الإيمان يظن فيه المرائي أنْ سيكون له منزلة أعلىٰ عند الناس حين ينظرون إلىٰ عمله الصالح أو يعرفون عنه، والمخرج من هذا المرض القلبي هو استحضار عظمة الله دائما وأنه لا ثواب إلا ثوابه وأن قدْر الإنسان لا يرتفع إلا إذا رفعه الله، وفي عبارة هذه الحكمة من الإمام ابن عطاء إشارة لطيفة حين قال: «مِن حيث لا ينظر الخلق إليك» فكلمة الخلق تشير إلىٰ أن هؤلاء الذين يطلب المرائي رضاهم ما هم إلا مخلوقون ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرها نفعا، فليستحضر المسلم هذا وليتوجه بكامل رغبته وقصده إلىٰ خالقهم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/ ٣٩) برقم: (٢٣٦٣٠)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٥٣) برقم: (٤٣٠١)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٥) برقم: (٦٤١٢).

١١٠

القلب المشترك

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كما لا يحِبُّ العمل المشترك لا يحِبُّ القلب المشترك؛ العمل المشترك لا يَقْبله، والقلب المشترك لا يُقْبِل عليه»(١).

المعنى الإجمالي

لا يحب الله تعالىٰ العملَ المشترك الذي قصد صاحبه رضا الله ورياء الناس في الوقت نفسه، ومعنىٰ لا يحبه: يبغضه ويسخطه(٢)، ونتيجة ذلك لا يقبل هذا العمل ويردّ علىٰ صاحبه قال تعالىٰ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، قال ابن المبارك رحمه الله: «كل عمل صالح لا يراد به وجه الله»(٣)، كذلك الحال بالنسبة للقلب المشترك الذي وُجد فيه محبة الله ومحبة غيره علىٰ سبيل التساوي فإن الله لا يُقبِل عليه بمحبته ورضاه.

وفي هذه الحكمة يُحذر ابن عطاء الله السكندري رحمه الله من أمرين اثنين يسخطهما الله ويمقتهما:

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٨).

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٢/ ٢٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٨).

الأول: العمل المشترك: وهو العمل غير الخالص لوجه الله تعالىٰ، فصاحبه قصد رياء الناس أو كان معجبا بنفسه ورأىٰ أن لها الفضل في هذا العمل ناسيا فضل الله وتوفيقه.

الثاني: القلب المشترك: هو القلب الذي وُجد فيه تعلق بمحبة الدنيا وما فيها بحيث زادت محبة هذه الأشياء عن محبة الله تعالىٰ أو تساوت؛ لأن المسلم ينبغي أن يكون حبه لله تعالىٰ هو الأكثر والغالب، فعند التعارض يقدم محبةَ الله علىٰ محبة رغائب الدنيا(١)، جاء في الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(٢).

والنتيجة المترتبة علىٰ العمل المشترك هي أن الله لا يقبله، أي لا يستحق فاعله الأجر والثواب عليه، بل ويستحق الإثم والسخط، والنتيجة المترتبة علىٰ القلب المشترك هي أن الله لا يُقبل عليه برحمته ومحبته ورضوانه، وعدم الإقبال أشد درجة من عدم القبول(٣).

---

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦).

(٣) شرح الحكم العطائية للسندي (ص: ٩٨).

١١١

أركــان النفــاق

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «زَرْعُ النِّفاق يَنْبُت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرِّياء، ومخرجُهما من عينين: عين ضَعْفِ البصيرة، وعين ضَعْف العزيمة»(١).

بيــان الـمفردات

الساقية: نُهَير صغير(٢).

البصيرة: اسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقق الأمر(٣).

العزيمة: عقد قلبك علىٰ شيء تريد فعله(٤).

الـمعنى الإجمــالي

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٥٥٢).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ١٨١).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ١٢٣).
(٤) تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ٩٠).

وجاء في الحديث عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1].

ذكر الله سبحانه المنافقين وصفاتهم وأعمالهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها الآية الكريمة التي أشارت إلىٰ أبرز الصفات: وهي الخداع، والكسل علىٰ الطاعة، والرياء في فعلها، وقلة الذكر.

وفي الحديث الشريف ثلاث علامات تدل علىٰ المنافق، وهي الكذب والإخلاف بالوعد، وخيانة الأمانة.

وابن القيم ﵀ يشبه لنا النفاق بالنبتة التي تكون في ساقية تتغذىٰ وتنمو عليها، ثم بين أن الساقيتين اللتين يمكن أن ينبت عليهما النفاق هما الكذب والرياء، ومخرج الساقيتين من عينين، عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة.

فإذا ضعفت بصيرة العبد هان عليه الكذب، واستساغ الرياء، وإذا ضعفت عزيمته تكاسل عن الطاعة والذكر، وإذا كذب في قوله وراءىٰ في عمله، وخالفت جوارحه قلبه صار من أهل النفاق، والعياذ بالله.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم: (٣٣)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٥٦) برقم: (٥٩).

١١٢

المرائي شقي في الدنيا والآخـرة

قال مصطفى السباعي[(١)] رحمه الله: «ليس أشقَى من المُرائي في عبادته؛ لا هو انصَرف إلى الدنيا فأصابَ من زِينتها، ولا هو يَنجو في الآخرة فيكون مع أهل جنَّتها»[(٢)].

بيـان المفردات

المُرائِي: اسم فاعل من الرؤية، وهو من يعمل لأجل الناس، والرياء هو إظهار العبادة لِقَصْدِ رؤيةِ الناس لها ليحمدوا صاحبها، فلا يُخْلِصُها لله ﷻ، وأَرْأَىٰ الرجلُ: إذا أظهر عملًا صالحًا رياءً وسُمعةً[(٣)].

المعنى الإجمـالي

تبين الحكمة آفة المرائي في العبادة وشقاوته في الدنيا والآخرة، حيث هو يشتغل بالعبادة والتقشف في الدنيا فلا يتنعم بنعيم الحياة ولا ينصرف إلىٰ الاستمتاع

(١) مصطفىٰ بن حسني، أبو حسان، السباعي، الدمشقي، عالم إسلامي، مجاهد، ولد بحمص وتعلم بها وبالأزهر، اعتقل علىٰ يد الإنكليز والفرنسيين، دكتور في الشريعة، أستاذ بكلية الحقوق في دمشق وعميد كلية الشريعة، ومراقب عام لجمعية الإخوان المسلمين، توفي سنة ١٣٨٤هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٢٣١).

(٢) هكذا علّمتْني الحياة لمصطفىٰ السباعي (ص: ٥٢).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٠٢)؛ فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٦).

بزينتها، وكذلك لا يتنعم بنعيم الجنة ولذتها في الآخرة أيضا لعدم نجاته بها فيها، لأن الله تعالىٰ لا يقبل عملا عمله رياء وسمعة، فلا سعد في الدنيا ولا ربح في الآخرة

والرياء أحد أنواع الشرك الخفي وقد حذر النبي ﷺ من خطورته قائلا: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جُزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[1].

ويقول ﷻ ذامًا للمرائي في عمله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال:٤٧]، وذكرهم ضمن المتوعَّدين بالويل، كما في قوله ﷻ: ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٤-٦]، فهو يصلي ليراه الناس، ويتركها عندما لا يرونه، فجزاؤه جهنم وبئس المصير.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/ ٣٩) برقم: (٢٣٦٣٠)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٥٣) برقم: (٤٣٠١)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٥) برقم: (٦٤١٢).

باب الصدق وصفاء السريرة

١١٣

اختبار الناس بمعاملتهم لا بعبادتهم

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تنظروا إلى صيام أحدٍ ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث، وأمانته إذا ائتُمِن، وَوَرِعِه إذا أشفى»[(١)].

بيان المفردات

أشفى: يقال: أشفىٰ علىٰ الشيء: إذا أشرف عليه، وسمي الشفاء شفاء لغلبته للمرض وإشفائه عليه. ويقال: شفىٰ فلان علىٰ الهلكة يُشفىٰ إشفاء؛ أي: أشرف عليها. ويريد بـ (أشفىٰ) في هذه العبارة: أنه إذا أشرف علىٰ مال يأخذه أو علىٰ معصية ترك ذلك وَرَعًا[(٢)].

المعنى الإجمالي

المظاهر التي ينخدع بها الناس كثيرة؛ فإذا رأوا إنسانًا يطيل الصلاة، ويكثر من صيام التطوع، ظنوا أن حياته كلها متسقة منسجمة، لا خلل فيها ولا اعوجاج، وما

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٧).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ١٩٩)؛ والتقفية في اللغة لأبي بشر البندنيجي (ص: ٦٧)؛ وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٨٩).

علموا أن الدين شامل يشمل الحياة بكل مظاهرها؛ فهو عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، وهو خلق وسماحة نفس، وهو إيثار وتضحية، وفهم وعمل لكل مبادئ الإسلام وقيمه.

المؤمن صادق في كلمته، ومؤتمن على ما ائتمنه الله عليه، وما ائتمنه عباد الله عليه من أماناتهم، وفيٌّ في عهده، لا يفجر في خصومته؛ وقد عدَّ الرسول ﷺ من اتصف بصفات كذب الحديث وخيانة الأمانة وخلف الوعد والفجور في الخصومة من علامات النفاق؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(١).

والفهمُ العُمَري يبين أن اختبار الناس يكون بوضعهم على محك المعاملات والأخلاق قبل العبادات؛ فإن وجدت رجلًا صادقًا في حديثه، لا يكذب، ولا يداهن أو ينافق، وهو أمين فيما ائتمنه الله، ثم ما ائتمنه الناس، وهو ذو ورعٍ في لسانه وعينيه ويديه، فلسانه عفيف عن سوء القول وفحشه، وعيناه محفوظتان عن النظر إلى الحرام، ويداه لا يمدهما إلى الحرام، فيداه لا يمدهما إلى الشبهات، فضلًا عن بعده عن الحرام، فمن كان متصفًا بكل هذه الصفات، فهو حريٌّ أن يصاحب ويؤاخى.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣١) برقم: (٢٤٥٩).

١١٤

جزاء الإقبال بالقلب على الله

قال هرم بن حيان(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مَوَدَّتهم ورحمتهم»(٢).

المعنى الإجمالي

يمنُّ الله تعالىٰ علىٰ مَن أقبل عليه بقلبه بالقبول والرضا؛ ومما يدل علىٰ ذلك رضا الله تعالىٰ عن صحابة النبي ﷺ الذين بايعوه تحت الشجرة؛ وذلك لما علم الله في قلوبهم من الإيمان والتقوىٰ.

وما أقبل العبد علىٰ ربه بقلبه إلا أقبلت قلوب المؤمنين عليه بالعطف والمودة والرحمة، وقد تكفل الله أن يجعل المودة بين عباده المؤمنين، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، قال مجاهد: «يحبهم ويحببهم إلىٰ المؤمنين»(٣)، وقال السدي: «يعني محبة يحبهم

(١) هَرِم بن حيَّان، العبدي، الأزدي، البصري، من الفقهاء والمحدثين والزهاد، كان ثقة، له فضل وعبادة، ولي بعض حروب العجم في خلافة عمر وعثمان، توفي سنة ٤٦هـ. ينظر: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٧/ ٩٨)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٧٥)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٤٨).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٨٨).

(٣) تفسير مجاهد (ص: ٤٥٩).

ويحببهم إلىٰ أوليائه»[١].

وتحمل هذه الآية الكريمة بشارة للمؤمنين وتنفيسًا عنهم؛ ليزول عنهم ما يعتريهم من متاعب، وما يصيبهم في الدنيا من شدتها وبلائها، «وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب، وروح رضىٰ يلمس النفوس، وهو ودٌّ يشيع في الملأ الأعلىٰ، ثم يفيض في الأرض والناس فيمتلئ به الكون كله ويفيض»[٢].

(١) تفسير يحيىٰ بن سلام (١/ ٢٤٩).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٢١).

١١٥

استواء السر والعلانية

قال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد إذا استوت سريرته وعلانيته قال الله: هذا عبدي حقًّا»(١).

المعنى الإجمالي

عَبدُ الله حقًّا هو من يرىٰ لله قدرًا كبيرًا ومقامًا عظيمًا عنده؛ فهو في خفائه وُبعْدِه عن أعين العباد يُقَدِّر الله حق قدره، ويحترس من الوقوع في المعاصي، وهو في علنه وظهوره أمام العباد يفعل العمل حبًّا وطاعة لله تعالىٰ، وليس رياءً ورغبة في الحصول علىٰ ثناء الناس، فهو لا يريد من العباد جزاء ولا شكورًا.

أمَّا من يظهر أمام المخلوقين بالصلاح والتنسك والطهر والخير، فإذا خلا بمحارم الله انتهكها، فهذا الذي يجعل الله عمله هباءً منثورًا؛ ففي الحديث عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَأَعلَمَنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ هباء منثورا»، قال ثوبان: يا رسول الله، صِفهم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أَمَا إنهم

(١) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٨٤٨)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٠٤).

إخوانكم، ومن جِلْدَتِكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[١].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤١٨) برقم: (٤٢٤٥)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٤٦) برقم: (٤٦٣٢). قال أبو العباس البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. ينظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري (٤/ ٢٤٦).

١١٦

إصلاح السرائر والعمل للآخرة

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أيها الناس أصلِحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوا دنياكم»(١).

المعنى الإجمالي

الاكتفاء بإصلاح الظواهر التي يراها الناس، وترك الاعتناء بإصلاح البواطن التي هي محل نظر الله تعالىٰ، لا يجدي نفعًا، ولا يصلح للإنسان ظاهره إلا بإصلاح باطنه عن طريق تزكية النفس وتربيتها، فمن أصلح سريرته، وجاهد نفسه في ذلك، ودعا الله تعالىٰ بإصلاحها، وعدم التخلي عنه لنفسه والشيطان، عند ذلك يصلح حال العبد ظاهرًا وباطنًا.

ومن عمل للآخرة وأصلح حاله مع الله تعالىٰ، فإن الله سيكفيه هم الدنيا ومؤونتها؛ وأما من عمل للدنيا، وجعل كل همه في تحصيلها، ونسي الآخرة والعمل لها، فلن يأتيه من الدنيا زيادة علىٰ ما قدره الله له، ولن يكون له في الآخرة نصيبٌ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ:٢٠].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٠)؛ العقد الفريد لابن عبد ربه (٤/ ١٨٠)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٥). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الأول من الحكمة، وأما شرح القسم الثاني فسيأتي في باب إيثار الآخرة، الحكمة رقم: (٨٢٧).

وقال ﷺ: «من كانت الدنيا همه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرة نيَّتَه، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٦٧) برقم: (٢١٥٩٠)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٧٥) برقم: (٤١٠٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٢) برقم: (٢٤٦٥). قال العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (ص: ١٦٧٤).

١١٧

خطــورة الأمــاني

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهلك الناسَ الأمانيُّ، قولٌ بلا عملٍ، ومعرفةٌ بغير صبرٍ، وإيمانٌ بلا يقينٍ، ما لي أرى رجالًا ولا عقولًا، وأسمع حسيسًا ولا أرى رِحالًا ولا أنيسًا؟!»(١).

بيــان الـمفردات

الأماني: جمع أُمنِيَّة، وهي الصورة الحاصلة في النفس مِن تمنِّي الشيء، والتمنِّي: تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظنٍّ، ويكون عن رويَّة وبناءٍ علىٰ أصل، لكن لمَّا كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملَكَ، فأكثر التمني تصوُّر ما لا حقيقة له(٢).

رِحالًا: الرِّحال: جمع رَحْل، وهو ما يوضَع علىٰ البعير للركوب، ثم يُعبَّر به تارة عن البعير، وتارة عما يُجْلَس عليه في المنزل(٣).

حسيسًا: الحَسِيس: هو الصوت، ويقال: لا يُحَسُّ له حسيسٌ، أي: لا يُسمَع له صوتٌ(٤).

---

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ١٣٣).
(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٩-٧٨٠).
(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٣٤٧).
(٤) لسان العرب لابن منظور (٦/ ١٠٣).

المعنى الإجمالي

إن الناس قد أهلكوا أنفسَهم بالأماني الكاذبة على الله تعالىٰ، حيث خالفوا أمرَه ومع ذلك يرجون رحمتَه، نظروا إلىٰ أن من صفات الله تعالىٰ أنه كريم غفور رحيم، ونسوا أنه كذلك عزيز جبار منتقم، يقول الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦]، اغتر بكرمه وتمنىٰ عليه الأماني، والله تعالىٰ يقول: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣]، ثم عاتب الذين اغتروا بها، فقال: ﴿ وَلَـٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ ﴾ [الحديد:١٤].

ويقول قولًا ويعمل بخلافه، والله تعالىٰ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢]، وعرَفَ الحقَّ لكن لم يتبعه ولم يصبر عليه، والله سبحانه يقول: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَـٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤]، وآمنوا بالله إيمانًا نظريًا وقبلوا ما جاء به القرآن، ولكن لم يتيقنوا به حق اليقين، فلم يُثمِر هذا الإيمان ثمرات اليقين.

ثم توجَّه الحسن البصري إلىٰ جلسائه، وخاطبهم قائلًا: ما لي أرىٰ رجالًا في أشكال الرجال، ولا أرىٰ عقولًا كعقول الرجال؟! لأنه ﷺ كان قد عاصر جيلَ الصحابة ﷺ ثم رأىٰ الجيل بعدهم ولاحَظَ تلك الفروق الواضحة بين الجيلين في العقول والأخلاق والتمسُّك بأوامر الشرع، فيلمِّح لهم أن الرجال الحقيقين هم أولئك الذين رحلوا، أما الذين جاؤوا من بعدهم فأشباه الرجال، وليسوا الرجال، وأهل اللهو وليسوا أصحاب العقول، وعقَّب علىٰ ذلك قائلًا: «وأسمع حسيسًا، ولا أرىٰ رحالًا ولا أنيسًا»، يعني: أنه يسمع صوت الموجودات، لكن بعد البحث والنظر لم يجد دابةً تصلح للركوب، ولا إنسانًا يصلح خليلًا وأنيسًا.

ولعل هذا التشبيه مأخوذ من قول النبي ﷺ: «النَّاسُ كإبلٍ مائةٍ، لا يجد الرجل فيها راحلة»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ١٩٢) برقم: (٢٥٤٧).

١١٨

العمل أولى من القول والسر أولى من العلن

قال الحسن البصري رحمه الله: «يا ابن آدم، إن لك قولًا وعملًا، وسرًّا وعلانية، وعملك أولى بك من قولك، وسرُّك أولى بك من علانيتك»[(١)].

المعنى الإجمـالي

إنَّ من الأسباب التي أظهرت تشوهًا في الشخصية الإسلامية المعاصرة الاقتصار على التلقي النظري للمعارف والعلوم، وقلة التطبيق والعمل، والاهتمام بالمظهر على حساب الحقيقة والجوهر.

وجوهر التربية الإسلامية التكامل بين الأقوال والأفعال، والعمل أولى من القول، واتفاق العلانية مع السريرة، والسريرة أولى من العلانية؛ ولذلك فإنه لا يكتمل إيمان عبد حتى تكون أفعاله وأعماله مبرهنةً ومصدقةً لأقواله، وتكون سريرته نقيةً تظهر صدق علانيته.

يقول الله تعالى مخاطبًا أهل الكتاب: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤]، لقد كانوا «ينهون الناس عن الكفر بشيء من التوراة والإنجيل ويقولون: تمسكوا بما فيهما، وهم يكفرون بما يجدونه

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٢٨).

فيهما من أمر محمد ﷺ وينقضون ما عهد إليهم في ذلك»[(١)].

وعاتب الله المؤمنين واستنكر عليهم أن يقولوا ويأمروا بما لا يقومون هم به، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي رجالًا تُقرَض شِفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك؛ يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟»[(٢)].

يقول الحسن البصري: «أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سرٍّ فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسْمَع لهم صوت»[(٣)].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩/ ٢٤٤) برقم: (١٢٢١١)؛ والبزار في مسنده (١٣/ ٤٥٦) برقم: (٧٢٣١)؛ وابن حبان في صحيحه (٤/ ٢٥) برقم: (٢٩٨٩)؛ الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ١٧٠) برقم: (٢٨٣٢)؛ قال البغوي: حديث حسن. ينظر: شرح السنة للبغوي (١٤/ ٣٥٣).

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٤٥).

١١٩

مخالفة القول للعمل

قال الحسن البصري رحمه الله: «يا عجبًا لألْسنةٍ تَصِف، وقلوبٍ تَعرِف، وأعمالٍ تُخالِف»(١).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة متعلقة بالحكمة السابقة التي خاطب فيها الحسنُ أهلَ عصره، ووبَّخهم على مخالفتهم لنهج سلفهم من أصحاب النبي ﷺ، وأشار إلى حجم الفرق الذي لاحظه بين أخلاق أولئك رضي الله عنهم وبين الأجيال التي بعدهم.

وهنا يتابع الحسن رحمه الله في ذكر أوصاف هذا الجيل الجديد، فقال: أتعجَّب من ألسنة الناس كيف تصف أوامر الشرع ومحظوراته، وأهوال يوم القيامة، وعذاب أهل النار، وأستغرب منهم معرفتهم بذلك وتصديقهم لها بقلوبهم، ثم بعد ذلك أراهم يخالفون ما يعرفون في العمل! وقد وبَّخ الله تعالى الذين يخالف قولُهم عملَهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

---

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ٥٦).

وقد شدَّد الله النكير واللوم علىٰ بني إسرائيل الذين كانت أقوالهم تخالف أعمالَهم، فقال تعالىٰ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤].

١٢٠

الحسد نقمة

قال محمد بن سيرين[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «ما حسدت أحدًا على شيء من الدنيا؛ فإن كان من أهل الجنة فكيف أحسده وهو صائرٌ إلى الجنة! وإن كان من أهل النار فكيف أحسده وهو صائرٌ إلى النار!»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الحسد من المهلكات الماحقة لعمل العبد؛ إذ يكون الحاسدُ غيرَ راضٍ بقسمة الله وتدبيره لخلقه؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فضَّل بعض عباده علىٰ بعض في الرزق والعلم والجمال والجاه وغير ذلك، وعند حسد العبد لأخيه حسدًا يتمنىٰ به زوال النعم عن أخيه؛ ليستويا في ذلك، يكون معترضًا علىٰ قدر الله وقسمته لفضله ونعمه، والله تعالىٰ يقول عن أهل الكتاب الذين حسدوا رسول الله ﷺ علىٰ ما فضله الله بالنبوة[(٣)]: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) أبو بكر محمد بن سيرين البصري، مولىٰ أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، التابعي الجليل والإمام القدوة، كان حجة في تفسير الأحلام، سمع ابن عمر وأبا هريرة، وروىٰ عنه الشعبي وقتادة وغيرهم، ينسب إليه كتاب التعبير في الرؤىٰ، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: الكُنىٰ والأسماء لمسلم بن الحجاج (١/ ١١٤)؛ هدية العارفين لإسماعيل بن محمد الباباني (٢/ ٧).

(٢) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين للسمرقندي (١٧٩).

(٣) هذا أحد الأقوال الثلاثة في بيان معنىٰ(الناس)، والقول الأول: أنهم العرب، والقول الثاني: أنه النبي ﷺ وأصحابه الكرام، ينظر: تفسير الماوردي (١/ ٤٩٦).

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٥٤].

ولقد كان الرجل الذي شهد له النبي ﷺ بأنه من أهل الجنة حين سُئل عن العمل الذي بلغ به هذه المرتبة قال: «إني لا أجد لأحدٍ من المسلمين في نفسي غشًّا ولا حسدًا علىٰ خيرٍ أعطاه الله إياه»(١).

والعاقل من ينأىٰ بنفسه عن الحسد؛ لأنه إن حسد غيره علىٰ ما أعطاه الله من الدنيا، فإن كان المحسود من أهل الجنة فما ينبغي للمسلم أن يحسد أخاه المسلم، وإن كان من أهل النار فلمَ يحسده وهو صائرٌ إلىٰ النار.

والحسد الذي يجيء بمعنىٰ الغبطة ليس داخلا في الحسد المذموم، فقد ورد في حديث النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ أعطاه الله مالًا فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها»(٢).

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٩/ ٣١٨) برقم: (١٠٦٣٣)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٦٨٥) برقم: (١٢٨٩٤). قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم: (٧٣).

١٢١

بين السرِّ والعلانية

قال وهب بن مُنَبِّه[(١)] ﷺ: «يا بُنيّ، أخلِص طاعة الله بسريرةٍ ناصحة يُصَدِّقُ اللهُ فيها فِعْلَكَ في العلانية»[(٢)].

بيان المفردات

بسريرة: السرُّ: الذي يُكتم، والسريرة مثله[(٣)].

المعنى الإجمالي

إن الطاعة لله تعالىٰ لن تقبل من العبد ما لم يكن ما يخفيه أفضل مما يظهره؛ فإن الناس يرون ظاهر العمل صالحًا، لكنهم لا يدرون عن الإخلاص الذي هو من الأسرار التي لا يعلمها إلا من يعلم السر وأخفىٰ.

---

(١) وهب بن مُنبّه بن كامل، أبو عبد الله، تابعي جليل، كان من أبناء فارس الذين وجههم كسرىٰ إلىٰ اليمن لحرب مَن كان بها من الحبشة، سمع جابر بن عبد الله وابن عباس، اشتهر بغزارة علمه بأخبار الأمم السابقة والإسرائيليات، توفي سنة ١١٤هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٨/ ١٦٤)؛ تاريخ الطبري (١١/ ٦٤٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٦٩).

(٣) ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ١٤٦).

فإن من صدق الله في إخلاصه الطاعة لله تعالىٰ في سره وخفائه وفي حال بعده عن أعين الناس فإن الله يُصدِّقُ فعل عبده في العلانية؛ فيجعل الله لأقواله وأفعاله القبول والأثر الحسن؛ وذلك لاستواء سره وعلانيته في الإخلاص. ولذا فإنَّ من يعملون أعمالًا صالحةً خالصةً في السر فإنهم من أغبط الناس، فعن أبي أمامة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ من أغبط الناس عندي عبدًا ذا حظ من صلاة أطاع ربه وأكثر عبادته في السر، وكان لا يشار إليه بالأصابع وكان غامضا في الناس، وكان عيشه كفافًا عجلت منيته وقَلّ تراثه وقلت بواكيه»[1].

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٤٥٣) برقم: (١٢٢٩).

١٢٢

التحذير من معصية السر

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكن وليًّا لله في العلانية وعدوه في السرّ»(١).

المعنى الإجمـالي

معنىٰ قول ابن سعد: لا تَتَلَبَّس بأوصاف الأولياء ظاهرًا وتضمر في باطنك مثل أعمال أعداء الله تعالىٰ؛ فإن هذا بعينه كان حال المنافقين، كما حكىٰ الله تعالىٰ ذلك عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، بل إذا تلبَّست بأعمال الأولياء ظاهرًا، فتشبه بهم باطنًا في الصدق، وحسن النية، والإخلاص؛ إذ «لا يُشبه الزِّيُّ الزِّيَّ حتىٰ يشبه القلبُ القلبَ»، كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢).

إن الاهتمام بالظاهر بحيث يبدو العبد أمام الناس زاهدًا عابدًا تقيًا ورعًا، ممن يرجون الله ويخافون عذابه، بينما هو في حقيقة الأمر لا يراعي حدود الله في السر، وينتهك المحرمات إذا خلا عن أعين الناس، هو من أخطر الأمور التي تدل علىٰ

(١) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٥٤)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٧٦).

(٢) قول ابن مسعود هذا أخرجه أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٢٨٩). ينظر: حسن التنبيه لما ورد في التشبيه لنجم الدين الغزي (٣/ ٣٣٤).

النفاق، وهو سبب لإحباط عمل العبد مهما كان كبيرًا، كما ورد في الحديث الذي مر، وهو قوله ﷺ: «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله ﷻ هباء منثورا»، قال ثوبان: يا رسول الله، صِفهم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤١٨) برقم: (٤٢٤٥)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٤٦) برقم: (٤٦٣٢). قال أبو العباس البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. ينظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري (٤/ ٢٤٦).

١٢٣

أثـر الصدق والعمل في الـموعظـة

قال مالك بن دينار[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «إن العالم إذا لم يعمل بعمله زلَّت موعظته عن القلوب كما يَزِلّ القَطْر عن الصفا»[(٢)].

بيـان الـمفردات

زلت: زَلَّ: من الزَّلَل، زلَّ السهمُ عن الدرع والإنسان عن الصخرة يزِلُّ ويزَلُّ: زَلِق[(٣)].

الصفا: الحجارة الملساء[(٤)].

الـمعنى الإجمـالي

إن الله فضَّل العلماءَ علىٰ من سواهم؛ لمعرفتهم بالله وخشيتهم له، ولترغيبهم العباد في الفرار إلىٰ خالقهم ﷻ، فيدعون إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة وعلم ومعرفة،

(١) مالك بن دينار البصري، أبو يحيىٰ، تابعي من العلماء الزهاد، ثقة قليل الحديث، حدّث عن سعيد بن جبير والحسن البصري وآخرين، وحدّث عنه سعيد بن أبي عروبة وطائفة سواه، من أعيان كتَبَة المصاحف، مات سنة ١٢٣هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ٢٤٢)؛ التاريخ الكبير للبخاري (٩/ ٦٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٦٢).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١١/ ٣٠٦)؛ تاج العروس للزبيدي (٢٩/ ١٢٩).

(٤) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٣٨/ ٤٢٩).

لكن لن تستقر دعوتهم وموعظتهم في قلوب العباد إلا حين يكونون قدوة للناس، بأن يكونوا أول الناس التزامًا بما أمروا، وأبعدهم عن مقارفة ما نهوا عنه، وهذا هو شأن العلماءِ الربانيين الذي يكتب الله لهم القبول في قلوب الناس؛ كما يروي خالد بن صفوان عن الحسن البصري، قال: «كان أشبَه الناس سريرةً بعلانية، وأشبههم قولًا بفعل، إن قعد علىٰ أمر قام به، أو قام بأمر قعد عليه، فإن أمر بأمرٍ كان أعمل الناس به، وإن نهىٰ عَن شيء كان أترك الناس له»(١).

قال ابن مسعود ﵁: «سيأتي علىٰ الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلىٰ حب الدنيا وإيثارها علىٰ الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالىٰ ينابيع الحكمة، ويُطفِئ مصابيح الهدىٰ من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشىٰ الله بلسانه، والفجور ظاهرٌ في عمله، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالىٰ والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالىٰ»(٢).

إن من لم يعمل بما يأمر وينهىٰ، وكان وعظه للرياء والسمعة، فإنه لن يجد لموعظته أثرًا علىٰ القلوب، بل إن موعظته تتدحرج عن القلوب وتبتعد عنها كما تسقط قطرة الماء عن الحجر الأملس.

(١) أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان الملقب بوكيع (٢/ ١٢).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٦٤).

١٢٤

الفرق بين الصادق والمرائي

قال محمد بن المبارك(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعمال الصادقين لله بالقلوب، وأعمال المرائين بالجوارح للناس»(٢).

المعنى الإجمالي

ليست أعمال الصادقين بما يظهرونه لمدحهم والثناء عليهم، بل أحبُّ أعمالهم وأزكاها عند مليكهم هي أعمال قلوبهم؛ فهم يعملون للتخلص من كل العوائق التي تحبط الأعمال من الرياء والسمعة والكبر والعجب والغرور، وغيرها من الآفات؛ لأنهم يدركون أن أعمال الجوارح لا تنفع مع امتلاء القلب بالأغيار الفاسدة، والأطماع الموحشة، واللذات المذهبة للذة العبادات والطاعات.

أما المراؤون؛ فهم يجيدون الأعمال الظاهرة؛ لأنهم يدركون أن سعادتهم بما يقوله الناس عنهم، ويهملون قلوبهم، حتىٰ تمتلئ بآفات كثيرة، فلا تستطيع أعمال الجوارح ترك أثرها علىٰ القلب؛ فهو مليء بما يفسده، لا ما يصلحه.

---

(١) محمد بن المبارك بن يعلىٰ، أبو عبد الله، الصوري، القرشي، القلانسي، الإمام، العابد، الحافظ الحجة، الفقيه، مفتي دمشق، سمع مالك بن أنس وابن عيينة وطائفة، وحدث عنه ابن معين والذهلي والدارمي وطائفة، توفي سنة ٢١٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٣٩٠)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٤/ ٢٦٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٩٨).

فالصلاة فريضة من فرائض الإسلام وركنٌ من أركانه، بل عموده الذي يتميز به المسلم عن غيره، يؤديها المسلمون فرادىٰ وجماعات، لكن الاختلاف في القبول؛ فالله لا يتقبل إلا من الصادقين المخلصين في أدائها، الذين يستشعرون أن أرواحهم اتصلت بخالقهم تعالىٰ، وأن قلوبهم قد أصبحت مطمئنة خاشعة، أما المراؤون فإنهم يؤدون ظواهر هذه الصلاة بجوارحهم، فلا يصل شعاع ونور هذه الصلاة إلىٰ قلوبهم، فهم يراءون بها الناس، وينتظرون ثناءهم، قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

١٢٥

الفرق بين المؤمن والمنافق

قال أبو عمرو الأوزاعي(١) رحمه الله: «إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيراً، وإن المنافق يقول كثيراً ويعمل قليلاً»(٢).

المعنى الإجمالي

كثرة القول وقلة العمل ليست من طبائع وخصال المؤمنين الصادقين؛ فالمؤمنون لا يكثرون الكلام إلا بما فيه خير وفائدة، وأعمالهم أكثر من أقوالهم؛ لأنهم علموا أن الإنسان مسؤول ومحاسب عن كلامه ونطقه، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، فهم يتحرون السلامة، ويلزمون أنفسهم بتطبيق ما تعلموا قبل أن يأمروا به غيره، ويتجنبون الجدل وكثرة الكلام، قال معروف الكرخي: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عليه باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد بعبد شرًّا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل»(٣).

(١) عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمَد أبو عمرو الأوزاعي، شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام وفقيههم، سكن بيروت، حدَّث عن جماعة من كبار التابعين كعطاء ومكحول وقتادة وآخرين، وروىٰ عنه الزهري وشعبة والثوري وآخرون، توفي سنة ١٥١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٠٧)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٨/ ١٢٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٤٢).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٢٩٦).

أما المنافقون فهم قوم وجدوا أن القول أهون عليهم من العمل، فأكثروا من القول وتركوا العمل لمشقته؛ «دخل الحسن البصري المسجد ومعه فرقد، فقعد إلىٰ جنب حلْقة يتكلمون، فنَصَت لحديثهم، قال: ثم أقبل علىٰ فرقد، فقال: يا فرقد، والله ما هؤلاء إلا قوم مَلُّوا العبادة ووجدوا الكلام أهون عليهم من العمل، وقل ورعهم فتكلموا»[١].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٢٠).

١٢٦

عبـادة السـر

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «اعبد الله سرًا، حتى تخرج على الناس يوم القيامة كمينًا»(١).

بيـان المفردات

كمينًا: كَمَنَ فلانٌ يكمُن كُمُونًا؛ أي: اختفىٰ في مَكْمَن لا يفطن له، ولكل حرف مكمن إذا مر به الصوت أثاره، وكل شيء استتر بشيء فقد كمن فيه كمونًا(٢)، ومنه الكمين في الحرب، وهو جزء من الجيش ليستتر عن أعين العدوّ ليفاجئه بغتة.

المعنى الإجمـالي

لقد حرص الإسلام علىٰ أن يكون بعض عباداته سرًا بين العبد وربه، لا يعلم عنها الناس شيئًا، وهذه العبادات السرية تُخْرِج العبد من ضوائقه، وتيسر له عسره، وينفس الله عنه بها كربه، ولأجر الآخرة أكبر وأعظم.

فمن العبادات التي يحرص عليها العبد أن تكون سرًا بينه وبين ربه الصيامُ الذي يترك العبد طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته، وصدقة

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٠٠).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٥/ ٣٨٦)؛ وجمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٩٨٣).

السر الذي ينفق العبد نفقة حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه[١]، وقيام الليل يترك فراشه وشهوته ويعتدل قائمًا بين يدي ربه يرجو رحمته ويخشى عذابه، وصدقة السر التي تطفئ غضب الرب ﷻ[٢].

إن إخفاء العبد لعبادته لربه يجعله في مأمن من الرياء الذي يفسد الأعمال ويحبطها، وتنفعه تلك الأعمال يوم القيامة فترجح كفة حسناته بأعمال يكون قد نسيها العبد، لكن الله أحصى له كل خير ومعروف وبر وإحسان.

هذه العبادات السريّة والحسنات الخفية تُرجِّح كفة موازينه يوم القيامة وتنصره على السيئات، كما أن الكمين في الحرب إذا ظهر رجَّح كفةَ صاحبِه ونصره على عدوه.

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠).

(٢) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (١/ ٣٩٧) برقم: (٣٠٢).

١٢٧

صــلاحُ الظاهر بصلاح الباطن

قــال عــون بــن عبــد الله رحمه الله: «مَـنْ أصـلحَ سريرتَــه أصــلحَ اللهُ علانيته»(١).

المعنى الإجمــالي

هذه وصيةٌ كان العلماء يوصي بها بعضُهم بعضًا؛ كما جاء عن عون بن عبد الله، وسفيان، ومعقل بن عبيد الله الجزري أنهم قالوا: «كان أهل الخير يكتب بعضُهم إلىٰ بعض بهؤلاء الكلمات، وتلقاهن بعضهم بعضًا: من عَمِل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»(٢).

وذلك لأنَّ لكُلِّ إنسان باطنًا وظاهرًا، وسَريرةً وعلانيةً، فالباطن ما كَتم وأَسرَّ، والظاهر ما أبدىٰ وأظهر، والله تعالىٰ يعلم السر والجهر، وما أخفىٰ العبد وأظهر؛ فليس شيء في القُلوبِ يَخْفَىٰ علىٰ علَّامِ الغُيُوبِ، يقول اللهُ تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل:١٩]، ولا ريب أن الأعمال الظاهرة تبعٌ للأعمال

(١) الزهد لوكيع (ص: ٨٤٨)؛ الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٥٤)؛ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٣٠٧) برقم: (٣٦١٣٥).

(٢) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٨٤٨).

الباطنة، فمن صَلَح باطنه صلح ظاهره وبالعكس، وذلك لأنَّ القلب أميرٌ مسلطٌ علىٰ الجوارح، والرعيةُ تبعٌ لأميرها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إن الظاهر لا بد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه»(١).

فتقوىٰ الله في السِّر هي علامة كمال الإيمان، ولها تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين، يقول النبي ﷺ: «ما أَسَرَّ عَبدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا، إنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإنْ شَرًّا فَشَرٌّ»(٢).

والأصلُ في المؤمن الصادق أن تستوي سريرته وعلانيته، وظاهره وباطنه، كما قال زيد بن الحارث: «إذا استوتْ سريرةُ العبد وعلانيته فذلك النَّصَفُ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور»(٣). وأنشدوا:

إذا السِّرُّ والإعلانُ في المؤمن اسْتوىٰ ... فقد عزَّ في الدارين واستوجب الثَّنَا
فإن خالف الإعلانُ سِرًّا فما له ... علىٰ سَعْيِهِ فَضْلٌ سوىٰ الكدِّ والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا(٤)

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٣/ ٢٦٨).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٧١) برقم: (١٧٠٢)؛ وفي الأوسط (٨/ ٤٣) برقم: (٧٩٠٦).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩١).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩١).

١٢٨

مكانة الصدق

قال يوسف بن أسباط رحمه الله: «لأن أبيت ليلة أُعامل الله تعالى بالصدق أحب إلي من أن أضرب بسيفي في سبيل الله»(١).

المعنى الإجمالي

يتعامل البشر مع مَنْ هم أعلىٰ مكانة بحساسية وخوف من غضبهم، ومن تغير مواقفهم نحوهم، وهذا في تعامل البشر مع بعضهم، فأنىٰ لعبدٍ مسلمٍ مؤمن يعامل الله بالجفاء؛ فلا يدعوه إلا حين تضطره الأحوال والمواقف، وتشتد به عواصف الأزمات ونوائب الدهر، فإذا كانت أحواله مستقرةً نسي ما كان يدعو إليه من قبل.

إن صدق التعامل مع الله يقتضي من العبد أن يكون معظِّمًا لله بجلاله وكبريائه وأسمائه الحسنىٰ وصفاته، وأن لا ينتقص من حقه في التقدير والتعظيم والثناء، وأن يؤدي ما افترضه عليه ويجتنب ما نهىٰ عنه، فيكون حاضرًا حيث أمره غائبًا حيث نهاه.

وهذه الرقابة لله تعالىٰ والصدق معه ولو لليلة واحدة في كل حال وعلىٰ أي حال أحب وخيرٌ من أن يمني العبد نفسه بالجهاد والاستشهاد في سبيله، وهو لا يزال مقصرًا ومفرطًا في الالتزام مع الله تعالىٰ.

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٦٦).

وإنما كان الصدق أحب من الجهاد في سبيل الله؛ لأن الله ﷻ قد ذكر مرتبة الصديقية بعد مرتبة النبوة وقبل مرتبة الشهادة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

١٢٩

الصـــدق مع الله

قال الشافعي رحمه الله: «كن في الدنيا زاهدًا، وفي الآخرة راغبًا، واصدق الله في جميع أمورك تَنْجُ بها مع الناجين غدًا»(١).

المعنى الإجمـالي

الصدق مع الله منجاةٌ يوم القيامة؛ وذلك بأن يكون العبد مع الله كما يحب، لا كما يحب العبد؛ فيراه الله قائمًا بالحق، وداعيًا له، وباذلًا للخير والمعروف، ومؤديًا لواجباته، ومعترفًا بأخطائه، ومستغفرًا لذنوبه وخطيئاته.

فالصادق مع الله لا تقيده شهوة، ولا تدفعه رغبة، ولا تمنعه رهبة الناس من قول الحق، ولو كان على نفسه وأقربائه، يقول الحق ولو كان مُرًّا.

والصادق مع الله تعالى يَظهَر صدقُه بمظاهر عدة؛ فهو مستسلم لأوامر الله ونواهيه، فلا يكون عمله إلا فيما يرضي الله تعالى، ولا يجعل لأحد من عمله نصيبًا.

وإن تعارضت الأمور والأحوال بين نداء الله وما تهواه النفس قدَّم ما دعاه الله إليه، فلا أعظم صدقًا من صدق العبد مع ربه ومولاه حين يبذل نفسه وماله في سبيل

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٦). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فسيأتي في باب الزهد والقناعة، الحكمة رقم: (٨٧٧).

الله ونصرة دينه وشرعه؛ إذ فيه حياته وسعادته واطمئنانه ونجاته بين يدي ربه يوم القيامة، وأما هوىٰ النفس فلا يكون من بعده إلا الهلاك والخسارة.

جاء في الحديث: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلىٰ البِرّ، وإن البِرّ يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقًا»(١).

وقال ابن القيم: «من صَدَقَ اللهَ في جميع أموره صنعَ الله له فوق ما يصنع لغيره»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٣) برقم: (٢٦٠٧).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٧٢).

١٣٠
النجاة في الصدق

قال الشافعي رحمه الله: «من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا»(١).

المعنى الإجمالي

الصادقون مع الله ناجون من عقابه، ولعظم منزلة الصادقين مع الله أمر الله عباده المؤمنين أن يتقوه ويكونوا مع الصادقين، فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

ومن خاف على دينه من الذهاب سلم من الهلاك؛ لأن الذي يخاف على دينه يعمل جاهدًا على المحافظة عليه، فيجتنب الفتن، ويلزم تقوى الله عز وجل في السر والعلن، ويكثر من الصالحات؛ ففي الحديث: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»(٢).

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٥٦). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الأول من الحكمة، وأما شرح ما يخص الزهد فسيأتي في باب الزهد والقناعة، الحكمة رقم: (٨٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤١) برقم: (٢٤٥٠)، وقال: حديث حسن غريب.

ومعنى أدلج: إِذا سَار من أول اللَّيْل، وَمعنى الحَدِيث: أَن من خَافَ أَلزمهُ الْخَوْف إِلَى السلوك إِلَى

١٣١

علامة الصدق

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «من عامل الله بالصدق استوحش من الناس»[١].

المعنى الإجمالي

إن أعظم مراتب الصدقِ هي الصدقُ مع الله تعالىٰ، فالصادق مع ربه يتعامل علىٰ وفق هدىٰ الله ومرضاته، ويتجنب مساخطه وغضبه، ومن مظاهر الصدق مع الله أنه يُقدِّم رضا ربه علىٰ رضا نفسه وأقربائه والناس أجمعين، فيرىٰ من معاملته لله بالصدق أنه يستوحش من الناس؛ فلم يكن مراد الله تعالىٰ ليتوافق مع مراد الناس.

ومن يصدق مع الله يجد من لذة الوصال والأنس بربه ما يكون له قرة عين، ما يجعله يؤثر دوام صلته بربه علىٰ كل شيء، ومن يصل إلىٰ هذه المنزلة فإنه يخاف أن ينقطع عن هذا النعيم، فتراه مقبلًا علىٰ عبادة ربه وذكره، مبتعدًا عن كل ما يشغله عنه سبحانه، فتراه يستوحش من مخالطة الناس، ويرىٰ في ذلك حجابًا له عن ربه.

ولكن ينبغي ألا يُفهم من هذا أن الانقطاع الدائم عن الناس محمود، فإن هذا يخالف الشرع، فالمسلم مطالب بمخالطة الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٤٧).

المنكر، وتقديم النصح والمعونة، وقضاء حاجاتهم، وإنما الصادق مع مخالطته للناس لا يركن إليهم، ولا ينبسط لهم، بل سرعان ما يستوحش بعد أن يقضي ما عليه تجاههم.

١٣٢

معيـة الله للصـادقين

قال أحمد بن خضرويه البلخي رحمه الله: «من أحب أن يكون الله معه في جميع الأحوال فليلزم الصدق فإن الله مع الصادقين»(١).

المعنى الإجمـالي

ذكر الله تعالىٰ في القرآن الكريم أنَّ الصديق لما حزن علىٰ رسول الله ﷺ وهما في الغار من أن يراهما أحدٌ من المشركين، فحكىٰ الله قول النبي ﷺ ورده عليه فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وحين ظن أصحاب موسىٰ عليه السلام لما أدركهم فرعون وجنوده أنهم مدركون، أجابهم موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢].

إن الصادقين يشعرون بمعية الله لهم، وحفظه، وتوفيقه وتأييده، وأنه يحوطهم بعنايته ومهما تكالبت عليهم الأعداء فإن الله لن يسلمهم لأعدائهم؛ فهم أولياؤه وأحبابه، ولذلك أمر الله المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٢).

١٣٣

الصادق لا يهتم إلا بصلاح قلبه

قال الحارث المحاسبي رحمه الله: «الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قَدْرٍ له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه»(١).

المعنى الإجمالي

من علامات الصادق مع الله تعالىٰ أنْ يُقَدِّم رضا الله علىٰ رضا المخلوقين؛ فإن من يبحث عن مكانةٍ وقدرٍ في قلوب المخلوقين فإن ذلك يدل علىٰ ضعف صدق العبد في علاقته مع ربه ﷻ؛ فرضا الخالق أولىٰ من رضا المخلوق، قال الله تعالىٰ عن كليمه موسىٰ عليه السلام وهو يجيب الله عن سبب عجلته وتركه لقومه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣-٨٤].

فصلاح قلب الصادق وسلامته من الرياء أهم عنده من كلام الناس فيه ونظرهم إليه، فهو يُخفي أعماله الصالحة عن الناس، ولذلك كان عيسىٰ عليه السلام يقول: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليَدهن لحيته، وليَمسح شفتيه، حتىٰ يخرج إلىٰ الناس فيقولوا: ليس بصائم، وإذا صلىٰ أحدكم فليُدْنِ عليه سِتر بابه»(٢).

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٥٢) برقم: (٨١٦١).

والنفس تريد إظهار الأعمال الصالحة للناس، فهي تحب المدح، ولكن الصادق يكبت هذه الرغبة؛ حفاظًا على قلبه وعلى سلامته من الرياء، حتى لو أدى كتمانه للأعمال الصالحة أمام الناس إلى سقوط مكانته من قلوبهم، ونسبتهم إياه إلى التقصير في العبادة، أو أدى إنكاره للمنكر وأمْره بالخير إلى نفور الناس منه، فالصادق لا يبالي بلوم اللائمين في ذات الله والقيام بأمره، وهذا هو معنى كلام المحاسبي، لذلك قال المحاسبي في تتمة كلامه: «ولا يكره أن يطلع الناس على السَّيِّئ من عمله؛ فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين»(١).

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٦٦).

١٣٤

ثمرة الصدق

قال عسكر بن حصين[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل مباشرة العمل»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الصدق في العمل هو أن يجتهد العبد في العمل حتىٰ يكون ما ظهر منه مُصَدِّق لما بطن، وأن يجتهد في إصابة الحق مع الجد وكمال الرغبة والنشاط، قال ابن عطاء: «من وجد ثمرة عمله عاجلًا فهو دليل علىٰ وجود القبول آجلًا»[(٣)]. فثمرة العمل في الإقبال علىٰ الله يجدها الصادق قبل مباشرته للعمل، فيشعر بحلاوة ولذة العمل؛ لأنه يسعىٰ بهذا العمل إلىٰ مرضاة الله ﷻ، فتأتيه الفيوضات حتىٰ قبل بدء العمل.

---

(١) عسكر بن حصين، أبو تراب، النخشبي، أحد العباد السائحين، من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم والفتوَّة والتوكل والزهد والورع، وأسند الحديث، صحب أبا حاتم العطار وحاتما الأصم، توفي سنة ٢٤٥هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٢٤)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٧/ ٥٠).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٢٦).

(٣) الحكم العطائية لابن عطاء الله (ص: ٥٩).

والحلاوة التي يجدها العامل لا ينبغي أن يسكن إليها ويقصد بعمله إلىٰ نيلها؛ فإن ذلك مما يقدح في الإخلاص والصدق، قال الواسطي: «استحلاء الطاعات سموم قاتلة»[١]. فليحذر من يجد حلاوة الطاعة من تطلُّبها، فيكون في الظاهر قائم لله وفي الباطن قائم بحظ نفسه.

والرغبة في العمل والصدق فيه من حيث الهمة العالية والعزيمة الصادقة والإرادة المتينة تجعل العبد مقبلًا علىٰ عمله برغبةٍ وحبٍّ، فيجد لذلك العمل حلاوة تباشر عمله عند بدئه، وأثنائه، وفي نهايته.

ومن الدلائل علىٰ ذلك العبادة؛ فإنها إن كانت تُؤدىٰ إسقاطًا للواجب، وللنجاة من عقاب الله فقد تؤدىٰ هذه العبادة جسدًا لا روح فيها، فلا يشعر مؤديها بأحكامها، ولا بمعانيها، ولا يفقه العبر والدروس من ورائها، لكن إن أداها العبد وهو مؤمن بوجوبها، ومحتسب ومتيقن بأجورها فإنه يجد حلاوتها قبل بدئه بها، ويشعر بالرضا بعد الانتهاء منها.

(١) المحاضرات في اللغة والأدب للحسن بن مسعود اليوسي (ص: ٩٠).

١٣٥

التوجه إلى الله بالقلب

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللهم لا تجعلنا ممن يدعو إليك بالأبدان ويهرب منك بالقلوب، يا أكرم الأشياء علينا لا تجعلنا أهون الأشياء عليك»[١].

المعنى الإجمالي

إن المؤمن الصادق يستعيذ بربه سبحانه من أن يكون متناقضًا في أقواله وأعماله، وسرّه وعلانيته، وظاهره وباطنه، فهو يسأل اللهَ تعالىٰ أن يجعله متطابقًا في أقواله وأفعاله، فإذا دعا الناسَ إلىٰ الخير كان أولَ مَن استجاب لذلك الخير.

والمؤمن الحق يعتقد يقينًا أن الله تعالىٰ هو أكرم الأشياء عنده وأعزّ الموجودات لديه، ويتوسل إلىٰ الله تعالىٰ بهذا الاعتقاد الصالح واليقين الكامل ألا يجعل عبدَه أهون الأشياء عنده سبحانه، بل يعامله بالفضل والإحسان.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٢).

١٣٦

الذكر ذكر القلب

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كم من مستغفر ممقوت، وساكت مرحوم؛ هذا استغفر وقلبه فاجر، وهذا ساكتٌ وقلبه ذاكر»(١).

المعنى الإجمالي

انكسار القلب بين يدي ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاضعًا خائفًا من الذنب أو من عدم قبول الطاعة خيرٌ من استغفار بالأسحار يصحبه منٌّ علىٰ الله تعالىٰ، وتفاخر علىٰ عباده.

فالعبرة بخضوع قلب العبد وسجوده لله تعالىٰ، واعترافه وإقراره بالذنب، واعترافه بنعمة الله عليه أن أعانه ويسر له التوبة والاستغفار.

ولذلك كان سيد الاستغفار من الأدعية والأذكار هو ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢). فقد استحق هذا الدعاء هذا الوصف بـ «سيد الاستغفار» لما فيه من الخضوع والتذلل،

(١) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي (ص: ٦٩)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٦).

والاعتراف بربوبية الله وألوهيته، والاعتراف بالعبودية الكاملة لله تعالىٰ، وتجديد العهد والعقد مع الله تعالىٰ بالبقاء علىٰ الطاعة.

إن الاشتغال بتطهير القلوب وتزكية النفوس أفضل من الإكثار من الطاعات مع غش القلوب وفسادها، ومثَل من يستكثر من الطاعات والذكر مع فساد قلبه كمثَل من يبْذِر بذرًا في أرض كثيرة الشوك، فلا يزكو ما ينبت فيها من الزرع، بل يمحقه الشوك ويفسده، فإذا نظفت الأرض من دغلها زكىٰ ما ينبت فيها ونما، فليس الشأن فيمن يقوم الليل، إنما الشأن فيمن ينام علىٰ فراشه ثم يصبح وقد سبق الركب[1].

(١) ينظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٥٥).

١٣٧

المحبـة الصادقـة

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «ليس بصادق من ادّعى حبه ولم يحفظ حَدَّه»[١].

المعنى الإجمـالي

تبقى الأقوال دعاوى وأصحابها مُدَّعُون، ما لم تصاحب الأقوال أفعال تُبرهِن صدق ما ادَّعوه؛ فمن ادَّعى محبة الله تعالى فليُلزِم نفسه البينة على حبه لله تعالى، مِن التزام أوامره واجتناب نواهيه، وعدم تعدي حدود الله التي حدَّها؛ قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وقد جعل الله علامة الصدق في محبته هو اتباع رسوله ﷺ، فدل على أن المحبة لا تتم بدون الطاعة والموافقة، قال الحسن: «قال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا، فأحب الله أن يجعل لحبه علَمًا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، ومن هنا قال الحسن: اعلم أنك لن تحب الله حتى تحب طاعته»[٢].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٦).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢١٢).

«وسئل ذو النون: متىٰ أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يُبغضه عندك أمرّ من الصبر. وقال بشر بن السري: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك. قال أبو يعقوب النهرجوري: كل من ادعىٰ محبة الله ﷻ ولم يوافق الله في أمره، فدعواه باطل. وقال رويم: المحبة: الموافقة في كل الأحوال»[(١)].

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢١٣).

١٣٨

خشية الله في السر والعلن

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من خان الله في السِّرِّ هُتِك سِتره في العلانية»(١).

المعنى الإجمالي

من صفات المؤمنين أنهم حافظون لحدود الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، وحفظ حدود الله وأوامره ونواهيه لا يكون في حال دون حال، بل في كل حال يكون عليه العبد المسلم؛ لأنه يتذكر عظمة الله وجلاله وعزته وكبرياءه، فلا يقدم في سره بالخيانة لما ائتمنه الله عليه، بل يكون أمينا وحافظا.

وقد ذكر النبي ﷺ ثلاث منجيات وهن: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفاقة، وخشية الله في السر والعلن(٢).

إن مِنْ حفْظِ الله تعالى لعبده أن يستره فلا يهتك له سترًا، ولا يكشف له عيبًا، ولا يكون ذلك إلا عند توقير العبد لربه بقلبه وجوارحه، فإذا خلا العبد راقب ربه،

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٦٥).
(٢) الحديث أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٤) برقم: (٦٤٩١).

وعلم أنه مطلِّعٌ عليه.

ومما قيل في هذا الأمر من الشعر:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقلْ   خلوتُ ولكنْ قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعةً   ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ[1]

والله تعالىٰ يستر العبد مرات كثيرة، لكنه إن هتك سر الله في سره، وخانه ولم يكن أمينا، وظن أنه في مأمن من مكر الله وعقابه، كشف الله ستره وهتك عنه حجابه، وفضحه بين العباد. نعوذ بالله من الخذلان.

(١) ينسب هذا البيت إلىٰ الحجاج بن يوسف التيمي. ينظر: المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٤/ ١٠٤)؛ وعيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٣٤٧)؛ روضة العقلاء لابن حبان (ص: ٢٦)؛ البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ١٣٣).

١٣٩

رائحـة الصـدق

قال سهل بن عبد الله التستري[١] رَحِمَهُ اللهُ: «لا يَشَمُّ رائحة الصدق عبدٌ داهن نفسه، أو داهن غيره»[٢].

بيـان المفردات

داهن: المداهنة لغة: المُصانعة واللين، وداهن: أظهر خلاف ما أضمر[٣]. ومعنى **داهن نفسه:** سكت عن منكرات نفسه وأعطاها ما تشتهيه من منكر لترضى عنه. ومعنى **داهن غيره:** ترك إنكار المنكر إجلالًا لصاحبه وتقربًا منه[٤].

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التُّسْتَرِيُّ، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، صحب محمد بن سوار ولقي ذا النون المصري، له كتاب في تفسير القرآن، وكتاب رقائق المحبين، توفي سنة ٢٨٣هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للطبري (٦/ ٧٥٦)؛ الأعلام للزركلي (٣/ ١٤٣).

(٢) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٧٤)؛ والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٣/ ٣٦٤).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ١١٦).

(٤) ينظر: معجم لغة الفقهاء لمحمد رواس قلعجي (ص: ٤١٨).

المعنى الإجمالي

الصدق هو: استواء السر والعلانية[١]، فالصادق لا تَنَاقُض بين ظاهره وباطنه، فهو بعيد عن النفاق في أقواله وأعماله وأحواله كلها، لا يرضىٰ عن المنكر، ولا يسكت عما يجب عليه فعله لغرض دنيوي أو لهوىٰ في نفسه، ولا يُداهن نفسه بأن يعصي الله في الخلوات، ويرضىٰ لنفسه ما ينكره علىٰ غيره، ويجد لنفسه المسوغات والتأويلات الفاسدة، مع أن نفسه أولىٰ بنصحه.

قال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهىٰ عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحدًا قطُّ أشبه سريرةً بعلانية منه[٢].

فالمسلم الصادق لا يخدع نفسه ولا غيره، وإنما يبين الحق، وينصح لنفسه وللمسلمين، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويكون أول الممتثلين لذلك، جاء في الحديث: «الدِّينُ النَّصيحة» قلنا: لِمَنْ؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٣].

---

(١) الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (٢/ ٣٣٤).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣) برقم: (٥٥).

١٤٠

خسارة الإعراض عن الله

قال الجنيد رحمه الله: «لو أقبل صادقٌ على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله»[(١)].

المعنى الإجمالي

من علامات صدق المؤمن أنه يتوجُّه إلىٰ الله توجهًا تامًّا تظهرُ فيه العبوديةُ الكاملةُ، فلا ينشغل بسواه، ويتعلق قلبه بمناجاته والوقوف الدائم بين يديه، ولا شك أنه بذلك يكسب أكبر كسب إن قبل الله منه، فإن الصادق يكسب معية الله وحفظه ومعونته، ولكنه لو فارق اللجوء إلىٰ الله والإقبال عليه ولو للحظة واحدة فإنَّ ما يفوته من الخير قد يكون أكثر مما أكرمه الله في حال إقباله؛ ذلك لأن لحظة الانقطاع هذه تبعثر وتشتت ذهن الصادق، فيشعر أنه بعد أن كاد يصل إذا بتلك اللحظة قد أرجعته إلىٰ سابق عهده قبل أن يسلك في هذا الطريق.

قال تاج الدين السبكي بعد أن نقل عبارة الجنيد هذه: «والناس يستشكلون هذه الكلمة ويتطلَّبون تقريرها، وسألت عنها بعض العارفين بالتصوف فقال: معناها يظهر بضرب مثل؛ وهو: أن الغوَّاص إذا غاص في البحر مُنَقِّبًا علىٰ نفيس الجواهر،

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٣٣).

إلىٰ أن قارب قراره وكاد يحظىٰ بمراده أعرض وترك، كان ما فاته أكثر مما ناله، وكذلك من أقبل علىٰ الحق ألف ألف سنة ثم أعرض فتلك اللحظة التي أعرض فيها لو لم يعرض نتيجة عمل ألف ألف سنة، فلما أعرض فاتته تلك النتيجة التي هي غاية عمل ألف ألف سنة، فظهر أن ما فاته أكثر مما ناله»(١).

وقد ذكر النبي ﷺ في الحديث القدسي حال عباد الله المقبلين علىٰ الله كيف يُقْبِلُ الله عليهم مما يجعل العبد المؤمن التقي لا يفرط بهذه المنزلة والمكانة عند الله تعالىٰ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»(٢).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي (٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

١٤١

الاشتغال بأحوال النفس

قال عبد الله ابن منازل[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «عبرِّ بلسانك عن حالك، ولا تكن بكلامك حاكيًا أحوال غيرك»[(٢)].

المعنى الإجمالي

اللسان من نعم الله على عباده؛ فهو عضو النطق والبيان، وبه يتفاهم الناس، وتقضى حوائجهم؛ وبكلمة طيبة تغمد السيوف في أغمادها، أو تستثار الحميات والعصبيات، وتتقد الشرور والحروب.

ولخطورة الكلام فقد ذكر الله في كتابه الكريم أن أي لفظ يقوله العبد مقيد عليه، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، حتى قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُكتب كل ما يتكلم به العبد من خير أو شرّ، حتى إنه ليكتب: أكلتُ، شربتُ، ذهبتُ، جئتُ، رأيتُ»[(٣)].

(١) عبد الله بن محمد بن منازل، أبو محمد، النيسابوري، من أَجَلِّ مشايخ نيسابور، شيخ الصوفية، صحب أبا صالح حمدون، عالم، كتب الحديث ورواه، توفي سنة ٣٢٩هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٢٧٧)؛ طبقات الأولياء لابن الملقن (ص: ٣٤٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٧٨).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٧٥٧).

ولما كان العبد مسؤولًا عن حاله قبل أن يُسأل عن غيره، فإن الأَولىٰ به ألا يقحم نفسه في خصوصيات الآخرين ودقائق حياتهم، فيكون مشغولًا بهم عن نفسه؛ قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨].

إنَّ من يُبقي لسانه حاكيًا عن غيره يخسر دنياه وآخرته؛ وذلك لأنه يضيع وقته فيما لا نفع فيه، بل ويخالف أوامر الله من خلال خوضه في أعراض الناس وتتبع عوراتهم والوقوع في غيبتهم، وعواقب هذه المخالفات كبيرة؛ فهي تؤدي إلىٰ التباغض والتحاسد وقطع ما أمر الله به أن يوصل، كما أن الخوض فيها يؤدي إلىٰ إفلاس صاحبها يوم القيامة، حيث ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضىٰ ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٨) برقم (٢٥٨١).

١٤٢

النجاة في صدق العمل

قال الشبلي[١] رحمه الله: «يا مَن خلْفَه الأجلُ، وقُدَّامه الأمل، أما والله لا يُنجيك إلا صدقُ العمل»[٢].

بيان المفردات

الأجَل: المدة والوقت الذي يحلّ، يقال: جعلت له أجلًا، وأجّلته تأجيلًا[٣].

الأمَل: الرجاء، يقال: أمَل خيرَه يأمُله أمْلًا وأمَلًا، وكذلك التأميل، والجمع آمال[٤].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة حقيقة ما يحتاجه الإنسان للاعتدال بين أجَل الحياة وأمل المستقبل وكيف تكون النجاة، فالحياة قصير أجَلها وأيامها مطايا ورواحل تنقلنا

(١) اختلفوا في اسمه، قيل: دلف بن جحدر، وقيل غير ذلك، أبو بكر الشبلي، الخراساني البغدادي، تاب في مجلس خير النساج، صحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ، وصار أوحد وقته حالا وعلما، فقيه على مذهب مالك، توفي سنة ٣٣٤هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٥٩)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٧/ ٢٤١).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٠٩)، ونسب الفاريابي فيه الحكمة إلى الشبلي؛ ولكن الذهبي ذكرها كبيتٍ ونسبه إلى الشاعر العباسي أبي العتاهية. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٤٨٦).

(٣) المصباح المنير للفيومي (١/ ٦).

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٦٢٧)؛ مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٢).

إلىٰ الآخرة كل يوم، وأمامنا أمل لقاء الله علىٰ خير، ولكن الأمل فقط بدون العمل لا يكفي ولا يفيد، بل المرء في حاجة للعمل بصدق وإخلاص ليجد أمله يتحقق ويسعد بالنجاة الأبدية، فكم من أناس غرتهم الحياة الدنيا وغرقوا فيها وأملوا أن يتوبوا لاحقا ويعملوا عملًا صالحًا، ولكن لم يقدر لهم ذلك فخسروا خسرانًا مبينًا.

ومعنىٰ الحكمة وارد في كثير من نصوص القرآن والسنة وآثار السلف، بل حياةُ سيد المرسلين ﷺ وأصحابه ومَن تبعهم من الصلحاء بأكملها شاهدة عليها، فكانوا مستمرين في الأعمال والطاعات يأملون من الله القبول وحسن الجزاء، ولم يقعدوا عن العمل بحجة الأمل وقصر الأجل، وفيه يقول ﷻ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]. وأخبر ﷻ من تكون لهم النجاة قائلا: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:٦١].

١٤٣

العــبرة للباطن

قال أبو العباس الدينوري[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن لباس الظاهر لا يغير حكم الباطن»[(٢)].

المعنى الإجمــالي

يحرص الناس على أن يُجملوا ظواهرهم بالزينة التي يظهرون بها بمظهر يليق بهم، وهذا الأمر مباحٌ في الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢]، ولكنَّ الاهتمام باللباس الظاهر على حساب خراب الباطن هو المذموم، فإن الباطن هو محط نظر الخالق جَلَّ جَلَالُهُ، ولذلك حثنا ربنا جَلَّ جَلَالُهُ على الاهتمام بتزيين الباطن بالتقوى، وجعله خير لباس، وهو الذي ينبغي الاهتمام به فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦].

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري، صحب ابن عطاء ويوسف بن الحسين، وعبد الله الخراز، وهو من أفتى المشايخ، أقام بنيسابور واعظا، وتوفي بسمرقند في حدود سنة ٣٤٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢٥/ ٤٨٤)، طبقات الأولياء لابن الملقن (ص: ٧٩).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٥٧).

ومهما تجمل الإنسان وتزين باللباس الظاهر، فإن ذلك لا يغير من جوهره وحقيقته شيئًا؛ لأن العبرة بالباطن وبما في القلب، ولذلك قيل: إنما المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه[١]. وأما جمال الظاهر مع بقاء الباطن في خراب وامتلاء بما يضاد الإيمان من الكبر والغرور والعجب والحسد والضغينة والبغضاء وغيرها من المهلكات لا يفيد العبد شيئًا، ولا يغير من حاله مع الله؛ لأن نظر الله إلىٰ القلوب؛ جاء في الحديث: «إن الله لا ينظر إلىٰ صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»[٢].

ويمكن أن يفهم من الحكمة أيضًا: أن اللباس المرقع الذي يلبسه الزهاد لا يدلّ علىٰ زهد لابسه؛ لأن الزهد إنما هو في القلب، فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد: أن تتركها من قلبك وهي في يدك[٣].

(١) الأمثال لأبي عبيد (ص: ٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١١) برقم (٢٥٦٣).

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص: ٢٥٢).

١٤٤

التوبـة الكاذبـة

قال أبو عبد الله السجزي[(١)] رحمه الله: «بئس العبد عبدٌ عصى الله بقلبه وجوارحه واعتذر إليه بلسانه من غير رجوعٍ عما سلف»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

من شروط التوبة الصادقة العزم على عدم العودة إلى معصية الله ومحاربته، لكن لا يكفي التائب في توبته أن يعتذر إلى الله تعالى بقوله: اللهم إني تبتُ إليك، فاقبلْ توبتي، واجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، ثم لا يرجع عن ذنبه، فهذه توبة كاذبةٌ، ما لم يصدق اللسان القلب والجوارح، فيُقبِل القلب على الله بوَجَلِه وخشيته، وتمتنع الجوارح عن المعاصي؛ فالعين ترجع عن النظر فيما حرم الله، والأذن عن الاستماع لما حرم الله، واليد عن أخذ حقوق الآخرين، والرجل عن المشي في الحرام، والبطن عن أكل الحرام، والفرج عن الوقوع في الزنا، والقلب عن أمراضه كلها.

(١) عيسى بن شعيب بن إبراهيم، أبو عبد الله، السجزي، الصوفي، المحدث العالم، الزاهد، شيخ المعمرين، نزيل هراة، ولد بسجستان سنة ٤١٠هـ، وسمع من جماعة، وتوفي ٥١٢هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٠١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٣٨٩).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٠٢).

فإن الانتهاء عما سلف من الذنوب والمعاصي ضمان للتوبة والمغفرة بإذن الله تعالىٰ، يقول الله تعالىٰ عن شرط مغفرته للذين كفروا: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال:٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧-١٨].

١٤٥

أصـــدق الناس وأكذبهم

قال الفاريابي رحمه الله: «أصدقُ الناس القائمُ على توبتِه، وأكذبُ الناس العائدُ في ذنبه»(١).

المعنى الإجمـالي

الصدق في العبودية له علامات تدل عليه، وليس بالادعاء والتمني، لأن الجميع محاسبون على أعمالهم إن كانت خيرا فخير أو شرا فشرّ، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

ومن العلامات الدالة على صدق توجه العبد إلى الله دوام التوبة والاستغفار والمحاسبة، فبمجرد أن يقع العبد في المعصية يسارع إلى التوبة منها، كما وصف الله سبحانه المتقين في كتابه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣١١)؛ وجملة «أكذب الناس العائد في ذنبه» مروية عن الفضيل بن عياض كما في تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤١٥).

يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

أما من كان مصرًّا على الذنوب عائدا إليها كل حين، فهو كاذب في ادعائه التوبة والصلاح، لأن الصلاح يقتضي المحاسبة، والمحاسبة تستلزم التوبة، وما دام كل ابن آدم خطاء فيتوجب دوام التوبة، أما العودة في الذنوب مرة بعد مرة مع عدم التوبة النصوح منها فهذا يدخل في باب الإصرار، وهو علامة على الكذب في العبودية، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه»(١).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٦٣) مرفوعًا، قال المنذري: وقد روي بهذه الزيادة موقوفًا، ولعله أشبه. الترغيب والترهيب (٤/ ٩٧).

١٤٦

لا ينفعك تحسين الظاهر مع فساد الباطن

قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «فوالذي ذلّ الملوكَ، وأعز العبدَ المملوك، وهيَّأ السالك للسلوك، لا يُقبَل فقرُك إن لم يكن إليه، ولا يُرْفَع قدرُك إن لم تتصَنَّع لديه، ولا يفيد دُلوقُك حتى تلوح من أُفُق التوفيق بُرُوقُك، ولا تُسمع دعواك حتى تقوم بيِّنةُ معناك، ولا تُقبَل طواقيك مع وجود بواقيك، ولا تنتفع بتسبيحك مع وجود تقبيحك، ولا يقوم تجريدك بتبديدك، ولا تزهيدك بتقييدك، ولا تمزيقك بتزويقك، وعارٌ عليك تمُزِّقَ الخِرَق، قبل أن تمُزِّقك الحُرَق»[(١)].

بيـــان المفردات

دلوقك: الدَّلَق والاندلاق: التقدُّم والاندفاع بسرعة، يقال: اندلق السيل على القوم؛ أي: هجم[(٢)]. والدَّلَق يطلق على لباس من الصوف كان يرتديه العلماء والقضاة والصوفية في مصر[(٣)]، وهو لباس مُرَقَّع يدل على التَّقَشُّف، قال أحدهم:

لَبِسُـــوا الـــدُّلُوقَ مُرَقَّعًـــا، وَتَقَشَّـــفُوا ... كَتَقَشُّـــفِ الأَقْطَـــابِ وَالأَبْـــدَالِ[(٤)].

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ١٧٥).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٤٧٦).

(٣) ينظر: المعجم العربي لأسماء الملابس لرجب إبراهيم (ص: ١٧٧).

(٤) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ٢٣٢).

بروقك: البرق: وَمِيض السحاب، ويطلق على الشيء المتلألئ[١]، والمقصود: نور الهداية والتوفيق.

معناك: جوهرك وذاتك[٢].

طواقيك: جمع طاقية، وهي غطاء للرأس من القطن أو الصوف[٣]. وهي لباس أهل العلم والزهد.

بواقيك: البواقي: جمع بائقة، وهي الظلم والشر والخطايا[٤]. ومراده: أنه لا يُقبل حسن المظهر إن كان الباطن مُلوَّثًا بالذنوب وممتلئًا بالشهوات.

تجريدك: التجريد: هو التخلي عن حظوظ النفس وشهواتها، والتوجه بالعبادة خالصة لوجه الله[٥].

بتبديدك: التبديد هو التفريق[٦]، وربما يقصد بذلك: أن الإخلاص لا يكون إلا بالتوجه لله وحده، مع عدم ملاحظة أحدٍ من المخلوقين، وهو المراد بالتبديد؛ أي: تبديد نيتك بين الأغيار لإرضائهم.

تزهيدك بتقييدك: التزهيد ضد الترغيب، والتزهُّد هو التعبد والتقلُّل من الدنيا[٧]، **والتقييد:** هو حبس الشي عن الحركة، وكأن مقصوده: أن الزهد لا يكون بخشونة العيش وترك الاستمتاع بالنعم، ولبس الثياب البالية، إنما الزهد في القلب.

(١) ينظر: المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد (١/ ٤٧٦).
(٢) ينظر: معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٥١٩).
(٣) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد عبد الحميد عمر (٢/ ١٤٢٥).
(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٤٥٢).
(٥) ينظر: منازل السائرين للهروي (ص: ٢٢).
(٦) ينظر: الْمُغْرِب في ترتيب الْمُعرِب للمُطرِّزي (ص: ٣٦).
(٧) ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ١٣٨).

ولا تمزيقك بتزويقك: التمزيق هو التخريق والتقطيع(١). والتزويق: التزيين والتحسين(٢). والمقصود: أن تصنعك للزهد بتمزيق ثيابك لا يجعلك زاهدًا.

عارٌ عليك تُمَزِّقَ الخِرَق قبل أن تُمَزِّقَك الحُرَق: الحُرَق: جمع حُرْقة، وهي شدة الوَجْد من عِشق أو حُزن(٣). والمقصود: أن من العار أن تُمَزّق ثيابك تزهُّدًا، بينما باطنك لم يتمزق من شدة الشوق إلىٰ ربك.

المعنى الإجمالي

ينبه ابن غانم إلىٰ ضرورة إصلاح الباطن قبل إصلاح الظاهر، وأن مدار الأمر هو علىٰ ما في القلب، وأن في صلاحه صلاح بقية الجسد، كما في الحديث: «ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صَلُحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٤). وكما في الحديث الآخر: «إِنَّ اللهَ لا ينظر إلىٰ صوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»(٥). فالقلب هو محط نظر الله ﷻ، والاهتمام بسلامته هو الذي ينفع العبد يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، والمبالغة في الاهتمام بالمظهر والقشور -لا سيما إن كانت من شعار الصالحين- مع فساد الباطن دليل علىٰ عدم الإخلاص، ومن يفعل ذلك كأنه يُراعي نظر الخلق ولا يهتم بنظر الخالق، وهذا من نفاق العمل، وقد حذّر النبي ﷺ من أقوام لهم أعمال صالحة في الظاهر، ولكنهم ليسوا من الإسلام في

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٣٢٥).
(٢) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (٢٥/ ٤٢١).
(٣) ينظر: غريب الحديث للقاسم بن سلّام (٤/ ٢٤٩).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١١١) برقم: (٢٥٦٤).

شيء، فقال فيهم: «يحقِر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يُجاوز تراقيَهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»[(١)]. فما أغنت عنهم صلاتهم وعبادتهم بسبب سوء اعتقادهم وفساد باطنهم.

فعلىٰ السالك أن يُمَحِّص قلبه، ويزَكّي نفسه، وسيظهر أثر ذلك علىٰ جوارحه دون تكلف منه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١١٠) برقم: (١٠٦٤).

١٤٧

القلب الصافي تتجلى فيه معاني الإيمـان

قال ابن غانم المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلما صَفَت الأواني جَلَت ما فيها من جواهر المعاني»(١).

بيـان المفردات

الأواني: جمع آنية، وآنية جمع إِناء(٢).

جلت: جلا الأمرَ وجلّاه: أظهره(٣).

المعنى الإجمـالي

القلوب هي أوعية مملوءة بالمعاني التي يعتقدها الإنسان أو يفكر فيها أو يحسها، وكلما كانت هذه الأوعية نقية صافية ظهرت منها المعاني جليّة واضحة، فكأن القلب وعاء من زجاج يشفّ عما بداخله، فكلما صفا الزجاج ظهر ما فيه، وكلما تكدّر احتجب ما فيه، جاء في الحديث: «القلوب أوعيةٌ، وبعضُها أوعىٰ مِن بعض، فإذا سألتم الله عَزَّوَجَلَّ أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ١٦٣).
(٢) تاج العروس للزبيدي (٣٧/ ١٠٧).
(٣) تاج العروس للزبيدي (٣٧/ ٣٦٣).

لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهرِ قلبٍ غافل»(١).

والسبب في تكدر القلب وسواده هو تراكم الذنوب بعد الذنوب، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِت في قلبه نُكتة(٢)، فإن هو نَزَع واستغفر وتاب صُقلت، فإن عاد زِيد فيها، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو فيه، فهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»(٣). قال ابن الملك رحمه الله: «هذه الآية مذكورة في حق الكفار، لكن ذكَرها ﷺ تخويفا للمؤمنين كي يحترزوا عن كثرة الذنب، كي لا تسودّ قلوبهم كما اسودت قلوب الكفار، ولذا قيل: المعاصي بريد الكفر»(٤).

وكلما تورع المؤمن عن الذنوب والمعاصي، وأكثر من الطاعات والقربات، تطهر قلبه من أدناس المعاصي، فتصبح معاني الإيمان سريعة الظهور عليه، فسرعان ما يخشع إذا تلا آيات الله أو سمعها، وسرعان ما تظهر عنده صفة الرحمة والشفقة للناس فيسارع في دعوتهم إلى الخير.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٤٠١) برقم: (٦٧٦٦). قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٨).

(٢) النكتة: أثر قليل كالنقطة، شِبْه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ١٦٧٢) برقم: (٨٠٦٧).

(٤) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٤/ ٢١١).

١٤٨

الصدق في العبودية

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك»(١).

بيان المفردات

الاستشراف: رفع الرأس للنظر إلى الشيء(٢)، والمقصود هنا التطلُّع والتمنّي(٣).

الخصوصية: ما اختص الله تعالى به بعض عباده من عمل نافع أو علم صالح(٤)، وكل ما اختص الله به عبده من المواهب والمِنَح(٥).

المعنى الإجمالي

حين يقوم المسلم بعمل صالح يكون قلبه متوجها بكامله لإرضاء الله، وحين يكرم الله عبده المؤمن بنعمة أو كرامة نتيجة لعمله الصالح يكون قلبه مستغرقا في شكر الله الذي أنعم عليه بالعمل الصالح ثم بهذه النعمة والكرامة، فالمؤمن الصادق

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري رحمه الله (ص: ١٩).
(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٢٦٣).
(٣) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٦٦).
(٤) شرح الحكم للنفزي (ص: ١٢٥).
(٥) شفاء السقم لباراس (ص: ٦٠٥).

في عبادته يحب أن تبقىٰ هذه الأعمال بينه وبين الله ولا يعلم بها أحد من الناس، قال الحسن رضي الله عنه: « إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لَيصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان علىٰ ظهر الأرض من عمل يقدرون علىٰ أن يعملوه في سر فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همْسا بينهم وبين ربهم عز وجل، ذلك أن الله تعالىٰ عز وجل يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ [الأعراف:٥٥]، وذلك أن الله تعالىٰ ذكر عبدا صالحا ورضي قوله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ [مريم:٣]»(١).

وإذا أخفىٰ الإنسان عمله عن أعين الناس، أو أكرمه الله بخصيصة لا يعلمها الناس، لكن بقي في قلبه تطلُّع واستشراف إلىٰ اطلاع الناس علىٰ ذلك فهذا الاستشراف دليل علىٰ وجود خلل في صِدْقه في عبوديته؛ لأن قلبه تعلق بالناس وتمنىٰ لو يعلمون بحاله فيحصل علىٰ مدحهم وثنائهم ويكبر في أعينهم، وهذا مناف للإخلاص الذي هو ابتغاء وجه الله وحده، وقال أبو الخير الأقطع رحمه الله: «من أحب أن يطّلع الناس علىٰ عمله فهو مراء، ومن أحب أن يطّلع الناس علىٰ حاله فهو كذاب»(٢).

وينبغي التفريق بين استشراف الإنسان لاطلاع الناس علىٰ ما اختصه الله به من الصالحات والمكرمات وبين اطلاع الناس علىٰ خصائص العبد دون استشراف منه لذلك، فإن الاستشراف خلل في العبودية لكن الاطلاع دون استشراف لا يطعن في

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٤٥).
(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين العمري (٨/ ٣١٢).

عبودية المرء بل قد يكون فيه ثواب عظيم إن كان له نية صالحة في ذلك وسلِم من الاستشراف، فالاستشراف هو فعل قلبيّ يفسد صدق العبودية أما اطلاع الناس دون استشراف فليس كذلك، وقد ورد أن رجلا قال: يا رسول الله، إن الرجل يعمل العمل ويُسِرُّه، فإذا اطُّلع عليه سَرَّه؟ قال: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية»[١] قال ابن حبان رحمه الله: «فإذا اطلع عليه سرَّه» معناه: أنه يَسُرُّه أنّ الله وفقه لذلك العمل فعسىٰ يُستنّ به فيه، فإذا كان كذلك كتب له أجران، وإذا سرّه ذلك لتعظيم الناس إياه أو ميلهم إليه كان ذلك ضربا من الرياء لا يكون له أجران ولا أجر واحد»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٩٢) برقم: (٢٣٨٤)، واللفظ لابن حبان في صحيحه (٢/ ٩٩).

(٢) صحيح ابن حبان (٢/ ٩٩).

١٤٩

الأنوار تسبق الأقوال

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير»(١).

بيان المفردات

أنوار الحكماء: هي أنوار معرفتهم، وهي قوة يقينهم بأن الأمور كلها بيد الله لا شريك له فيها(٢).

المعنى الإجمالي

إذا أراد الداعون إلى الله إرشاد عباد الله ونصيحتهم سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى باللجوء والافتقار إليه في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعداد القبول لما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة، فيجيبهم إلى ذلك، فإذا تكلموا به تَلقَّتْهُ قلوبهم التي وصل إليها أنوار أسرار الحكماء كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر، فينتفعون بذلك أتم الانتفاع(٣).

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٤).

(٢) شرح الحكم للنفزي (٢/ ١٣٥).

(٣) المرجع السابق (٢/ ١٣٦).

فوصول كلام العلماء بالله وتعبيرِهم إلىٰ قلوب العباد يكون نتيجة لما يلقيه الله في قلوب العباد من محبة هذا القائل والارتياح له؛ قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أَحبَّ عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأَحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبّوه، فيحبّه أهلُ السماء، قال: ثم يوضَع له القبول في الأرض، وإذا أَبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أُبغض فلانًا فأَبْغِضْه، قال: فيُبْغِضُه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبغض فلانًا فأبغِضوه، قال: فيُبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[1].

وهذه الحكمة تؤكد علىٰ ضرورة الصدق مع الله والإخلاص إليه في الدعوة إلىٰ الله، وهذا ما ينبغي أن يكون الهم الأكبر للداعية، ولا يكون أكبر همه تزويق الكلام والتفنن في استخدام الحركات والإشارات وطريقة النظر إلىٰ الحضور ورفع الصوت وخفضه أثناء الكلام، نعم هذه الأشياء ومثيلاتها هي عوامل مساعدة لتحسين الأسلوب وهذا مطلوب ومرغوب، لكنها في المرتبة الثانية بعد الصدق والإخلاص.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١) برقم: (٣٢٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٠) برقم: (٢٦٣٧)، واللفظ لمسلم.

١٥٠

اللسان ينطق بما استقر في القلب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كل كلام يَبرُز وعليه كسوة القلب الذي منه بَرز»(١).

بيـان المفردات

يبرز: البروز: الخروج إلى الفضاء الواسع(٢)، والمقصود هنا خروج الكلام وظهوره.

الكسوة: بضم الكاف وبكسرها: اللباس(٣).

المعنى الإجمـالي

الكلام صفة المتكلم؛ فما يضمره المتكلم من مشاعر، وما ينغرس في قلبه من إيمان بما يقول، وما يكنّ من صدق وإخلاص، كل ذلك يكون مرافقا لكلامه إذا تكلم، فاللسان مرآة الجَنان، وكما قيل:

إن الكـلام لفـي الفـؤاد وإنمـا ... جُعـل اللسـان علـى الفـؤاد دلـيلا

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٥).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٠٩).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٢٢٣)؛ وتاج العروس للزبيدي (٣٩/ ٤٠٠-٤٠١).

فإذا كان للمتكلم قلب صادق مخلص كان لكلامه أثر في النفوس؛ إذا سمعه الغافل تنبه، وإذا سمعه العاصي انزجر، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه[(١)]، وإذا كان القلب منوَّرا اكتسىٰ الكلام نورا فلا تمجّه الأسماع ولا تنكره القلوب، فكسوته هو ذلك النور، وكلام الحكماء يبرز مكسوّا بكسوة الأنوار، فتفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم، وكلام المدّعين يبرز وعليه الظلمة فلا ينتفع به أتم الانتفاع، وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه لا من جهة قائله[(٢)].

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٤٠٢).

(٢) شرح الشرقاوي بهامش شرح النفزي (٢/ ١٣٦).

١٥١

تأثير السرائر في الظواهر

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما استُودع في غَيْبِ السرائر ظهر في شهادةِ الظواهر»[١].

بيان المفردات

السرائر: المراد بها القلوب والأرواح.

الظواهر: الجوارح[٢].

المعنى الإجمالي

في هذه الحكمة يبين الإمام ابن عطاء رحمه الله أن ما كان موضوعا ومستودعا من خير أو شر في القلوب الغائبة عن العيون فإنه سيظهر أثره قطعًا في كلام الإنسان وأعماله، فيكون هذا الظاهر شاهدا على ما في القلب من صلاح أو فساد، كما قيل: «ما فيك ظهَر على فيك»[٣].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١١).
(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ١٠٤).
(٣) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ١٠٥).

قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مُضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١]، فأعضاء الإنسان وجوارحه تابعة لقلبه تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

وهذا الترابط الوثيق الذي لا ينفك بين الباطن الخفي وبين ما يظهر على الجوارح هو ترابط لازم من كلا الجانبين؛ فإذا كان باطن الإنسان صالحا معمورا بمحبة الله وخشيته انعكس ذلك على ظاهر أعماله فتراه مسارعا في الخيرات، متباعدا عن المنكرات، مكثرا من ذكر الله، قائما بحقوقه، واقفا عند حدوده، ومن الجانب الآخر إذا ظهر على الإنسان سيما الخشوع والصلاح وكان قائما بحدود الله لا ينتهكها ذاكرا لله وعابدا له، دل ذلك على صلاح باطنه وصدق سريرته، قال تعالى واصفا المؤمنين: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩].

فمن ادعى سلامة باطنه وحبه لله ورسوله ثم لم يمتثل ما أُمر به وقصر في طاعة الله وتعدى محارمه فهذه الدعوى هي دعوى كاذبة لا تقبل من صاحبها؛ لأن العبرة بالظاهر وهو المعيار للدلالة على باطن الإنسان، وكذلك الحال لو كان باطن المرء فاسدًا لكن حاول إخفاء ذلك والتظاهر بحسن الأعمال والأخلاق فإنه لا يلبث أن يظهر ذلك الباطن في سقطاته وسهواته.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٨) برقم: (٥٢).

١٥٢

المؤمن يرجو القبول ولا يطلب العوض

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «متى طَلَبْتَ عِوضًا عن عملٍ طُولِبْت بوجود الصدق فيه، ويكفي المُريبَ وِجْدان السلامة»[١].

بيـان المفردات

العِوَض: البدَل والخلف[٢].

المُريب: صاحب الظن والتهمة[٣].

وِجدان السلامة: وجودها والحصول عليها، يقال: وجدت الضالة وجدانا[٤].

المعنى الإجمـالي

المقصود من هذه الحكمة من الإمام ابن عطاء ﵀ أن المسلم ينبغي له أن يستحضر فضل الله عليه أنْ هداه للإسلام ووفقه لعمل الصالحات ويستحضر تقصيره في عمله وأنه لو حصل تمحيص وتدقيق لا يرقىٰ لأن يكون مقبولا عند الله نتيجة لما يشوبه من نقص وقصور، فإذا استحضر المسلم ذلك أيقن أنه فقير إلىٰ الله

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤).
(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٦٣٧).
(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (١٠/ ٣٠٧).
(٤) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٤٤٥).

في كل أحواله وأنه لا غنىٰ له عن رحمة الله ومغفرته، فيبلغ غاية الجهد في إتقان عمله مستحضرا لتقصيره وضعفه راجيا لعفو الله ورحمته، قال رسول الله ﷺ: «لن يُنجي أحدًا منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»(١).

فالعامل يستحق أجره حين يقوم بعمله علىٰ الوجه الصحيح، لكن إذا قام بالعمل علىٰ غير الوجه الصحيح المطلوب وبطريقة لا تليق برب العمل فإنه حين يطالِب بالعوَض والبدل سيكون مطالَبا بصحة العمل من أجل استحقاق الأجر عليه.

والمرء حين يعمل بطاعة الله فإن عمله لا يكاد يخلو من أنواع الآفات التي تطعن في صدق العبودية مثل الرياء والعُجْب وطلب حظّ النفس العاجل أو الآجل إلخ.. فصدق العبودية يقتضي أن يكون العمل خالصا لله وليس فيه أي حظ للعبد، لذلك فحين يَطلب أحدٌ عوضًا علىٰ هذا العمل سيُطالب بصدق العبودية فيه، والعبودية الصادقة الخالية من أي شائبة متعذرة علىٰ الإنسان الضعيف المتّصف بالنقص، بل إن هذا العمل المختل مدعاة للعقاب والمؤاخذة فضلا عن طلب الثواب عليه، لذلك فحسب هذا العامل المتّهم في صدقه وإخلاصه أن يسلم من العقوبة، وقد استحضر مالك ابن دينار رحمه الله هذا المعنىٰ حيث كانت الغيوم تجيء وتذهب ولا تمطر فيقول مالك: «أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجارة، إن لم تمطر حجارة فنحن بخير».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢١) برقم: (٥٦٧٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٣٩) برقم: (٢٨١٦).

١٥٣

مطلب العارفين

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية»[(١)].

بيـان الـمفردات

المطلب: هو مقصود العارفين، أو محلّ قصدهم ومحلّ نظرهم[(٢)].

العارف: من كان عالما بالله، وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة[(٣)].

الـمعنى الإجمـالي

يمكن تلخيص أنواع مطالب الناس بهذه الأقسام الثلاثة[(٤)]:

(١) الجهّال، ومطلبهم وغاية أملهم هو الدنيا وملذاتها، وهذا القسم عمله باطل غير مقبول عند الله؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه،

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٠).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٠٤).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢).

(٤) ينظر: شفاء السقم لباراس (ص: ٣٧٦-٣٧٧).

قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦].

(٢) العبّاد، وهم الذين يعملون لله ويرجون ما يعود عليهم من الثواب والسلامة من العقاب، فهؤلاء مقامهم محمود ومطلبهم عزيز بالنسبة لمن قبلهم.

(٣) العارفون، وهؤلاء كل بغيتهم القيام بحق سيدهم والمثول علىٰ بابه والإقبال علىٰ جنابه لا يلتفتون إلىٰ حظ عاجل ولا إلىٰ جزاء آجل، لأنها حاصلة تبعا لمرضاته.

فالمعرفة الصحيحة توصل صاحبها إلىٰ معرفته بنفسه وعيوبها وإلىٰ معرفته بربه وعظمته، فيلزم من معرفته بنفسه وعيوبها أن يطلب الصدق في العبودية، ويلزم من معرفته بعظمة ربه أن يطلب القيام بحق الله كما ينبغي، قال يحيىٰ بن معاذ: «يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤه علىٰ نفسه وثناؤه علىٰ ربه عز وجل»[1].

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٤٨٠).

١٥٤

الأمــداد بحسـب الاستعداد

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ورود الأمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار»[(١)].

بيـان المفردات

الأمداد: جمع مدَد وهو الزيادة المتصلة والعطاء المتصل[(٢)]، والمقصود ما يُمِدّ الله به عباده الصالحين من النعم والفتوح والكرامات، وأما الإمداد بكسر الهمزة فهو الإعطاء.

الأنوار: النور هو الضياء[(٣)]، والمراد بها العلوم والمعارف.

الأسرار: السِّرّ هو جوف كل شيء ولُبّه[(٤)]، والمقصود قلب الإنسان وباطن حاله.

المعنى الإجمـالي

يُمِدّ الله ﷻ عباده الصالحين بأنواع من العطايا والنعم الظاهرة والباطنة علىٰ حسب استعدادهم وقابليتهم لها، فكلما ترقىٰ المسلم في مراتب العبادة

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٧٨).

(٢) ينظر: مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٥٨).

(٣) مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٨٥).

(٤) تاج العروس للزبيدي (١٢/ ٧).

زادت هذه العطايا، وكلما ضعُفت مجاهدته وقلّ عمله قلّت، فهي مرتبطة بجاهزية المرء واستعداده، وهذه الأمداد هي جزء من الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده الصالحين، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾.

ومن شواهد هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] فلا يختار لهذه المرتبة إلا من يستحق، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥] أي: سميع لأقوال عباده، وبصير بأعمالهم، وعليم بمن يستحق ذلك بسبب استعداده.

كذلك الحال بالنسبة إلىٰ ما يفتح الله علىٰ عباده من أبواب العلم والمعرفة واليقين، فإنها تأتي علىٰ قدر صفاء قلب الإنسان وإخلاصه وتعلقه بمحبة الله، فإذا كان قلب الإنسان مملوءا ومشغولا بحب الدنيا وطلب ما فيها لا يمكن أنْ يتسع لهذه الأنوار الصافية؛ لأن للإنسان قلب واحد كما قال تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾، وقال ﷺ: «من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك»(١).

وتدل هذه الحكمة أنّ علىٰ المسلم أنْ لا يشغل نفسه بالغايات والنتائج التي ألزم الله ذاته العلية بها، بل عليه أن يصرف همه ووقته إلىٰ الأسباب والوسائل التي كلفه الله بها.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٤٣) برقم: (٣٦٧٩).

١٥٥

العزيمـة عرضـة للفسخ

قال ابن تيمية رحمه الله: «العزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق»(١).

بيـان المفردات

العزائم: جمع العزم، وهو إرادة القلب لفعل شيء ما، يقال: عزَم على الشيء وعزَمه عزْما من باب ضرَب؛ عقد ضميره على فعله، وعزَم عزيمة وعزْمة: اجتهد وجَدّ في أمره(٢).

الفسخ: التناقض والبطلان، يقال: فَسَخَ الشيءَ يفسَخُه فَسْخًا فانْفَسَخَ: نَقَضَه فانتَقَض، وتفاسَخَت الأَقاويل: تَناقَضَت(٣).

المعنى الإجمـالي

تبين الحكمة آفة الاعتماد الزائد على النفس، فإن الناس لا يعرف ما يواجهه عند النزول في الواقع، فإنه قد يعزم على أمر دون معرفة حقيقته أو يطلب شيئا صعبا فيضطر لفسخ إرادته وإبطاله عندما ينزل عليه. وأشارت هذه الحكمة إلى تصرفات

(١) دقائق التفسير لابن تيمية (٢/ ٣٦٠).
(٢) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٤٠٨).
(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٤٤).

بعض الزُّهاد؛ كطلب البلاء قاصدًا رفع الدرجة بها؛ لما ورد في الحديث، أن النبي ﷺ قال لعائشة: «ولكنها على قدر نَصَبكِ»(١)، فيطلبون البلاء، وعندما يأتي لا يطيقونه وتنفسخ عزيمتهم، كما ورد في قصة الشاعر الصوفي سمنون بن حمزة البغدادي، كان ينشد من فرط حبه لله عز وجل:

وليس لي في سواك حظٌّ فكيف ما شئتَ فامتَحِنّي

فابتلي بعسر البول، ولم يستطع التحمل، فكان يطوف على صبيان المكاتب ويقول: «ادعوا لعمكم الكذاب»(٢)، أي في دعواه لطلب الامتحان كيف ما يكون.

والمؤمن لا يطلب البلاء بل يسأل الله العافية كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يروي عن النبي ﷺ يقول: «لا تمنَّوا لقاء العدوّ، فإنكم لا تدرون ما يكون في ذلك»(٣).

ويلاحظ أن الحكمة لا تعني عدم العزيمة أو حطّ قدرها، لأنها أصل الأفعال ودافعها الخفي.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٣٢) برقم: (١٢١١).
(٢) ينظر: الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٩١).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥/ ١٠٥) برقم: (٩١٩٦).

١٥٦

أصــل الأعمــال الصدقُ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أصلُ أعمالِ القلوب كُلِّها: الصِّدقُ»(١).

بيـــان الـمفردات

الصِّدقُ: «هو الحقُّ الثابتُ، المتَّصلُ بالله، الموصلُ إلىٰ الله. وهو ما كان به وله، من الأعمال والأقوال»(٢).

الـمعنى الإجمـــالي

الصدق أصلُ أعمالِ القلوب كُلِّها، ولفظُ الصدق يُستعمل في ستة معانٍ: صدقٌ في القول، وصدقٌ في الإرادة والقصد، وهو الإخلاص، وصدقٌ في العزم، وصدقٌ في الوفاء بالعزم، وصدقٌ في العمل بأن يوافق ظاهرُه باطنَه؛ كالخشوع في الصلاة، وصدقٌ في تحقيق مقامات الدين كلها، وهو أعلىٰ الدرجات وأعزّها؛ كالصِّدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر أعمال القلوب.

فمن اتَّصف بالصِّدق في جميع ما ذكر فهو صدِّيق لأنه مبالِغٌ في الصدق، قال النبي ﷺ: «عَليكُم بالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهدِي إلىٰ البِرِّ، وإِنَّ البِرَّ يَهدِي إلىٰ الجَنَّةِ،

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٩٨).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٣٠).

وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا»(١)، ولهذا كان أصلُ أعمالِ القلوب كلِّها الصدق، وأضدادُها من الرِّياء والعُجْب والكِبْر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجُبن والمهانة وغيرها أصلها الكذبُ؛ فكلُّ عملٍ صالحٍ ظاهرٍ أو باطنٍ منشؤهُ الصدق، وكُلُّ عملٍ فاسدٍ ظاهرٍ أو باطنٍ منشؤهُ الكذبُ.

والله تعالىٰ يُعاقب الكذابَ بأن يُقعِده ويُثبِّطه عن مصالحه ومنافعه، ويُثيب الصادقَ بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته؛ فما استُجلِبَتْ مصَالحُ الدُّنيا والآخرة بمثل الصِّدق، ولا مفاسدُهما ومضارُّهما بمثل الكذب، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ [المائدة:١١٩](٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥) برقم: (٦٠٩٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم: (٢٦٠٦).

(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ١٩٨).

١٥٧

الصدق في الطلب

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اصدقْ في الطلب؛ وقد جاءتْك المعونةُ»(١).

بيـان المفردات

المعونة: النصرة، قَالَ الأَزهري: المعُونة مَفْعُلة في قياس من جعله من العَوْن، وهو الظَّهير علىٰ الأمر، وقال البعض: هي فَعُولة من المَاعُوْن، والْمَاعُونُ فَاعُولٌ(٢).

المعنى الإجمـالي

تبين الحكمة الأصل المتين في الطلب والدعاء والسعي، وهو الصدق والإخلاص فيما يطلب المرء، لأن من طلب بالصدق والإخلاص جاءته المعونة والنصرة من عند الله ولو تأخرتْ قليلًا. وهذا في كل شيء؛ في الأمور الدينية والدنيوية، كما يقول ﷺ: «اتقوا الله وأجمِلوا في الطلب، فإن نفسًا لن تموت حتىٰ تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجمِلوا في الطلب، خذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»(٣).

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ٢٧٥) برقم: (٢١٤٤).

والقصص والوقائع اليومية شاهدة على فرج الهموم ومجيء المعونة عند صدق الطلب، ومنها ما رواه البخاري في صحيحه عن: «ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها...»(١)، ففرج الله عنهم بصالح أعمالهم وصدق طلبهم. وأما في الأمور الدينية وطلبِ رضاء الله وتوفيقه فلا يقبل بدون الصدق والإخلاص فيه، وقد بشّر الله ﷻ من يصدق في الطلب ويسعى إليه بالهداية والنصرة، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والله ﷻ مجيب لعباده عند دعائهم له، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣) برقم: (٥٩٧٤).

بـاب التقوى والاستقامة

١٥٨

التقوى زاد لا يفنى

قالت عائشة أم المؤمنين[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن تقوى الله زادٌ لا يَفنى، وثوبٌ لا يَبلى، وتجارةٌ لن تَبُور»[(٢)].

بيان المفردات

زادٌ: طعام السفر والحضر، أصله زَودٌ، والجمع أزوادٌ، يقال: تَزَوَّدَ لسفَره، وزوَّدْتُه أعطَيتُه زَادًا[(٣)].

يبلى: بَلِي الثوب يَبلىٰ من باب تعِب بِلًىٰ بالكسر والقصر، وبَلاءً بالفتح والمد خَلُق فهو بال، وبَلي الميتُ أفنَتْه الأرضُ[(٤)].

(١) عائشة بنت الصديق أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان، التيمية القرشية المكية المبرَّأة، أمّ عبد الله وزوجة النبي ﷺ وحبيبته، أفقه نساء الأمة علىٰ الإطلاق، هاجرتْ مع أبويها، وتزوجها النبي ﷺ قبل الهجرة ببضعة عشر شهرا، ودخل بها في شوال سنة ٢هـ، من المكثرين في الحديث والفتيا، توفيت سنة ٥٨هـ. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٣٥).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٢٢)، ولم نجدها منسوبة إلىٰ السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في غيره من المصادر.

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩٨)؛ المصباح المنير للفيومي (١/ ٢٥٩).

(٤) المصباح المنير للفيومي (١/ ٦٢).

تبور: بارَ الشيءُ يَبُور بُورًا بالضم: هلك، وبارَ الشيء بَوارًا: كسد، على الاستعارة، لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك(١).

المعنى الإجمالي

تشير الحكمة إلى أهمية اكتساب التقوى ودورها في حياة الإنسان، فهي كالطعام للإنسان والثوب للجسد والتجارة الرابحة للتاجر، فكما أن الإنسان لا يعيش بدون الطعام، والجسد لا يتقي من الحر والبرد بدون اللباس، والتاجر لا يكسب بدون ممارسة التجارة فهكذا التقوى، بدونها لن ينجو ولن يفلح. والفرق بين الأمور السابقة والتقوى: أن الزاد ينتهي ويفنى مع الأكل والوقت، والملابس تبلى بالاستخدام وبمرور الأيام، والتجارة فيها خشية الكساد والركود، ولكن التقوى أمرها مختلف تمامًا.

فإنه هو زاد لا يفنى كما قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة:١٩٧]. وهو ثوب لا يبلى حيث يقيه في الآخرة من حر جهنم وبردها، ولباسه خير ما يلبس كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٦]. والعمل بالتقوى تجارة لا تبور كما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

(١) المصدر السابق (١/ ٦٥).

١٥٩

الفقيه هو التقيّ

قال زياد بن حُدَير[١] رحمه الله: «ما فَقِه قومٌ لم يبلغوا التقى»[٢].

المعنى الإجمالي

الوصول إلىٰ مرتبة التقوىٰ ليس أمرًا هينًا؛ فليس الوصول إليها تمنيًا واشتهاءً، ولا عن طريق القراءة لِسِيَر المتقين وأوصافهم، بل يصل إليها من أمضىٰ عمره في الطاعة، دون التفات إلىٰ حظوظ النفس، مع مجاهدتها جهادًا لا هوادة فيه، فهي أمَّارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي، ولذلك قل عدد من بلغ مرتبة التقوىٰ؛ لأن بلوغها يحتاج إلىٰ عمل متواصل، وقوة يقين.

ومن لم يصل إلىٰ مرتبة التقوىٰ لم يفقه شيئًا عن الله ورسوله، وإن قام ببعض الشعائر التعبدية، فإنه قد يقوم بها عادةً وإلفًا، فهي لم توصله إلىٰ أن يعلم قدر الله وعظمته في كل أحواله وأقواله وأفعاله، فالفقه هو الفهم، وأي فهم أعظم من أن

(١) زياد بن حُدَير، أبو المغيرة، الأسدي، تابعي، روىٰ عن كبار الصحابة، وروىٰ عنه جماعة، ثقة في الحديث، العابد، نزيل الكوفة، كان كاتبا لعمر علىٰ العشور، توفي سنة ٨٠هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ٣٤٨)؛ تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/ ٣٦١)؛ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢/ ٥٢٨)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٨١٣).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ١٥٤).

يفهم الإنسان حقيقة الدنيا ومقدارها بالنسبة للآخرة، ويعلم عظمة الخالق ﷻ، ويفهم غاية وجوده في هذه الحياة، ومن فهم هذه الأمور لا بد وأن يسعىٰ إلىٰ تخليص نفسه من عذاب الله، والقيام بما أمره به مولاه ليفوز بالجنان يوم القيامة، بعد أن علم أن لذات الدنيا ما هي إلا سراب، ولا يصل الإنسان إلىٰ رضا خالقه ﷻ إلا إن التزم حقيقة التقوىٰ، والتي هي: فعل المأمورات واجتناب المنهيات، وبذل كل جهد في سبيل الوصول إلىٰ أعلىٰ درجات القرب من الله ﷻ.

ومن يتقي الله ﷻ يعطيه الله نورًا يميز به بين الحق والباطل، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]، والفرقان هو النور الذي يفصل به بين الحق والباطل، وبين الهدىٰ والضلال، والاجتهاد في طلب العلم والتفقه في الدين من جملة التقوىٰ، وبذلك يحصل النور والهدىٰ، وهما الفرقان. فالتقوىٰ كلمة جامعة، حقيقتها الإيمان والعمل الصالح.

١٦٠

دفـع الفتن بالتقـوى

قال طَلْق بن حبيب[(١)] رحمه الله: «إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتقوى»[(٢)].

بيـان المفردات

الفتنة: لغة: الابتلاء والاختبار، وهي مأخوذة من قولك: فتنتُ الفضة والذهب: إذا أذبتهما بالنار لِيتَميَّز الرديء من الجيد[(٣)].

وشرعًا: للفتنة عدة معانٍ؛ منها: أن يُفتنَ الرجلُ في دينِه ببَلْوىٰ من سلطانٍ غالب، أو بهوًىٰ يصرفُه عن الصوابِ في الدين، أو بحُبٍّ يَشغَلُ قلبَه حتىٰ يركبَ ما لا يحلُّ له[(٤)].

---

(١) طلق بن حبيب العنزي، البصري، زاهد كبير، من العلماء العاملين، تابعي، حدث عن الصحابة، وروىٰ عنه جماعة من التابعين، توفي قبل المئة في حدود سنة ٩٥هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣/ ٦٨)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٦٠١)؛ تهذيب التهذيب لابن حجر (٥/ ٣١).

(٢) الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلىٰ ربه لابن القيم (ص: ٨).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢١١).

(٤) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (١٤/ ٢٤١).

المعنى الإجمـالي

إنَّ التقوىٰ عاصمةٌ ومنجيةٌ للعبد من الفتن، بل بها يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، والخير والشر، وخير الخيرين وشر الشرين، وبدون التقوىٰ يكون العبد عرضة للفتن التي قد تجعله يعادي أولياء الله، ويقف في صف أعداء الله، دون أن تكون لديه بينة أو أَثَارة من علم.

وقد تكون الفتنة التي يقع فيها العبد تكمن في سكوته عن الحق مع وضوح شأنه وبروز داعيه وسالكيه.

وما أكثر ما أصيبتْ به الأمة الإسلامية من المحن والشدائد من لدن عصر الصحابة الكرام إلىٰ يومنا هذا! والفتن تتقاذف تقاذف الحمم من براكينها، والأمواج من بحارها، وقد حثّ الله علىٰ التقوىٰ، وبيّن أن من يتقي الله يوضّح الله طريق الحق، ويهديه إلىٰ الصواب؛ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩].

١٦١

التقوى ترك المعاصي

قال طَلْق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوى: ترك المعاصي على نورٍ من الله، مخافةَ عقاب الله عَزَّ وَجَلَّ»(١).

المعنى الإجمالي

إنما نجا الناجون، وربح الرابحون، وفاز المخلصون برحمة الله ورضوانه حين جعلوا بينهم وبين المعاصي والسيئات حجابًا وسترًا، وهذا الحجاب والستر هو تقوىٰ الله؛ فإن كان الحجاب والستر بين العبد ومعاصي الله سميكًا قويًّا، وملأ الله قلب عبده بنور الإيمان والتقوىٰ والأعمال الصالحة التي يقدمها في حياته، فإنه ينجو بفضل الله من إتيان المعاصي وارتكاب والمحرمات، وعندما يُهتَك الحجاب والستر، ويضعف الإيمان ويخفت نوره، فإن العبد لا يجد غضاضةً في مقارفة المعاصي كلها.

إن تقوىٰ الله تعالىٰ خوفٌ من الله تعالىٰ بترك معاصيه ومبارزته بها؛ إنه خوفٌ من سخطه وغضبه، خوفٌ من إهانته للعبد وخذلانه له، وحياءٌ من الوقوف بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالله تعالىٰ قد حذَّر عباده من يوم القيامة عند عرض أعمال العباد، فقال

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٦٤).

تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠].

وأمر النبي ﷺ باتقاء نار جهنم ولو بشق تمرة، فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرىٰ إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرىٰ إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم: (٧٥١٢).

١٦٢

فوائد التقوى

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجلٍ: «أوصيك بتقوى الله وإيثاره تَخِفُّ عليك المؤونة، وتَحْسُن لك من الله المعونة»(١).

بيان المفردات

المؤونة: الثِقَل والمشقة، وتطلق كذلك علىٰ ما يتحمله الإنسان من ثقل النفقة التي ينفقها علىٰ من يليه من أهله وولده(٢).

المعنى الإجمالي

إنَّ وصية الله لعباده الأولين والآخرين، المتقدمين والمتأخرين، هي تقوىٰ الله تعالىٰ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، ولقد كانت وصية النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه، هي تقوىٰ الله تعالىٰ؛ إذ جاء فيها: «اتَّقِ الله حيثما كنت، وأتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِق الناس بخُلُق حَسَن»(٣).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٧).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٢٦) برقم: (١٩٨٧)؛ وأحمد في مسنده (٣٥/ ٢٨٤) برقم: (٢١٣٥٤).

وإيثار ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، فهو إيثار لما جعله الله جزاء لعباده، وإيثار لرضا الله علىٰ سخطه، وإيثار للقرب والتوفيق منه بدل البُعدِ والخذلان، وإيثار لاختياره علىٰ اختيار العبد لنفسه، فما كان لعبد بعد اختيار الله له أن يكون له الخيرة من أمره.

فمن آثر ما عند الله خفَّتْ عليه مؤونة المعاصي ومشقة الحساب عليها، ومؤونة أن يَكله الله إلىٰ نفسه واختياره، أو أن يكله إلىٰ أعدائه من نفسه ومن خارجها، ومن آثر ما عند الله جاءه العون والمدد والتوفيق من الله؛ ولولا معونة الله لعبده لكان من الهالكين.

١٦٣

التقوى أســاس القبول

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل: «أوصيك بتقوى الله الذي لا يَقْبَل غيرَها، ولا يَرْحم إلا أهلَها، ولا يُثِيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»(١).

المعنى الإجمالي

لا شيء يمكن أن يقوم مقام تقوىٰ الله تعالىٰ؛ لا المال، ولا الجاه والسلطان، فالله تعالىٰ مع المتقين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤].

ولا يتقبل إلا منهم، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ويتمنىٰ المفرِّط في جنب الله لو كان من المتقين، قال تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:٥٧].

ولا يرحم الله إلا من اتصف بمواصفات، لعل أولها وأهمها التقوىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٧).

ولا يُجازي الله بالثواب والفضل والأجر الكبير إلا المتقين؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٢].

لقد كثر الواعظون والمذكرون بالتقوىٰ، لكن العاملين بها والساعين للتمثُّل بها قليلٌ، لذا وجب علىٰ المؤمن أن يسعىٰ للوصول إلىٰ مرتبتها، فإن وصل إليها وتمسك بها كان من المفلحين الفائزين برضا الله.

١٦٤

التماس المحامد في مخالفة الحق

قال خالد بن معدان[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من التمس المحامد في مخالفة الحق ردَّ الله تلك المحامد عليه ذمًّا»[٢].

المعنى الإجمالي

لا ينبغي للمؤمن أن يكون متبعًا للحق وموافقًا لمخالفيه في آن واحد؛ كي يدرأ عن نفسه المتاعب والمصاعب، وأن يحمده الناس ويشكروه، فليس هذا من سلوك الأنبياء والدعاة والمصلحين، بل سلوكهم قول وفعل الحق والصبر على أذى المخالفين، وترك التزلف لهم مخافة بطشهم ومكرهم، أو للحصول على محامدهم.

إن كل العباد يحبون المحامد، ويكرهون المَذامّ والنقائص، ويحبون أن يُشْكروا ويُثنى عليهم، لكن المقصود ههنا أنَّ من الناس من يسير على وفق هذه

(١) خالد بن معدان بن أبي كرب، أبو عبد الله، الكلاعي، الشافعي، الحمصي، الإمام، شيخ أهل الشام، حدث عن خلق من الصحابة، توفي سنة ١٠٣، وقيل: ١٠٤، وقيل: ١٠٥هـ. ينظر: تهذيب الكمال لجمال الدين المزي (٨/ ١٧٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٣٦).

(٢) أحوال الرجال لأبي إسحاق الجوزجاني (ص: ١٠)؛ وهو في مسند إسحاق بن راهويه (٢/ ٦٠٢) بلفظ: «من التمس المحامد في موافقة الناس رد الله تلك المحامد له ذم».

المحامد، حتىٰ لو ضحَّىٰ بأغلىٰ ما يملك، وهو دينه، وذلك بمخالفته أو تقديم ما يريده الناس علىٰ ما يريده الحق ﷻ.

وهذا السلوك سلوكٌ شائنٌ؛ إذ إن صاحبه يرضىٰ أن يستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وأيُّما امرئٍ صنع هذا الصنيع؛ ليجد محامد الناس متوافرةً لديه في كل وقت بدون نقصان فإنه ينتكس من حيث أراد لنفسه العلو والمكانة؛ إذ يبدل الله تلك المحامد ذمًا، وذلك الفخر عتابًا.

وقد قال النبي ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضىٰ الناسَ عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناسَ»(١).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠) برقم: (٢٧٦)؛ والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٦٨) برقم: (١١٦٩٦).

١٦٥

شـــروط التقي

قال بكر بن عبد الله المزني[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يكون العبد تقيًا حتى يكون تقيَّ الطمع تقيَّ الغضب»[(٢)].

المعنى الإجمــالي

تُعرفُ تقوىٰ العبد من خلال سلوكه وأعماله؛ فالإسلام لا ينظر إلىٰ أفعال العبد من خلال كثرتها، ولكن من خلال جودتها وخلوصها من الشوائب والمفسدات.

إنَّ كثيرًا من عباد الله يكثرون من النوافل والقربات، لكنهم عند وجود المطامع يكونون من المتلهفين عليها، الساعين وراءها، وكثرة الطمع لا يكون إلا عن قلة الإيمان وضعفه.

وقد ربىٰ النبي ﷺ صحابته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ التقوىٰ المانعة من الطمع؛ إذ يكون الطمع نارًا تأجَّج في قلب العبد، يدفعه للوصول إلىٰ ما يشبع حاجته من الدنيا

(١) بكر بن عبد اللّه ابن عَمرو بن هلال المزني، أبو عبد اللّه البصري، تابعي روىٰ عن: أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وروىٰ عنه قتادة وحمُيد وجماعة، كان فقيها ومحدثا، توفي سنة: ١٠٦، وقيل: سنة ١٠٨هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٧/ ١٥٧)، وتهذيب الكمال للمزي (٤/ ٢١٦).

(٢) تاريخ ابن معين ليحيىٰ بن معين (٢/ ٣٥)؛ تفسير الثعلبي لأبي إسحاق الثعلبي (٣/ ٤٩).

دون النظر في عواقب الأمور، وقد يكون الطمع أخذًا لما لا يستحقه العبد؛ ولذلك فقد ذكَّر الله تعالىٰ المؤمنين في غزوة البدر بالتقوىٰ في أول سورة الأنفال؛ حتىٰ لا يقعوا أسرىٰ حب الغنائم التي أحلها لهم، فقد رأىٰ فريق منهم أن من حمىٰ رسول الله ﷺ هو الأولىٰ بها، وفريق ثان رأىٰ أن من طارد العدو أحق، وفريق ثالث رأىٰ أن من جمع الغنائم أولىٰ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

وتعرف تقوىٰ العبد عند غضبه، هل كان غضبه لله تعالىٰ حين انتهكت محارم الله وانتُقِصَ من حقِّ أحد من إخوانه المسلمين؟! أم كان الغضب ردَّ اعتبارٍ للذات، وحبًّا في التشفي ممن أغضبه؟ فإن كان كذلك فإنه يدل علىٰ عدم تمكن التقوىٰ من قلب العبد، فالتقوىٰ سلوك الفرد في نفسه عند تعامله مع ربه تعالىٰ، ثم مع الآخرين.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٩٤) برقم: (٣١٤٩).

١٦٦

التقوى ومخالفة الهوى

قال وهب بن منبِّه رحمه الله: «لا شرفَ أعزُّ من التقوى، ولا كرمَ أتمُّ من تركِ الهوى»(١).

المعنى الإجمالي

التقوى: هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لله أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وعقابه وقاية تقيه من ذلك(٢)، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات وهي أعلى درجات التقوى، وفي الذكر الحكيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وفي السنة النبوية: «اتق الله حيثما كنت»(٣).

فالتقوى هي شرفٌ ليس فوقه شرف، وهذا الشرف حاصل للمتقي في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا بقربه من الله ومحبة الله له، وكذلك بتحصنه بحصن الله الحصين

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٣٨).
(٢) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال لحسين المهدي (٢/ ٧٥).
(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٢٦) برقم: (١٩٨٧).

وحفظ الله له، وفي استغنائه بالله وعدم الذلّ للدنيا وأهلها، والتقوىٰ كذلك هي شرفٌ للمؤمن في الآخرة حيث يرفع الله تعالىٰ مقام المتقين، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم:٨٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان:٥١-٥٢].

ومن الأسباب المؤدية للتقوىٰ، والموصلة إلىٰ الكرامة، تغليب العقل علىٰ الهوىٰ، فالهوىٰ عدوّ العقل، وقد نهىٰ الله ﷻ عن اتباع الهوىٰ حيث قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:٢٦]، وفي الحديث: «ثلاثٌ مُهلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوىٰ متَّبَع، وإعجاب المرء برأيه»(١).

فمن آثر رضىٰ الله علىٰ هواه فقد تمّت له الكرامة، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، والمراد بالهوىٰ: ما تهواه النفس، فهو مصدر بمعنىٰ المفعول، مثل الخلق بمعنىٰ المخلوق، فهو ما ترغب فيه قوىٰ النفس الشهوية والغضَبية مما يخالف الحق والنفعَ الكامل(٢).

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٤) برقم: (٦٤٩١)؛ والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢).
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/ ٩٢).

١٦٧

سادة الناس في الدنيا والآخرة

قال علي بن عبد الله بن عباس[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «سادةُ الناسِ في الدنيا الأسخياءُ، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء»[(٢)].

بيان المفردات

سادة: جمع سيد، وهو الرئيس والإمام الذي يفوق غيره في الخير، يقال: سادَ قومَه يَسُودُهم سيادَةً وسُوْدَدًا وسَيْدُودَةً، فهو سيِّد، وهم سادَة[(٣)].

الأسخياء: جمع السَخِيّ بمعنىٰ الجواد، والسَخَاوَة والسَخَاءُ الجود والكرم[(٤)].

الأتقياء: جمع التقِي، وهو الذي يحذر ويخشىٰ الله من عصيانه، والمتقي هو من يتقي، يقال: ورجل تقِيٌّ من قومٍ أَتْقِياء وتُقَواء[(٥)].

---

(١) علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو محمد، الهاشمي، المدني، السجَّاد، الإمام القانت، ولد عام قُتِل الإمام علي فسمي باسمه، حدث عن أبيه وجماعة من الصحابة، كان يصلي في اليوم ألف سجدة، توفي سنة ١١٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٢٨٤)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٢١/ ١٣١).

(٢) هكذا في عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٢٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٤٤٠) مع اختصار في العبارة؛ وأما في الرسالة القشيرية (١/ ٢٣١) وما بعدها من المصادر فقد نسبتها إلىٰ سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٢٣٠).

(٤) المصدر السابق (١٤/ ٣٧٣).

(٥) نفس المصدر (١٥/ ٤٠٢).

المعنى الإجمـالي

بينتْ هذه الحكمة فضل السخاء والكرم في الدنيا، وفضل التقوىٰ والخشية في الآخرة، فسادة الناس وأئمتهم في الدنيا هم الأسخياء الذين يجودون بالخير ويقضون حوائج الناس. وأما الآخرة فسادة الناس فيها الأتقياء الذين يخشون الله في السر والعلن، وإذا حدثت المعصية لأي سبب كان رجعوا منها بالتوبة ولم يستمروا عليها ولم يجاهروا بها، فهؤلاء لهم السيادة والرئاسة الحقيقية في الآخرة.

والسخاء والتقوىٰ من أكثر ما اعتنىٰ بهما الشرع، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٤]، ويقول ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسلّطه علىٰ هَلَكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»[١]، وأما التقوىٰ فهي رأس كل خير، كما يقول ﷺ في وصيته لرجل: «عليك بتقوىٰ الله، فإنها جماع كل خير»[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم: (١٤٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم: (٨١٦).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٢/ ٢٨٣) برقم: (١٠٠٠)؛ والطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٥٦) برقم: (٩٤٩)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٤٧٧) برقم: (١١٩٥٣).

قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات، وفي إسناد أبي يعلىٰ ليث بن أبي سُلَيم، وهو مدلس. مجمع الزوائد (٤/ ٢١٥).

١٦٨

من كـان مع الله فلا يبتئس

قال قتادة[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغْلَب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يَضِلّ»[٢].

المعنى الإجمالي

معيّة الله معيتان: معية عامة لجميع عباده، ومعية خاصة لعباده المؤمنين؛ فهو مع الصابرين، ومع المتقين، ومع المؤمنين بالحفظ والتأييد والرعاية؛ وتَصَوُّر معية الله لكل أحد وفي كل حالة أمر جليل رهيب، إنها حالة تهز القلوب، لا يثبت لها قلب، ولا يقوىٰ علىٰ مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز خوفًا وحياءً وأُنسًا[٣].

إن معية الله تعني حفظ الله ونصره وتأييده وتمكينه، فمن نصره الله فلا غالب له، ومن خذله فمن ذا الذي ينصره من بعده؟! ومن يجترئ علىٰ مواجهة جهة معها الله! فمن كان الله معه فهو في حراسته وحفظه ورعايته وهدايته؛ هذا رسول الله ﷺ

(١) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطّاب البصري، تابعي كبير، قدوة المفسرين والمحدثين، سمع أنسا وأبا الطفيل عامر بن واثلة الكناني، وروىٰ عنه الأوزاعي وأيوب السختياني وغيرهم، ولد سنة ٦٠، ومات سنة ١١٨هـ. ينظر: الأسامي والكنىٰ لأحمد بن حنبل (٤/ ٢٩١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٢٦٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٣٩).

(٣) موسوعة فقه القلوب لمحمد إبراهيم التويجري (١/ ١١٧).

عندما كان مع صاحبه أبي بكر ﵁ في الغار، قال أبو بكر: نظرت إلىٰ أقدام المشركين علىٰ رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدميه أبصرنا تحت قدميه! فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»(١).

ونبي الله موسىٰ ﵇ عندما أدركه فرعون وملؤه قال أصحاب موسىٰ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، فماذا كان جواب موسىٰ؟ ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢].

فمن كان مع الله أصبح وأضحىٰ وأمسىٰ وبات مطمئنًا هانئًا؛ لأنه مع الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعزب عن علمه شيء، والذي أحاط سمعه وبصره وعلمه وقدرته بكل شيء.

ومن كان مع الله فإنه مع الهادي الذي لا يَضِلّ مَن هداه، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ١٠٨) برقم: (٢٣٨١).

١٦٩

التقوى في شدة محاسبة النفس

قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون أشدَّ محاسبةً لنفسه من الشريك لشريكه»(١).

المعنى الإجمالي

المتقون يحاسبون أنفسهم في كل أحوالهم، فهم لا يكتفون بمحاسبة أنفسهم في حال دون حال، بل يقفون مع أنفسهم للمحاسبة قبل أن يقفوا بين يدي ربهم سبحانه تعالىٰ، فالله تعالىٰ قد أمرهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨].

ومعنىٰ كون محاسبة النفس أشد من الشريك: «أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان؛ فإن كان من فضلٍ حاصل استوفاه وشكرَه، وإن كان من خسران طالَبه بضمانه وكلَّفه تداركه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه: الفرائض، وربحه: النوافل والفضائل، وخسرانه: المعاصي، وموسم هذه التجارة: جملة النهار، ومُعامله: نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها علىٰ الفرائض أولًا، فإن أداها علىٰ وجهها شكر الله تعالىٰ عليه ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلَّفها الجبران

(١) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٨٠).

بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها؛ ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتىٰ لا يغبن في شيء منها، فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدَّاعة»(١).

ومن حاسب نفسه اليوم خَفَّ علىٰ نفسه الحساب بين يدي الله تعالىٰ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم، تزيَّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفىٰ منكم خافية»(٢).

عن الحسن ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]، قال: «لا يُلقىٰ المؤمن إلا يُعاتب نفسه: ماذا أردتِ بكلمتي؟ ماذا أردتِ بأكلتي؟ ماذا أردتِ بشُربتي؟ والعاجز يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه»(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٠٥).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٩٩).

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٤).

١٧٠

الدين رأس مــال الـمؤمن

قال شميط بن عجـلان[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأس مـال الـمؤمن دينـه، حيـثما زال زال معه، لا يُخَلِّفُه في الرِّحال، ولا يأمن عليه الرجال»[(٢)].

المعنى الإجمــالي

أهمية دين المسلم بالنسبة له تشبه أهمية الشيء الثمين الذي يملكه الإنسان، حيث يجعل هذا الشيءَ الثمين معه أينما ذهب، ويعتني به أشد العناية، فإذا ترك رحله في مكان وذهب إلىٰ مكان آخر، فإنه يبقي الشيءَ الثمينَ معه ولا يتركه في رحله، وكذلك يحرص علىٰ حمل هذا الشيء بنفسه دوما، ولا يأمن عليه أحدا مهما كانت ثقته به.

جاء الإسلام ليحافظ علىٰ الكليات الخمس؛ وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وهي من الضرورات التي لا ينبغي علىٰ العبد التهاون أو

(١) شميط بن عجلان، أبو عبد الله، البصري، الشيباني، ويقال: العابد التيمي، أخو الأخضر، من المتعبدين وأهل الفضل في الدين، لزم التقشف والعبادة وآثرهما علىٰ الحديث والفقه، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٢٦٢)؛ مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (ص٢٤١)، تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٨٩٢).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٨٦).

التنازل عنها، وقد رُوْعِيَت في كل ملة.(١) ولأهمية الدين شرع قتال الكفار، وعقوبة الداعين إلىٰ البدع(٢).

وتقديم حفظ الدين لكونه حقا لله تعالىٰ فقط، ومراعاة لجانب العبد؛ فإنه بفواته تفوته السعادة الأبدية والعصمة الدنياوية، والله ﷻ لا يضره كفر ولا كفران، ولا يسره شكر ولا إيمان، بل هما بالنسبة إليه سيان، وإنما هو لمصلحة العبد، وليس فروع الإسلام كذلك، فإنه وإن فاته بفواتها الثواب العظيم والأجر الجسيم، لكن لا يحصل له العقاب الدائم والخزي الأبدي فلا تَسَاوِي، بل لا تُقارِب مفسدة فواتها بمفسدة فوات أصل الدين، فكان حفظه عليه أولىٰ وأنفع من حفظ نفسه عليه(٣).

ورأس المال في عُرف التجارة وتجارها هو الأصل الذي ينبغي المحافظة عليه؛ فالتاجر الذي يخسر رأس ماله أحد رجلين؛ إما قليل الخبرة والمهارة بالتجارة، أو تعرَّض لخسارة غير مقصودة لم يكن سببًا فيها.

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلًا عن كراهة المؤمن خسارة دينه، وشبَّه ذلك بمن يكره أن يقذف في النار، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٤).

فالواجب علىٰ العبد أن يدور مع دينه حيث دار، ولا يُخَلِّفه في رِحاله خوفًا

(١) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (٣/ ٢٧٤).

(٢) ينظر: الفروق للقرافي (٤/ ٦٧).

(٣) نهاية الوصول في دراية الأصول للأرموي الهندي (٨/ ٣٧٦٦-٣٧٦٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦٦) برقم: (٤٣).

عليه من السُّراق، ولا يأمن عليه الرجال؛ فأصحاب الأديان والنِحَل المنحرفة يودون أن يرجع المسلمون كفارًا؛ حسدًا منهم وحقدًا على المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩].

١٧١

مظاهر التقوى

قال شقيق البلخي[(١)] رحمه الله: «تعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: في أخْذِه، ومَنْعِه، وكلامه»[(٢)].

المعنى الإجمالي

تعرف تقوىٰ العبد من خلال أخذه وعطائه؛ فلا يأخذ شيئًا ليس له، ولا يزيد في حقه ويبخس الآخرين حقهم ونصيبهم، فيكون من المطففين الذين يستوفون ما لهم، وينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم.

وتعرف التقوىٰ كذلك بالمنع والإمساك؛ فلا يمسك عن إعطاء شيء لعدواةٍ أو بغضاء بينه وبين من يمسك عنهم عطاءهم، بل يعطيهم نصيبهم دون التفات إلىٰ محبة أو بغضاء، فإذا كان كل ذلك لله تعالىٰ، فإنه يدل دلالة علىٰ رسوخ العبد في إيمانه وتقواه؛ وذلك لما جاء عن سهل بن معاذ الجهني، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطىٰ لله تعالىٰ، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح

---

(١) شقيق بن إبراهيم، أبو علي، الأزدي البلخي، الإمام، الزاهد، من مشايخ خراسان، له كلام حسن في التوكل، صحب إبراهيم بن أدهم، وهو أستاذ حاتم الأصم، سمع الحديث ورواه، توفي سنة ١٥٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٣١٥)؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٤٧٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٦٤).

لله فقد استكمل إيمانه»[١].

وتعرف تقواه من كلامه؛ هل يحسب لكلامه حسابًا، ويجعل لكل كلمة من كلماته مقامًا يليق به؛ فالتقي لا يعرف بكثرة كلامه، ولا بتَشَدُّقه وتَقَعُّره وتَفَيْهُقِه، والتقي لا يكثر من المبالغة فإنها طريقٌ إلىٰ الكذب، والتقي لا يكثر من مدح الناس وإطرائهم والتزلف إليهم، فإن ذلك -عند خروجه عن ضوابط الشرع- يؤدي بصاحبه إلىٰ المداهنة والنفاق.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٨) برقم: (٢٥٢١)، وقال: حديث منكر؛ وأحمد في مسنده (٢٤/ ٣٩٩) برقم: (١٥٦٣٨)؛ والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٨) برقم: (٢٦٩٤)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

١٧٢

فواتح التقوى وخواتيمها

قال عون بن عبد الله رحمه الله: «فواتح التقوى حسن النية، وخواتيمها التوفيق، والعبد فيما بين ذلك بين هلَكاتٍ وشُبُهات، ونفسٌ تَحْطِب على شِلْوها، وعدوٌّ مَكيدٌ غير غافل ولا عاجز»(١).

بيـان المفردات

تَحْطِب: حطب بمعنى كسب وجنى(٢).

الشِّلْوُ: الجسد والجلد من كل شيء، وكذلك يطلق على العضو(٣)، والشِّلْوُ من الإنسان هو جسده بعد بِلاه، والجمع أشلاء(٤). فيكون معنى: ونفس تحطب على شلوها؛ أي: تجني على الجسد والأعضاء وتسعى في هلكتهم.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٣٢٢).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٦/ ٢٨٤).

(٤) جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٨٨٠).

المعنى الإجمالي

من سعادة المرء أن ينطلق في أقواله وأفعاله كلها من حُسن النية فيما عند الله والتوفيق لمحابِّه، ومن أراد به خيرًا وهب له العقل، وحبب إليه العلم(١). وحسن النية من فواتح التقوىٰ وبركاتها، قال داوود الطائي: «رأيت الخير كله يجمعه حسن النية، فكفاك به خيرًا»(٢).

إن حسن النية إذا نتجت عن تقوىٰ صاحبها ومجاهدته لنفسه تقوده إلىٰ القبول والتوفيق عند الله تعالىٰ، لكن حسن الظن بسلامة الإرادة وحسن النية وسمو الهدف والغاية لن يكفي ليسلم العبد من الأذىٰ ومن محبطات الأعمال المهلكة؛ فإنه يقع به تزيين الأعمال الصالحة الخفية حتىٰ تظهر للعلن، والتلبيس علىٰ فكره ومعتقده بشبهات تشوش عليه ما كان يقينًا، حتىٰ يلجأ العبد إلىٰ ربه ليعلمه علمًا يزيل عنه ظلمة الجهل، والتردد والشك الذي طال عقلَه وفكرَه.

ومما يقف عائقًا ومانعًا أمام حسن النية والتوفيق هو نفس العبد، فهي كمن يجمع حطبًا كثيرًا ليوقده علىٰ أشلاء الإنسان وأعضائه، فلا تنثني عن فعلها هذا إلا بالمجاهدة وكبح جماحها، وقد جعل الله تعالىٰ الفلاح في تربيتها وتزكيتها، والخسارة والهلاك في تركها تفعل بالعبد ما تشاء، قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩-١٠].

والعدو الآخر المتربص بالإنسان هو الشيطان الذي يُغذِّي صراع النفس ويؤججه، وهو ذو المكائد التي لا تنقطع عن العبد، فهو غير عاجز ولا مُتوانٍ عن إغواء العبد والوسوسة والتلبيس عليه؛ فقد قطع علىٰ نفسه عهدًا في إغوائهم؛

(١) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي (ص: ١٦٦- ١٦٧).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٧٥).

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

فإذا كان هذا العدو غير غافل عن تتبع العبد في أفعاله كلها ليفسدها؛ فلا بد من الحذر من مكره وكيده، ولذا أمر الله باتخاذه عدوًّا فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

١٧٣

عزُّ التقوى

قال الشافعي رحمه الله: «من لم تُعِزَّه التقوى فلا عِزَّ له»[١].

المعنى الإجمالي

عزة المؤمن بتقواه وانتسابه إلىٰ ربه العزيز الحكيم، وصحبته للمتقين الصابرين، ومن رام العزة بدنيا يصيبها، فإنه كمن يريد ماءً في أرض بقِيْعة[٢]، يُخَيَّل إلىٰ ناظره بأنه الماء السلسبيل، فإذا جاءه لم يجد سوىٰ حسرات وزفرات علىٰ بُعْدِ الطريق وقلة التوفيق.

لقد أنكر الله تعالىٰ علىٰ المنافقين الذين يطلبون العزة من غير الله واهب الإيمان والتقوىٰ، ويوالون أعداء الإسلام من الكافرين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٩].

لما قدم عمر الشام أتته الجنود وعليه إزار وخُفَّان وعمامة، وأخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت علىٰ

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (ص: ٢٢).

(٢) القيعة: جمع قاع، كالجيرة جمع جار، والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع. ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٩٥).

هذا الحال! قال: فقال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نلتمس العز بغيره[1].

إن العزة ليست بما يملكه العبد من مال ومتاع، وما وصل إليه من جاه وسلطان، لكنها بقربه من الله تعالىٰ، واتصاله به، وانتسابه إليه بالإيمان والتقوىٰ؛ فإن أكرم الناس عند الله العبد التقي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٧٦)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠).

١٧٤

دوام الطاعة يورث استمرار العطاء

قال أحمد بن حنبل[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدُمْ له على ما يحب»[٢].

المعنى الإجمالي

إن النعم التي يعيشها الإنسان لا تحصىٰ، ولكن هناك نِعَم خاصة قلبية يمُنُّ الله بها علىٰ أهل طاعته؛ كنعمة لذة العبادة والذكر، ونعمة الفهم عن الله، ونعمة قيام الليل، ونعمة الخشوع في الصلاة، هذه النِّعم هي أعظم من كل النِّعَم المادية، لا يشعر بها إلا من ذاقها، وإنما يمنحها الله عَزَّ وَجَلَّ لمن تعلّق قلبه به، ولمن اختصه الله بالعناية وعلم صدقه وإخلاصه.

فقد يُحرَم المؤمن من الأعمال الصالحة أو من لذة المناجاة نتيجة ذنب اقترفه أو عمل صالح تركه، أو بسبب شائبة شرك خفي دخلت نيته، وقد لا يفطن كثير من

(١) أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الذهلي، الشيباني، المروزي ثم البغدادي، الإمام المحدث الحافظ، شيخ الإسلام، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، نشأ مُنكبًّا علىٰ طلب العلم، وسافر في سبيله أسفارا كبيرة، صنف في الحديث المسند، وله كتب في التاريخ والناسخ والمنسوخ وغيرها، توفي سنة ٢٢٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٧٧)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٦/ ٢٢٥)؛ الأعلام للزركلي (١/ ١٢٠).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (٢/ ٣٠).

الناس لسبب هذا الحرمان، قال ابن الجوزي: «وربما رأىٰ العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة، وغفْلَتُه عمّا عوقب به عقوبة، وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنويًا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب! كم أعصيك ولا تعاقبني! فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟»(١).

ورب شخص أطلق بصره فحُرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره وحُرم قيام الليل وحلاوة المناجاة، قال ﷺ: «إن الرجل ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه»(٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٦٦).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ٣٨٠) برقم: (١١٧٧٥)؛ وابن ماجه في سننه (١/ ٦٨) برقم: (٩٠)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٢٦٧) برقم: (٢٢٨٢١).

١٧٥

الكرامة في التزام الشرع

قال أبو يزيد البسطامي رَحِمَهُ اللهُ: «لو نظرتم إلى رجل أُعْطِي من الكرامات حتى يُرفَع في الهواء فلا تَغْترّوا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»(١).

بيان المفردات

الكرامة: ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص، غير مقارن لدعوىٰ النبوة(٢).

المعنى الإجمالي

إن الأمر الخارق للعادة لا يكون كرامة إلا إذا أجراه الله علىٰ يد من كان من أهل الصلاح والاستقامة، وأما إن وقع خرق العادة علىٰ يد إنسان غير مستقيم علىٰ شرع الله فليست بكرامة، وإنما هي مكرٌ واستدراج، فالخوارق ليست بحد ذاتها معيارًا للصدق والاستقامة؛ لأن الله قد يجري هذه الخوارق علىٰ يدي أولياء الشيطان مكرًا واستدراجًا لهم وفتنة لأتباعهم، كما سيكون في آخر الزمان عندما يُجري الله علىٰ يدي المسيح الدجال بعض الخوارق، فيقول للسماء: أمطري

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٠).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١٨٤).

فتمطر، وللأرض: أنبتي فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها، ويقتل رجلًا مؤمنًا ثم يأمر به فيقوم(١)، ومع هذا فهو الأعور الكذاب الدجال.

فالمعيار في كون الخارق كرامة هو صدق الإنسان وصلاحه واستقامته على منهج الله، مع صحة اعتقاده. والذي يلتزم بشرع الله ويستقيم عليه، ويجتنب النواهي ويبتعد عن الشبهات، ويحافظ على السنن، ويتقلل من المباحات، فذلك هو الولي وتلك هي الكرامة، حتى لو لم تظهر على يديه خوارق العادات، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

بعض الرجال يرى كونَ الكراماتِ ... دليلَ حقٍّ على نَيْلِ المقاماتِ
وأنها عينُ بشرى قد أتتك بها ... رُسْلُ المهيمن من فوق السماواتِ
وعندنا فيه تفصيلٌ إذا علمَتْ ... به الجماعة لم تفرح بآياتِ
كيف السرور والاستدراجُ يَصحبها ... في حقِّ قومٍ ذوي جهلٍ وآفاتِ
وليس يدرون حقًّا أنهم جهِلوا ... وذا إذا كان من أقوى الجهالاتِ
وما الكرامة إلا عصمةٌ وُجِدتْ ... في حال قولٍ وأفعالٍ ونياتِ
تلك الكرامة لا تبغي بها بدلًا ... واحذر من المكر في طيِّ الكراماتِ(٢).

---

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٠) برقم: (٢٩٣٧).
(٢) الفتوحات المكية لابن عربي (٢/ ٣٦٩).

١٧٦

آداب البسط والقبض

قال أبو الحسين النوري[(١)] ﷺ: «قفْ على البساط، وإياك والانبساط، واصبرِ على السياط، تَجُز على الصراط»[(٢)].

بيــان المفردات

البساط: هو ما يبسط على الأرض من الفرش ونحوه، فهو اسم لكل مبسوط، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح:١٩]، كما يأتي بمعنىٰ النشر والتوسيع، والانبساط هو ترك الاحتشام، والمراد به عند أهل السلوك معنىٰ خاص وهو: حال الرجاء للسالك[(٣)].

---

(١) أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، المعروف بابن البغوي، خراساني الأصل، بغداديُّ المنشأ والأصل، شيخ الصوفية في وقته، كان معروفا بكثرة الاجتهاد وحسن العبادة، صحب سريا السقطي ومحمدا بن علي القصاب، توفي سنة ٢٩٥هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ٣٣٠)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص١٣٥).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٦٧٧)، هكذا نسبه إلىٰ النوري (ت: ٢٩٥هـ)، وأما سبط ابن الجوزي وغيره فقد نسبوه إلىٰ رويم بن أحمد (ت: ٣٠٣هـ) باختلاف يسير في العبارة. ينظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (١٦/ ٤٣٥)؛ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لأحمد بن يحيىٰ العدوي (٨/ ١١٩).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١١١٦)؛ لسان العرب لابن منظور (٧/ ٢٥٩)؛ موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة للمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية بمصر (ص: ٨٢).

السياط: جمع السَّوْطِ، وهو الجلد المضفور الذي يضرب به، يقال: سُطْتُه أَسُوطُه سَوْطًا: ضربته به، وورد في قوله تعالىٰ: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر:١٣] تشبيها بما يكون في الدّنيا من العذاب بالسّوط، أو إشارة إلىٰ ما خلط لهم من أنواع العذاب، وقيل: السوط هو اسم للعذاب، والمراد هنا الشدائد(١).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة أهمية وقوف العبد عند دائرة المباحات وعدم تجاوزها إلىٰ غيرها من المكروهات والمحرمات والتحذير من ترك الاحتشام في التعامل مع الله ﷻ، فيلتزم بما يرضي الله ويبتعد عما يغضبه، وكذلك يجب الصبر علىٰ الشدائد التي يواجهها العبد في هذه الحياة اختبارا أو بلاء منه ﷻ، فمَن وُفِّق إلىٰ ذلك نجىٰ وجاز الصراط.

ويمكن استئناس معنىٰ آخر من الحكمة، وهو الذي يتعرض له بعض السالكين عند بداية سيره في طريق السلوك والتصوف، فتأتيه حالات البسط أو القبض لأسباب مختلفة، فيجب عليه التوقف والسكون عند البسط، والابتعاد عن الانبساط وترك الاحتشام من فرط الخفة والطرب، وكذلك يجب عليه الصبر والاستغفار عند القبض حتىٰ يتجاوز هذه المراحل.

(١) المحيط في اللغة للصاحب بن عبّاد (٢/ ٢٦٩)؛ المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٤٣٤).

١٧٧

رعايــة النفس

قال الجنيد رحمه الله: «مَن حسُنتْ رعايتُه دامتْ ولايتُه»(١).

بيــان المفردات

الرعاية: لغة الحفظ والسياسة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، وسميت حرفة الراعي رعاية؛ لأنه يحفظ المواشي ويَسُوسها، يقال: راعىٰ أَمره؛ أي: حَفِظَه وتَرَقَّبَه، والمُراعاة: المناظرة والمراقبة، والراعي: الحاكم وكل من ولي أمرَ قوم(٢).

المعنى الإجمــالي

تشتمل الحكمة علىٰ بيان أهمية الرعاية والمحافظة علىٰ النفس، فهي مُعرَّضة للوساوس وميَّالة إلىٰ الشهوات، فإن لم تُراقب فإنها تتمادىٰ في الشهوات وتغرق فيها، ولذلك يجب مراقبتها دائما، ومن حسنت رعايته ومراقبته لنفسه دامت ولايته وارتفعت درجته، لأن دوام المراقبة وحُسن الرعاية يُهذِّب النفس ويُنقِّيها من أدرانها.

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٦٥٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٢٦-٣٢٧)؛ القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ١٢٨٩).

قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨]، يقول ابن كثير في تفسيرها: «أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وانظروا ماذا ادّخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعَرْضكم علىٰ ربكم»(١).

وبمراعاة المرء لنفسه وأعماله يتقرب إلىٰ الله ﷻ، وبحسن مراعاتها يدوم له هذا التقرب والولاية، وبذلك يسلم من الحسرة التي تأكل كبد مَن فرَّط وتهاوَن، وقد حذَّرنا الله من ذلك فقال: ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٦]، بل يكون من الفائزين. وقول النبي ﷺ في معنىٰ الإحسان: «أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك»(٢)، يتضمن معنىٰ المراقبة والرعاية للنفس، حيث يذكّر العبد بمقام العبودية ويرشده إلىٰ إخلاص العبادة لخالقه كأنه يراه، أو علىٰ الأقل خالقه يراه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)، ومسلم في صحيحه (١/ ٣٦) برقم: (٨).

١٧٨

التقوى طريق اليقين

قال ابن عطاء الأدمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين»[(١)].

المعنى الإجمالي

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن اليقين: «اليقين الإيمان كله»، وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن التقوىٰ: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدعَ ما حاكَ في الصدر»[(٢)].

إن التقوىٰ تقرب العبد من ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ذلك أن التقي يعلم أن ربه أقرب إليه من حبل الوريد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦].

والقرب من التقوىٰ والتخلق بها في حياة المسلم والترقي في سُلَّم كمالها يوصل العبد إلىٰ اليقين بالله وبوعده ووعيده؛ ذلك أنَّ الأعمال المؤدية للتقوىٰ تؤدي بالضرورة إلىٰ اليقين؛ فالإيمان باليوم الآخر وبالدار الآخرة وما أعدَّ الله فيها من

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣١٩)؛ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٩٩) عن سهل بن عبد الله بلفظ: «علىٰ قدر قربهم من التقوىٰ أدركوا اليقين».

(٢) أخرج الأثرين البخاري في صحيحه (١/ ١٠).

الجزاء يقينٌ يجده المؤمن في قلبه ويظهر علىٰ سلوكه وأعماله بتقوىٰ الله المتمثلة بإتيان المأمورات واجتناب المنهيات. يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل:٣].

ولما تحقق الصحابة ﷺ بالتقوىٰ أضحىٰ اليقين عندهم بالغيب كأنه رأي العين؛ فيرون بأعينهم عرش الرحمن، وما أعده الله للمتقين من الجزاء الأوفىٰ في الجنة، وما جعله من نكال وعذاب لمن كفر به، ولم يصدق المرسلين بما جاءوا به، كما قال النبي ﷺ لحارثة بن مالك رضي الله عنه: «ما أنت يا حارثة بن مالك؟» قال: مؤمن يا رسول الله، قال: «مؤمن حقًّا؟»، قال: مؤمن حقًّا، قال: «فإن لكل حق حقيقة، فما حقيقة ذلك؟»، قال: عزفت نفسي من الدنيا، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي حين يجاء به، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عواء أهل النار، فقال النبي ﷺ: «مؤمن نور قلبه»(١).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ١٩٤) برقم: (٢١١٨١)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠) برقم: (٣٠٤٢٣).

١٧٩

التقوى قارب النجاة

قال أبو يعقوب النهرجوري[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب التقوى، والناس سَفْر»[(٢)].

بيان المفردات

سَفْر: قوم سَفْر وأسفار؛ أي: مسافرون[(٣)].

المعنى الإجمالي

تمثيل المعاني والحقائق بالأشياء المحسوسة يُقرِّبُ تلك المعاني والحقائق إلى الذهن، والتربية الإسلامية بالْمَثَل وسيلةٌ ناجعةٌ؛ فهي تُقرِّبُ الكلام الكثير بكلام قليل، وتُوضح المجرد بالمحسوس الملموس. وهذا المثل فيه أربعة أطراف؛ وهي: الدنيا، والآخرة، والمركب، والناس، يقابلها أربعة أطراف، وهي: البحر، والساحل، والتقوى، والسفر.

(١) إسحاق بن محمد أبو يعقوب النهرجوري، الصوفي، من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي، وجاور بمكة مدة وبها توفي سنة ٣٣٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٥٨٧)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٨/ ٢٧٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٨٧).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٧١٧).

فالدنيا بحر، ووجه الشبه بينهما: العمق والاتساع والامتداد، فمن لم يتجهز بتعلم السباحة، ولم تكن لديه وسائل النجاة فإنه يُعرِّض نفسه للهلاك.

والآخرة ساحل، ووجه الشبه بينهما: أنهما يمثلان النهاية الآمنة؛ فراكب البحر تتحقق نجاته إن فارق البحر ووصل الساحل، والعبد ناجٍ إن عبر الدنيا ووصل إلىٰ نهاية طيبة في الآخرة.

والمركب التقوىٰ، ووجه الشبه: أن المركب هو وسيلة العبور والنجاة، والتقوىٰ وسيلة الخلاص من العقاب، والتنعم بنعيم الله ونيل رضاه.

والناس هم المسافرون عبر المراكب من البحار إلىٰ السواحل، والطالبون للنجاة؛ فليس في الناس مَن يطلب النجاة بدون مركب، وليس فيهم عاقل يخرق مركبه؛ لأنه يعرَّض نفسه بذلك للهلاك، ولذلك كان لا بد لهم حتىٰ يصلوا إلىٰ بر الأمان من اتخاذ أسباب السلامة، وهكذا من أراد السلامة في الآخرة والوصول إلىٰ بر الأمان لا بد له من ركوب سفينة التقوىٰ، فإنها توصله إلىٰ الجنة.

١٨٠

العزُّ في التقوى

قال إبراهيم بن شيبان[1] رَحِمَهُ اللهُ: «الشرف في التواضع، والعِزُّ في التقوى، والحرية في القناعة»[2].

المعنى الإجمالي

يحسب كثيرٌ من الناس أن العزة في كثرة المال والولد، ولم يعلموا أن العزة إنما هي بتقوىٰ الله، فهي خير زاد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]، وهي خير لباس، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

فكم تميز أهل التقوىٰ بمحبة الله لهم، وعزة أنفسهم عند خلقه؛ ذلك لأنهم يعلمون أن الجباه التي تنحني لله تعالىٰ مع كل سجود تأبىٰ الانحناء والخضوع

---

(١) إبراهيم بن شيبان، أبو إسحاق القِرْمِيسِني، نسبة إلىٰ بلدة قرميسين التي يقال لها اليوم كرمانشاه في غربي إيران، شيخ الصوفية، زاهد الجبل، صحب إبراهيم الخواص ومحمدا المغربي، روىٰ عنه الفقيه أبو زيد المروزي وغيره، توفي سنة ٣٣٧هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٣٩٢).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٧٩). وهذا الشرح يتعلق بما يخص التقوىٰ من الحكمة، وأما شرح ما يخص التواضع فسيأتي في باب التواضع، الحكمة رقم: (٧١٩)، وشرح القسم الثالث سيأتي في باب الزهد والقناعة، رقم الحكمة: (٨٩٤).

لغيره، وأن الألقاب التي يحملها الناس لا قيمة لها إن لم تكن تقوىٰ الله دِثارًا ولباسًا يتجملون به.

قال الحسن البصري رحمه الله لما خرج من عند الحَجَّاج: «أمَا والله إنهم وان ركبوا البَراذين[1]، وصعدوا المنابر، إنّ ذُلَّ المعاصي لفي أعناقهم، أبىٰ الله تعالىٰ إلا أن يُذِلَّ من عصاه»[2].

(١) **البراذين**: جمع، مفرده: برذون، وهي الدابة. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ٢٠٧٨).

(٢) تاريخ الطبري (١١/ ٦٣٨).

١٨١

عاقبـة اتباع الهوى

قال أبو الحسن الأهوازي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فعل ما شاء لقي ما ساء»(٢).

المعنى الإجمـالي

المسلم إنما سمي بهذا الاسم لأنه استسلم لأمر الله وألزم نفسه بشرعه، فهو منضبط بالشرع، لا يصدر عن هوىٰ نفس ولا يتعمّد العصيان، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فالمؤمن يعيش وفق منهج الله، ولا يخرج كذلك عن عادات مجتمعه الذي يعيش فيه، إن لم يكن فيها مخالفة شرعية.

وإذا خرج الإنسان عن ضوابط الشرع والعرف، وفعل ما تشتهيه نفسه دون رادع يردعه من خوف الله ﷻ أو الحياء من الناس، فإنه يُعَرِّض نفسه للفضيحة في الدنيا والسمعة السيئة والسقوط من أعين الناس؛ فتسقط عدالته، وترد شهادته، وينتظره غضب الله والعذاب الأليم في الآخرة إن لم يتب.

---

(١) محمد بن الحسن، الأهوازي الخراساني، أبو الحسن، أديب، كاتب، شاعر، متقدم القدم في البلاغة، انتقل من خراسان إلىٰ بخارىٰ ثم الصغانيان وأصبح وزيرا عند صاحب الصَّغانيان إلىٰ أن توفي، من كتبه: الدر، والقلائد والفرائد، وله فصول منثورة تجري مجرىٰ الأمثال. ينظر: المحمدون من الشعراء لجمال الدين القفطي (ص: ٢٠٤).

(٢) مفيد العلوم ومبيد الهموم ينسب لأبي بكر الخوارزمي محمد بن العباس (ص: ٣٩٣).

والإنسان إذا أرخى لنفسه الزمام لتفعل ما تشاء فإنها ستجره إلى أودية سحيقة من الانحطاط، يصعب عليه الخروج منها، فالمعصية تجر أخرى، والسقطة تتبعها سقطات، فلا يصحو إلا بعد أن يصل إلى القاع، ولات ساعة مندم، ولذلك أمرنا الله ﷻ ألا نتبع خطوات الشيطان؛ لأن كل خطوة تستتبع ما بعدها؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور:٢١]. فالعاقل من ضبط نفسه، ولجم شهواته، واتبع منهج ربه.

١٨٢

المتقي يشتاق للآخرة

قال النصرآبادي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لَزِم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾»[(٢)].

المعنى الإجمالي

التقوىٰ فعل المأمورات والكف عن المنهيات، وللتقوىٰ آثارها علىٰ العبد في عبادته وسلوكه ونظرته للدنيا؛ فالتقيُّ ينظر إلىٰ الدنيا نظرًا شرعيًّا بعيدًا عن الإفراط والتفريط؛ فهي قنطرة ومرحلة يصل العبد بعدها إلىٰ الآخرة.

إن من يتحقق بالتقوىٰ يهون عليه الإعراض عن الدنيا؛ ومن تعلق بشهوات الدنيا وتغلغل حبها في قلبه فإنه يكره مفارقة الدنيا إلىٰ الآخرة؛ روي أن رجلًا سأل أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما بالنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمَّرتم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العُمران إلىٰ الخراب»[(٣)].

---

(١) إبراهيم بن محمد بن محمويه، أبو القاسم النصرآبادي النيسابوري ثم المكي، الإمام، المحدث، الواعظ، شيخ خراسان في وقته، كان مرجعا في أنواع من العلوم، كتب الحديث ورواه، صحب أبا بكر الشبلي وغيره، توفي سنة ٣٦٧هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٣٦٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/ ٢٦٣).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٢٨).

(٣) درر الحكم لأبي منصور الثعالبي (ص: ٢٦)، ونقل مثل هذا القول عن أبي حازم لما سأله سليمان بن عبد الملك. ينظر: أدب الدنيا والدين (ص: ١١٥).

إن الصالحين لما علموا ما أعده الله لهم طارت قلوبهم شوقًا إلىٰ ما عند الله، فاشتاقوا للقاء الله تعالىٰ؛ لعلمهم بأن الدار الآخرة لمن اتقىٰ الله تعالىٰ ورجا لقائه، ولقد كان من دعاء النبي ﷺ قوله: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أَحْيِني ما علمتَ الحياة خيرًا لي، وتَوَفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنىٰ، ولذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، ومن فتنة مضلة، اللهم زيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مَهْديِّين»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٢٦٥) برقم: (١٨٣٢٥)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٨١) برقم: (١٢٢٩).

١٨٣

حقيقة التقوى

قال محمد بن خفيف[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التقوى مجانبة ما يُبْعِدُك عن الله»[(٢)].

بيـان المفردات

مجانبة: الجنابُ: مصدر جانبته مجانبة وجنابًا، وهو المباعدة[(٣)].

المعنى الإجمالي

إن التقوىٰ تعني المجانبة والابتعاد والمقاطعة لكل المعاصي، بل ترك مسبباتها ومؤثراتها؛ فإن الشيء لا يمكن حصوله إلا بوجود سببه، فإذا انتفىٰ السبب وَوُجد المانع والصادُّ عن اقتراف المعصية فإن المعصية لا تكون، وهذا المانع لاجتراح المعاصي هو تقوىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) محمد بن خفيف بن إسفشاذ، أبو عبد الله، الضبي، الشيرازي، الصوفي، كان شيخ المشايخ في وقته، صحب رويما والجريري وابن عطاء وغيرهم، وأسند الحديث، توفي سنة ٣٧١هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٤٥)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٢/ ١٤٠).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٢٨).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٢٧١).

فحين يعلم العبد أن أمرًا من الأمور يبعده عن الله تعالىٰ فليتركه وليفارقه؛ ومن أمثلة ذلك من يشكو قصورًا في تأخره عن صلاة الفجر، وإتيانه بها متأخرًا، فقد يكون السبب في ذلك المعاصي المقيّدة له؛ من السهر، ومشاهدة ما لا يُرضي الله تعالىٰ، فالعلاج لمثل هذه الحالة ترك السهر، وترك مشاهدة المعاصي، وهذا لا يحصل إلا بمجاهدة النفس، وتربيتها علىٰ الخوف من الله، ومحبته، واتباع رضوانه.

والأعمال التي تُبْعِد العبد عن ربه تعالىٰ كثيرة؛ أعلاها الشرك بالله، ثم الكبائر، ثم الصغائر من الذنوب والمعاصي علىٰ اختلاف في درجاتها. وقد جعل الله من علامات المؤمنين المتوكلين عليه المتقين أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢].

وروي عن أبي الدرداء ﷺ قوله: «تمام التقوىٰ أن يتقي اللهَ العبدُ حتىٰ يتقيه في مثقال ذرة، حتىٰ يترك بعض ما يرىٰ أنه حلالٌ خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بيَّن للعباد الذي يصيِّرهم إليه، قال الله: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فلا تحقرنّ شيئًا من الشر أن تتقيه، ولا شيئًا من الخير أن تفعله»(١).

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (٢/ ١٩).

١٨٤

لباس التقوى

قال أبو الليث السمرقندي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تعرَّى عن لباس التقوى لم يُلْبِسه شيءٌ من الدنيا»(٢).

المعنى الإجمالي

مَن تعرَّىٰ عن لباس التقوىٰ، أي: تخلَّىٰ عن صفة التقوىٰ والعمل الصالح، فهو كالعريان؛ لأن لباس التقوىٰ لباس معنوي، لا يغطيه اللباس الحسي بجميع أنواعه، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف:٢٦].

---

(١) أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، الإمام الفقيه، الملقب بإمام الهدىٰ، من أئمة الحنفية، من الزهاد المتصوفين، من كتبه: تفسير القرآن، وعمدة العقائد، وبستان العارفين، وتنبيه الغافلين، توفي سنة ٣٧٥هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٤٢٠)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٢٧/ ٥٤)؛ الأعلام للزركلي (٨/ ٢٧).

(٢) نسب الفاريابي هذا القول إلىٰ أبي الليث، كما في تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق (ص: ١٣٤)؛ وفي المجالسة وجواهر العلم للدينوري (١/ ٤٧٦) أنه مما كتبه بعض الزهاد، وأسنده من طريق ابن أبي الدنيا بلفظ: «لم يستتر بشيء من اللباس»؛ ونسب أيضًا إلىٰ منصور بن عمار، ولفظه: «من تعرىٰ من لباس التقوىٰ لم يستتر بشيء من لباس الدنيا». ينظر: روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لابن الخطيب الأماسي الحنفي (ص: ٣١٧)؛ وغذاء الألباب في شرح منظومة الآداب لأبي العون السفاريني الحنبلي (٢/ ٣٤٤).

١٨٥ لا تخف ممن قلبه بيد الله

قال أبو بكر الوراق رحمه الله: «قلب من تخافه بيد من ترجوه»(١).

المعنى الإجمـالي

إن الخوف شيء طبيعي وفطري في الإنسان، وقد حكىٰ الله عن موسىٰ وهارون أنهما خافا من فرعون، قال تعالىٰ: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾ [طه:٤٥]، ولكن صاحب الإيمان القوي الذي يعلم أنه لا يقع شيء إلا بأمر الله، وأن قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء يزول عنه الخوف بمجرد أن يتذكر هذه الحقيقة، ولذلك طمْأن الله موسىٰ وهارون فقال: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦]، ومن كان معه الله فلا يمكن أن يخاف شيئًا.

وقلوب العباد كلها بيد الله، جاء في الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يصرفه حيث يشاء»(٢). فإذا خفت من أحد فتذكر أن قلبه بيد الله، وأنه لا يستطيع أن يصل إليك منه أذىٰ إلا إذا أذِن له الله وسلطه علىٰ أذاك، والله عز وجل قادر أن يلهم عدوَّك أن يخدمك، كما أنه قادر أن يجعل أقرب الناس إليك يتطاول عليك؛ لأن قلوب العباد بيد الله، فأنت علاقتك مع الله،

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٨٠).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥١) برقم: (٢٦٥٤).

فإن خفت شيئًا فالجأ إلىٰ من بيده كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام:٨٠].

فالمؤمن يعلم أنه لن يصله مكروه من أحد إلا بإذن الله وأمره؛ لأن ناصية كل دابة بيده سبحانه، وهذا ما حكاه الله ﷻ عن سيدنا هود عليه السلام مخاطبًا قومه فقال: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٥-٥٦]. فعلاقتي ليست مع الدواب، ولكن مع مَن بيده ناصية الدواب، فإن أرخىٰ لها الزمام وصلت إلي، وإن شدَّ الزمام أبعدها عني، وقلب كل قوي بيد الله؛ فإما أن يملأه عطفًا عليك، وإما أن يملأه حقدًا عليك، فلا تخف منه، ولكن خف أن يسمح الله له أن يصل إليك.

١٨٦

طريق الوصول إلى المعالي

قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «المعالي لا تَثْبُت بالدعاوي، والأماني لا تُنال بالتواني، وإنما المعالي تحصل بالتقوى، والصبر على البلوى، والتوكل على الله في السِّرّ والنجوى، فمن اتقى ارتقى بالتُّقى، وإلا هبط في مهاوي الشقا»[١].

بيان المفردات

الدعاوي: جمع دعوىٰ، وهي ما يزعمه الإنسان لنفسه، حقًّا كان أو باطلًا[٢].

الأماني: جمع أُمْنِيَة، وهي ما يتمنىٰ الرجل[٣].

التواني: التقصير[٤].

النجوى: هي الإسرار، تقول: ناجيت فلانًا؛ أي: سارَرْتُه[٥].

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ١٧٥).
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢٦١).
(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٣٨١).
(٤) ينظر: مختار الصحاح للرازي (٣٤٦).
(٥) ينظر: المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٩٥).

المعنى الإجمالي

إن الإنسان الذي يرنو إلىٰ معالي الأمور لا بد أن يَبذُل في سبيل الوصول إليها جهده وماله؛ فالوصول إلىٰ القِمَم يحتاج إلىٰ علوِّ الهِمَم، ومجرد ادِّعاء الوصول لا يُغير من واقع الأمر شيئًا، بل إن من نسب إلىٰ نفسه شيئًا لم يُدْركه ولم يصل إليه بعد فإن الله يعاقبه بعقوبة من جنس عمله، جاء في حديث ثابت بن الضحاك، عن النبي ﷺ قال: «وَمَنِ ادَّعىٰ دَعْوَىٰ كاذبةً لِيَتَكَثَّرَ بها لم يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً»(١).

وفي حديث أسماء عن النبي ﷺ قال: «الْمُتَشَبِّعُ بِما لم يُعْطَ كَلابِسِ ثَوبَيْ زُور»(٢).

وإن دون تحقيق الأماني مصاعبُ وعقبات، فلا تتحقق تلك الأماني بالتقصير والكسل، بل لا بد من اقتحام تلك العقبات، والأخذ بالعزيمة، والسير إلىٰ تحقيقها بتقوىٰ الله ﷻ، والصبر علىٰ الصعوبات والمشاقّ، والتوكل علىٰ الله في السر، مع مناجاة الله ﷻ ودعائه بالتثبيت وطلب العون.

لا تحْسَبِ المجدَ تمرًا أنت آكِلُه ... لن تبلغ المجدَ حتىٰ تَلْعَق الصَّبِرا(٣)

فتقوىٰ الله أساس كل مجد ورفعة، والبعد عنها سبب كل شقاء وضنك، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٧٣) برقم: (١١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم: (٥٢١٩).

(٣) البيت لطرَفَة ابن العبد. ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي (١١/ ١٣٣).

١٨٧

الاستقامـة عين الكرامـة

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»(١).

بيـان الـمفردات

الكرامة: «هي ظهور أمرٍ خارقٍ للعادة من قبل شخص، غير مقارن لدعوىٰ النبوة»(٢).

الـمعنى الإجمـالي

إن الله ﷻ قد يكرم بعض عباده الصالحين الذين وصلوا إلىٰ درجة من النقاء والصفاء الروحي، وطهارة النفس والقلب، قد يكرمهم بإظهار بعض الأمور الخارقة للعادة علىٰ أيديهم؛ وذلك لبيان علو منزلتهم عند الله.

ولكن إكرام الله للعبد لا يتوقف علىٰ إظهار الخوارق علىٰ يديه، وإنما هناك ما هو أجلُّ من ذلك، فتوفيق الله العبدَ لطاعته وتقواه والاستقامة علىٰ شرعه، والبعد عن المعاصي والمخالفات هو أعظم من ظهور خوارق العادات؛ لأن غاية الكرامة

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٧١)؛ وينظر: التحفة العراقية لابن تيمية (ص: ٤٩)؛ قاعدة في المحبة لابن تيمية (ص: ١٦٦)؛ مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١١/ ٢٩٨).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١٨٤).

لزوم الاستقامة، ولا يوفَّق لها إلا من أحبه الله وعظُمت منزلته عنده، قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات»(١).

ولعلُوّ منزلة أهل الاستقامة فإن الملائكة تتنزل عليهم لطمْأنتهم وتبشيرهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وذكر السهروردي أن الغرض من إظهار خوارق العادات هو حصول اليقين، فتحصل لبعض الناس لحاجتهم إلىٰ اليقين، وأما من استقام علىٰ طاعة الله فقد حصل له اليقين، فيستغني بذلك عن خوارق العادات، فيكون هذا الثاني أكرم عند الله من الأول؛ لتمام يقينه، وربما يكون هذا أحد أسباب قلة ظهور الخوارق علىٰ يد الصحابة رضي الله عنهم(٢).

قال أبو علي الجوزجاني: «كن صاحب الاستقامة لا طَالِب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة فِي طلب الكرامة، وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة»(٣).

(١) حل الرموز لابن غانم المقدسي (ص: ١٧٠).
(٢) ينظر: حسن التنبيه لما ورد في التشبيه لنجم الدين الغزي (٣/ ٣١٢).
(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٥٧).

١٨٨

أنت تحدد الثمـرة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرض الفطرة رحبة قابلة لما يُغرس فيها؛ فإن غُرِسَتْ شجرة الإيمان والتقوى أَوْرَثَتْ حلاوة الأبد، وإن غُرِسَتْ شجرةُ الجهل والهوى فكل الثمر مُرّ»[(١)].

بيـــان الـمفردات

الفطرة: هي الخِلقة، أي ما خلق الله عليه الخلق من المعرفة به، وهي والجِبِلَّة المتهيئة لقبول الدين[(٢)].

رحبة: أي واسعة[(٣)].

الـمعنى الإجمـــالي

جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تُنتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٥٦)؛ التعريفات للشريف الجرجاني (ص: ١٦٨).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٤١٣).

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠](١).

فالله سبحانه جَبَل الإنسان علىٰ المعرفة والإيمان به، وفطره علىٰ قبول الدين الحق، وأخذ عليه العهد في عالم الذَّرِّ، فمن الناس من يتذكر ذلك ويقرُّه، ومنهم من يجحد بعد إقراره(٢).

وفي هذه الحكمة يُشَبِّه ابن القيم ﷺ الفطرة بالأرض، ويصفها بأنها واسعة خصبة، ويرىٰ الإنسان بمثابة المُزَارِع، يحصد ثمر ما يغرس فيها من شجر، فإن غرس شجرة الإيمان والتقوىٰ حصد ثمرة الحلاوة الأبدية، وسكن جنة الخلد؛ حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وإن غرس شجرة الجهل والهوىٰ، كان كل ما يحصده من الثمار مرًا كالحنظل؛ لأن الجهل لا يورث إلا الذلة والمرارة، والهوىٰ لا يؤدي إلا إلىٰ سوء.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٩٤) برقم: (١٣٥٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٥٢) برقم: (٢٦٥٨). جمعاء: هي السليمة من العيوب، وجدعاء: هي مقطوعة الأطراف أو واحدها.

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٣/ ٤٢٢).

١٨٩

الاستقامة على الصراط

قال ابن القيم رحمه الله: «على قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط في هذه الدار، يثبت على الصراط في الآخرة»(١).

بيان المفردات

الصراط: السبيل الواضح، وهي لغة قريش في السراط، والسّين هي الأصل، يقال: سَرِطَ الطعامَ والشيءَ سَرَطًا وسَرَطانًا: بَلِعَه، وإنما قيل للطريق الواضح سراط لأنه كأنه يسترِط المارّة(٢).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة كيف يكون الثبات والنجاة على صراط جهنم في يوم القيامة، وأن ثباته عليه بقدر ثباته على الصراط المستقيم في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، ولأن الدنيا مزرعة الآخرة، فمن حرث هنا وجده هناك ثمرة ناضجة طيبة، وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٩٠]، وبشّر الله المستقيمين في الدنيا بعدم الخوف والحزن في الآخرة قائلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٣).
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٧/ ٣١٣-٣١٤).

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤].

وفي الحديث بيّن النبي ﷺ كيف يكون مرور الناس علىٰ الصراط في الآخرة، وفيه: «فيمر أولكم كالبرق... ثم كمَرِّ الريح، ثم كمَرِّ الطير وشَدِّ الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم علىٰ الصراط يقول: ربِّ سلم سلم، حتىٰ تعجز أعمال العباد، حتىٰ يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٩) برقم: (١٩٥).

١٩٠

للعبد موقفـان

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «للعَبْد بين يديْ الله موقِفان: موقفٌ بين يديْه في الصلاة، وموقفٌ بين يديْه يوم لِقائه؛ فمَن قام بحقّ الموقف الأوّل هُوِّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يُوفِّه حقَّه شُدِّد عليه ذلك الموقف»(١).

المعنى الإجمـالي

موقفانِ عظيمان يقفهُما العبد بين يديْ الله تعالىٰ: أحدهما في الحياة الدنيا، والآخرُ حين يلقىٰ ربَّه يوم القيامة، ويترتبُ علىٰ صلاحِ الموقف الأول فلاحُ العبد وسعادتُه في الموقف الثاني، وعلىٰ فساد حال العبد في الموقف الأول ضياعُ أمره وخسرانُه في الموقف الثاني.

الموقف الأول: وقوفُ العبد بين يديْ الله في الصلاة، وهو أشرف وقوفٍ يقفه الإنسانُ في الدنيا، وهو موقف شريفٌ ينبغي للمصلي أن يستشعره وهو يؤدي هذه العبادة، ليشعر معها بالأُنس والطمأنينة، لأنَّ من حافظَ علىٰ الصلاة، واهتمَ لها، هان عليه الموقفُ يوم القيامة وأفلحَ، وأما إذا استهانَ بهذا الموقف فلم يُعْنَ بها، ولم يهتم لها، عَسُرَ عليه موقفُ يوم القيامة.

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٩١).

الموقف الثاني: وقوفُ العبد بين يديْ الله تعالىٰ يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠]، ولشدّة هَوْله وعظيم ما فيه تجثوا الأممُ علىٰ الرُّكب عندما يُدعون للوقوف والعرض بين يديْ الله تعالىٰ: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٨]، وإذا ما وَقَف العبدُ بين يديْ ربّه للحساب، فأوّل ما يُسأل عنه من الأعمالِ الصلاة، يقول النبيّ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يوم القيامة مِن عمله صَلَاتُه، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»(١).

والنّاس في الصلاة علىٰ مراتب خمسة؛ معاقَبٌ، ومحاسَبٌ، ومكَفَّرٌ عنه، ومثابٌ، ومُقَرَّبٌ؛ والأخير هو من قام إلىٰ الصلاة وأكمل حقوقَها، وأركانَها، واستغرق قلبَه مراعاةُ حدودها وحقوقها؛ لئلا يُضَيِّع منها شيئًا، وأخذ قلبَه ووضعه بين يديْ ربه، ناظرًا بقلبه إليه، مراقِبًا له، ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّتْ الوساوس والخطرات، وارتفعتْ حُجُبُها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربّه، قرير العين به، ومن قَرَّتْ عينه بصلاته في الدنيا قَرَّتْ عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة(٢)، وهذه هي الصلاة التي تنفع العبد عندما يقف بين يديْ الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (١/ ٤٣٧) برقم: (٤١٣)، وقال: حديث حسن.

(٢) ينظر: الوابل الصيب لابن القيم (١/ ٤٩-٥٠).

١٩١

التأسيسُ قبل البناء

قال ابن القيم رحمه الله: «منْ أراد علوَّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به»(١).

المعنى الإجمالي

يؤصِّلُ ابنُ القيم رحمه الله في هذه الحكمة لقاعدةٍ تربويّةٍ عامة تشمل جميع نواحي الحياة الدينية والدنيوية، وهي الاهتمامُ بالتّأسيسِ الراسخِ المتينِ القويِّ قبل البناء، فمَنْ أراد عُلوَّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسِه وإحكامِه وشدةِ الاعتناء به؛ فعُلوَّ البنيان علىٰ قدر توثيق الأساس وإحكامه، ذلك لأنَّ الأساسَ إذا كان وثيقًا حملَ البنيانَ واعتلىٰ عليه، وإذا تهدَّم شيءٌ من البنيان سَهُلَ تداركُه، وأمّا إذا كان الأساسُ غيرَ وثيقٍ لم يرتفع البنيانُ ولم يثبتْ، وإذا تهدَّم شيءٌ من الأساس سقط البنيانُ أو كاد، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة:١٠٩].

فالعاقلُ يهتمُّ بتصحيحِ الأساس وإحكامه، والجاهلُ يرفعُ في البناء عن غيرِ أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط، لأنَّ الأساسَ لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان؛

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢٨).

فإذا كانتْ القوةُ قويَّةً حملتْ البدنَ ودفعتْ عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفةً ضعُف حملُها للبدن وكانت الآفاتُ إليه أسرع شيءٍ.

ففي طريق السَّيْر إلىٰ الله تعالىٰ الأعمالُ والدرجاتُ بنيانٌ، وأساسُها الإيمانُ وصحةُ المعرفة باللهِ وأمرِه وأسمائِه وصفاتِه، وتجريدُ الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فالعارفُ يحملُ بنيانَه علىٰ قوَّة أساس الإيمان، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء؛ فإذا تشعَّثَ شيءٌ من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهلَ عليه من خراب الأساس(١).

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

١٩٢

الكامل من عُدَّ خطؤه

قال الأحنف بن قيس[(١)] رحمه الله: «الكامل من عُدَّت سقطاته»[(٢)].

بيان المفردات

السقطات: جمع سقطة، وهي العثرة والزلَّة، يقال: فلان يتتبع السقطات؛ أي: العثرات والزلات[(٣)].

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كَمُلَ من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام»[(٤)].

---

(١) الضحاك بن قيس بن معاوية، أبو بحر، التميمي، المعروف بالأحنف، الأمير الكبير والعالم النبيل، يضرب به المثل في الحلم، من سادات التابعين، مخضرم، وشهد بعض الفتوحات، كان موصوفا بالعقل والدعاء والعلم والحلم، روىٰ عن عمر وعثمان وعلي وجماعة من الصحابة، توفي بالكوفة سنة ٦٧هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٤٩٩)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٨٦).

(٢) موضح أوهام الجمع والتفريق للخطيب البغدادي (١/ ١٣)؛ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (١/ ٣٦٨)؛ التذكرة الحمدونية لابن حمدون (٧/ ٢٦٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٩٣)؛ توضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي (٨/ ١٤).

(٣) تاج العروس للزبيدي (١٩/ ٣٦٦).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٨) برقم: (٣٤١١)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٣٢) =

قال النووي رحمه الله: «لفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى»(١).

ومن حكمة الله سبحانه أنه لم يجعل العصمة إلا لأنبيائه، فكل من دون الأنبياء من الصديقين والشهداء والصالحين وسائر الناس غير معصومين عن الخطأ والزلل؛ لأن الله سبحانه يحب أن يتفضل على عباده ويتم عليهم نعمه ويريهم مواقع بِرِّه وكرمه، ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن لمن أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب عليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه(٢).

وزرع سبحانه في نفوس عباده حب الكمال، فالمؤمن دائما يسعى ويجتهد، ويجاهد نفسه، ويكثر من طاعاته، ويقلل من أخطائه وزلاته؛ ليرقى في درجات الكمال، فمن قلت أخطاؤه حتى صارت تُعَدُّ من قلَّتها وندرتها ارتقى وصار من أهل الكمال.

ولله در الشاعر حين قال:

وَمَـنِ الـذِي تُرْضَـىٰ سَـجَايَاهُ كُلَّهَـا ... كَفَـىٰ المَـرْءَ نُـبْلًا أَنْ تُعَـدَّ مَعَائِبُـهُ(٣).

= برقم: (٢٤٣١).

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٥/ ١٩٨).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (٢/ ٨١٥).

(٣) المنتحل للثعالبي (ص: ١٠٠).

١٩٣

الاستقامــة مفتــاح الإعانــة

«كن لي كما أريد أكن لك كما تريد»(١).

المعنى الإجمـالي

إن طاعة الله ﷻ واتباع منهجه هو طريق النجاح والسعادة والتوفيق في الدنيا والآخرة، فمن التزم طريق الاستقامة لازمته معونة الله في حياته، وفي مواجهة المحن التي تعترضه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فالمطيع لربه إن صدق في إيمانه وتوكله علىٰ ربه اطمأن قلبه؛ لأنه يعلم أن كل شيء بيد الله، وأن الله لا يتخلىٰ عن أوليائه، ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

جاء في الحديث: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة»(٢)، فما إن ينزل بك ضر حتىٰ ترىٰ لطف الله ومعونته، وقد ورد في الحديث الصحيح قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلىٰ غار

(١) أورده ابن القيم علىٰ أنه حديث قدسي من كلام الله ﷻ لموسىٰ عليه السلام، ذكره في مدارج السالكين، (٤/ ٤٩٣)، وفي طريق الهجرتين، (٢/ ٥٥٦)، وفي روضة المحبين (ص: ٤١٠) ولم يعلق عليه، ولم نقف عليه في كتب الحديث، إلا أن معناه صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٥٤١) برقم: (٦٣٥٩).

وانسدت عليهم الصخرة، كيف أن الله فرج عنهم بسبب ما قدموه من أعمال صالحة أيام الرخاء(١).

ولا ينبغي أن يفهم من هذه الحكمة أن المطيع لا يصيبه بلاء، فالبلاء هو سنة ماضية من الله تعالىٰ؛ ليميز الله الصادق في إيمانه من الكاذب، وليرفع درجة أوليائه، ولذلك ابتلىٰ الله خيرة خلقه وهم الرسل، بل هم أشد الناس بلاء، ولكن البلاء الذي يصيب الصالحين الصادقين يعقبه تثبيت من الله وربط علىٰ قلوبهم، ويفيض عليهم من فيوضات العطاء القلبي ما يشعرون معه بلذة الرضا والتسليم لأمره تعالىٰ، وهذا عطاء لا يمكن أن يقارن بالعطاء المادي.

(١) حديث الثلاثة متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٧٩) برقم: (٢٢١٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٣).

باب مراقبة الله

١٩٤

القلب خير واعظ

قال محمد بن سيرين رحمه الله: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه»(١).

المعنى الإجمالي

الواعظ واعظان: واعظٌ داخليٌّ، وواعظٌ خارجيٌّ؛ فالواعظ الداخلي هو حديث القلب الصادق المليء بالإيمان بالله تعالىٰ والخير والحكمة، فيأمر صاحبه بالخير، وينهاه عن الشر، ولن يكون الأمر كذلك إلا حين يكون القلب متصلًا بالله تعالىٰ، ذا فطرة سليمة صحيحة منضبطة بالشرع، وله حظٌّ وافرٌ من الأنس بالله والاتصال به، والتلذذ بمناجاته، وأما القلب الذي اسوَدَّتْ جوانبه، وامتلأ بالران، فأنىٰ له أن يُبْصِرَ شيئًا، فضلًا من أن يكون واعظًا وناصحًا أمينًا!

والواعظ الخارجي هو ما يقرأه العبد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسيرته الزاكية العطرة، وما يسمعه من المواعظ كذلك.

وقد ورد عن كثير من السلف أنهم كانوا يخاطبون نفوسهم؛ يعظونها ويزجرونها عن المعاصي، ويحثونها علىٰ الطاعات؛ فعن عون بن عبد الله أنه كان يقول في بكائه وذِكْر خطيئته: «ويْحي لأيِّ شيء أعصي ربي، ويحي طاوعت نفسا

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٨)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٦٤).

لا تطاوعني... ويحك يا نفس تنسين ما لا يُنسىٰ، وقد أتيتِ ما لا يؤتىٰ»[١].

وورد أن الله أوحىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه السلام: «يا عيسىٰ، عِظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاسْتَحِ مني»[٢].

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١١/ ٢٣٨).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٤٨).

١٩٥

إحاطة علم الله وسمعه

قال قتادة رحمه الله: «إن الله يعلم القلبَ النقيَّ، ويسمع الصوتَ الخفيَّ»(١).

المعنى الإجمالي

كان من دعاء النبي ﷺ «وأسألك قلبًا سليمًا»(٢). والقلب السليم والنقي هو «القلب النقي من الذنوب والعيوب، الذي ليس فيه شيء من محبة ما يكرهه الله تبارك وتعالى، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي كبائرها، وصغائرها، الظاهرة، والباطنة، كالرياء والعجب، والغِلِّ والغش، والحقد والحسد وغير ذلك. وهذا القلب السليم هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، فإذا سلم القلب لم يسكن فيه إلا الرب تبارك وتعالى»(٣).

ويسمع الصوت الخفي؛ فلا تختلف عليه الأصوات باختلاف اللغات وتعدد الحاجات، وقد أجاب الله دعوة نبيه يونس ﷺ وهو في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، قال الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا

(١) تفسير الماوردي (٣/ ٣٥٤)؛ والبداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٦) برقم: (٢٩٣٥٨).

(٣) شرح الدعاء من الكتاب والسنة لماهر عبد الحميد (ص: ٥٢٠).

فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وجاء في الحديث: «فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غربة، فقال ﷻ: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل»[١].

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٥/ ٣٤) برقم: (٨٢٢٧).

١٩٦

مواضع تعهد النفس

قال حاتم الأصم[(١)] رحمه الله: «تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا سكتَّ فاذكر علم الله فيك»[(٢)].

المعنى الإجمالي

ما يميز المسلم عن غيره أنه يتحلىٰ بصفة المراقبة لله تعالىٰ في كل شؤونه وأحواله؛ فلا يعمل العمل الصالح إسقاطًا للواجب المنوط به، بل هو يؤديه كما يحب الله تعالىٰ، فيتقنه إتقانًا لا يبقي فيه خللًا، وكيف لا يفعل ذلك وهو يعلم أن الرسول ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ»[(٣)].

والكلام محسوب علىٰ الإنسان إلا ما كانت فيه مصلحةٌ وخيرٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ

(١) حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي، أبو عبد الرحمن، المشهور بالأصم، كان أوحد من عُرف بالزهد والتقلّل واشتهر بالورع والتقشّف، وله كلام في الزهد والحكم، صحب شقيق بن إبراهيم البلخي، وأسند الحديث، توفي سنة ٢٣٧هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (٨٦)؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٢٦).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٧/ ٣٤٩) برقم: (٤٣٨٦)؛ والطبراني في الأوسط برقم: (٨٩٧).

ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٤]، والله سميع عليم بكل كلمة يقولها العبد سواءٌ أسر بها أم جهر، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك:١٣]، ويعلم الله صمت الإنسان وسكوته، هل صمته فكرٌ فيما يرضي الله تعالىٰ؟ أم أنه في شيء آخر، فالله تعالىٰ يعلم السر وأخفىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ [طه:٧]، ولا تخفىٰ عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، قال تعالىٰ: ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن:٤].

١٩٧

إصلاح الظاهر والباطن

قال الحارث المحاسبي ﵀: «من صحَّح باطنه بالمراقبة والإخلاص زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة»(١).

المعنى الإجمالي

للعبد ظاهرٌ وباطنٌ؛ ظاهرٌ يُظهِرُ به أقواله وأفعاله، وباطنٌ في صدره وقلبه لا يطَّلعُ عليه سوى الله تعالى. ولا يمكن لعبد يسعى لتزكية نفسه، والارتقاء بإيمانه أن يفصل في تزكيته للنفس بين الباطن والظاهر؛ إذ لا يصلح العبد في مقام عبوديته لله تعالى إلا حين يسعى بإصلاح الباطن والظاهر معا.

ومن الأمور التي يصلح بها العبد باطنه مراقبة الله في كل أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، وخطرات قلبه، ثم بالإخلاص لله تعالى؛ حتى يزول عنه الرياء وحب الثناء والسمعة.

وبين المراقبة والإخلاص في إصلاح الباطن علاقة متينة؛ فبمراقبة العبد لربه تعالى يبتعد عن الخوف من غير الله، فيكون خوفه ورجاؤه له وحده دون سواه، ولا يجعل لنفسه ولا لأحد من المخلوقين حظا ونصيبا من عمله؛ فهو يقصد به

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٥١).

وجه الله وابتغاء مرضاته، وهذا هو الإخلاص الذي هو شرطٌ لقبول الأعمال عند الله تعالىٰ.

ولا يتأتَّىٰ الإخلاص لله تعالىٰ دون مراقبة الله فيما يحب ويكره، وفيما يُقرِّب العبد منه ويباعده، ولا تكون مراقبة لله تعالىٰ بدون إخلاص الأعمال له دون أن يشوبها شائب الرياء والسمعة، وحب الثناء والحمد.

فمن كان لباطنه مصلحًا فإن الله يكافئه ويزينه ويرزقه صلاح الظاهر بمجاهدة النفس والجوارح، وكفِّهَا عن الشبهات والشهوات، وقد ضمن الله تعالىٰ لمن جاهد نفسه بهدايته لسبل الخير، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، ويوفقه لاتباع السنة كلها في كل أحواله وأقواله وأفعاله.

١٩٨

علامة مراقبة الله تعالى

قال ذو النون المصري ﵀: «علامة المراقبة: إيثارُ ما أنزل الله، وتعظيمُ ما عظَّم اللهُ، وتصغيرُ ما صغَّر اللهُ»[(١)].

المعنى الإجمالي

لكل عمل من الأعمال علامته الدالة على وجوده في الواقع، والمراقبة لله تعالى لها علامتها الدالة عليها؛ فمن علاماتها: أن العبد المؤمن لا يؤثر شيئا من أشياء الدنيا على ما أنزل الله في كتابه الكريم؛ فهو يسمع ويطيع الله في كل حياته، وقد ذكَّر الله عباده المؤمنين بنعمته وميثاقه حين قالوا سمعنا وأطعنا، وخوَّفهم بعلمه بما في صدورهم، فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة:٧]، وبيَّن حال المؤمنين عند تلقيهم لأحكامه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

إن كل هذا يجعل العبد المؤمن بالله تعالى لا يُقَدِّمُ شيئًا على حكم الله وأمره،

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٣١).

بل هو مطيع لله خاشٍ لله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢]. ويخشىٰ المؤمن علىٰ نفسه لو ترك ما أنزل الله ولم يؤثره علىٰ غيره أن يكون ممن اتبع هواه، وقد قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩].

والعلامة الثانية للمراقبة: أن يكون المؤمن معظما لما عظمه الله؛ لأن في ذلك التعظيم تعظيما لحرمات الله ولشعائر الله، يعظم ما عظمه الله من الأزمنة والأمكنة، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج:٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢]، فإذا كان العبد إذا ذُكر الله وجل قلبه واقشعر جسده وفاضت عيناه بالدمع فإن فيه علامة ودلالة علىٰ حبه لله وتعظيمه له.

والعلامة الثالثة: أن يُصغِّر ما صغَّره الله فلا يجعله كبيرا، ولا يجعله عظيما، بل هو عنده صغير حقير، وذلك مثل تعظيم الدنيا؛ فلا يعظمها المؤمن، وقد وصفها الله بمتاع الغرور، أي: الفاني الذي ليس بشيء(١)، وقيل: إنه كزاد الراعي، تُزَوِّده الكف من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه اللبن(٢). فقد جاء عن محمد بن المنكدر رحمه الله قوله فيمن يعظم الدنيا: «أرأيت لو أن رجلًا صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله وجاهد في سبيل الله واجتنب محارم الله، غير أنه يؤتىٰ به يوم القيامة فيقال: إن هذا عظم في عينه ما صغره الله وصغر في عينه ما

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٣٢٠).
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٥٣).

عظمه الله، كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا؟»[١].

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٥).

١٩٩

طوبى لمن تعلق بربه

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «إن الله تعالى لا يغيبُ عن عبدِه، ولكن طوبى لعبدٍ لا يغيب عن ربِّه»[١].

بيـــان المفردات

طوبى: فُعْلَىٰ من الطِّيبِ، بمعنىٰ العيش الطيّب والخير، وقيل: إن طُوبَىٰ اسمُ شجرةٍ فِي الجنَّة[٢].

المعنى الإجمـــالي

تشير الحكمة إلىٰ معنىٰ قد يغفله الكثير، وهو أن سعادة العبد وطيب عيشه في تذكّره لربه واستحضار عظمته وجلالته في قلبه دائما والعمل بما يرضيه، لأن الله تعالىٰ لا يغيب عن عبده أبدا، كما يقول تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ولكن المهم هو عدم غياب العبد عن ربه، فيذكره دائما ويستشعر علمه ومراقبته، ويكون لسانه رطبا بذكر الله، وقلبه معلقا به، ومن كان حاله هذا فطوبىٰ له بحسن الختام وحسن المآب.

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٠٥).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢٩).

ونصوص القرآن والسنة شاهدة لهذا المعنىٰ، حيث يبشر الله تعالىٰ الذاكرين به بطمأنينة القلب وراحة البال هنا في الدنيا قائلا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]. وفي الآخرة لهم مزية خاصة، منها الاستظلال بظلال العرش، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه، ومنهم: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»(١)، ومغفرة وأجر عظيم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥].

واستحضار معيّة الله ومشاهدته للعبد مقام رفيع سماه النبي ﷺ بالإحسان، كما ورد في حديث جبريل في معنىٰ الإحسان: «أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك»(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٦) برقم: (٨).

٢٠٠

المحافظة على الحسنات

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «أَوْثِق على جِراب إيمانك، لا يقرِضْه الفأر»[١].

بيـان المفردات

الجِرابُ: وِعاءٌ من إِهابِ الشَّاء، لا يُوعَىٰ فِيهِ إِلَّا يابسٌ[٢].

المعنى الإجمـالي

احرص علىٰ وعاء إيمانك وأعمالك الصالحة، واحذر أن يصل إليها الفأر فيقرضه ويُسقِط ما فيه أو يسرقه فتخسر، وفيه تشبيه للإيمان والأعمال الصالحة بالوعاء أو الكيس، فما يقوم به العبد من الأعمال الصالحة تُسجَّل في صحيفة حسناته، كما يُودِع الإنسانُ ما يحتاجه من القوت والطعام في الجراب قبل الخروج للسفر، حتىٰ إذا أقبل العبد علىٰ الله تعالىٰ في الآخرة تُفتَح صحيفةُ أعماله فتكون سبب خلاصه، كذلك المسافر إذا احتاج إلىٰ طعام وشراب أثناء السفر يفتح جرابَه ويأخذ منه ما يحتاج، فيلزم صاحب الجراب أن يحافظ عليه ويمنع منه الفئران

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٦١).

وغيرها من الحيوانات حتىٰ لا تقرضه وتسرق منه قوتَه، كذلك العبد المؤمن في الدنيا، يجب عليه أن يحافظ علىٰ أعماله القلبية وأعمال الجوارح، ويمنع منها ما يفسدها من أمراض القلوب وشهوات النفوس.

وقد بيَّن النبي ﷺ كيفية أكل أمراض القلوب للحسنات في قوله: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(١)، وقال ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»(٢)، وقال ﷺ: «إياكم وسوء ذات البَيْنِ فإنها الحالقة»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٢٧) برقم: (٤٩٠٣)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٩٥) برقم: (٤٢١٠)؛ والبزار في مسنده (١٥/ ١١٥) برقم: (٨٤١٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٦٠) برقم: (١٤٤٧)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٠) برقم: (٢٥١٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٧٨) برقم: (٢٥٠٨)، وقال: حديث صحيح.

٢٠١

مراقبة السر والعلن

قال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراعاة تورِث المراقبة، والمراقبة تورث خلوصَ السر والعلانية للهِ تَعَالَىٰ»(١).

المعنى الإجمالي

للتربية الإسلامية أثرها في جعل الرقابة سلوكًا عامًا يتصف به المسلم والمؤمن، ولو كان بعيدًا عن القوانين ومراقبة البشر، لأن المؤمن يخاف الله أكثر من أي شيءٍ آخر، ولا يراقب البشر في أعماله حين يرونه فيتقنها، وحين يغيب عن نظرهم يقصِّر فيها أو لا يؤديها، لكنه متقنٌ لعبادته، ومحسنٌ في عمله، ومنضبطٌ في أخلاقه وانفعالاته، ومؤدٍ الحقوق لأهلها دون منٍّ أو أذىً أو مماطلةٍ أو تسويف، يجعل الله حسيبه ورقيبه، شعاره دائمًا: الله مطلعٌ عليَّ، الله يراني.

إن المؤمن لديه ضمير يقظٌ وإحساسٌ عالٍ بمراقبة الله، فهو يقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه:٧]، ويعلم أن الله يراه علىٰ كل أحواله، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

ولكن العبد حين يبتعد عن نور ربه، وهدي رسوله ﷺ فإنه لا يلتفت إلىٰ

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٣١).

مراقبة الله تعالىٰ، بل يخشىٰ الناس كخشيته لله أو أشد خشية، ومراقبته للبشر تكون عند شهادتهم له، لكنه حين يغيب عنهم يفعل ما يشاء، ويُظهر الجانب المضيء في حياته في علانيته بين الناس، وحين يخلو بنفسه يظهر الجانب المظلم وهو الجانب الحقيقي في شخصيته، وما ذلك إلا لخلو قلبه من مراقبة لله تعالىٰ، وعدم خلوص عمله لله وحده في سره وعلانيته.

٢٠٢

مراقبة الله في خطرات القلب

قال ابن مسروق[(١)] رحمه الله: «من راقب الله في خطرات قلبه عصَمَه الله في حركات جوارحه»[(٢)].

بيان المفردات

خطرات: يقال: له خطرات وخواطر، وهو ما يتحرك في القلب من رأي أو معنىٰ، وما لقيته إلا خطرة، وما ذكرته إلا خطرة بعد خطرة، تريد الأحيان[(٣)].

المعنى الإجمالي

مراقبة الله لها مرتبتان؛ **الأولى:** أن يُراقب العبد الله في جوارحه؛ فلا يسمع ولا ينظر ولا يأخذ ولا يمشي إلا إلىٰ ما يريده ويحبه الله تعالىٰ، فالله سميع عليم بصير، لا يعزب عن علمه شيءٌ، ولا يخفىٰ عليه شيءٌ؛ ولذا كان من لوازم الإيمان مراقبة الله تعالىٰ.

---

(١) أحمد بن محمد بن مسروق، أبو العباس، الطوسي، البغدادي، الصوفي، الزاهد، الإمام، شيخ الصوفية وصاحب الكرامات، أقام ببغداد وحدّث بها، توفي سنة ٢٩٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٤٩٤)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٦/ ٣٧٩).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣١٩).

(٣) أساس البلاغة للزمخشري (١/ ٢٥٦).

والثانية: مراقبة الله في خطرات القلب؛ فليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح خواطر القلوب[١]، بل إن مراقبة الله في خواطر القلوب من لوازم الطريق إلىٰ الله تعالىٰ؛ فقد سأل رجل الجنيد رحمه الله «كيف الطريق إلىٰ الله؟ فقال: توبة تحل الإصرار، وخوف يزيل الغِرَّة، ورجاء مُزعِج إلىٰ طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب»[٢].

والخواطر والخطرات التي تمر علىٰ القلب منها الحسن ومنها السيء، فالحسن ما يخطر علىٰ قلب العبد من قول الحق وفعل الخير، والسيء ما يتردد علىٰ القلب فيَصِلُ إلىٰ الفكر فيحدث بينه وبين الحقيقة شكًّا وريبة وترددا، فإن طالت الخطرات ولم يقم العبد بتنقيحها، وإزالة رواسبها وأسبابها فإنها تُبعِد العبد عن اتباع الحق.

ومن الخواطر السيئة التي تمر علىٰ القلب، وينزعج منها المؤمن، ويخشىٰ من قولها، ما يجده العبد من وسوسة الشيطان وإيحاءاته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»[٣].

والعبد المؤمن يراقب ما يجري علىٰ قلبه من الخواطر والخطرات التي تصرفه عن الله، وتجعله متعلقا بحب الشهوات، ومتشبثا بها، وتفرق قلبه في محبة الدنيا وشهواتها؛ وكل ذلك لخطورة تلك الخطرات علىٰ القلب الذي هو معيار الصلاح للعبد باطنا، وتَجلِّي ذلك الصلاح علىٰ جوارحه كلها.

(١) ذم الهوىٰ لابن أبي الدنيا (ص: ٦٦).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٥٢٠).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١٩) برقم: (١٣٢).

إنَّ من رزقه الله مراقبته في خواطر قلبه، فلا يخطر عليه إلا الخير، والفكر في خلق الله، ينشأ عن ذلك تعظيم الله ومحبته، ويكون لذلك عظيمُ الأثر على الجوارح، فيعصمه الله من الوقوع في المعاصي واتباع الهوى.

٢٠٣

مراقبــة الله

قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: «اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه»[(١)].

المعنى الإجمـالي

عرَّف النبي ﷺ مقامَ الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)]. وهو أعلىٰ مقامات الدين، وتأتي المراقبة لتشمل أحوال المسلم كلها في سره وعلانيته، وخلوته وجلوته، في عباداته ومعاملاته.

ولأهمية مراقبة الله تعالىٰ فقد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه الكريم بذكر اسمه الرقيب والعليم والخبير والسميع والبصير، وغيرها من أسمائه الحسنىٰ التي توحي بوجوب مراقبة الله تعالىٰ، فقد بين تعالىٰ أنه يحصي علىٰ العباد كل صغيرة وكبيرة، ويعلم دقائق الأمور وعظائمها، فهو بكل شيءٍ عليم، وبكل شيء محيط، وهو بأعمال عباده خبير لطيف سميع بصير، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم

(١) طبقات الصوفية لعبد الكريم القشيري (ص: ١٧٧). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الأول من الحكمة، وأما شرح القسم الثاني فسيأتي في باب الشكر، الحكمة رقم: (٥٩٨)، وشرح القسم الثالث سيأتي في باب العبودية، الحكمة رقم: (٧٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٦) برقم: (١).

بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة:٦].

إن مراقبة الله تعالىٰ متعينةٌ علىٰ كل عبد مسلم في كل آنٍ وحينٍ؛ ذلك لأن مراقبة البشر لبعضهم تنتهي بانتهاء مراقبتهم، والإفلات من قبضتهم، والتحرر من هيمنتهم، وهم في حقيقة أمرهم بشرٌ يراقبون بشرًا مثلهم، فمهما تقدمت تقنيات مراقبتهم بالوسائل الحديثة فإنهم يعجزون عن معرفة كل شيءٍ يريدونه.

والله ﷻ لا يغيب أحد من المخلوقات عن نظره وعلمه وسمعه طرفة عين، وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك في القرآن في أكثر من موضع، فقال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧].

وباب الإحسان كله يدخل في مراقبة لله تعالىٰ؛ فالإحسان جودة وإتقان للعمل، وهو كذلك رهبة وخوف من الجليل ﷻ من أن يطلع علىٰ عبده وهو في حالة غير مرضية لله تعالىٰ.

والعبد المؤمن يتذكر عرضه علىٰ الله يوم القيامة، فيراقبه في جميع أقواله وأفعاله، وفي سره وعلانيته، وفي غيبه وشهادته؛ وذلك لهول الموقف وعسره وشدته، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٨].

٢٠٤

علاج الرياء

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «غيِّبْ نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغِبْ عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك»(١).

المعنى الإجمالي

حين يلتزم المسلم بأوامر الله ويكثر من طاعته وذكره، لا يلبث أن تظهر آثار ذلك على تصرفاته وكلامه، وعلى أخلاقه وتعاملاته، فيجعل الناس يحبونه ويحترمونه وينظرون إليه نظرة إعجاب وإكبار، بل أيضا يقبلون على سماع كلامه والاقتداء بأفعاله والتأثر به، وهذا من البشريات الطيبة للعبد المسلم بصلاح عمله ورجاء قبوله عند الله، قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»(٢).

بيد أنه قد يدخل على نفس المؤمن توجه خاطئ بأنْ يريد أن يكبر في نظر هؤلاء الناس ويعظم في أعينهم طمعا في مدحهم وعلو شأنه عندهم، وهذه شائبة في جانب إخلاص العمل لله وحده، والله ﷻ هو أغنى الشركاء ولا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه.

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٤٤) برقم: (٢٦٤٢).

وفي هذه الحكمة يبين لنا الإمام ابن عطاء كيف نحمي توجهنا من التطلع إلىٰ نظر الناس وكيف نحافظ علىٰ صدق الإخلاص دائمًا؛ فوسيلة تغييبِ ودفعِ الطمع في نظر الناس إلىٰ صالح أعمال العبد هي أن يستحضر المسلم دائمًا نظرة الله إليه ومراقبته له في الظاهر والباطن، وأنه ما دام الله الذي بيده الضر والنفع ينظر إليه ويراقبه فلا يمكن أن يترقب نظر الناس الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، قال ﷺ: «من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلىٰ الناس»(١).

قال محمد بن أسلم رضي الله عنه: «ما لي ولهذا الخلق؟! كنت في صلب أبي وحدي، ثم صرت في بطن أمي وحدي، ثم دخلت الدنيا وحدي، ثم تقبض روحي وحدي، فأدخل في قبري وحدي، ويأتيني منكر ونكير فيسألني وحدي، فإن صرت إلىٰ خير صرت وحدي، وإن صرت إلىٰ شر صرت وحدي، ثم أوقف بين يدي الله وحدي، ثم يوضع عملي وذنوبي في ميزاني وحدي، فإن بعثت إلىٰ الجنة بعثت وحدي، وإن بعثت إلىٰ النار بعثت وحدي، فما لي وللناس»(٢).

ووسيلة عدم مراعاة إقبال الناس علىٰ العبد تكون باستحضاره لإقبال الله عليه بمحبته ورضاه، وشتان بين محبة الله التي لا يعدلها شيء وبين محبة الناس الزائفة الوهمية، فإذا استشعر المسلم ذلك خلصت نيته واستقام توجهه وصار مدح الناس وإقبالهم أو ذمهم وإعراضهم سواء في عينه ما دام مرضيًّا عند الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢١٣-٢١٤) برقم: (٢٤١٤).

(٢) شرح الحكم للنفزي (١/ ١٢٧).

٢٠٥

ثمـرةُ توقـيرِ الله

قال ابن القيم رحمه الله: «مَن عَظُمَ وَقارُ الله في قلبِهِ أن يعصيَه؛ وَقَّرَهُ الله في قلوب الخلق أن يُذِلُّوه»(١).

المعنى الإجمالي

إنّ العبد إذا عَلِم أنَّ الله عظيم في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، فإنّه يعظّمه سبحانه في الأحوال كلّها، لأنَّ العظيم الرحيم يستحق أن يُعظّم ويُحبّ ويُعبد ويُخاف ويُرجىٰ(٢).

وعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الربّ تعالىٰ في قلب الانسان، وأعرفُ الناس به أشدّهم له تعظيمًا وإجلالًا، وقد ذمّ الله تعالىٰ من لم يعظّمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٣]؛ أي: ما لكم لا تعظّمونه حق عظمته(٣).

ومن مظاهر تعظيم الله تعالىٰ، عدمُ النظر إلىٰ كبر الذنب وصغره في نفس العبد، ولكن ينظر إلىٰ قدر وعظمة من يُعصىٰ، كما قال الأوزاعي رحمه الله: «لا تنظر إلىٰ صغر

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٩).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٨٨٩).

(٣) ينظر: تهذيب مدارج السالكين لابن حريز (ص: ٧٨٥).

المعصية، ولكن انظر إلىٰ عظمة من عصيتَ»[١].

«فينبغي لمن عرف حق عظمة الله أن لا يتكلم بكلمةٍ يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله، إذ هو القائم علىٰ كل نفسٍ بما كسبت»[٢].

فإذا ترك العبدُ معصية الله تعالىٰ تعظيمًا وتوقيرًا وإجلالًا له ﷻ، سيكافئه الله تعالىٰ بأن يوقّره في قلوب الخلق، فلا يقدرون علىٰ إذلاله وتحقيره، وإن آذوه؛ لأن من أعزّه الله فلا مُذل له، فإنّ حظّ كلِّ أحد من رحمة الله يكون علىٰ قَدْر حَظْوَة الله في قلبه.

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤/ ٤٥١).

(٢) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني (١/ ١٤٢).

٢٠٦

بين الحيـاء والخـوف

كتب بعض الصالحين إلى أخٍ له: «استحِ من الله بقدرِ قربِه منك، وخفِ اللهَ بقدر قدرتِه عليك»[(١)].

المعنى الإجمـالي

هذه الوصية الجليلة تروىٰ عن بعض الصالحين، ولا يُعرَف اسم القائل، وفيها إشارة دقيقة إلىٰ كيفية حياء العبد من الله تعالىٰ والخوف منه، وبيان لطريق الوصول إلىٰ ذلك باستحضار معاني القدرة الإلهية وقربه سبحانه من العبد؛ فيقول: استح من الله علىٰ حسَبِ قربه منك واطلاعه عليك؛ فالإنسان عندما يعرف قربَ أحدٍ منه أو يرىٰ أن أحدًا مطلع علىٰ ما يفعله، يستحيي أن يقوم ببعض المنكرات، بل وحتىٰ أفعالٍ تخرم مروءتَه عند ذلك الشخص، خشية الفضيحة أمامه أو سقوطه في عينه، فكذلك الإنسان يجب عليه أن يستذكر أن الله سبحانه مطلع عليه دائمًا في السر والعلانية، ويراه في الخلوة والجماعة، فيستحيي منه، ولا يجعله سبحانه أهون الناظرين إليه، حتىٰ يدفعه ذلك إلىٰ عدم اقتراف معاصي الخلوات وتركِ المنكرات.

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٢٥).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «استَحْيُوا مِن الله حقَّ الحياءِ! قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفَظَ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وتذكُرَ الموت والبِلَىٰ، ومن أراد الآخرةَ ترَكَ زينةَ الدنيا، فمَن فعَلَ ذلك، فقد استحيا من اللهِ حقَّ الحياءِ»(١).

وقريب من معنىٰ الحياء من الله تعالىٰ صفة الخوف منه، بل هو نابع منه ويتلوه، كما قال ﷺ: «إنَّ مما أدركَ الناسُ من كلام النبوة: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»(٢)، وطريق وصول العبد إلىٰ الخشية من الله تعالىٰ هو استذكاره قدرةَ الله عليه، وأنه لا أحد يستطيع أن يمنع قدرةَ الله منه، وأنه في قبضة الله تعالىٰ دائمًا أبدًا يفعل به ما يشاء، يعاقبه متىٰ شاء ويبعث عليه المصائب إن أراد، لا مانعَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه، فالإنسان يجب أن يكون دائما بين رجاء وخوف من ربِّه.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام:٦٥].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٨)، وقال: حديث غريب؛ وأحمد في مسنده (٦/ ١٨٧) برقم: (٣٦٧١)؛ والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٢) برقم: (١٠٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٧) برقم: (٣٤٨٤).

باب المحاسبة

٢٠٧

موافقة القول العمل

قال إبراهيم التيمي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عرَضْتُ عملي على قولي إلا خشيتُ أن أكون مُكذّبًا»[(٢)].

المعنى الإجمالي

لقد ذم الله عَزَّ وَجَلَّ من يخالف فعله قوله، وبيّن أنه أمر يبغضه الله أشد البغض، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣].

وعدم توافق القول مع العمل جعل السلف الصالح يخافون علىٰ أنفسهم من النفاق، وأعْظِمْ بالنفاق من ذنب كبير يخشىٰ الصالحون منه علىٰ أنفسهم، قال ابن أبي مُلَيكة: «أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحدٌ يقول إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل»[(٣)].

(١) إبراهيم بن يزيد بن شريك، أبو أسماء التيمي، الإمام، القدوة، الفقيه، عابد الكوفة، كان من أئمة الكوفة، يروي عن عمر وأبي ذر وأنس والكبار. أخذ عنه: إبراهيم النخعي وجماعة، وحديثه في الكتب الستة، مات في الحبس سنة ٩٢هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (١/ ٣٣٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٦١).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٩٣)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢١١).

(٣) التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ١٣٧).

«وعن أبي وائل عن علقمة قال: وقيل له: ألا تقصُّ علينا؟ قال: إني لأكره أن آمركم بما لا أفعل»[١].

وقال الحسن البصري: «إذا كنت آمرًا بالمعروف فكن من آخذ الناس به، وإلا هلكت، وإذا كنت ممن ينهىٰ عن المنكر فكن من أنكر الناس له، وإلا هلكت»[٢].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٧٢).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢١٠).

٢٠٨

كشف الحقائق الأخروية

قال الحسن البصري رحمه الله: «لو كُشف الغطاءُ لشُغِل مُحسِنٌ بإحسانه ومسيءٌ بإساءته عن تجديدِ ثوبٍ، وترجيلِ شعرٍ»(١).

بيان المفردات

ترجيل شعر: هو تسريحه بمشطٍ، بدهنٍ أو بماءٍ(٢).

المعنى الإجمالي

لو كُشِف الغطاء، وانكشف للناس ما غُيِّب عنهم من أمور الآخرة وحقائق الكون، فرأوه عين اليقين لانشغل كل إنسان بآخرته وإصلاح عملِه، فمن كان مُحسِنًا اشتغل بأعماله تحسينًا لها وتخليصًا من أغراض الدنيا، وتنمية لها بالازدياد منها والإكثار، ومن كان مسيئًا انشغل بإصلاح أعماله السيئة والتوبةِ من أفعاله القبيحة، وإرجاع الحقوق إلىٰ أهلها، وتطهير قلبه من الأدران والجوارح من الحرام. ثم قال الحسن: «... عن تجديدِ ثوبٍ وترجيلِ شعرٍ»، أي: سوف يشغلهم عما لا أهمية له في الآخرة، لأن تسريح الشعر وإصلاح اللباس من أمور الدنيا

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٢) تحرير ألفاظ التنبيه للنووي (ص: ٢٨٥).

وآداب الاجتماع بالناس، ولا قيمة لشعر الإنسان ولا لثوبه في الآخرة، لأن المهم في الآخرة هو أعمال الإنسان، والله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ صور الخلق وملابسهم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبهم وأعمالهم.

ومصداق هذا الكلام في خطاب النبي ﷺ لأصحابه عندما كشف الله له عن بعض الحقائق المغيَّبة عنه وأهوال يوم الحساب، فقال لهم: «والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»(١).

قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٤) برقم: (٤٦٢١)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٢٨) برقم: (٤٢٦)، واللفظ له.

٢٠٩

الاستعداد للحساب

قال مالك بن دينار رحمه الله: «أعِدُّوا للمسألةِ جوابًا، وإلا فهيِّؤوا للنار جِلْبابًا»(١).

بيان المفردات

جلبابًا: الجلباب: قميص وثوب أوسع من الخمار، دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها؛ وقيل: هو ثوب واسع دون الملحفة، تلبسه المرأة؛ وقيل: هو الملحفة(٢).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة أهمية استحضار المرء يومَ الحساب وشدته والاستعداد للمسائلة، حيث يسأل عن كل شيء عمله في الدنيا، ويجد كل عمله حاضرا ومكتوبا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويأمره تعالىٰ

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٧٠٧)، ونسب أبو محمد سهل التُستري (ت: ٢٨٣) الحكمة في تفسيره إلىٰ الحسن البصري باختلاف يسير.

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٧٢).

قراءة كتابه: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٤]، فإن لم يكن جوابه الصحيح حاضرا فليستعد للنار بالجلباب حين لا ينفعه ثوب ولا درع، النار التي سعّرت منذ آلاف السنين كما ورد في حديث أبي هريرة ﵁: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»(١)، فهل من قادر عليها؟!

ولأجل هذا العاقل يستعدّ للحساب مسبقا ويعدّ للسؤال جوابا، ويقوم بما أوجب الله عليه، وينتهي عما نهى الله عنه، ويحاسِب نفسه قبل أن يحاسَب، كما يقول ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(٢)، ويقول عمر بن الخطاب ﵁: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٧١٠) برقم: (٢٥٩١)، وقال: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحدا رفعه غير يحيى بن أبي بكير.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٨) برقم: (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن.

(٣) جزء من الحديث السابق عند الترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٨) برقم: (٢٤٥٩).

٢١٠

قبح الذنوب

قال محمد بن واسع(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ»(٢).

المعنى الإجمالي

جعل الله للطاعات والبر علاماتٍ تظهر على المسلم، وجعل للمعصية علامات كذلك، فقد روى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إن للحسنة نورًا في القلب، وزَيْنًا في الوجه، وقوةً في العمل، وإن للخطيئة سوادًا في القلب، ووَهْنًا في القلب، وشَيْنًا في الوجه»(٣).

ونُقِل عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب

(١) محمد بن واسع بن جابر، أبو بكر، الأزدي، البصري، الإمام الرباني، القدوة، العابد، روى عن أنس بن مالك والتابعين، وروى عنه جماعة، قليل الرواية، توفي سنة ١٢٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ١١٩)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٥/ ١١٣).

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٨٢)؛ والورع لأبي بكر المروزي (ص: ١٦٤)؛ وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري (٢/ ٣٩٣).

(٣) ذم الهوى لابن أبي الدنيا (ص: ١٨١).

الخلق»[١].

ونظرُ المسلم إلىٰ معاصيه بخوفه منها، وتفاديه لها بالتوبة والأوبة والإنابة، يجعله يبعد عن التفاخر والتعالي علىٰ الآخرين بإدلاله بالطاعة، فلا يأمنُ مكر الله، ولا يقنطُ من رحمة الله وعفوه.

وذُكر داود الطائي عند بعض الأمراء، فأثنوا عليه، فقال: «لو يعلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذلّ لنا لسانٌ بذكر خير أبدًا»[٢].

ولو كان للذنوب ريحٌ لما استطاعَ أحدٌ أن يجالس أحدًا، بسبب نتن المعاصي وكره رائحتها، ولكنه ستر الله وعفوه ومغفرته الذي يجلل عباده بستره، فلا يكشفهم إلا إذا تطاولوا عليه، وهتكوا ستره، وجاهروا بمعاصيهم.

---

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص: ١٣٥).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٤٦).

٢١١

الاجتراء على المعصية بنعم الله

قال أبو جعفر المحوَليّ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إليك أشكو بدنًا غُذِّيَ بنعمتك ثم توَثَّب على معاصيك»[(٢)].

بيان المفردات

توَثَّب: الوثوب هو النهوض والقيام، والعامة تستعمله بمعنى المبادرة والمسارعة[(٣)]. وهو المقصود هنا من قوله: ثم توثب على معاصيك؛ أي: قام وسارع في ارتكاب المعاصي.

المعنى الإجمالي

إن الإنسان يتقلب في نعم الله تعالى من رأسه إلى أخمص قدمه، فحيثما تحرك فهو بفضل الله ومعونته، ولو تخلى الله ﷻ عن أحد لحظة واحدة لَهَلك، ولكن أكثر الناس لا يلتفت إلى تلك النعم وتراه غارقًا في شهواته عاصيًا لربه، منكِرًا لفضله،

(١) أبو جعفر المحولي، كان من قدماء العارفين من أهل بغداد، سكن باب المُحَوَّل فنسب إليه، وكان زاهدا عابدًا عالمًا، بقي ستين سنة يصوم النهار ويقوم الليل، توفي بباب محوَّل سنة ٢٢١هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٦/ ٥٩١)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٤/ ٢٦٥).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٤٤).

(٣) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي (٢/ ٥٤٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣].

لو أن إنسانًا أسدىٰ إليك معروفًا لاستحييت أن تقابله بالصدود والنكران، فكيف بالملك الوهاب الذي إليه مرجع كل نعمة وفضل! لو أن الإنسان بقي طول عمره عابدًا ساجدًا حامدًا لربه علىٰ نعمة واحدة لما استطاع إيفاء حق الله في تلك النعمة، فكيف يجرؤ العبد بعد معاينته لكل تلك النعم أن يتنكر لواهبها؟! بل لا يكتفي بعدم شكرها، إنما يستعملها في ارتكاب المعاصي والمنكرات! فالعينان ناظرتان إلىٰ الحرام، واليدان آخذتان ما ليس لهما بحق! والرجلان تمشيان إلىٰ ما نهىٰ الله عنه! والأذنان تستمعان إلىٰ الحرام! واللسان ينطق بالكفر والكلام الفاحش! والبطن يأكل ما حرم الله عليه! والرأس يحوي فكرًا ضارًا يلبس الحق بالباطل، ويفكر في إضلال الناس وإغوائهم! فأين الحياء من الله؟!

ورد في الحديث: «استحيوا من الله حق الحياء»، قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وتذكر الموت والبِلىٰ»[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٨)، وقال: حديث غريب؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٤٢) برقم: (٧٧٣٠). قال النووي: رواه الترمذي بإسناد حسن. ينظر: خلاصة الأحكام للنووي (٢/ ٨٩٤).

٢١٢

تكديس الأموال وسوء الأعمال

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «لا تكن ممن يفضحه عند موتِه ميراثُه، ويومَ حشرِه ميزانُه»[1].

بيان المفردات

يفضحه: يكشف مساويه، والفَضْحُ: فعل مجاوز من الفاضح إلىٰ المفضوح، والاسم الفضيحة والفضوح، وفضح الصبحُ وأَفْضَحَ، إذا بَدا[2].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة ما ينبغي للإنسان الاهتمام به من الإنفاق في سبيل الله والإكثار من الطاعات، فمَن لم ينتبه إلىٰ هذين الأمرين تصيبه الفضيحة في الحال وفي المآل، حيث يتفاجأ الناس عند موته بكثرة الأموال التي كنزها وجمعها وتركها لورثته ولم ينفق منها في سبيل الله شيئا، فيرميه الناس بالبخل وحب الدنيا، هذه فضيحة الدنيا.

وأما فضيحة الآخرة فهي قدومه إليها بدون الطاعات والإنفاق وخلوّ ميزانه من

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٣).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٣٩١-٣٩٢).

الصالحات أمام الله وأمام الخلق أجمعين، ليجد نفسه عرضة لعذاب أليم، كما يقول تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وقد بين النبي صلىٰ الله عليه صفات المفلس الحقيقي يوم القيامة، حيث يقول: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطَىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيتْ حسناته قبل أن يُقضَىٰ ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) برقم: (٢٥٨١).

٢١٣

أكبر مصيبة في المال

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته: يؤخذ عنه كله، ويُسأل عنه كله»(١).

المعنى الإجمالي

المال الذي يسعى الناس لتحصيله والإفادة منه له مصدران؛ إما أن يأخذه العبد من حلال ويجعله في حلال، أو أن يأخذه من حرام ويجعله في حرام، وإما أن يحصل عليه بسعيه وكده وعرق جبينه، أو أن يرثه من وارثه. وهكذا هي الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب(٢).

ولأهمية المال فإن الله تعالى سائل عباده عن مصادر أموالهم، وفيما أنفقوها؛ قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(٣).

وبلاء المال وهمه عظيم لصاحبه في حياته؛ فهو يخشى عليه من النفاد والتلف

(١) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي (ص: ٦١).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٤٧٣).
(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٤٥٢) برقم: (٥٥٤).

والسرقة، وبعد مماته ينتقل من ملكيته إلىٰ ملكية وارثيه، وهذه المصيبة الأولىٰ لمن جمع مالا، ولم يؤد حق الله فيه، فهو كما قال الله عنه: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [المعارج:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة: ٢-٣]، والمصيبة الثانية أنه يحاسب علىٰ المال الذي خلفه وراء ظهره، ويُقبِل علىٰ الله وحيدا فريدا، لا ينفعه ماله إلا ما قدم منه في الخيرات والطاعات.

٢١٤

وزن الأفعال والأحوال بالكتاب والسنة

قال عمرو بن سلمة النيسابوري(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يَتَّهم خواطرَه، فلا يُعَدُّ في ديوان الرجال»(٢).

المعنى الإجمالي

لكل شيءٍ ميزانُه الذي يوزنُ به، وميزان العبد المسلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فيزن بهما أقواله وأفعاله وأحواله حتىٰ الخواطر التي تخطر علىٰ ذهنه، فإنْ وجدها موافقة لما جاء فيهما يحمد الله علىٰ ذلك، وإن وجد نفسه مقصرًا أو معرضًا يصلح أمره ويستغفر ربه.

لقد كان صالحو الأمة يزنون كل أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم بالكتاب والسنة، من ذلك أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ

(١) أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري، وقيل عمر، وقيل سَلْم، الإمام القدوة الرباني، شيخ خراسان، الزاهد، تخرج به عامة الأعلام النيسابوريين، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، توفي سنة ٢٦٤هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٢٩)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٥١٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٠).

وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:٢]، جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال: يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟ قال سعد: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»(١).

ويتبرؤون ممن لا يعمل بأمر رسول الله ﷺ بعد إفهامه وتحذيره، كما ثبت أنَّ قريبا لعبد الله بن مغفل خذف فنهاه، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، وقال: «إنها لا تصيد صيدًا، ولا تنكأ عدوًّا، ولكنها تكسر السن، وتفقأ العين»، قال: فعاد، فقال: حدثتك أن رسول الله ﷺ نهى عنه، ثم تَخْذِف! لا أكلمك أبدًا(٢).

وكذلك من لم يتهم خواطره(٣) بالتقصير والتفريط في التفكير في سفاسف الأمور فإنه ليس معدودًا في ذوي الهمم العالية من الرجال.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٧) برقم: (٤٨٤٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٧٧) برقم: (١١٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٧٢) برقم: (١٩٥٤).

(٣) وهي من قولهم: ما خطر هذا الأمر بقلبي أي لم يلمم به، والخاطر: الفكر، والجمع خواطر. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٥٨٨).

٢١٥

صفات العاقل

قال محمد بن علي الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العاقل من اتقى ربه وحاسب نفسه»(١).

المعنى الإجمالي

العاقل الذكي الأريب الفطن من عمل عملًا يرضىٰ الله به عنه؛ فاتقىٰ الله، ولم يذهب مع نفسه في كل مشتهياتها، ولم يصدق إبليس في تزيينه وإغوائه، ولم يفتتن بدنيا الغرور والفناء، بل أجهد نفسه ونَصَب في طاعة ربه، فهو تقيٌّ قريبٌ من ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو حريصٌ علىٰ محاسبة نفسه علىٰ الصغيرة والكبيرة، ماذا أردت بكلمتي؟ وهل خطواتي التي أخطوها محسوبة لي في الحسنات، أم هي تزيدني شرًا وسوءًا؟

وما خفَّ الحساب علىٰ قوم في الآخرة إلا حين حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وما ثقل الحساب علىٰ آخرين إلا حين تركوا لأنفسهم الزمام فلم يفطموها، فصارت راتعة في حمىٰ الله ومحارمه.

قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٧).

هواها وتمنىٰ علىٰ الله»(١).

ويُروىٰ عن عمر رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة علىٰ من حاسب نفسه في الدنيا». ويُروىٰ عن ميمون بن مهران قال: «لا يكون العبد تقيا حتىٰ يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه»(٢).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن.

(٢) الأثران عن عمر وعن ميمون بن مهران أخرجهما الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦).

٢١٦

صفاء العبودية

قال أبو عمرو ابن نجيد رحمه الله: «لا يصفو لأحد قدَمٌ في العبودية حتى تكون أفعاله كلها عنده رياء، وأحواله كلها عنده دعاوى»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن العبد يعيش بين مخافتين؛ الأولى: أنه يرى كل أفعاله رياء، ولا يدري ما خلص منها، والثانية: أن العبد يرى أحواله التي يثني عليها الناس، أو قد يظنها حقائق واقعة أنها دعاوى، فهي تفتقر إلى البينات والحجج الساطعة، التي تؤيد صدقها وسلامتها.

فلا تكون للعبد قدم راسخة في العبودية، إلا حين يتهم نفسه بالتقصير في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي؛ فهو يرى أن أعماله قد شابها وخالطها الرياء.

ولا يكون العبد عبدًا لله حقًّا وهو يرى أعماله وأفعاله رؤية الممتن على ربه وخالقه، قال الله تعالى عن الأعراب الذين منُّوا على الله بإسلامهم: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]، ثم أخبرهم الله أنه يعلم غيب السموات والأرض، فكيف بما ظهر من

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٤٠).

أعمال العباد، وما خفي في صدورهم وقلوبهم، فهو البصير بما يعملون، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجرات:١٨].

فإن عاش العبد متهمًا لنفسه، خائفًا من موبقات أعماله، وأن أحواله التي يدعيها ليس لها ما يقيم حجتها، ويثبتها بالبرهان الساطع والدليل القاطع، اجتهد ولم ينظر إلىٰ نفسه بعين الرضا، بل بعين الاتهام والخوف، حتىٰ تصفو له الأحوال، ويُكرم بكرم مالك الملك ﷻ.

٢١٧

مفاسد نسيان عيوب النفس

قال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من نسي زَلَّةَ نفسه استعظم زَلَلَ غيره»[١].

بيان المفردات

الزَّلّة: يقال: زَلّ الرجل زلّة قبيحة: إذا وقع في أمر مكروه، أو أخطأ خطأ فاحشا[٢].

المعنى الإجمالي

لا يسلم من الزلات والنقائص إلا الأنبياء المعصومون عن الخطأ، قال ﷺ: «كلُّ ابنِ آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون»[٣]، فقد أثبت الحديث وجود الأخطاء عند كل إنسان، بل كثرة وقوع الخطأ منه، بدليل لفظ «خطّاء» الذي يدل علىٰ تكرر الخطأ مرارا، كما دل الحديث علىٰ الموقف اللازم فعله عند الخطأ وهو الندم والتوبة.

فينبغي للمسلم دائما أن يكون مراقبا لنفسه محاسبا لها، وأن يشتغل بتصحيح

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص:١٣٤).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٩/ ١٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٧٣) برقم: (٢٤٩٩).

عيوب نفسه، ويكون ذلك بالاعتراف والإقرار بذنوبه وأخطائه، ثم الندم والتوبة، ثم المجاهدة أن لا يعود إليها مرة ثانية، مرددا -بلسان حاله ومقاله- دعاءَ الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(١).

فالمسلم مشغول بعيوب نفسه عن عيوب غيره، كما أنه يرىٰ أن ذنبه أعظم من ذنوب غيره؛ لأنه يعلم عن نفسه أنه لا عذر لها ولا مسوغ لارتكاب هذا الذنب إلا الجهل والغفلة والتقصير، بينما الناس قد يكون عندهم ظروف أحاطت بهم من خطأ أو نسيان أو عدم إرادةٍ جعلتهم يقعون في تلك الزلات، فهم ربما يكونون معذورين في خطأهم.

وأما من ترك مراقبة نفسه ومحاسبتها، وعَمِيَ عن عيوبه وزلاته، فسيفتح عينيه علىٰ عيوب الناس وزلاتهم ويراها كبيرة وعظيمة، فيبصِرُ القذاةَ في عين أخيه، وينسىٰ الجذع في عينه(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٧٧) برقم: (٥٠٧٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٨) برقم: (٣٨٧٢).

(٢) الزهد لأحمد (ص: ١٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢١٨

طريقة العارف في السير إلى الله

قال أبو إسماعيل الهروي رحمه الله: «العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنَّة، ومطالعة عيب النفس والعمل»[(١)].

بيان المفردات

العارف: من كان عالما بالله، وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة[(٢)].

المعنى الإجمالي

العارف يسير إلى الله بجناحين لا يمكنه أن يسير إلى بهما، جناح مشاهدة فضل الله سبحانه عليه ونعمه التي لا تحصى، وجناح معرفة حقيقة النفس وعيوبها، وافتقارها لله سبحانه[(٣)]، يرقى بهما إلى أن يلقى الله سبحانه بالإفلاس المحض والفقر الصِّرف -يعني من جهة المعاني والشعور- وهذا من أَجَلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد.

---

(١) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم (١/ ١٠). وقد ورد بمعنى هذه الحكمة وبصيغة قريبة في منازل السائرين للهروي (ص: ١٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢).

(٣) ينظر: الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم (١/ ١٠).

ولذلك كان سيد الاستغفار: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١)، حيث تضمن الاعتراف بعظمة الله سبحانه ونعمه وأفضاله، وبالعبودية له والافتقار إليه والتقصير في حقه، والعجز عن إحصاء الثناء عليه(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٦).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٤٥).

٢١٩

التفريط في استغلال العمر

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حسرة الفَوْت أشدُّ من سكرة الموت، وأوجع الألم حرقة الندم»[(١)].

بيان المفردات

الحسرة: الندم علىٰ ما فات[(٢)].

سكرة الموت: اختلاط العقل لشدة الموت[(٣)].

المعنى الإجمالي

حسرة الإنسان عند موته علىٰ تفريطه وغفلته وتقصيره في حياته وإضاعته الأوقات في غير طاعة الله أشد عليه من سكرات الموت رغم شدتها، والتي عانىٰ من شدتها رسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق، فكان عند موته يُدخل يديه في علبةٍ فيها ماء ويمسح وجهه ويقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ»[(٤)].

وقد أمر الله عباده بالإنابة قبل أن يشعروا بحسرات تفريطهم، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص:١٤٥).
(٢) العين للخليل بن أحمد (٣/ ١٣٤).
(٣) الغريبين في القرآن والحديث للهروي (٣/ ٩١٠).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٧) برقم: (٦٥١٠).

إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٦].

وإن الألم أنواع؛ منه الألم الجسدي، ومنه الألم النفسي، ولكن أشد أنواع الآلام وأصعبها وقْعًا على النفس هو ألم حرقة الندم على التفريط والتقصير في وقت لا يمكن فيه الاستدراك؛ لأن الذي فات لن يعود.

ويصور الله ﷻ حال الذي فرَّط وترك اتباع الرسول كأشد ما يكون عليه من الندم، حتى وصل به الأمر من شدة حرقة الألم أن يعض على يديه، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

٢٢٠

الانشغال بعيوب النفس

روي عن موسى عليه السلام: «لا تشتغلْ بعيوبِ غيرك حتى تفرَغَ من عيوب نفسِك»(١).

المعنى الإجمالي

يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن ينشغل بعيوب الناس قبل أن يتفرغ من عيوبه، ولو أبصر الإنسان عيوبَ نفسه لانشغل بها عن عيوب الناس، لأن المرء مطالَب بإصلاح نفسه أولًا، وسيُسأل عنها سوىٰ غيرها، وقد قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]. وإذا كان العبد بهذه الصفة ارتاحت له النفوس، وكان محبوبًا عند الناس، وجزاه الله بجنس عمله، فيستره ويكفُّ ألسنةَ الناس عنه، أما من كان متتبعًا عيوبَ الناس، متحدثًا بها، مُشنِّعًا عليهم بها، فإنه لن يسلم من بغضهم وأذاهم، ويكون جزاؤه من جنس عمله(٢).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبرَ، فنادىٰ بصوت رفيع، فقال:

(١) أصله الخبر الذي ورد فيه: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام: ... الحديث. ينظر: تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (ص: ١١٣).

(٢) مساوئ الأخلاق، مقالة علىٰ صفحة إسلام ويب.

«يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفضِ الإيمانُ إلىٰ قلبه! لا تؤذوا المسلمين ولا تُعيِّروهم ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»، ثم نظر ابن عمر ﵄ يوما إلىٰ الكعبة فقال: «ما أعظمكِ وأعظم حرمتكِ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»(١).

والعمل بهذه الوصية من سيدنا موسىٰ ﵇ من أنفع الطرق لسد باب الغيبة، كما قيل: «من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره». وقد أوصىٰ النبي ﷺ أبا ذرٍّ ﵁، فقال له: «ليردَّك عن الناس ما تعرف من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفىٰ بك عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تجد عليهم فيما تأتي»(٢).

وروي عنه ﷺ أيضا أنه قال: «طُوبىٰ لمَن شغله عيبُه عن عيوب الناس»(٣).

وليس معنىٰ الحكمة أن الإنسان إذا تفرَّغ عن عيوبه يجوز له أن يشتغل بعيوب الآخرين، لأن هذا الأمر لا يحصل، لأن الإنسان ليس معصوما، ومهما كانت نفسه نقية فإن المنصف لحاله يجد لنفسه عيوبًا كثيرة لا تترك له مجالا بالانشغال بالآخرين، وإذا فرضنا أنه ليس له عيوب أو أنه تفرَّغ من إصلاحها، فهذا لا يعني جواز الغيبة في حق الناس، لأن المراد من الحكمة منتهىٰ الغاية في الزجر عن الخوض في عيوب الآخرين علىٰ جهة المجاز والمبالغة.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٥٤) برقم: (٢٠٣٢)، وقال: حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٨٥) برقم: (٣٩٣٢)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٦٥) برقم: (٣٧٢٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥٢٥) برقم: (٣٦٣). قال الزيلعي: وقد خالف ابن حبان في هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي، فأورده في كتابه الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام، ولا شك أنه تكلم فيه أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث. ينظر: تخريج أحاديث الكشاف لجمال الدين الزيلعي (٢/ ٣٩١).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (١٢/ ٣٤٨) برقم: (٦٢٣٧)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٤٢) برقم: (١٠٧٩).

٢٢١
مقامك عند الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إذا أردت أن تعرف قدْرَك عنده فانظر في ماذا يقيمك»[١].

بيان المفردات

القَدْر: مَبْلغ الشيء وكنهه ونهايته[٢].

المعنى الإجمالي

في هذه الحكمة يعطينا الإمام ابن عطاء الله رحمه الله مفتاحا لمعرفة الإنسان قدْره ومقامه عند الله؛ وهذا المفتاح يتمثل في أن ينظر الإنسان إلى حاله وأعماله؛ فإذا كان ما يقوم به خيرا صالحا يحبه الله ويرضى عنه فهذه علامة على عظيم قدره عند الله، أما إذا كان حاله وعمله مما لا يرضى عنه الله ولا يحبه وكان انشغاله وهمّه في غير طاعة الله فهذه علامة على هوانه على الله.

وقد بيّن الله في كتابه الكريم مراتب المتقين ومقاماتهم، وذكر لنا صفاتهم

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٢).
(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٦٢).

وعلاماتهم، كما ذكر رضاه عنهم ومحبته لهم ورحمته بهم وحسن ثوابهم، وكل مؤمن يتمنىٰ أن يكون من هؤلاء، كذلك الحال بالنسبة لفريق الأشقياء؛ فقد بين الله صفاتهم وذكر سخطه عليهم وسوء عاقبتهم ومصيرهم، وكل مؤمن يحذر أن يكون منهم أو أن يفعل مثل فعلهم.

والمؤمن في محاسبة ومراقبة دائمة لنفسه ليتأكد من تحققها بعلامات الصلاح والتقوىٰ، ويحذر كل الحذر من نسيان محاسبة نفسه، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩]، وروي أن النبي ﷺ قال: «عجبًا لغافل ولا يُغْفَل عنه، وعجبًا لطالب دنيا والموت يطلبه، وعجبًا لضاحكٍ ملءَ فيه ولا يدري أرضىٰ الله أم أسخطه»[1].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (١/ ٢٧٦) برقم: (٤١٥)؛ وابن حجر في المطالب العالية (١٣/ ٦٩) برقم: (٣١١٨).

٢٢٢

الانشغال بخفايا العيوب أولى

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «تشوّفك إلى ما بطَن فيك من العيوب خيرٌ من تشوّفك إلى ما حُجِب عنك من الغيوب»[١].

بيان المفردات

التشوّف: التطلّع[٢].

بطَنَ: من الباطِن وهو الداخل من كل شيء[٣].

حُجِبَ: سُتِر[٤].

المعنى الإجمالي

طريق المسلم في التقرب إلىٰ الله تكون بالتخلي عن الأخلاق الذميمة والعيوب الظاهرة والباطنة، وبالتحلي بالأخلاق الحميدة، فينبغي علىٰ المسلم أن يكون متشوّفًا ومتشوّقًا إلىٰ معرفة عيوب نفسه من أجل التخلص منها، فإذا عرّفه أحد

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤٠).
(٢) مختار الصحاح للرازي (١/ ١٤٧).
(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٦٢).
(٤) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٩٨).

بعيوبه تلقىٰ ذلك برغبة ولهف؛ لأن همه وشغله الشاغل هو إصلاح نفسه وتربيتها.

فالمسلم ينبغي أن يكون مشغولًا في مجاهدة نفسها حتىٰ يهديه الله لطريق محبته ومرضاته ويثبته علىٰ ذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وتشوف المسلم إلىٰ معرفة عيوبه وإصلاحه خيرٌ له وأولىٰ من التشوّف إلىٰ معرفة خفايا القدَر ولطائف العبَر.

وقد يظن المرء إذا قام بجانب من العبادات والطاعات أنه بلغ من التقوىٰ درجةً تؤهله للحصول علىٰ الكرامات ومعرفة أسرار الخلق والكون، وهذا عكس صفة الصالحين؛ فإن الصالحين يغلب عليهم الخوف والوجل لمعرفتهم بجوانب قصورهم ومعرفتهم بحق الله عليهم، قال تعالىٰ واصفا عباده المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠].

فهذه الحكمة من ابن عطاء الله ﵀ تحذر المرء من الجريان مع هوىٰ نفسه فيما تحب وترغب، وإنما يجب أن يكون همه في تحقيق الاستقامة والتطهر من الأخلاق والعادات السيئة، وليس المقصود التنفير من الكرامات والبشريات إذا أنعم الله علىٰ المسلم بها، ولكن يبقىٰ المسلم حذرا من العُجب والاغترار.

٢٢٣

العبرة برضا الله لا برضا الناس

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يُقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم»(١).

المعنى الإجمالي

مطلوب من المسلم أن يدعو إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبلغ رسالة الإسلام، وأن يصدع بكلمة الحق عالية مدوية، وتتفاوت ردود الناس إزاء دعوتهم إلىٰ الخير والهدىٰ، مِن شاكر مستجيب، أو صادٍّ معْرِض، وهذه سنة في أصحاب الدعوات، قال ﷺ: «عُرضت عليَّ الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد»(٢).

وموقف الداعية في حالة عدم سماع الناس لكلامه، وعدم إقبالهم عليه، أو في حالة توجيه الذم إليه، موقفه أن لا يأبه إلىٰ صدودهم وذمّهم؛ لأن علىٰ المسلم أن

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، (٧/ ١٢٦) برقم: (٥٧٠٥ (م))؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٨) برقم: (٢٢٠).

يجتهد في الدعوة ويخلص النية فيها، لكن الاستجابة ليست بيده، فالهداية بيد الله ﷻ، والنبي ﷺ لم يستطع إقناع عمه أبي طالب بالتلفظ بالشهادتين رغم اجتهاده في إقناعه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

فموقف الداعية في هذه الحال أن يعمل مراجعة لنفسه، وينظر إلىٰ رضىٰ الله عنه فيما قام به، فإن كان عمله خالصًا لله، وصحيحًا موافقا لشرعه، فهذا من توفيق الله وفضله، وأما إذا كان عمله مَشوبًا، وكان ما قام به مما لا يرضىٰ عنه الله، فهنا المصيبة الكبرىٰ، وليست في صدود الناس وإعراضهم، ومن أصدق الأمثلة علىٰ هذا ما ورد من دعاء النبي ﷺ بعد عودته من الطائف، حيث إنه لما مات أبو طالب خرج النبي ﷺ إلىٰ الطائف ماشيًا علىٰ قدميه، فدعاهم إلىٰ الله، فلم يجيبوه، فأتىٰ ظِلَّ شجرة فصلىٰ تحتها ركعتين، ثم قال: «اللهم إليك أشكو ضعفي وهواني علىٰ الناس، أرحمَ الراحمين إلىٰ من تكلني، إلىٰ بعيد يتجهمني(١) أم إلىٰ قريب ملكته أمري، فإن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل علي غضبك، أو يحل علي سخطك»(٢).

---

(١) يتجهمني؛ أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٩/ ١٨٠) برقم: (١٦١).

٢٢٤

التغاضي عن عيوب الناس

قال عبد الرزاق القاشاني رحمه الله: «غمّض عيونك من عيوب غيرك تسترَح، وافتح جُفونك في عيوب نفسك تستقم»(١).

بيان المفردات

الجفون: جمع جفن، وهو: غطاء العين من أعلىٰ وأسفل(٢).

المعنى الإجمالي

لا يخلو إنسانٌ من العيوب، فالكمال ليس من صفة البشر، والله عز وجل لا يُحاسب الإنسان إلا علىٰ عيوبه، ولا يسأله عن عيوب الآخرين، قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨]، هذه الحقيقة ينبغي أن تدفع العاقل إلىٰ التفكير في كيفية إصلاح عيوب نفسه؛ لأن هذا ما ينفعه، أما تتبعه لعيوب الناس وعثراتهم فإنه يشغله عن إصلاح عيوبه.

---

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة، رسالة: السوانح الغيبية والمواهب العينية لعبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠٥).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٨٩).

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

المـــرء إن كـــان عـــاقلًا ورِعًـــا أشـغلَه عــن عيــوب غيــره ورَعُــه
كمــا العليــل الســقيم أشــغَلَه عــن وجــع النــاس كلِّهــمْ وجعُــه

ومن انشغل بعيوب نفسه عن عيوب الناس ارتاحت نفسُه، واستقام أمرُه، وجزاه الله من جنس عمله، فستر عيوبه عن الناس. وأما من تتبع عيوب الناس فإن الله يجازيه كذلك من جنس عمله، فيفضحه ولو كان في بيته، عن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادىٰ بصوت رفيعٍ فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلىٰ قلبه، لا تُؤذوا المسلمين ولا تُعَيِّروهم ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبَّع عورةَ أخيه المسلم تتبَّع الله عورتَه، ومن تتَبَّع الله عورتَه يفضَحُه ولو في جوف رحْله»(١).

وقد ذمَّ ﷺ من يبصر عيوب الناس وينسىٰ عيوب نفسه، فقال: «يُبصر أحدكم القَذَاة في عين أخيه، وينسىٰ الجِذْع في عينه»(٢). فضربه مثلًا لمن يرىٰ الصغير في عيون الناس ويعيرهم به، وفيه من العيوب ما نسبته كنسبة الجِذْع إلىٰ القَذاة(٣).

قال الشاعر:

لا تَكْشِـفَنّ مسـاوي النـاس مـا سـتروا فيهْتِــك الله ســترًا عــن مســاويكا
واذكـر محاسـن مـا فـيهم إذا ذكـروا ولا تَعِـب أحـدًا مـنهم بمـا فيكـا(٤)

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٥٤) برقم: (٢٠٣٢)، وقال: حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٧٣) برقم: (٥٧٦١).
(٣) فتح القريب المجيب علىٰ الترغيب والترهيب للفيومي (١٠/ ١٠٩).
(٤) الأبيات للشَّطَني. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (١/ ٤٧٣).

وذُكِر عند الربيع بن خُثَيْم رجلٌ، فقال: «ما أنا عن نفسي بِراضٍ فأتفرغ من ذمها إلىٰ ذم الناس، إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد، وأمِنوا علىٰ ذنوبهم»(١).

وقد كان السلف ينشغلون بعيوبهم ويحبون من ينبههم عليها، فكان عمر رضىٰ الله عنه يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه(٢).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٧٢).

(٢) ينظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي (ص: ١٥٧).

٢٢٥

إساءة الظن بالنفس

قال ابن القيم رحمه الله: «لا يُسيءُ الظّنَّ بنفسه إلّا مَن عرفها»[(١)].

المعنى الإجمالي

خلق الله سبحانه النفس وجعل طبعها الجهل وحبَّ الشهوات والميلَ إليها، فهي تنزع دائما إلىٰ كل ممنوع، وتستعمل قوىٰ الجسد وجوارحه في سبيل إتيان الشهوات، وتظن أن السعادة والمتعة فيها، ولا تدرك أنها مؤقتة يتبعها الهم والغم.

فالذي يعرف حقيقة نفسه يسيء الظن بها ويجعلها دائما في موضع الاتِّهام، ويَحذَر من أن توقعه في شيء مما تدعو إليه لئلا يصير أسيرًا لها مكبلًا بشهواتها؛ وذلك لأن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها.

أما من يجهلها، فإنه يُحسِنُ الظَّنَّ بها، فيقع في شَرَكِها؛ لأن حسن الظن بها ذريعة إلىٰ تحكيمها، وتحكيمها داع إلىٰ سلاطتها وفساد الأخلاق بها[(٢)].

ومن جميل إشارة ابن القيم رحمه الله إلىٰ هذا المعنىٰ الوارد في قوله تعالىٰ علىٰ لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٦٣).
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٣٤).

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٣]. قوله: وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قذف به أخبر عن حال نفسه، وأنه لا يزكيها ولا يبرئها، فإنها أمارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته[١].

(١) التفسير القيم لابن القيم (ص: ٣٣٠).

باب النفس وإصلاحها

٢٢٦

مقتُ النفس

قال أبو بكر الصديق[١] رضي الله عنه: «من مقت نفسه في ذات الله آمَنَه الله من مقته»[٢].

بيان المفردات

مقت: المقت هو أشدّ البغض[٣].

المعنى الإجمالي

إن النفوس جبلت علىٰ حب الدنيا واتباع الهوىٰ، وطول الأمل، زاهدة في الآخرة، يخف عليها السعي والكدّ في طلب الدنيا، وتفتر عن فعل الخير الموصل

(١) عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، التيمي القرشي، أبو بكر، أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال، سيد من سادات قريش، عالم بأنساب القبائل وأخبارها وسياستها، بويع بالخلافة سنة ١١هـ فحارب المرتدين ومانعي الزكاة، مدة خلافته سنتان و٣ أشهر، ولد بمكة سنة ٥١ق هـ توفي بالمدينة سنة ١٣هـ. ينظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٧/ ١٦٣)؛ الأعلام للزركلي (٤/ ١٠٢).

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٧٢)؛ المنهيات للحكيم الترمذي (ص: ٣٥)؛ ولكن رويت هذه الحكمة عن الفضيل بن عياض، كما في أدب النفوس للآجري (ص: ٢٥٦)؛ ونسبها في حلية الأولياء إلىٰ محمد بن واسع. ينظر: الحلية لأبي نعيم (٢/ ٣٥٠).

(٣) ينظر: النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب لابن بطال (١/ ٣٧).

إلىٰ رضا الله، تركن إلىٰ وعد الشيطان بالفقر فتكف عن النفقة في طاعة الله، ولا تثق بوعد الله في الزيادة، فالنفس التي تجمع كل هذ الصفات القبيحة حَرِيَّةٌ أن يمقتها صاحبها ويسلك في مجاهدتها كل السبل حتىٰ تستقيم، وأن يحاسبها علىٰ تقصيرها، فلا ينظر إليها بعين الرضا؛ حتىٰ لا تركن إلىٰ التفريط والتقصير، بل ينظر إليها بعين المحاسب الشحيح الذي يحاسب شريك تجارته حسابًا دقيقًا؛ فمن فعل ذلك مع نفسه من أجل رضا الله أَمَّنَه الله مما يخاف ويحاذر.

وكم من أناس رضوا عن أنفسهم فلم تبلغ بهم المعالي، بل زينت لهم أنهم خير الخلق وأقربهم عند الله، فأهلكتهم. وهناك فئة قليلة من عباد الله الصالحين مقتوا أنفسهم ووبخوها، فقوَّموا اعوجاجها، ورأبوا صدعها، وأزالوا خللها، ولو أنهم نظروا إليها بالإعجاب لما تقدموا في عبادةٍ ولا خيرٍ ولا برٍّ ولا علم أبدًا.

عن أنس بن مالك ﵁ قال: سمعت عمر بن الخطاب وخرجت معه حتىٰ دخل حائطًا فسمعته وهو يقول -وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط-: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخ بخ! والله يا ابن الخطاب لَتَتَّقِيَنّ الله أو لَيُعَذِّبَنَّك»(١).

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٥/ ١٤٤٣) برقم: (٣٦٣٨).

٢٢٧

إصلاح النفس مَهمة نبيلة

قال أبو الأبيض العنسي[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «لم تُكَلَّف من الدنيا إلا نفسًا واحدة، فإن أنت أصلحتها لم يضرُّك فساد من فسد بصلاحها، وإن أنت أفسدتها لم ينفعك صلاح من صلح بفسادها»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إنَّ من المعيب على العبد أن يسعى إلى إصلاح غيره وهو لم ينشغل بإصلاح نفسه وتزكيتها وإبعادها عما يضرها من المعاصي والآثام والشرور؛ فإن كل إنسان مكلف بإصلاح نفسه أولًا، وإصلاحها فرض عين عليه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم:٦]، فالأمر من الله جاء أولًا بوجوب وقاية كل إنسان نفسه من النار.

وليس معنى ذلك أن ينكفئ العبد على إصلاح نفسه، ثم يترك محاولة إصلاح ونصح من حوله من أهل بيته وأقاربه ومن يلوذ به، بل الإنسان مسؤول عن إصلاح

(١) أبو الأبيض العنسي الشامي، لا يعرف اسمه، تابعي، ثقة، روى عن حذيفة بن اليمان وأنس، روى عنه ربعي بن حراش وإبراهيم بن أبي عبلة ويمان بن المغيرة، قتل في غزوة الطوانة سنة ٨٨هـ. ينظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٦/ ٢٩٣)؛ تهذيب التهذيب لابن حجر (١٢/ ٣).

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٢).

نفسه أولًا، ثم يجب عليه نصح غيره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن ما فائدة الاهتمام بإصلاح غيره إن أهمل الإنسان نفسه!

وقد بين الله تعالىٰ مسؤولية الإنسان عن نفسه، وأنه لا يضره فساد غيره إن قام بما طلبه الله منه، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]، هذا أمر من الله للمؤمنين بالاهتمام بإصلاح أنفسهم، وأنهم إن أصلحوها وقاموا بما أوجب الله عليهم من الدعوة والنصح والإرشاد فلا يضرهم بعد ذلك انحراف وضلال الناس، وليس معنىٰ الآية ما فهم منها بعض الناس من أنه لا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن من أصول الهداية الوارد في الآية هو الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قال أبو بكر رضي الله عنه: يا أيها الناسُ، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها علىٰ غير مواضعها: ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]، -قال عن خالد-، وإنا سمعنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا علىٰ يدَيه أوشك أن يعُمَّهم الله بعقاب». وقال عمرو، عن هُشَيم: وإني سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يَقدِرُونَ علىٰ أن يُغيِّروا، ثم لا يُغيَّروا إلا يوشِكُ أن يعمَّهُمُ الله منه بعقاب»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٦/ ٣٩٣-٣٩٤) برقم: (٤٣٣٨)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٤٠) برقم: (٢١٦٨)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٢٠٨) برقم: (٣٠)؛ وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٤٣) برقم: (٤٥١١).

٢٢٨

مجاهدة النفس

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَسكن إلى نفسك وإن دعتك إلى الرغائب»[١].

بيان المفردات

الرغائب: الرغيبة هي: العطاء الكثير الذي يُرغب في مثله، والجمع رغائب[٢].
والمقصود: النوافل وأعمال البر والخير.

المعنى الإجمالي

الرضا عن النفس أصل كل معصية؛ لأنها أمارة بالسوء، والسبيل إلىٰ رضا الله ﷻ هو اتهام النفس وعدم الرضا عنها، فإنها وإن أمرت بما ظاهره الخير والصلاح فلا بد أن يكون وراء ذلك شهوة خفية، ومعصية تُذهِب أجر تلك الطاعة؛ كالكبر والرياء والعجب، وقد تخفىٰ دسائس النفس إلىٰ حيث تأمر بخير وتضمر فيه شرًّا، ولا يفطن لدسائسها إلا الموفق، ولذلك قال البوصيري:

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٦).
(٢) جمهرة اللغة لابن دريد (ص: ٣١٥).

وخـالف الـنفس والشـيطان واعصـهما وإن همـا محَّضـاك النُّصْـح فـاتَّهِمِ(١)

فمهما بلغ الإنسان وارتقىٰ في درجات الطهر والصفاء من خلال مجاهدته لنفسه، فستبقىٰ نفسه نزّاعة إلىٰ شهواتها وأهوائها، وما دامت كذلك فلا يمكن للإنسان أن يصدقها ويأمنَها؛ لأن السكون إليها والاطمئنان لها، والرغبة في تلبية مطالبها، وترك مجاهدتها ومراقبتها ومحاسبتها يجعلها تستهوي كل شيءٍ من الشهوات مما حلَّ أو حرُم، ولذلك كان وصف العجز والعاجز لمن ترك لنفسه العنان تأخذ ما اشتهت وصفًا مناسبًا لمن كان هذا حاله(٢).

(١) البردة للبوصيري (ص: ٤٤).

(٢) ولفظ الحديث: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله». أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٢٣) برقم: (٤٢٦٠).

٢٢٩

من ملك نفســـه فقد عَـزّ

قال محمد بن الفضل[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنْزِل نفسك منزلةَ مَن لا حاجة له فيها ولا بد له منها؛ فإن من ملك نفسه عزّ، ومن ملكته ذَلّ»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

إن العبد العاقل من يعرف قيمة نفسه؛ فلا يرفعها مكانًا عليًّا، ولا يهملها فتضعه مواضع الردىٰ والهلاك، فهو يرىٰ أنه محتاج إليها ليسير بها إلىٰ الله سير الصالحين الأبرار، وهو يخشىٰ من تبعات متابعة النفس في كل هوىٰ تهواه، وشهوة ترغب فيها؛ فإن اتباع هوىٰ النفس بغير هدىٰ من الله ضلال، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠].

إن كثيرًا من الناس من لا يأنفون ولا يتأففون أن يكونوا أذلةَ صاغرين لأنفسهم؛ فلا يرون بأسًا في اتباع أنفسهم، ولو كان ذلك علىٰ حساب منزلتهم عند

(١) محمد بن الفضل بن العباس، أبو عبد الله، البلخي، ثم السمرقندي، الصوفي، من أجلة مشايخ خراسان، صحب ابن خضروية وغيره من المشايخ، أخرج من بلخ بسبب المذهب فنزل سمرقند وبها توفي سنة ٣١٩هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٣)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٣).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٣)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٣).

الله تعالىٰ، وأحيانًا ترديهم فلا تبقي لهم منزلة أو قيمة ذاتية يعتزون بها بين قومهم وبني جنسهم.

والعقلاء هم من يلجمون أنفسهم، ويخطمونها بخطام الحق والصدق، فيعطونها ما يكون به قوامها، وهذا ما منه بدٌّ، لكنهم لا يرخون لها الزمام فتستريح، وتلقي بهم في مهاوٍ لا قعر لها ولا قرار؛ فإن من ملك نفسه عزَّ، ومن ملكته ذل وشقي، وقد شبه الله من اتبع هواه بأَخَسِّ الحيوانات، فقال: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف:١٧٦].

٢٣٠

النفس أخطر من الشيطان

قال أبو عمرو الدمشقي رحمه الله: «الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان».(١)

المعنى الإجمالي

للنفس أهميتها وخطورة شأنها؛ فهي التي تتزكىٰ، أو تتَدَسّىٰ، وهي التي تعلو بصاحبها حين تكون راضية مطمئنة، وهي التي توقعه في حمأة المعاصي حين تكون أمارة بالسوء، وهي التي تُتعِب صاحبها حين يجاهدها لتعلو، وهي التي تشده إلىٰ الأسفل حين تكون النفس لوّامةً، فالخوف الحقيقي يجب أن يكون من النفس؛ لأنها أعدىٰ أعداء الإنسان، فهي التي تردي صاحبها وتدفعه إلىٰ الهلكة.

وينبغي أن يكون الخوف منها أشد من الخوف من الشيطان؛ فإن الله قد ذكر في كتابه أن كيد الشيطان ضعيف، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، بينما ذكر أن النفس أمّارة بالسوء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وأمّارة صيغة مبالغة تدل علىٰ الإصرار والتكرار، ولذلك كانت أشد خطرًا من الشيطان.

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي (ص: ٩٧)؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٢).

والشيطان ما درج على إغواء بني آدم إلا حين وجد أنفسًا قابلة للمعاصي والفجور، فما قتل قابيل أخاه هابيل إلا بتطويع نفسه لقتل أخيه، قال الله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٣٠]، وفي يوم القيامة حين يتبرأ الشيطان من أتباعه الغافلين من بني آدم، يذكرهم أن خطأهم في اتباعه لم يكن منه، وإنما من أنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢].

باب التحذير من اتباع الهوى والشهوات

٢٣١

وبال المعصية

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «رُبَّ شَهوةٍ تُورِثُ حُزنًا طويلًا»[(١)].

بيان المفردات

الشهوة: مصدر بمعنى الرغبة والحب للشيء، منه شهي الشيء يشهى شهوة أي أحبه ورغب فيه، وهذا معنى عام، وفي المعنى الخاص أطلقت على المعاصي التي يضمرها صاحبه ويصر عليها[(٢)].

المعنى الإجمالي

تشير هذه الحكمة إلى معنى دقيق في حياة الإنسان إن يستحضره دائما في قلبه يسهل عليه معالجة نزعات نفسه وميلها لاتباع الشهوة والمعصية، ألا وهو أن شهوة ساعة في معصية الله واتباع الهوى في مخالفة ما أمر به ﷻ ينتج ندم العمر، ويورث حزنا طويلا في الدنيا والآخرة. وكم من شخص خضع لشهواته وانقاد لغرائزه دون

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية هكذا (١/ ١٣٤)، وأما في روايات أخرى وردت بزيادة كلمة: "ساعة"، أي: رُبّ شهوةٍ ساعةٍ تورث...، ينظر: الزهد لابن المبارك (ص:٩٨)؛ الزهد لهنّاد السَّري (١/ ٢٨٧)، وهذه الحكمة رويت عن عدد من أصحاب الرسول ﷺ؛ منهم علي بن أبي طالب وحذيفة بن اليمان ﷺ أجمعين.

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٤٤٥).

حساب لها، فما أفاق إلا وقد ضاعت دنياه وأضاع آخرته، وإذا المرء يجري وراء كل شهوة لا يكسب إلا بالعار والذلة، فيجب علىٰ العاقل أن يتأمل ويمسك لجام هواه، لأن خير خصال المرء طاعة ربه، ولا خير فيمن كان لله عاصيا.

وينبغي علىٰ المؤمن والمسلم استحضار ما روي عن النبي ﷺ في توصيف طريق الجنة والنار بأنه: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات»[1]، فاتباع الشهوات يقرب المرء إلىٰ النار وتحمّل المكاره في سبيل الحق يقربه إلىٰ الجنة.

والشهوة ليست منحصرة في المعصية فقط، بل في كل ما يشتهيه الإنسان كما سلف في المعنىٰ اللغوي، وقد تكون في الحلال وليست عيبًا، ولكن ينبغي أن لا ينشغل بها عن عبادة الله ومقصد خلقه فيقع في قوله تعالىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٤) برقم: (٢٨٢٢).

٢٣٢

ذل أصحاب الشهوات

روي عن علي بن أبي طالب[(١)] رضي الله عنه: «عبدُ الشهوةِ أذلُّ مِن عبدِ الرِّقّ»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الإنسان الذي اتبع شهوتَه وأطاعَ نفسَه بمخالفة الشرع، أذل عند ربِّه أكبر من ذلة العبد الرقيق المملوك في أعين الخلق.

وتفصيل ذلك، أنه ليس هناك عبودية تسيطر على الإنسان كما تستعبد شهوةُ الإنسان نفسَه، ومتى ما حصل عنده شهوة المال أو شهوة الجاه، لا يعود يسمع: هذا حلال وهذا حرام، لأنه أصبح عبدًا لشهوته، ولا رِقَّ أملكَ من الشهوة، والإسلام يريد من الإنسان أن يكون مالك نفسِه، لا أن تكون نفسُه سيدًا عليه، والله تعالى

---

(١) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، يكنى بأبي الحسن وبأبي تراب، أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين، أحد المبشرين بالجنة وأول المسلمين من الصبيان، وقيل من الذكور، ابن عمّ رسول الله ﷺ وصهره بابنته فاطمة، وقد شهد بدرا والمشاهد جميعها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك، ولد ٢٣ قبل الهجرة واستشهد سنة٤٠هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٧)؛ أسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٨٧).

(٢) هذا مثل مشهور على ألسنة العلماء وأرباب السلوك، وقد نُسب إلى سيدنا علي رضي الله عنه. ينظر: نثر الدر في المحاضرات لأبي سعد الآبي (١/ ١٩٣)؛ والتمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص: ٤٥٥)؛ والإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص: ٣٧).

أعطاه الحرية ووصَّاه أن يحافظ عليها، ثم يذهب هو في ترقيق نفسه لشهواته، فليس أذلَّ منه، بل عبد الرقِّ غير ملام لعبوديته، لأنه لم يختر لنفسه أن يكون عبدًا، فهو معذور، بخلاف الإنسان الحر الذي أرقَّ نفسَه باختياره وإرادته. فإذا كانت شهوة الإنسان موافقة للشرع، ارتفع وعلا، فإن خالفته، نزل وذلَّ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨]، وإن عظَّمه الناس في الظاهر لحاجتهم إليه أو خوفًا من شرِّه، فهو في قلوبهم أحقر شيءٍ وأهونُه(١).

والمعصية تورِث الذلَّ، ولا بد؛ فإن العزَّ كل العزِّ في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، أي: فليطلبها في طاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته(٢).

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص: ١٤٤).
(٢) الداء والدواء لابن القيم (ص: ١٤٦).

٢٣٣

تزيين الشيطان للذنب

قال عكرمة مولى ابن عباس[١] رضي الله عنهما: «إن الشيطان ليُزَيِّن للعبد الذنب حتى يَكسَبه، فإذا كسبه تبرأ منه»[٢].

المعنى الإجمالي

أُولىٰ خطوات الشيطان في إغوائه للعبد تزيينه العمل السيء؛ حتىٰ يصير في نظر العبد حسنًا، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨]، ولا يستطيع الشيطان إغواء مَن عنده بينة وحجة واضحة كإغوائه لمن لا بينة له ولا حجة، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴾ [محمد:١٤].

إن الشيطان يزين للعبد سوء عمله فيراه حسنًا؛ فيريه الجراءة في إيذاء الناس شجاعة وجسارة، ويريه ترك القول الأحسن في التخاطب مع الناس بأنه عزة

(١) عكرمة بن عبد الله البربري ثم المدني، أبو عبد الله، مولىٰ ابن عباس، من أعلام التابعين وفقهاء مكة، أصله من البربر من أهل المغرب، وكان عبدا لحصين بن الحر العنبري فوهبه لابن عباس، فاجتهد في تعليمه وأجازه للإفتاء، توفي سنة ١٠٧هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٢٦٥)؛ الأعلام للزركلي (٤/ ٢٤٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٣٤).

واستعلاء وبُعدٌ عن الذلة والمهانة، ويريه الوقوع في الحرام أنه ترويح عن النفس، ويريه الكذب والخيانة بأنها حفظ للنفس ودفاع عن مصالحها، لكن ما إن يقع العبد في المعاصي ويتجرأ عليها يومًا بعد آخر، ويكسبه الشيطان إلىٰ صفه، ويصبح داعيًا غيره إلىٰ ما وصل إليه، ثم يقع في مآزق كبيرة في حياته، يتمنىٰ المخلِّص والمنقذ، فلن يجد إلا أن يواجه جرمه بنفسه، ويتحمل تبعات ما اقترفه، بعد أن تبرأ منه الشيطان ومن أفعاله.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر:١٦].

٢٣٤

الشهواتُ صادَّةٌ عن العبادة

قال شميط بن عجلان رَحِمَهُ اللهُ: «بئس العبد عبدٌ خُلِق للعبادة فصدته الشهوات عن العبادة»(١).

المعنى الإجمالي

خلق الله عباده لغاية عظمىٰ، ومهمة كبرىٰ، وهي عبادته عبادةً لا يشركون معه شيئًا، ولقد نادىٰ الله تعالىٰ الناس جميعا وأمرهم بعبادته فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]. وأخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن الجن والإنس ما خلقوا إلا لعبادته فقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. فأجاب قليل من الناس لأمر الله تعالىٰ فعبدوه، وأسلموا وجوههم له، وعملوا بكل ما تقضيه العبادة بمفهومها الشامل.

لكن كثيرًا من الناس جعلوا همهم وغايتهم إشباع شهواتهم؛ فيغترفون من شهوات الدنيا دون خوف أو وجل من الله، فعاشوا لها وسعوا وكدُّوا من أجلها، فوصلوا إلىٰ ما تمليه شهواتهم، لكنهم لم يصلوا إلىٰ ربهم وخالقهم. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٩).

يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢]. فإن الشهوات تصد وتمنع العبد من أداء العبادة أولا، أو من أدائها علىٰ ما يحب الله ويرضاه، والشهوات مختلفة ومتنوعة؛ فمنها شهوات البطن والفرج، والنظر إلىٰ ما حرَّم الله.

٢٣٥

كمال الإيمان بإيثار الدين على الشهوة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لن يستكمل عبدٌ الإيمان ولا يكون مؤمنًا حقًّا حتى يُؤْثِر دينَه على شهوته، ولن يَهلِك عبدٌ حتى يُؤثر شهوتَه على دينه»[1].

المعنى الإجمـالي

إن سلوك طريق التدين والالتزام أصبح صعبًا في هذا الزمن؛ وذلك لأن الفساد الأخلاقي قد انتشر في البيئات، والسُعار المخيف نحو الشهوات؛ فلا يسلم العبد من بلية إلا وجاءت بلية أخرىٰ، ولذلك تجد أصحاب الشهوات يسعون جاهدين في إضلال العباد ومحاولة جرّهم إلىٰ أتون الشهوات، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٢٧].

إن السعيد من ينجو من كل هذه الابتلاءات، فيؤثر دينه علىٰ شهوته، فيستكمل بذلك إيمانه، وينتصر علىٰ أهوائه وشهواته، وفي ذلك من الأجر والجزاء العظيم ما لا يخطر علىٰ بال، وقد جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا

(١) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١/ ٣٧٤)؛ وورد في طبقات الصوفية قريب من هذا القول عن السري السقطي. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٥٨).

ظله: «ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله»(١).

فلن يستكمل العبد مؤهلات الرُّقيّ في سُلَّم العبودية الكاملة لله تعالىٰ حتىٰ يؤثر دينه علىٰ شهواته؛ فإن زيَّن له الشيطان الدَّعَة والراحة والنوم وترك الصلاة في اليوم البارد فإنه يعصيه، ويجيب داعي الصلاة والفلاح، ويسارع في فعل الخيرات، فيتلمس أحوال الضعفاء والمساكين ليعينهم ويقدم لهم النفع والعون، وإن خوَّفه الشيطان من الفقر فإنه يعصيه، وهكذا يُقدِّم العبد دينه علىٰ شهواته كلها.

وبالمقابل فلن يتحقق لعبدٍ السقوط والهلاك في دينه ودنياه إلا حين يرىٰ أن شهواته أولىٰ من دينه؛ فيؤثر الرذيلة علىٰ الفضيلة، والشر علىٰ الخير، والمنكر علىٰ المعروف، وكل ما يغضب الله ويسخطه علىٰ ما يحبه ويرضاه؛ قال يحيىٰ بن معاذ: «يا ابن آدم، لا يزال دينك متمزِّقًا ما دام قلبك بحب الدنيا متعلّقًا»(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٦٣) برقم: (٦٨٠٦).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٤).

٢٣٦

الإفـراط والتفريـط

قال عبيد الله بن محمد بن عائشة[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أمر الله سبحانه بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيّهما ظفِر»[(٢)].

بيـان المفردات

نزغة: إفساد وإغراء، يقال: نزَغ الشيطانُ بَيْنَهُمْ يَنزَغُ ويَنزِغُ نَزْغًا أي أَفسد وأَغرىٰ، ونزْغُ الشيطانِ: وسَاوِسُه ونَخْسُه فِي الْقَلْبِ بِمَا يُسَوِّلُ للإنسان مِن المعاصي[(٣)].

المعنى الإجمـالي

تشتمل الحكمة علىٰ بيان مكائد الشيطان وأنواعها مع العباد، منها ما يوسوس به الإنسان فيما أمر الله تعالىٰ لفعله وإنجازه، لأنه يعرف أن هناك من العباد من

(١) عبيد الله بن محمد ابن عائشة، اسم جده حفص بن عمر، والعائشي والعيشي نسبة إلىٰ عائشة بنت طلحة لأنه من ذريتها، ثقة جواد، الأخباري، توفي سنة ٢٢٨هـ. ينظر: تقريب التهذيب لابن حجر (ص: ٣٧٤)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٦/ ٣٤٨).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١١٦)، ولكن ذكرها عن بعض السلف، ونسبها إلىٰ ابن عائشة في كتاب (الصلاة)، بلفظ مختصر.

(٣) لسان العرب لابن منظور (٨/ ٤٥٤).

سيطيع هذه الأوامر ولا يقع في فخه لعصيانها، فيأتي بمكيدة أخرىٰ وهي إفسادها عليه بنزغة الإفراط أو التفريط، فإما أن يفسده بالتقصير والكسل عن أداء القدر المطلوب إذا وجد في الإنسان فتورا وتوانيا وإما أن يغريه بتجاوز الحد إذا وجد فيه همة ونشاطا، وللشيطان في كليهما نجاح لتمكنه علىٰ العبد بمخالفة إتيان ما أمر به الله تعالىٰ كما ينبغي أن يؤتىٰ، فلا يبالي بأيهما ظفر.

والشرع قد نهىٰ عن الإفراط والتفريط كليهما، وأمر بالاقتصاد والعدل في الإتيان بالمأمورات أيضا، والاعتدال في الأمور والتوسط فيها خير دائما حتىٰ في الأمور الدنيوية، فضلًا عن الأمور الدينية التي يطالب فيها الإنسان أن يتبعها كما وردت ولأجل ما وردت وبكيفية ما وردت، وقد مدح الله تعالىٰ أهل التوسّط قائلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان:٦٧]، فينبغي للإنسان أن يعتدل في أموره وأمور الدين ويستقيم فيها دون إفراط وتفريط.

٢٣٧

لا معرفة مع صحبة الشهوة

قال أبو يزيد البسطامي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَعرِف نفسه من صَحِبَتْه شهوته»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن العارف بربه، ثم العارف بنفسه هو من هذَّبَ نفسه وطهرها وزكاها، وجعلها بعيدة عن مواضع الشهوات وأسبابها، والعارف بنفسه يعرف كل ما يصلحها ويفسدها، وما ينفعها ويضرها.

وبقاء الشهوة في العبد مستعرة دون أن يسعىٰ إلىٰ معرفة أسبابها ليجد دواء ناجعًا لشهوته يدل علىٰ عدم معرفة العبد لنفسه معرفة حقيقية؛ إذ لو كانت لديه معرفة لَعَلِم موضع الداء، وعلم الدواء النافع لاستئصاله؛ ليحيا مع الله حياة طيبة.

ومصاحبة الشهوة للعبد والْتِذَاذِه بذلك مضرةٌ له، وفسادٌ لدينه ودنياه، ويدل كذلك علىٰ عدم معرفته بنفسه، وتركه لها تقوده إلىٰ الشهوات مرة بعد أخرىٰ.

وليست الشهوة المقيِّدة للعبد هي شهوة الفرج فحسب، بل كل شهواته التي تزينها النفس، وتوقعه بها في مواقع الزلل والغواية؛ فكثرة الكلام بغير فائدة شهوة، وكثرة الطعام والشراب في إسرافٍ شهوةٌ، وكثرة المخالطة للناس في غير نفع شهوةٌ،

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٠٤).

وإطالة النظر إلىٰ المحرمات شهوةٌ، يقع أثرها علىٰ القلب فتدميه، وتَنْكتُ فيه نُكتًا سوداء من المعاصي.

ولقد كان النبي ﷺ مهتمًّا بعلاج أسباب الشهوات؛ فجعل سببيها الرئيسين اللسان والفرج، وجعل ثمن ضمانهما الجنة؛ عن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لَحَيْيه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٠) برقم: (٦٤٧٤).

٢٣٨

اتباع الشهوات سجن وحرمان

قال أبو محمد الجريري[(١)] رحمه الله: «من استولت عليه النفس صار أسيراً في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرَّم الله على قلبه الفوائد»[(٢)].

المعنى الإجمالي

العبد خاضعٌ لربه لا لسواه، فإن لم يكن العبد لربه مستسلمًا مذعنًا فإن الأعراض الصادَّة عن الله من نفس وهوىٰ، ودنيا وشيطان تتحكم فيه، وتجعله أسيرًا لشهواته ذليلًا.

فالنفس ألدُّ الأعداء للعبد؛ إذ تحبب إليه الشهوات، وتخيفه من تحمل المسؤوليات والمكارم، فإنْ أجابها واتبعها فيما تزيّنه له فإنها تكون هي الآمرة الناهية، فلا يأتمر أو ينتهي إلا وفق ما تمليه عليه نفسه، فيصبح أسيرًا لها، ويغرق في شهواتها، ويسجن في سجن هواها، لا يستطيع الفكاك إلا حين عودته وأوبته إلىٰ الله

(١) قيل: اسمه أحمد بن محمد بن حسين، وقيل: عبد الله بن يحيىٰ، وقيل حسن بن محمد، أبو محمد الجَرِيري، الزاهد، شيخ الصوفية، لقي السري السقطي والكبار، ورافق الجنيد، قتل في وقعة الهبير سنة ٣١١هـ، وقيل: ٣١٢هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (٢٠٣ص)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/ ٤٦٧).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٠٥).

تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف:٥٣]، وجعل الله الجنة جزاء لمن نهىٰ نفسه عن هواها وغيها، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وأدهىٰ مصائب سجين النفس والهوىٰ أن الله يحرمه فوائد كثيرةً؛ منها عدم انتفاعه بالمواعظ والذكرىٰ، وعدم قبوله بالحق والاهتداء إليه، وذلك لأن اتباعه لنفسه وشهواته يغرقانه في أوحال الذنوب والخطايا، فيعلوه الران، ويختم علىٰ قلبه، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، جاء في الحديث: «تُعرض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشْرِبها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين: علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشْرِب من هواه»... قال أبو خالد: فقلت لسعد: يا أبا مالك، ما أسودُ مُرْبادًّا؟ قال: شدة البياض في سواد، قال: قلت: فما الكوز مُجَخِّيًا؟ قال: منكوسًا(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٨٩) برقم: (١٤٤).

٢٣٩

غلبة الهوى تُذْهِب العقل

قال أبو علي الثقفي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من غلبه هواه توارى عنه عقله»[٢].

بيان المفردات

توارى عنه: استتر[٣].

المعنى الإجمالي

الهوىٰ إيثارٌ لشهوة النفس ورغباتها علىٰ مراد الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، وإذا تمكن الهوىٰ من العبد فإنه يكون إلهًا له يعبده من دون الله تعالىٰ، والعقل هو الذي يلجم نزوات الهوىٰ، وطيش النفس، لكن حين يتغلب الهوىٰ يختفي العقل؛ لأن هوىٰ النفس وما يزينه الشيطان هو المتبع لدىٰ صاحب الهوىٰ، فلا يرىٰ إلا شهوة بطنه، أو فرجه، أو عينيه، وكل شهواته المزيَّنةِ لديه.

(١) محمد بن عبد الوهاب أبو علي الثقفي، الإمام المحدث الفقيه، الزاهد، شيخ خراسان، ولد سنة ٢٤٤هـ، لقي أبا حفص وحمدونا القصار، اشتغل بالتصوف، كان من أحسن المشايخ في عيوب النفس، توفي سنة ٣٢٨هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٢٧٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٢٨٠).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٧٦).

(٣) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (١١/ ٧١٤٣).

يقول ابن قدامة المقدسي: «من لم يُؤْثِر عِزَّ نفسه عن شهوته فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان»[١].

ولخطورة اتباع الهوىٰ مزالق عظيمة وعواقب وخيمة، يكفي أن منها أن متبع الهوىٰ مع انحدار حاله، واستمراره في العصيان يجعل الهوىٰ إلهًا معبودًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣].

ومن الآثار المظلمة لاتباع الهوىٰ أن متبعيه تختفي عقولهم، بل تُغَيَّبُ عن الاسترشاد بالخير واتباع الحق وأهله، وهذا ما فعله المشركون من التعصب الأعمىٰ ضد الإسلام والمسلمين؛ فيرمون الإسلام بكل نقيصة، ويجرحونه بكل الألفاظ النابية، يريدون من وراء ذلك أن يحجبوا الحقائق ويخفوها، كما حجبوا عقولهم وضمائرهم عن اتباع الحق والرشاد.

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي (ص: ٢٠١).

٢٤٠

مفسدة اتباع الشهوات

قال أبو بكر الوراق ﵀: «مَن أرضى الجوارحَ بالشهوات، فقد غرسَ في قلبِه شجرَ الندامات»(١).

بيــان المفردات

غرس: من باب ضرَب يضرِب، بمعنىٰ: الإثبات، يقال: غَرَسَ الشَّجَرَ يَغْرِسُهُ: أثبتَه في الأرض(٢).

المعنى الإجمــالي

تبين الحكمة آفة إرضاء الجوارح بكل ما تشتهيه النفس، فإن النفس طمّاعة لا تفيق من كدّ ولا تقف عند حدّ، تميل إلىٰ الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية فتدفع الإنسان إلىٰ ارتكاب المعاصي والشبهات، وتوقعه في أمور يندم عليها في المآل، فليعلم العبد أن اتباع شهوات النفس بدون تهذيبها يغرس في قلبه شجر الندامات ويجعله يتحسر، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٦].

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (ص: ١٥٩) برقم: (٣٥٦).
(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ٥٦١).

وإبعاد الجوارح والنفس من الشبهات وما يوقعها في الندم من علامات التقوىٰ والسلامة كما قاله ﷺ: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقىٰ الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم: (١٥٩٩).

٢٤١

القلق من آثار الخطيئة

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَرْدُ النَّفس بالهوى لَحْظَةً أثمرَ حرارةَ القلق ألف سنة»(١).

المعنى الإجمالي

يتكلم ابن الجوزي عن معصية سيدنا آدم عندما أكل من الشجرة، حيث استجاب لإغواء إبليس خطأً ونسيانًا، فكان ذلك سببًا لندمه وحزنه مدة طويلة.

والله عَزَّوَجَلَّ قبل توبة سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع ذلك بقي آدم مُشفقًا من ذنبه، خجِلًا من ربه، حذِرًا من مكر إبليس به؛ لأن إبليس إذا استطاع أن يغوي أحدًا مرة انكشف له ضعفه، فيطمع به ويُدبّر له المكائد علَّه يتعثر مرة أخرىٰ، ويصبح فريسة سهلة المنال.

ولذات الدنيا، سرعان ما تنقضي، وبعد ذلك يعقبها ندم طويل وقلق وخوف من عذاب الله، فهل يكون عاقلًا من يوقع نفسه في القلق والندم والخوف ويعرض نفسه لعقاب الله من أجل لذة لحظة؟

إن المؤمن يعلم أن كل ملذات الدنيا زائلة، وأن تلك اللذات إن لم تكن مشروعة فإنه يعقبها من الآثار ما هو كفيل بأن يردع الإنسان عن ارتكابها بمجرد

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٦١).

التفكير في النتائج.

وإنما يقلق ويخاف من ذنبه من كان يقِظَ القلب، وأما من مات قلبه، ولم يعد يبالي بالمعصية، فهذا إن أمِن في الدنيا فإن خوف الآخرة ينتظره، جاء في الحديث القدسي: «وعِزَّتي لا أجْمَعُ علىٰ عبدي خوْفَين وأمْنين؛ إذا خافني في الدُّنيا أمَّنْتُهُ يوم القيامة، وإذا أمِنَنِي في الدُّنيا أخفته يوم القيامة»(١).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٠٦) برقم (٦٤٠)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٧)؛ وابن المبارك في الزهد (١٥٨)؛ والبزار في مسنده (٨٠٢٩)؛ وسعيد بن منصور (٥٧٠٧)، وله شواهد. قال العراقي: رواه ابن حبان والبيهقي من حديث أبي هريرة، وابن أبي الدنيا من رواية الحسن مرسلًا. ينظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للحافظ العراقي (٥/ ٢٢١٦).

٢٤٢

جبل الهوى

قال ابن الجوزي رحمه الله: «بينك وبين المتَّقين جبل الهوى، نزلوا بين يديه ونزلتَ خلفه، فاطْوِ فضل منزلٍ تَلْحق»[(١)].

المعنى الإجمالي

أي: بينك أيها السالك وبين المتقين حاجز كبير كالجبل، هو الهوىٰ، هم اجتازوه بالحِمْية عن الشهوات التي تثقل الحِمل، وتضعف الهمة، وتحول دون تَخَطِّي العقبات، وأنت ما زلت خلفه، فإذا أردت أن تلحق بهم، وتجتاز الجبل الوعر كما اجتازوه، لا بدَّ لك من الحِمية عن الشهوات المثقلة لحملك، الموهنة لعزيمتك.

وقد شبه رحمه الله الهوىٰ بالجبل؛ لأن الهوىٰ يصدُّ السالك عن الحق، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنما أخاف عليكم اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوىٰ، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، وإن اتباع الهوىٰ يصد عن الحق، وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بَنون، فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل»[(٢)]. كذلك الجبل يصدُّ السائر عن الوصول إلىٰ مراده، ولأنه يحجب رؤية البصيرة، كما يحجب الجبل رؤية البصر،

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ١٨٨)؛ وقد أوردها ابن القيم في كتابه الفوائد مع تبديل كلمة المتقين إلىٰ الفائزين. ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ١٥٣) برقم: (٣٥٦٣٦).

ولأنه أشد عليه في السير إلىٰ الله، كالجبل يكون أشد علىٰ السائر، ولأن اجتيازه يحتاج إلىٰ همم عالية، كالجبل لا يقدر علىٰ اجتيازه من همته ضعيفة(١).

فالعبد في هذه الدنيا له طريقان متغايران، بيَّنهما الله سبحانه له حيث قال: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠]، هما طريقا الهدىٰ والهوىٰ، فمن اتبع الهدىٰ وأعرض عن الهوىٰ بالتقوىٰ والصبر والمجاهدة فاز، ومن اتبع الهوىٰ وأعرض عن الهدىٰ بالكسل عن الطاعة، وحب الشهوات والملذات هوىٰ وخاب.

قال الشاعر:

خَيْرُ مَا اجْتَنَّ بِهِ الْمَرْءُ التُّقَىٰ ... فَاتَّخِذْهَا عُدَّةً دُونَ الْعُدَدْ
وَأَرَىٰ الشَّهْوَةَ مِفْتَاحَ الرَّدَىٰ ... فَاجْتَنِبْهَا وَانْأَ عَنْهَا وَابْتَعِدْ(٢)

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ٦٢٩).
(٢) البيتان لمحمد بن عبد الله بن مناذر، ينظر: ذم الهوىٰ لابن الجوزي (ص: ٣٢).

٢٤٣

الانغماس في ملذّات الدنيا مقامرة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «دخلتَ دار الهوى فقامرْتَ بعُمرِك»[(١)].

بيـان المفردات

دار الهوى: هي الدنيا؛ والهوىٰ: محبة الإنسان الشيء، وغلبته علىٰ قلبه، قال تعالىٰ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠]؛ أي: ونهىٰ النفس عن شهواتها[(٢)].

قامرتَ بعمرك: أي: غامرتَ وخاطرتَ بحياتك وخدعت نفسك؛ والمقامرة: كل لعب يَشْتَرط فيه غالبٌ من المتغالبين شيئًا من المغلوب[(٣)]. فكأن الذي انغمس في الملذات قد جعل عمره في مقابل ذلك؛ فخاطر بحياته، فهو علىٰ وشك خسارتها.

المعنى الإجمالي

إن الدنيا دار ابتلاء وفتن، من سعىٰ خلفها وأراد تلبية ملاذّ الجسد منها كان كالشارب من البحر لا يزيده الشرب إلا عطشًا، ومن أوغل في الشهوات يوشك أن يُطبَع علىٰ قلبه؛ لأن الذنوب والمعاصي لها أثر علىٰ القلب، فقد جاء في الحديث

(١) المدهش لابن الجوزي (١/ ٥٥).

(٢) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري (٢/ ٣٨٨).

(٣) ينظر: التعريفات للجرجاني (١٧٩).

عن حذيفة بن اليمان ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسودُ مُرْبَادًّا، كالكُوْز مُجَخِّيًا[1]، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشْرِب من هواه»[2].

فالذي يفتح على نفسه باب الأهواء والشهوات يكون كمن يجازف بعمره، وكمن يشتري الباقية بالفانية، فعمر الإنسان هو رأس ماله، فمن الذي يعرّض رأس ماله للضياع؟! أو مَن الذي يرى اللصوص تسرق رأس ماله فينظر إليهم مبتهجًا دون أن يحرِّك ساكنًا؟!

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦].

(١) ومعنى مُرْبادًّا: أي: شدة بياض قد خالطه سواد، وهو هنا سواد الذنوب عندما خالطت القلب الأبيض. ومعنى مجخِّيًا: أي: منكوسًا، والكوز إذا كان منكوسًا لا تستقر فيه الماء، وكذلك القلب لا تدخله الهداية. وقد فسر الراوي هذه المفردات ضمن الحديث.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٨٩) برقم: (١٤٤).

٢٤٤

السلامة من الفتن

قال ابن الجوزي رحمه الله: «مَن قارب الفتنة بَعُدَت عنه السَّلامة»(١).

المعنى الإجمالي

من أراد السلامة في دينه ودنياه فعليه أن يبتعد عن أسباب المعاصي، وقد أخذ ابن الجوزي هذه القاعدة من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، فالله ﷻ يحذر دائمًا من المعاصي وينهىٰ عن القُرْب منها، ويدعو إلىٰ الفرار بعيدًا عنها؛ لأن مقاربة الفتن والمعاصي والذنوب مُؤْذنٌ باقترافها والوقوع فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢].

والإنسان يبقىٰ بخير ما دام بعيدًا عن المعاصي والفتن وأسبابها، وإذا تبدت له هرب منها، وإذا رآها مقبلة فرَّ وأغلق الأبواب دونها، حتىٰ لا تجد إليه سبيلًا، فإذا ما طرق أبواب الفتن وسبل الشهوة، وتهاون في رد الشبهات وإغلاق الأبواب أمام المغريات انفتحت عليه أبواب المصائب والبلايا، فكم من قَدَمٍ زلَّت بعد ثبوت، وكم ممن غرق في بحر الشهوات والشبهات بعد أن جرفه التيار فأغرقه في لُجَجه،

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٢٦).

بعد أن عاش زمانًا علىٰ شاطئ السلامة.

إن الفرار من الفتن يحمي صاحبه من مقارفة الذنوب والوقوع في المعاصي، والمجترئ علىٰ الشبهات وبدايات المحرمات غالبًا ما يقع فيها، فإن تعرض للفتن استشرفت له، ومن رعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه، ومن تساهل في الشبهات وقع في الحرام ولا بد، كما قال ﷺ: «فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام؛ كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه، ألا وأن لكل ملك حمىٰ، ألا وإن حمىٰ الله محارمه»[١].

ولذلك كان السلف يبتعدون عن أسباب الفتن ولا ينصتون لمن كان من أهل الضلال؛ ورد أن طاووس بن كيسان كان جالسًا وعنده ابنُه، فجاء رجل من المعتزلة، فتكلم في شيء، فأدحل طاووس أُصبعيه في أذنيه، وقال: يا بُنيّ، أدْخِل إصبعيك في أذنيك حتىٰ لا تسمع من قوله شيئًا؛ فإن هذا القلب ضعيف[٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ١٤).

٢٤٥

اتباع العقل في الحق

قال الفاريابي رحمه الله: «طوبى لِمن كان عقلُه أميراً، وهواه أسيراً؛ كان في الدنيا عزيزًا، وفي الآخرة شريفًا»(١).

المعنى الإجمالي

طوبىٰ، أي: الخير الكثير لمن كان عقله أميرا، يقتدي به فيما يريده مما يوافق الشرع، وكان هواه، أي: ميلان نفسه إلىٰ ما لا يجوز شرعا وعرفًا، أسيرًا ممنوعًا من ذلك، ومن كان هذا حاله، صار في الدنيا عزيزًا محترمًا، وكان في الآخرة عند الله شريفًا مُكرَّمًا، ففعل كان هنا بمعنىٰ صار.

وقال الفاريابي بعد هذا الكلام: «وويلٌ لمن كان عقله أسيرًا، وهواه أميرًا، كان في الدنيا فاجرًا، وفي الآخرة خاسرًا»(٢)، أي: ويل وهلاك لمن كان هواه أميرًا يأتمر به فيما يرسله، واتخذ عقلَه الذي ينبغي أن يستمع إليه أسيرًا ممنوعًا من التفكُّر والحركة، فالنتيجة المترتبة علىٰ هذه الحالة أن صار في الدنيا فاجرا فاسقا، ظالما

(١) عزىٰ الفاريابي هذه الحكمة لبعض الصحابة من غير أن يذكر الأسماء، وبعد البحث لم يتبين اسم الصحابي أو الصحابة الذين نسب هذا القول إليهم، ولم يتحقق كون قائله أصلا من الصحابة، والله أعلم. ينظر: تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٦).

لنفسه وللآخرين، وكانت عاقبته في الآخرة الخسران والندامة(١).

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]، أي: من لم يستمع إلىٰ صوت العقل، فطغت نفسه واتبع هواه، فويل له ومصيره الجحيم، ومن اتبع عقلَه وأذعن للحق، فخاف ربَّه ﷻ وجعل هواه أسيرًا مسجونًا، فمأواه الجنة ومصيره إلىٰ الخير.

(١) وينظر: نصائح العباد في بيان ألفاظ منبهات علىٰ الاستعداد ليوم المعاد للجاوي (ص: ١٤).

٢٤٦

علامة اتباع الهوى

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «من علامات اتباع الهوى: المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات»(١).

بيان المفردات

الهوى: ما تهواه النفس، فهو مصدر بمعنى المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق، فهو ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفعَ الكامل(٢).

المعنى الإجمالي

الإسلام هو الاستسلام كليّةً لما أمر به الله عز وجل، ويكون ذلك بتعظيم ما عظمه الله وتقديم ما قدّمه، والسعي لنيل مرضاته على الوجه الذي طلبه منا، ومن نماذج السعي لمرضاة الله كيفما كانت ما جاء عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن قال وهو يسير على شط الفرات: «اللهم لو أَعلمُ أنه أرضى لك عني أنْ أرميَ بنفسي من هذا الجبل فأتردى فأسقطَ فعلتُ، ولو أعلمُ أنه أرضى لك أن أوقدَ نارا عظيمة فأَقَعَ فيها

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١١).
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٠/ ٣٢٦).

فعلتُ، اللهم لو أعلم أنه أرضىٰ لك أنْ أُلقيَ نفسي في الماء فأُغرقَ نفسي فعلتُ»(١).

واتباع الهوىٰ آفةٌ خطيرة تحرف المسلم عن المسار الصحيح في طريق سيره إلىٰ الله، قال تعالىٰ مخاطبا داوود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وبالعكس فإن مخالفة هوىٰ النفس الذي يكون علىٰ غير هدىٰ من الله من أسباب نيل مرضاة الله ودخول الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ومن العلامات الدالة علىٰ أن الإنسان يتبع هوىٰ نفسه وأنه لم يمحض نيته لطلب رضوان الله ومحبته؛ أنه يختار الأولوية في القيام بالأعمال بناء علىٰ اختياره وترجيحه هو وليس بحسب ما أمر الله به؛ فتراه يبالغ أشد المبالغة في الاعتناء بشيء من النوافل في حين يتكاسل ويقصر في القيام بالفرائض والواجبات، وهذا مخالف للترتيب الذي جاء به الشرع من تعظيم شأن الفرائض وترتيب العقاب علىٰ تركها أو التقصي فيها، وفي الحديث القدسي: قال الله تعالىٰ: «وما تقرب إليّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه»(٢)، فدل هذا الحديث أن الأولوية في التقرب إلىٰ الله تكون عن طريق الفرائض أولا، فإذا تغير هذا الترتيب فقد انحرف الشخص عن السبيل القويم الذي يحبه الله ويرضاه وكان منقادا لرغباته متبعا لهواه.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣/ ٤٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

٢٤٧

أثر اتباع الهوى

قال عبد الرزاق القاشاني رحمه الله: «من اتبع الهوى هوى»(١).

بيان المفردات

الهوى: ميل النفس إلىٰ الشهوة، وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبِه إلىٰ الهاوية. وهَوَىٰ: من الهُوِيِّ، وهو سقوط عن عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ(٢).

المعنى الإجمالي

إن من اتبع هواه وأسلم نفسَه لشهوات نفسه وشبهات عقله، فقد هَوَىٰ، أي: سقط ونزل أمره وانحطتْ رتبته، فكان من السافلين.

وكلمة الهوىٰ وردت في القرآن والسنة علىٰ سبيل الذم، والنهي عن اتباع الهوىٰ: سواء هوىٰ الشخص نفسه، بمعنىٰ أن يتبع هوىٰ نفسه، أو يتبع أهواء الآخرين. والهوىٰ كلمة تعني: ما تميل إليه النفس وتشتهيه، مما يتعلق برغباتها الحسية ولذائذها الجسدية ومتعها المادية من ناحية، أو مما يلبس عليها ويزيِّن لها من المعتقدات والأفكار والشبهات من ناحية. فالهوىٰ يشمل الأمرين: شهوات

---

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة لعبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠٦).

(٢) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٨٤٩).

وشبهات، يعني: يشمل الجانب العقلي الذي يفسد التفكير ويشمل الجانب الحسي الذي يفسد السلوك، كلاهما يعتبر اتباعا للهوىٰ(١).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]. فاتباع الهوىٰ هو ضلال، والضلال ضدّ الهدىٰ، فمن طلب الهدىٰ خالف الهوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]. فمن اتبع هواه يكون بمثابة من جعله إلهًا له يُعبَد من دون الله، لأنه أعرض عن شرع الله واتبع ما أملاه عليه هواه.

وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦]. فكان عاقبة من اتبع هواه أنه تردَّىٰ وسقط أمره، لأنه قدَّم هواه علىٰ أمر ربه.

(١) اتباع الهوىٰ ومجاهدة النفس، مقالات الشريعة والحياة ليوسف القرضاوي.

٢٤٨

أضرار اتباع الهوى

قال ابن القيم رحمه الله: «اتِّباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصدُّ عن اتِّباع الحقِّ، ويُضلُّ عن الطريق المستقيم»(١).

بيان المفردات

يطمس: يمحو، من طمس الشيء إذا محاه وأزال أثره(٢).

المعنى الإجمالي

ذمَّ اللهُ سبحانه الهوىٰ، وحذَّر عباده من اتِّباعه -في مواضع كثيرة من القرآن الكريم- مبينًا تأثير الهوىٰ السلبي وإضراره بمتبعه، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

ففي الآية تشبيه اتباع الهوىٰ بالعبادة؛ لما فيه من شدة الطاعة له، والمعنىٰ أنه سبحانه بيَّن أن بلوغ الكفار في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لاستيلاء التقليد عليهم، وأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة، فكل ما دعاهم الهوىٰ إليه انقادوا له،

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٨٠).

(٢) تاج العروس للزبيدي (١٦/ ٢٠٧).

سواء منع الدليل منه أو لم يمنع[1]، فصاروا أضلَّ من الأنعام؛ لأن الأنعام تهتدي إلىٰ مراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها، وهؤلاء يضلون عن طريق الحق ويعصون ربهم.

ووصف النبي ﷺ مُتَّبع الهوىٰ بالعجز، فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنىٰ علىٰ الله»[2].

لأن الإنسان إذا اتبع هواه، وجرىٰ وراء الشهوات والملذات، طُمِسَ نور عقله فغفل عن إدراك الصواب، وعميت بصيرة قلبه فحجب عن رؤية الحق، وهوىٰ في سبل البدع والشبهات فضل عن الطريق المستقيم.

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٤/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥٧) برقم: (١٩١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٩)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢٨) برقم: (٤٢٦٠).

٢٤٩

مخالفة الهوى شرط حصول المطلوب

قال ابن القيم رحمه الله: «بحرُ الهوى إذا مَدَّ أغرق، وأخوفُ المَنافذِ على السابح فتحُ البصر في الماء»(١).

المعنى الإجمالي

شبَّه ابن القيم الهوىٰ بالبحر في مخاطره ومخاوفه، لأن البحر كلما كان واسعًا وممتدًّا، يكون عمقه وخطره علىٰ قدر ذلك، فيُغرِق من دخله ويُهلِكه. ومثل البحر في هذا هوىٰ النفس، فالإنسان كلما كان منهمكا في اتباع هواه وشهواته، وكلما كثر هذا الاتباع وطال، فهواه يُغرِق صاحبَه ويُهلِكه في لُجَجِ بحره ودَرَكاتِ أمواج مائه.

وكما أن السابح في داخل الماء لا ينبغي له فتح عينيه إلا للضرورة؛ لأن ذلك يضرُّ ببصره، كذلك الإنسان الذي يتبع هواه، أخوف شيء بالنسبة له فتح عينيه أمام المناظر المحرَّمة التي تفتن مَن أبصرها، وبداية اتباع الهوىٰ وأول وقوع في الشهوة يبدأ بالنظر المحرم: فإذا نظر الإنسان إلىٰ ما لا يجوز له من الأشياء المحرمة، واستمر في اتباع هواه، يتلوه ما بعده من المحرمات، وهكذا ينتقل من المعاصي الصغيرة إلىٰ الكبيرة، حتىٰ يَغرَق في هواه وشهواته وتُهلِكَه، فاللحظات رائد الشهوة

(١) الفوائد لابن القيم الجوزية (ص: ٥٥).

ورسولُها، وحفظها أصلُ حفظِ الفرج. فمن أطلق بصرَه أوْرَدَه مواردَ الهلكات[١].

وقد أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يأمرَ أمتَه رجالًا ونساءً بغضِّ أبصارهم عن المحرمات، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النساء:٣٠-٣١].

قال النبي ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «يا عليُّ، لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولىٰ وليست لك الثانيةُ»[٢].

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٣٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٢١٤٩)؛ والترمذي في جامعه برقم: (٣٠١٨)؛ وأحمد في مسنده برقم: (٢٣٣٨٣)؛ والدرامي في مسنده برقم: (٢٧٤٧). وهو حديث غريب.

٢٥٠

الخواطر بريد المعاصي

قال ابن القيم ﷺ: «دافِع الخطرةَ؛ فإن لم تفعلْ صارت فكرةً، فدافِع الفكرةَ؛ فإن لم تفعل صارت شهوةً، فحارِبْها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمةً وهمَّةً، فإن لم تُدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركهُ بضدِّه صار عادةً، فيصعُبُ عليك الانتقالُ عنها»(١).

المعنى الإجمالي

إن الإنسان إذا خطرت في باله خطرةٌ من خطرات المعاصي، فينبغي أن يدفع ذلك عن نفسه قدر المستطاع، فإن انشغل بها واستسلم لها، فإن الشيطان يأخذه إلىٰ ما بعدها، وبالتالي، ستصبح فكرةً وترسخ في ذهنه، وهذه الفكرة يجب أن يدفعها عن نفسه قبل أن تتمكن منه وتصبح شهوة، فإن لم يفعل، تحولت الفكرة إلىٰ شهوة. والشهوة المقصودة هنا شهوة في ذهن الإنسان والرغبة النفسية لفعل المعصية، ولا تزال هذه الشهوة تراوده حتىٰ تُقنِعه علىٰ القيام بها وتنتقل إلىٰ مرحلة الهم والعزم، فإن لم يفعل وأطلق ذِمامَها وتركها، تحولت هذه الشهوة إلىٰ عزيمةٍ وقصدٍ جازمٍ للقيام بالمعصية. فإن لم يسرع الإنسان إلىٰ التوبة والإقلاع عنها، فإن الشيطان سيوسوس عليه حتىٰ يتمكن منه بالكلية، لأنه علىٰ كل حال قد وقع فيها

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٤٥).

مرة، وتكرار الفعل الحاصل ليس بأمر عظيم، هكذا يُهوِّن عليه أمرَ المعصية. وأسوأ من ذلك أن يُوسوِس عليه الشيطان بأن الله تعالىٰ لن يغفر له، فلا فائدة من التوبة، وهذا أعظم من فعل المعصية، لأن اليأس وقطع الأمل من الله كبيرة من الكبائر. فيجب علىٰ الإنسان أن يسرع إلىٰ التوبة ويعود إلىٰ الله بفعل الطاعات، وإلا، فإن تكرار المعصيةَ يحوِّله إلىٰ عادة، وتركُ العادةِ صعبٌ علىٰ النفس.

يشير ابن القيم في هذه الحكمة إلىٰ خطورة أمر الخطرات التي تخطر علىٰ بال الإنسان بدون إرادة منه، وليس أحد معصومًا من ورود الخطرات، وإذا وردت فليس مؤاخَذًا بها، لكن الخطرة الصغيرة إذا لم يدفعها الإنسان عن نفسه ولم يشغل ذهنَه بما هو أنفع له، فإن هذه الخطرة تجرُّه إلىٰ المعصية حتىٰ تُوقِعَه فيها. فأول المعصية يبدأ بالخطرة، وهذا هو سبب خطورة الخواطر التي ابتُلي بها الإنسان، ولذلك حذَّر منها ابن القيم رحمه الله.

قال النبي ﷺ: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: مَن خَلَقَ كذا؟ من خلق كذا؟ حتىٰ يقول: مَن خلقَ ربَّك؟ فإذا بلغَه فلْيَسْتَعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٣) برقم: (٣٢٧٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٨٤) برقم: (١٣٤).

٢٥١

أبواب النار

قال ابن القيّم ﵀: «دخل الناسُ النارَ من ثلاثة أبواب: بابِ شُبْهةٍ أَوْرثَتْ شكًّا في دين الله، وبابِ شهوةٍ أَوْرَثَتْ تقديمَ الهوى على طاعته ومرضاته، وبابِ غضَبٍ أَوْرَثَ العدوان على خلقه»[(١)].

بيـان المفردات

الشُّبْهة: الالتباس، وشُبِّهَ عليه الأمرُ تشبيها: لُبِّس عليه وخُلِّط[(٢)]، وفي الشرع: ما التَبَس أمرُه فلا يُدرىٰ أحلالٌ هو أم حرامٌ وحقٌّ هو أم باطلٌ.

الشهوة: الرغْبة[(٣)]، قال الراغب ﵀: «أصل الشَّهْوَةِ نُزوعُ النّفس إلىٰ ما تريده، وذلك في الدّنيا ضربان: صادقةٌ وكاذبةٌ، فالصّادقة: ما يختلُّ البدنُ من دونه كشهوة الطّعام عند الجوع، والكاذبة: ما لا يختلّ من دونه»[(٤)].

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٨٠).
(٢) تاج العروس للزبيدي (٣٦/ ٤١١).
(٣) تاج العروس للزبيدي (٣٨/ ٤٠٢).
(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٤٦٩).

المعنى الإجمـالي

الانسياق وراء زوابع الشبهات أحد الأسباب التي تؤدي إلىٰ انحراف الإنسان عن السبيل القويم، وهذه الشبهات قد تكون عارضة مما يفكر فيه الإنسان ويلتبس عليه، أو قد تكون مفتعلة من قبل أعداء الدين مما يلبّسون به علىٰ الناس لإضلالهم وإبعادهم عن الحق، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر:٨]، فينبغي للمسلم أن يكون مُعْليا لما يطلبه الشرع، وأن يدور مع الشرع حيث دار، وأن يسأل أهل العلم فيما يلتبس عليه، وأن يحذَر من الشبهات ويحذِّر منها.

وقد يكون الانحراف عمليا في أمر غير ملتبس علىٰ الإنسان، لكن يدفعه إليه دافع الرغبة والميل مع هوىٰ النفس، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، والقسم المحرم من الشهوات هو ما يميل إليه الهوىٰ مما يخالف الشرع، أما ما لم يخالف الشرع ولم يخرج عن حد الاعتدال فهذا لا بأس فيه.

ومن الأسباب المؤدية إلىٰ دخول جهنم: الغضب الذي يؤدي إلىٰ الظلم والاعتداء علىٰ العباد، نعم الغضب أمر فطري في الإنسان لا يكاد يستطيع أن يمنع أصله، لكنه يستطيع تجنب الأسباب المؤدية إليه، كما أن المسلم إذا غضب لا يظلم ولا يتعدىٰ حدود الشرع، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورىٰ:٣٧].

٢٥٢

شراب الهوى يورث الشَّرَق

قال ابن القيم رحمه الله: «شرابُ الهوى حُلْوٌ، لكنه يورثُ الشَّرَقَ»(١).

بيان المفردات

الشَّرَق: بفتح الراء الاختناق والغُصّة بالماء أو الريق، شَرِقَ يَشْرَقُ شَرَقًا فَهُوَ شَرِقٌ بمعنىٰ دخل الماء حَلْقه حتىٰ يَغَصّ به، ويقال: أخذتْه شَرْقةٌ فكاد يموت(٢).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة ما يورثه اتباع الهوىٰ والشهوات للنفس من الألم والوجع، فشرابها يبدو حلوا لذيذا في أول الأمر لمطابقة رغبات النفس ولجمالها المؤقت، ولكنه يورث شَرَقا واختناقا للمرء كما يحصل أحيانا عند شرب الماء أو بَلْع الريق فجأة لوقوعه خارج مساغه، وهكذا شراب الهوىٰ أيضا لعدم استساغة الناس له في المآل ولما ينتظر له من النتيجة السيئة، فينبغي للمؤمن أن يصبر عن شراب الهوىٰ لأن الصبر عليه أحسن من الألم الذي يورثه.

ومفهوم الحكمة وارد في نصوص القرآن والسنة، فالله سبحانه تعالىٰ منع نبيه

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ١١٨٣).

(٢) العين لخليل الفراهيدي (٥/ ٣٨)؛ لسان العرب لابن منظور (١٠/ ١٧٧).

والمؤمنين عن اتباع الهوىٰ والشهوات وذَمّ الذين اتبعوها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]. وقال النبي ﷺ: «إن مما أخشىٰ عليكم بعدي بطونكم وفروجَكم ومُضِلّات الأهواء»(١)، فمن اتبع هواه وشرب من شرابه وانغمس فيه فقد جلب لنفسه الألم والشرَق، وينتظر له شراب نهر جهنم كما يقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

(١) السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٢) برقم: (١٤).

٢٥٣

الصبرُ على الشهوة

قال ابن القيم رحمه الله: «الصبرُ على الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجِبُهُ الشهوةُ»[١].

المعنى الإجمالي

النَّفْسُ البشريةُ بطبيعتها تندفع نحو اللَّذات والشهوات، ومن المعلوم بأنَّ الانهماك فيها مذمومٌ شرعًا، قال تعالىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩]، فعلىٰ الإنسان أن يكون موقفه مِن شهوته موقف المراقبة والمحاسبة، لا موقفَ الاسترسال معها والاستجابة لها، وأن يستحضر دائمًا أن الصَّبرَ عن الشهوات وما فيها من الإغراء والبريق والافتتان أيسرُ من الصبر علىٰ عواقب الشهوات وآلامها وحسراتها، كما بينه ابن القيم بقوله: الصبرُ علىٰ الشهوةِ أسهلُ من الصبر علىٰ ما تُوجِبُهُ الاستجابة للشهوة؛ وذلك لأنَّ الشهوات إما أن توجب ألمًا وعقوبةً، وإمّا أن تقطع لذَّةً أكملَ منها، وإما أن تُضيِّع وقتًا إضاعتُهُ حسرةٌ وندامةٌ، وإما أن تَثْلَمَ عِرضًا توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثَلْمِه، وإما أن تُذهِبَ مالًا بقاؤُهُ خيرٌ له من ذهابه، وإما أن تضع قَدْرًا وجاهًا قيامُهُ خيرٌ من وضعه، وإما أن تَسْلُب نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة، وإما أن تُطَرِّق لوضيعٍ

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٢).

إليك طريقًا لم يكن يجدُها قبل ذلك، وإما أن تَجلِب همًّا وغمًّا وحُزنًا وخوفًا لا يقاربُ لذَّةَ الشهوة، وإمَّا أن تُنسِي علْمًا ذِكرُه ألذُّ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمِّت عدوًّا وتُحزِن وليًّا، وإما أن تقطع الطريقَ على نعمةٍ مقبلةٍ، وإما أن تُحدِثَ عيبًا يبقى صفةً لا تزولُ؛ فإن الأعمال تُورِثُ الصفاتِ والأخلاقَ(١).

فالعاقلُ البصيرُ ينظر في عواقب الأمور، فلا يُؤْثِرُ العاجلةَ الفانية على الآخرة الباقية.

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

٢٥٤

عين الهوى عمياء

قال ابن القيم رحمه الله: «طائر الطبع يرى الحَبَّة، وعين العقل ترى الشَّرَك؛ غير أنَّ عين الهوى عمياء»[(١)].

بيان المفردات

الطبع: السجيَّة التي جُبل الإنسان عليها[(٢)].

الشَّرَك: جمع شَرَكَة، وهي حبالة الصيد[(٣)].

الهوى: الحب والميل، وهوىٰ النفس ميلها إلىٰ الشهوة[(٤)].

المعنى الإجمالي

شبَّه رحمه الله الإنسان في طبيعته المحبة للشهوات بالطائر، فهو يرىٰ الحبَّة أولًا؛ لأنه جُبِلَ علىٰ أكل الحَبِّ، وكذلك الإنسان أول ما يرىٰ الشهوات؛ لأنه جُبِلَ علىٰ حُبِّها والتعلق بها، وشبَّه عقله بالعين المبصرة التي ترىٰ حبائل الصيد حول تلك الشهوة،

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦١).
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١٢٥٢).
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٥٩٤).
(٤) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣٧٢).

وتدرك خطورة الوصول إلىٰ الحَّبة، وشبَّه الهوىٰ بالعين العمياء التي لا ترىٰ إلا ما تحبُّه وتميل إليه.

وبهذا يشير ﵀ إلىٰ أن الله سبحانه أودع في عبده قوتين متصارعتين في حياته، قوة الهوىٰ والعاطفة المجبولة علىٰ الاغترار بالمظاهر وحب الشهوات، وقوة العقل المجبول علىٰ إدراك مآلات الأمور والإحاطة بأبعادها، وجعل بينهما صراعًا دائمًا؛ ليتوازن الإنسان في اختيار الأنفع له والأصلح، فإذا غلبت قوةُ العقل قوةَ الهوىٰ حصل الإنسان علىٰ الأنفع له والأصلح، وإذا غلبت قوةُ الهوىٰ قوةَ العقل أضلت صاحبها؛ لأن الهوىٰ ميل واتباع للمحبوب والمرغوب بالعاطفة لا العقل، والهوىٰ حب، و«حبك الشيء يعمي ويصم» كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ[١].

فالعاقل من يوازن بين هاتين القوتين ويُحَكِّم عقله في حبه لشهوات الدنيا وملذَّاتها، ويحذر كل الحذر من إعمال الهوىٰ فيها خشية أن يضل ويقع في الشَّرَكَ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٤٩٦) برقم: (٥١٣٠).

٢٥٥

ضياع الجنة بشهوة ساعة

قال ابن القيم رحمه الله: «كيف يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟!»(١).

المعنى الإجمالي

إن أمد كل شهوة من شهوات الدنيا قصير، فما إن يتذوق الإنسان لذتها حتى تنقضي، وربما تحولت اللذة إلى ألم وعذاب، وقد جعل الله لذات الدنيا بهذه الصفة حتى ينبه عباده ويذكّرهم بفناء الدنيا فلا يتعلقوا بها، وأن هذه اللذة ستكون دائمة يوم القيامة إن صبرتم عن إتيانها في الحرام، فالعاقل بعد أن عرف صفة شهوات الدنيا وسرعة انقضائها لا يمكن أن يسعى وراءها إن علم أن في إتيانها تفويتَ نعيم مقيم لا ينقضي في الجنة.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا، من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغ في النار صَبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب»(٢). أين النعيم الذي عاشه في الدنيا؟ إنه سراب ووهم، نسيه بغمسة في نار جهنم.

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣٥) برقم: (٢٨٠٧).

إن لذات الدنيا مع سرعة انقضائها مُلَطَّخة بالْمُكَدّرات، ولا تسلم لذة من لذاتها من منغصات، أما نعيم الجنة فهو فوق تصورات البشر؛ عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى: «أعددت لعبادي الصالحين: ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة:١٧][(١)].

وبين لنا رسول الله ﷺ مقدار نعيم الجنة بالنسبة للدنيا، فقال: «ولَقابُ قوسِ أحدكم أو موضعُ قدمٍ من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأةً من نساء أهل الجنة اطَّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولَمَلأت ما بينهما ريحًا، ولَنَصيفُها -يعني الخمار- خيرٌ من الدنيا وما فيها»[(٢)].

كيف لعاقل بعد أن علم عن نعيمٍ بهذه الصفات ليس بين وبين أن يناله إلا أن يصبر بضعة أيام سريعة الانقضاء، كيف له أن يبيع ذلك النعيم بلذة رخيصة لا يكاد يشعر بها حتى تُفْلِت منه؟!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١١٥) برقم: (٤٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١٧) برقم: (٦٥٦٨).

٢٥٦

دولة العقل

قال ابن القيم رحمه الله: «لو خرج عقلُك من سلطان هواك عادتْ الدولةُ له»(١).

بيـان المفردات

الهوى لغة: مصدر: هوىٰ يهوي، وأصلُ المادة يدل علىٰ خُلوٍّ وسُقوط. وأصله الهواءُ بين الأرض والسماء، سُميَّ بذلك لخُلوّه، وقالوا: كُلُّ خالٍ هواء. ويقال هوىٰ الشيءُ يهوي: إذا سقط. ومنه: هوىٰ النفس، لأنّه خالٍ من كُلِّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي(٢).

واصطلاحًا: «ميلان النفس إلىٰ ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع»(٣).

المعنى الإجمـالي

ما ذكر الله عز وجل الهوىٰ في كتابه إلا ذمَّه(٤)، وأمر بمخالفته، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٥).
(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ١٥-١٦).
(٣) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٥٧).
(٤) ينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ٦٢٩).

تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء:١٣٥]، وبيّن أن العبد إن لم يتبع الحقَّ والهدىٰ، اتبع هواه، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠].

فصاحب الهوىٰ لا حكَمَةَ له ولا زمام، ولا قائد له ولا إمام، إلّا هواه، حيثما تولتْ مراكبه تولىٰ، وأينما سارتْ ركائبه سار، فآراؤه ومواقفه، تبعٌ لهواه، يقول تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣].

فالإنسان دولةٌ، وله حكومة تحكمه، وإذا ما وقع انقلاب وتعارض بين العقل والهوىٰ، فإمّا أن يخضع العقل لسلطان الهوىٰ، وتحكمه الشهوة، ويكون العقل أسيرًا له، ويكون هو الموجِّه والمتحكم في مساره، فيُلغىٰ العقل ويكون الانسان كالبهائم، وإمّا أن يخرج العقلُ من سلطان هواه فتعود الدولة له، أي: يعود مستقلًا عن تأثر الهوىٰ(١)، يقول النبي ﷺ: «ثلاثٌ مهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًىٰ مُتَّبع، وإعجابُ المرء بنفسه»(٢)، فبيَّن ﷺ أنَّ اتباع المرء هواه من المهلكات التي تورد أصحابها موارد الهلكات.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «جهادُ النفس والهوىٰ أصلُ جهاد الكفار والمنافقين، فإنَّه لا يقدر علىٰ جهادهم حتىٰ يجاهدَ نفسَه وهواه أولًا حتىٰ يخرج إليهم، فمن قهرَ هواه عَزَّ وساد، ومن قهرهُ هواه ذَلَّ وهان وهلك وباد»(٣).

(١) ينظر: دروس الشيخ علي بن عمر بادحدح (١١/٣٧).

(٢) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٤) برقم: (٦٤٩١)؛ والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢).

(٣) ينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ٦٤٠)؛ غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني (٢/ ٤٥٨).

٢٥٧

الخروج عن الدليل ضلال

قال ابن القيم رحمه الله: «من خرج عن الدَّليل ضلَّ سواء السَّبيل»(١).

المعنى الإجمالي

إن الله عز وجل أرسل الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم، فمن أراد الهداية لا بد أن يسلك الطريق الذي رسموه، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]. وقد أمر الله عز وجل نبيه ومن معه بالاستقامة وفق ما علمه الله إياه، من غير تجاوز بالزيادة على أوامره، فقال: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:١١٢].

فالطريق الموصلة إلى الله واحدة، وهي ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله موصل إلى رضاه.

عن عبد الله، قال: خط رسول الله ﷺ خطا، وخط عن يمين الخط وعن شماله

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٣١).

خططا، ثم قال: «هذا صراط الله مستقيما، وهذه السبل، علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣](١).

قال الجنيد: «الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا من اقتفىٰ أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»(٢). وقال أيضًا: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدىٰ به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»(٣).

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ٩٥) برقم: (١١١١٠).
(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٣٢)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٥٧).
(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٧٩).

باب مجاهدة النفس والاجتهاد في الطاعة

٢٥٨

الشخص يُعرف بكثرة العمل

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أكثر من شيء عُرف به»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن إطلاق وصف من الأوصاف على إنسانٍ ما لا يكون إلا بعد ملازمة ذلك الشخص للعمل الذي وُصف به، على مبدأ: قل لي من تُصاحب أَقُل لك من أنت، فكما أن طول الصحبة يورث الصاحب من أخلاق وطباع صاحبه، فكذلك كثرة تكرار العمل تصبغ صاحبها بوصف ذلك العمل، سواء كان خيرًا أو شرًّا، ومن هنا عُرف أبو بكر بالصديق، وعُرف عثمان بالحياء، وعليّ بالشجاعة، رضي الله عنهم أجمعين، فما كان هؤلاء الصحابة ليعرفوا بتلك الصفات لولا ملازمتهم لها.

وقد ورد في الحديث الصحيح ما يدل على هذا المعنى؛ قال ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب

(١) الموَشّى = الظرف والظرفاء لمحمد بن أحمد الوشاء (ص: ١٣)؛ وقد ذكره الميداني على أنه مَثَل، ينظر: مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني (٢/ ٣٢٧).

الصدقة»[1]. ألا ترىٰ قوله: «فمن كان من أهل الصلاة»؛ يريد من أكثر منها فنسب إليها، لأن الجميع من أهل الصلاة، وكذلك من أكثر من الجهاد ومن الصيام علىٰ هذا المعنىٰ.

وقد يعرف الإنسان بعملٍ ما من آثار ذلك العمل علىٰ الوجه؛ كما في كثرة الصلاة بالليل، وكثرة السجود، قال تعالىٰ: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩]. فيكون لهم سمْت حسن ونور يكسو وجوههم، قيل للحسن البصري: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها؟ قال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره نورًا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٥) برقم: (١٨٩٧).

(٢) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر لأبي عبد الله المروزي (ص: ٥٨).

٢٥٩

ثلاث حببن البقاء

قال معضد أبو زيد العجلي[(١)] رحمه الله: «لولا ظمأ الهواجر، وطول ليل الشتاء، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل، ما باليْتُ أن أكون يعسوبًا»[(٢)].

بيان المفردات

ظمأ: الظمأ هو شدة العطش.

الهواجر: الهجر والهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحَرّ[(٣)]. والمقصود: شدة العطش في منتصف اليوم الشديد الحر بسبب الصيام.

لذاذة: لَذِذْت الشيء بالكسر لذاذًا ولذاذةً: وجدته لذيذًا[(٤)].

يعسوبًا: اليعسوب: فحل النحل وسيدها، ويطلق على فراشة تطير في الربيع لها أربعة أجنحة لا تقبضها أبدًا، ولا تراه إلا طائرًا أو واقعًا على رأس عود، لا يمشي[(٥)].

---

(١) معضد بن يزيد، أبو يزيد، العِجلي، كان من المجتهدين العُبَّاد، وكان ثقة، قليل الحديث، من أصحاب عبد الله بن مسعود، استشهد في أذربيجان سنة ٣٠هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٢٨١)؛ الثقات للعجلي (٢/ ٢٨٧)؛ المحاضرات والمحاورات للسيوطي (ص: ١٦٥).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٩٤)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ١٥٩).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢٨٨)؛ والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٨٥١).

(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٥٦٩).

(٥) غريب الحديث للقاسم بن سلام (٣/ ٣٢٩)؛ وغريب الحديث في غريبي القرآن والحديث لأبي =

المعنى الإجمـالي

لا يجد للطاعة لذة وطعمًا إلا من داوم عليها، فمن داوم على الطاعة وزاد منها تراه لا يفرح بالدنيا لجني ثمارها والاستمتاع بطيباتها، ولكنه يفرح بما يجده فيها من الظمأ في اليوم الشديد الحر وهو صائم لله تعالىٰ، يكابد شدة الحرّ تقربًا إلىٰ الله، مستحضرًا الحديث القدسي: «يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»(١)، ويسعد بطول ليل الشتاء؛ لما يتهيأ له من وقت كافٍ للقيام بين يدي الله تعالىٰ، يتلذذ بتلاوة كلام ربه ﷻ، فيطيل القيام بقراءة مسترسلة، ويطيل ركوعه بتعظيم الله، وسجوده لطرح ما ينوء بحمله من سيئات وذنوب، وما يرجوه من خيري الدنيا والآخرة، فهو بذلك يبدو نشيطًا موفقًا في يومه كله.

لأجل هذه المعاني كان الصالحون يودُّون البقاء في الدنيا ليس من أجل لذاتها الفانية، ولكن لما يجدونه من لذة الطاعة ومناجاة الله ﷻ، ويقصد بقوله: ما باليت أن أكون يعسوبًا؛ أي: لولا هذه الثلاثة لما عبأت أن أكون شيئًا ليس له أهمية حتىٰ ولو كانت فراشة صغيرة كاليعسوب، فهذا عامر بن عبد قيس، لما حُضِر جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا علىٰ الدنيا، ولكن أبكي علىٰ ظمأ الهواجر، وعلىٰ قيام ليالي الشتاء»(٢).

= موسىٰ الأصبهاني (٢/ ٤٤٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٤) برقم: (١٨٩٤).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٩٥).

٢٦٠

الانشغال بالدنيا عن الآخرة

قال عبد الله بن مسعود ﵁: «لا أعْرِفَنّ أحدَكم جِيفةَ ليلٍ قُطْرُب نهار»[(١)].

بيان المفردات

قُطْرُب: القُطْرُب: طائر، وقيل: دويبة تسعىٰ نهارها كله لا تستريح[(٢)]. شبه ابن مسعود ﵁ الرجل الذي يسعىٰ نهاره سعيًا حثيثًا في حوائج الدنيا بالقطرب الذي يعمل طول النهار، ولكنه إذا أقبل الليل كان كالجيفة التي لا حراك فيها، حيث ينام إلىٰ أن يصبح، فلا يكون له حظه من قيام الليل.

المعنى الإجمالي

من أعطاه الله عقلًا راجحًا يحرص علىٰ الاستفادة من نهاره وليله؛ فهو جادٌّ في نهاره، يضرب في الأرض يبتغي من فضل الله، وفي الليل يأخذ قسطًا من الراحة، ثم يقوم بقية ليله في طاعة الله ساجدًا وقائمًا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، مستغفرًا باكيًا داعيًا ربه تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ

(١) غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ١١٢).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٦/ ٦٢٢).

ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

أما من كان يسعىٰ ويكدَّ في نهاره من أجل الدنيا، فإذا جاء الليل لم يكن له حظٌّ من صلاة أو قراءة قرآن أو استغفار أو دعاء، بل ينام إلىٰ الفجر، وربما فاتته صلاة الفجر، فهذا قد فوّت علىٰ نفسه وحرمها من خير عظيم، فيصبح خبيث النفس، كما ورد في الحديث؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان علىٰ قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد يضرب كل عُقْدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عُقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلىٰ انحلت عقدة، فأصبح نشيطًا طيِّب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»(١).

نهـارك يـا مغـرورُ سـهوٌ وغفلـةٌ ... وليلـك نـومٌ والـردىٰ لـك لازمُ

وسـعيك فِيمَـا سَـوف تكـره غِبَّـه ... كـذلك في الـدنيا تعـيش البهـائم(٢)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٢) برقم: (١١٤٢)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٥٣٨) برقم: (٧٧٦).

(٢) تنسب هذه الأبيات إلىٰ عمر بن عبد العزيز. ينظر: غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ١١٢).

٢٦١

أشدُّ الأعمال

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله على كل حال، ومواساة الأخ بالمال»(١).

المعنى الإجمالي

يبادر العبد بالأعمال إن كانت ميسرة وسهلة على النفس، ويتكاسل عنها أو قد يتركها بالكلية إن وجد النفس تأبى بعض الأعمال لصعوبتها، أو كانت مخالفة لما تهواه النفس وتشتهيه.

ومن الأعمال الشاقة التي تحتاج إلى مجاهدة حتى تعتادها النفس ثلاثة أعمال، وهي:

أولها: أن يعطي العبد الحق ويقرَّ به ولو كان على نفسه أو ذوي قرابته؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]. فالإنصاف من النفس صعب، والإنسان لا يريد يلحقه الغرم، ولذلك فإن الإقرار على النفس يُقبل؛ لأنه لا توجد فيه شبهة المحاباة.

ثانيها: ذكر الله على كل حال؛ حال القيام والقعود والاضطجاع، حال الصحة

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٨٥).

أو المرض، حال الإقامة أو السفر، في العسر واليسر؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وإنما كان ذكر الله من أشد الأعمال؛ لأن مشاغل الحياة وملهياتها كثيرة، ويصعب علىٰ الإنسان الذكر في كل أحواله، ولذلك ورد أن أجر ذكر الله في السوق كبير؛ لما فيه من الملهيات، جاء في الحديث: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو علىٰ كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»(١).

ثالثها: مواساة وإعطاء الإخوان من المال؛ فإن الأخوة ليست كلمة تقال، بل إن الأخ له حقوق، ولا يكمل إيمان الإنسان حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا لا شك أن فيه مشقة علىٰ النفس، وتزيد المشقة إذا أضيف إلىٰ هذا الحق المواساة بالمال؛ لأن المال شقيق الروح، وقد وصف الله الإنسان بأنه شديد الحب للمال، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٢٧) برقم: (٣٤٢٨)، وقال: حديث غريب؛ وابن ماجه في سننه (٣/ ٣٤٤) برقم: (٢٢٣٤)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٢) برقم: (١٩٧٥)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه، والله أعلم؛ وقال البغوي: هذا حديث حسن غريب. ينظر: شرح السنة للبغوي (٥/ ١٣٣) برقم: (١٣٣٨).

٢٦٢

الاستعداد للآخرة

قال الربيع بن خُيَثْم رحمه الله: «هيِّئ جهازك، وأصلح من زادك، وكن وصيَّ نفسك»(١).

المعنى الإجمـالي

السفر في الدنيا بغير زادٍ- قريبًا كان أم بعيدًا- يُعدُّ ضَربًا من الحماقة والسفه، وقلة التقدير والتدبير، فإذا كان سفر الدنيا وهو سفر أقدام، وتعب أجساد تُحدَّد مواعيدُه، وتمتلئ الأوعية بالأزواد من كل شيء، فما بال السفر والسير إلىٰ الله، الذي يغفل عنه الناس، ولا يشعرون إلا وهم في معسكر الموتىٰ، فيصحون بعد رقاد، ويندمون بعد فوات، ويتحسرون بعد نفاد المهلة وانقطاع الأمد!

فالعاقل هو الذي يُعِدُّ نفسهَ لطول السفر ووعورة طريق الآخرة، ويهيّئ الزاد ويستكثر منه، ويكون وصيًّا وقيّمًا علىٰ نفسه؛ ولا يَكِل الأمر إلىٰ غيره؛ فإن كل إنسان موكل بنفسه وحده المسؤول عنها، لا يحمل عنه أحد ذنوبه، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر:١٨].

وكل إنسان خبيرٌ بنفسه بصير بعللها وأدوائها، وقوتها وضعفها، وإقبالها

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٧٠).

وإدبارها، وكل ذلك الزاد الذي يعده العبد إن أحسن إعداده فإنه يوصله إلىٰ نهاية مضمار السباق وهي جنة الله ورضوانه، والزاد يحتاج إلىٰ استزادة وإحكام؛ ذلك أن السفر بعيد، والعقبة كؤود، والناقد بصير، فما خف الحساب علىٰ قوم إلا حين خفَّ حملهم من الأوزار والمعاصي، وكثر زادهم من الطاعات والقربات؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة:١٩٧].

٢٦٣

راحة الآخرة في الطاعة

قال ابن القيم رحمه الله: «قيلَ لِبعضِ العُبَّاد: إلى كَم تُتعِبُ نفسَك؟! فقال: راحتَها أريدُ»[(١)].

المعنى الإجمالي

سُئل بعض العُبَّاد عن كثرة عبادته، وتعريض جسده للتعب بهذه الأعمال والطاعات: إلىٰ متىٰ تُتعِب نفسَك؟ فأجاب بكلام فيه دلالة علىٰ معنىً غاب عن ذهن السائل، لأن مَن فهم حقيقة الدين وسرَّ التكاليف الشرعية، لا يستغرب هذه المواظبة والمجاهدة في العبادات، فجاء الرد من هذا العابد بيانًا لمعنىٰ ما يقوم به، وهو أنه يقوم بهذه الأمور الشاقة علىٰ الجسد من العبادات بغية الوصول إلىٰ الراحة في الآخرة.

والراحة التي ذُكرت هنا تُقصَد راحة النفس وارتياح الإنسان في الآخرة، لأن هذا هو المطلوب الأساسي من العبادات، والراحة النفسية الدنيوية إنما هي من آثار تلك الراحة الأخروية التي سيُكرِم اللهُ بها عبدَه في الآخرة، وقد أظهر جزءًا من هذه النعمة علىٰ عباده في الدنيا تشويقًا لهم إلىٰ ما أُعِدَّ لهم في الآخرة.

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٧).

قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي فيما روىٰ عنه النبي ﷺ: «أعددتُ لِعِبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر علىٰ قلبِ بشرٍ». ثم قال النبي ﷺ: «فاقْرَؤُوا إنْ شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]»(١).

وراحة الإنسان في الدنيا كذلك والسكينة والهدوء في امتثال أوامر الله ﷻ، كما أن القلق النفسي والتعب الجسدي والاضطراب الفكري تكون من عوارض المعاصي والمخالفات التي قد يرتكبها العبدُ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٢٤٤)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (٢٨٢٤).

٢٦٤

محادثة القلوب

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَادِثُوا هذه القلوبَ؛ فإنها سريعةُ الدُّثُورِ، واقْرَعُوا هذه الأنفُسَ؛ فإنها طامحةٌ، فإنكم إلَّا تمنعوها تنزِعْ بكم إلى شرِّ غايةٍ»[١].

بيان المفردات

حادِثوا: من المحادثة، وهي الكلام بين طرفين، ويأتي بمعنىٰ الجِلاء والتجديد والصقل[٢].

الدثور: هو الدُّرُوس والتقادم، مصدران، وقد دثَرَ الرسمُ وتداثر ودثَرَ الشيءُ يدثُر دثورًا واندثر: قَدُم ودَرَس[٣].

المعنى الإجمالي

حادثوا هذه القلوب بذكر الله، أي: اجلُوها بالمواعظ، واغسِلوا الدرَنَ عنها، وشوِّقُوها حتىٰ تزيلوا عنها الصدأَ الذي تراكب عليها من الذنوب، وتعاهَدوها

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ١٢٩).
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٢/ ١٣٤).
(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٧٦).

بذلك، كما يُحادَث السيفُ بالصِّقال[(١)]، فإنها سريعة الدثور، يعني دُرُوسَ ذكرِ الله تعالىٰ وامِّحائه منها، فاجلوها واغسلوا الرَّيْنَ والطبَعَ الذي علاها بذكر الله[(٢)]، واقرعوا هذه الأنفس، أي: أدِّبُوها واضربوها كي لا تنفلت من القيد، فإنها طامحة تطمح إلىٰ الشر وما حُرِّم عليها، كالفرس الطموح، فإنها إن لم تُلجَم بلجام الشرع ولم تُربَط برباط الحق، تنزع بكم إلىٰ غايات قبيحة، وتجرُّكم إلىٰ المعاصي والذنوب، وتدفعكم إلىٰ مجاوزة حدود الشرع، فاربطوها وامنعوها من الانفلات، كما يربط الإنسانُ دابتَه.

قال الله تعالىٰ في وصف دواء القلوب من الدثور والصدأ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]

وقال الله تعالىٰ في وصف النفس البشرية الطامحة: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف:٥٣]، ثم بيَّن الله عاقبة من اتبع نفسَه وهواه، ومصير من خالفها ونهاها عن هواها: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

(١) لسان العرب لابن منظور (٢/ ١٣٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٧٦).

٢٦٥

من سلك الطريق وصل

قيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: سبَقَنا القومُ على خيلٍ دُهْم، ونحن على حُمُر مُعْقَّرة! فقال: «إن كنتَ على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم!»(١).

بيان المفردات

دُهْم: جمع أدهم، وهو شديد السواد(٢).

مُعَقَّرة: دابة مُعَقَّرة؛ أي: قُطعت إحدىٰ قوائمها(٣).

المعنى الإجمالي

قد حث الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ المسابقة في الخيرات والمسارعة إليها، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١]، وكان أكثر ما يشغل بال السلف الصالح هو أمر الآخرة وكيفية الوصول إلىٰ رضوان الله واللحاق بركب الصالحين، فكان الواحد منهم يتحسر إن فاته خير، ويسعىٰ جهده لِتَدارُك التقصير، وهو ما دفع أصحاب الحسن البصري إلىٰ أن يسألوه عن سبيل اللحاق

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٨).

(٢) ينظر: الميسر في شرح مصابيح السنة لشهاب الدين التوربشتي (٣/ ٨٨٨).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٤/ ٥٩٢).

بصحابة رسول الله ﷺ الذين حازوا قصَب السَّبْق في كل شيء، فأرشدهم الحسن إلىٰ سبيل ذلك، وأن ذلك مُتاح بشرط أن يلتزم السائر طريق الحق الذي ساروا عليه، فسرعة السير لا تغني شيئًا إن لم يكن الطريق الذي سلكته صحيحًا، فإن كنت علىٰ الطريق لا يضرك البطء في السير، **كما قال ابن الوردي في وصيته لابنه:**

لا تقُــل قــد ذهَبَــتْ أربابُــهُ كـلُّ مَـن سـار علـىٰ الـدّربِ وصَـلْ[1].

وعن أنس بن مالك، قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، متىٰ الساعة؟ قال: «وما أعددت للساعة؟» قال: حبُّ الله ورسوله، قال: «فإنك مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدّ من قول النَّبِيِّ ﷺ: «فإنك مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[2].

(١) لامية ابن الوردي لعمر بن مظفر المعري (ص: ٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٤٢) برقم: (٢٦٣٩).

٢٦٦

الانتصار على الشهوات يُفْزِع الشيطان

قال وهب بن مُنَبِّه رحمه الله: «مَن جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظِلّه، ومن غَلَب حلمُه هواه فذاك العالم الغلَّاب»[(١)].

المعنى الإجمالي

من مداخل الشيطان لإغواء بني الإنسان الشهوات؛ فسلط عليهم أعوانه، وأجلب عليهم بخيله ورَجِله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء:٦٤]، فإن أجابه العبد إلىٰ ما أراد قَذَف به في حمْأة الشهوات، فيُقْدِم العبد علىٰ الشهوات غير آبهٍ بعقاب الله من حرمانه من الهداية، وتركه لنفسه حتىٰ تنقطع صلته بالله تعالىٰ.

لكن العبد المؤمن الخائف من ربه، يعلم أن الشهوات التي يُمَنِّيه الشيطان بها ما هي إلا لذات عابرة يعقبها ألم وحسرة وعقاب أليم يوم القيامة؛ ولذا فإن العبد لا يستجيب لنداءات الشيطان ونَفْثِه ووسوسته، بل يجعل تلك الشهوات تحت قدميه، ويستمر في سيره إلىٰ الله، فإن فعل العبد ذلك فقد أفزع الشيطان وأخافه

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٦٠).

وأرغمه وأذله.

ومن مداخل الشيطان إلىٰ بني آدم إشعاله لجذوة الغضب والانفعال من كل شيء، ولذلك ورد في الحديث: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1]، فالذي يتغلب علىٰ نفسه فيملكها عند الغضب فذاك الذي يستحق أن يوصف بالشدة والقوة.

ويعد الغضب مفتاحًا إلىٰ مفاسد كثيرة؛ فمن غضب تكلم كلامًا يندم عليه بعد قوله، ويوقع العبد في محن كثيرة؛ من استحلاله للدم الحرام، وهتكه العرض الحرام، إلىٰ غير ذلك من المحرمات.

لكن العبد الذي يحلم ويتصبر ويستعيذ بالله من همز الشيطان ونفثه ونفخه يكون حليمًا غالبًا لشيطانه، ويجعله الله منصورًا عليه، وغالبًا غير مغلوب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم: (٦١١٤). و**الصُّرَعة**: هو الذي يصرع الناس، ويكثر منه ذلك. ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٢٩٦).

٢٦٧

القوة في العبادات

قال وهب بن منبه رحمه الله: «مَن يَتَعبَّد يَزْدَد قوة، ومَن يَكْسَل يَزْدَد فترة»[١].

المعنى الإجمالي

من الأمور المألوفة المعروفة عند الناس جميعًا أن العمل- وإن كان قليلًا- يورث النشاط والحيوية، ويوجد الدافعية والعزم لدىٰ صاحبه أن يفعل ما بوسعه؛ ليصل إلىٰ الهدف والغاية من عمله، والقعود والتكاسل عن العمل يورث الإحباط واليأس والكسل، ويجعل صاحبه متشائمًا من الحياة.

وهذا التوصيف نفسه مع العبادة لله تعالىٰ؛ فإن من ينوع في عبادته، ويعطي لنفسه من كل عبادة طرفًا، ويلزم نفسه بها وإن كانت قليلة «فإن أحب العمل إلىٰ الله أدومه وإن قَلَّ»[٢]، يظلُّ مقبلًا علىٰ العبادة باستمرار.

والعابدون لله تعالىٰ مع استمرارهم في عبادتهم لله تعالىٰ يزدادون حيوية ونشاطًا، فتراهم نضرةً وجوههم، قوية أجسادهم، وأما المتكاسلون فإنهم يزدادون ضعفًا وفترة وهلاكًا لأنفسهم؛ ولذلك تتجلىٰ الحكمة من أمر الله ﷻ للرسول ﷺ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٥٨).

(٢) جزء من حديث مرفوع، ينظر: مسند إسحاق بن راهويه (٢/ ١٤٠) برقم: (٦٢٦).

في النصب للدعاء والمبالغة فيه وسؤال الله حاجته بعد الفراغ من الصلاة[1]، وكل ذلك من العبادات التي تقوِّي القلب والفكر والجسد أيضًا.

(١) هذه أقوال ذكرها المفسرون، منهم ابن جرير الطبري، ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٤٩٦).

٢٦٨

لذة العبادة في المجاهدة

قال ثابت البناني[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «كابدْتُ الصلاة عشرين سنة، وتَنَعَّمتُ بها عشرين سنة»[(٢)].

بيان المفردات

كابدت: الكبَدُ: الشدة والمشقة، وكابدت الشيء مكابدةً وكبادًا: مُقاساتُك إيّاه في مشقة[(٣)].

المعنى الإجمالي

إنَّ روح الصلاة الخشوع، وقد جعله الله الوصف الأول للمؤمنين فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، ومكابدة الخشوع في الصلاة يأتي بمجاهدة المصلي لنفسه بأن يحضر الصلاة بكُليَّته، فلا نظر ولا فكر ولا شغل عن الصلاة، ولذلك قال بعضُ العارفين: «للصلاة أربع فرائض:

---

(١) ثابت بن أسلم البُناني، أبو محمد، كان من سادة التابعين علما وفضلا وعبادة، صحب أنس بن مالك مدة طويلة، وروى عنه وعن غيره من الصحابة، سكن البصرة، وتوفي سنة ١٢٣، وقيل سنة ١٢٧هـ. ينظر: المعارف لابن قتيبة (١/ ٤٧٦)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٣٨٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٢٠).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٣٠٠).

إجلال المقام، وإخلاص السهام، ويقين المقال، وتسليم الأمر».(١)

إن الشيطان ليتسلط علىٰ العبد في صلاته فيأتيه مُوَسوسًا مشوِّشًا عليه ذهنه وفكره؛ حتىٰ لا يتوافق لسانه مع قلبه، وحتىٰ لا تطمئن جوارحه وتسكن، بل يظل شاردًا متنقلًا بين هموم الدنيا وشعابها.

ولم يكن السلف الصالح ﵏ ليتركوا الخشوع حتىٰ يأتي من تلقاء نفسه، بل قاوموا كل ما يصرفهم ويصدهم عنه، وفرَّغوا أفكارهم للصلاة، فوجدوا بركتها وأثرها في حياتهم كلها؛ من زيادة الخير، وإقبال علىٰ الله، وفتح مغاليق الأمور كلها.

ولكنهم ما وصلوا إلىٰ حالهم ورقيهم العبادي بالخشوع في الصلاة والحصول علىٰ كمال أدائها إلا حين جاهدوا أنفسهم سنين عديدة، ففازوا براحة القلب وخشوعه وخضوعه وإقباله علىٰ الله، وخير مثال التابعي الجليل ثابت البناني الذي جاهد نفسه للخشوع في الصلاة عشرين عامًا، وظل يكابد كل العوائق والشواغل حتىٰ فتح الله له بالتنعم بها عشرين سنة أخرىٰ.

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٦٨).

٢٦٩

جهاد الهوى

قال مالك بن دينار رحمه الله: «جاهِدوا أهواءكم كما تُجاهِدون أعداءكم»(١).

المعنى الإجمالي

جهاد الأعداء هو ذروة سنام الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]، وهذا المرتبة العالية لما يحققه الجهاد من مصالح كبيرة، ولما يحتاجه من جهد وبذل.

وهذا الجهاد بمقارعة الأعداء ونزالهم في ساحات المعركة هو الجهاد الظاهر، وهناك جهاد آخر لا يقل أهمية عنه وهو جهاد النفس والهوى، بل إن الجهاد الظاهر داخل ضمن جهاد النفس والهوى؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يبذل نفسه وماله إلا إذا

(١) هكذا عن أكثر المصادر، ونسبه المبرد إلى عمر بن عبد العزيز، ويروى حديثًا مرفوعًا ولا أصل له. ينظر: الكامل للمبرد (ص: ٣٧)؛ ربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٢١٨)؛ المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ١٠١)؛ ميزان العمل للغزالي (ص: ٤٢).

جاهد هواه الداعي إلىٰ حب الراحة والدعة والسلامة.

واتباع الهوىٰ آفةٌ خطيرة تحرف المسلم عن المسار الصحيح في طريق سيره إلىٰ الله، قال تعالىٰ مخاطبا داوود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]، وبالعكس فإن مخالفة هوىٰ النفس الذي يكون علىٰ غير هدىٰ من الله من أسباب نيل مرضاة الله ودخول الجنة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

من أجل ذلك يلزم علىٰ المسلم أن يجاهد هواه باستمرار وأن لا ييأس من مجاهدتها حتىٰ يزداد من الطاعات ويبتعد عن العصيان والزلل، ومع استمرار المجاهدة يحصل علىٰ محبة الله ورضوانه ويصل إلىٰ مقصوده بإذن الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قال الشاعر:

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة   وكان عليها للخلاف طريقُ
فخالف هواها ما استطعت فإنما   هواك عدو، والخلاف صديقُ

٢٧٠

طول القيام بين يدي الله تعالى

قال حسان بن عطية رحمه الله: «من أطال قيام الليل يهون عليه طول يوم القيامة»[(١)].

المعنى الإجمالي

قيام الليل مدرسة إيمانيةٌ تشحذ الهمم، وتربي النفوس على تحمل المتاعب والمصاعب التي يواجهها المؤمنون الدعاة، فهو دأب الصالحين من لدن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام إلى قيام الساعة.

وقيام الليل يكون في خلوة عن أعين الناس، يترك القائم فراشه الوثير، ونومه الهنيء، وشهوته، ويقوم بين يدي علام الغيوب ﷻ، وقد جعل الله جزاءهم ومكافأته ثم متوافقة مع خفاء عملهم، فقال ﷻ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

لقد كان من هديه ﷺ قيام الليل وإطالة الوقوف فيه، حتى تتفطر رِجلاه، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٧٠).

قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١).

وطول القيام في الدنيا راحة للعبد يوم القيامة من طول الوقوف والانتظار في المحشر، لأن الجزاء من جنس العمل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٣٠)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (٢٨١٩).

٢٧١

الصبر على المجاهدة

قال محمد بن المنكدر[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كابدْتُ نفسي أربعين سنةً حتى استقامت»[(٢)].

بيان المفردات

كابدت: المكابدة هي: المعاناة والمشقة، وكابدت الأمر؛ أي: قاسيت شدته[(٣)].

والمعنى أنه جاهد نفسه وعانى الشدة والمشقة حتى حملها على الطاعة والاستقامة.

المعنى الإجمالي

إن من أصعب أنواع الجهاد وأشقها على العبد أن يُخضِع نفسه لطاعة الله ﷻ، وأن يُبْعِدَها عن الشهوات المحرمة، فهذا الجهاد دائمٌ ومستمرٌ مع العبد، لا ينفك عنه ما دام حيًّا؛ لأن النفس من طبعها التفلُّت والانطلاق، وهي ميَّالة إلى الكسل عن

(١) محمد بن المنكدر بن عبد الله، أبو عبد الله، القرشي، التيمي، المدني، التابعي الكبير، حدث عن كبار الصحابة، الزاهد العابد، أحد الأعلام، كان في غاية الإتقان والحفظ والزهد، حجة، توفي سنة ١٣٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٣٥٣)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٥/ ٥٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٤٧)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٣/ ٣٧٦).

الخيرات، أمَّارة بالسوء، وتحتاج إلىٰ صبر وجهاد في إلزامها طاعةَ الله وثباتِها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله وردعِها عنها، فإذا رُوِّضَت ذلَّتْ واستجابت إلىٰ ما تكره، وترويضها ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلىٰ مصابرة مستمرة وعزمٍ قويّ.

وما يردع النفسَ اللجوجَ عن الهوىٰ ... من الناس إلا حازمُ الرأي كاملُه

فحال المؤمن مع نفسه حال المجاهد؛ لا يضع سلاحه ولا يجد راحة، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله عز وجل»[(١)]، فلا راحة ولا اطمئنان إلا إذا وضعتَ قدميك كلتيهما في الجنة.

وإن مما يهون علىٰ المؤمن الصبر علىٰ طول مجاهدة نفسه: أن يقرأ ما ورد من أخبار السابقين في مجاهدتهم لأنفسهم، وأن يتذكر أن أيام الدنيا قليلة وشهواتها مُكدَّرة، فإن جاء الموت قطع عليه كل لذاتها، وقد ورد أن كُرزًا الجرجاني كان يجتهد في العبادة، فقيل له في ذلك، فقال: كم بلغكم عمرُ الدنيا؟ قالوا: سبعة آلاف سنة، قال: فكم بلغكم مقدار يوم القيامة؟ قالوا: خمسين ألف سنة، قال: أفَيَعْجَز أحدُكم أن يعمل سُبُعَ يومٍ حتىٰ يأمن ذلك اليوم؟![(٢)].

(١) الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك (٦/ ١٧).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٠).

٢٧٢

الهوى أشد فتكًا من العدو

قال سلمة بن دينار[1] رحمه الله: «قاتِل هواك أشدَّ مما تقاتل عدوك»[2].

المعنى الإجمالي

يستعدُّ الإنسان لعدوِّه في كل لحظة، فلا يغفل عنه؛ لأن عدوه قد يأخذه على حين غرة وغفلة منه، ويريد له الوقوع في مصائب لا تنقضي، هذا إن كان العدو ظاهرًا لا خفاء فيه ولا في أساليبه، ولكن الإنسان ينسى أن هناك عدوًّا هو أشدُّ عداوةً من عدوه الظاهر، وهذا العدو هو الهوى الذي تدعو إليه نفسه التي يحبها، ويغدق عليها من الخير والرفاه شيئًا كثيرًا، وهي تبعده عن طاعة الله يومًا بعد آخر؛ فهي قد وجدتْ عبدًا غافلًا، منغمسًا في الدنيا، راكضًا وراء سرابها ومتاعها الزائل، دون ضوابط أو قيود.

---

(١) أبو حازم سلمة بن دينار المخزومي، مولى الأسود بن سفيان، ويقال مولى لبني أشجّع من بني ليث الأعرج، الأفزر، المديني، الإمام القدوة الواعظ، شيخ المدينة النبوية، القاصّ الزاهد، سمع الحديث ورواه، ولد في أيام ابن الزبير، مات بعد سنة ١٤٠هـ. ينظر: الأسامي والكنى لأبي أحمد الحاكم (١/ ٣٧٦)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٩٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣١)؛ ونسبه البلاذري إلى عمر، بلفظ: «قاتل هواك كما تقاتل عدوك». ينظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٣٩٠).

ولو علم العبد المسكين أن نفسه أولىٰ بالانتباه والحذر والمجاهدة قبل غيرها؛ حتىٰ تستقيم خطاه، فلا يتعثر، ويتزن، فلا يسقط، ويواصل سيره إلىٰ الله دون توقفٍ أو نكوصٍ لما قدَّم مجاهدة أحد علىٰ مجاهدة هوىٰ نفسه.

ومعنىٰ قتال الهوىٰ: أن يجاهد العبد نفسه بحملها علىٰ طاعة الله تعالىٰ؛ حتىٰ يحبب الله إليه الإيمان ويزينه في قلبه، ويديم الأعمال الصالحة دون انقطاع، مستعينًا علىٰ ذلك بالصبر والصلاة، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥]، والتقرب إلىٰ الله بالنوافل؛ فإنها عونٌ للعبد للمحافظة علىٰ الفرائض وجبرٌ لما قد يحصل فيها من نقصان.

٢٧٣

إيثار رضا الله على هوى النفس

قال شُمَيْط بن عجلان رحمه الله: «إن أولياء الله آثروا رضا الله عز وجل على هوى أنفسهم»[(١)].

المعنى الإجمالي

تهذب الشريعة سلوك العبد وطبائعه، فلا ينظر بعينيه، أو يسمع بأذنيه، أو يتكلم بفيه، أو يأخذ بيديه، أو يمشي علىٰ قدميه، أو يحب ويبغض بقلبه إلا علىٰ وفق ما جاء به الشرع؛ إيثارًا لرضا الله علىٰ هوىٰ النفس. وأولياء الله «يحرسون قلوبهم لكيلا يتفكروا فيما لم يكن فيه رضا الله سبحانه وتعالى»[(٢)].

إن السعي لنيل رضا الله تعالىٰ مغنم عظيم لا يصل إليه إلا من صفَّىٰ الله قلوبهم للإيمان والتقوىٰ؛ لأن من اتصف بصفتي الإيمان والتقوىٰ وازداد منهما بات وليًا من أولياء الله الصالحين، الذين يحبون ما يحبه الله، ويبغضون ما يبغضه الله، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٧).

(٢) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص: ٦٠٧).

وأولياء الله هم قوم اتسمت أفعالهم بإيثار رضا الله علىٰ هوىٰ أنفسهم؛ لأنهم يوقنون أن الله وحده هو من يعصمهم من السقوط في اتباع الهوىٰ، فيقدمون رضاه ومحبته علىٰ غيرها من المحبوبات والمرغوبات النفسية الفطرية، وإنما قدموا رضا الله ومحبته علىٰ محبة كل شيء محبوب مرغوب؛ لعلمهم أن كل متاع الدنيا وشهواتها زائلة، وهي كذلك تمنعهم إن آثروها علىٰ رضا الله من الترقي في مراتب الكمال التي توصلهم إلىٰ رضا الله ومحبته لهم.

قال الله تعالىٰ متوعدًا من يُقدِّم محبة غير الله ورسوله علىٰ محبتهما: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

٢٧٤

إتعاب الأبدان في طاعة الرحمن

قال شُمَيط بن عَجْلان رحمه الله: «إني والله ما رأيت أبدانكم إلا مطايا إلى ربكم عز وجل، ألا فأَنضُوها في طاعة الله يبارك الله فيكم»(١).

بيان المفردات

فأنِضُوها: يقال: أنضى بعيره: إذا هزَّله بالسير فذهب لحمه، وأنضى الثوب: أبلاه(٢). والمعنى: أفنوا أبدانكم وأبلوها في الطاعة.

المعنى الإجمالي

خلق الله الأبدان لتكون مَطِيَّة ودابّة ذلولًا تنقل العبد من مكان إلى آخر، وهذه وظيفة من وظائفها، ومن وظائف هذه الأبدان أن تكون لطاعة الله مستجيبةً، وصابرةً على كل التكاليف؛ ولذا كان النَّصَب في طاعة الله تدريبًا لها على تحمل المشاق في الطاعة، وما أعظم البدن الذي يحمل صاحبه ويعينه على طاعة الله تعالى.

وإن وجدَت النفسُ مشقة في الطاعة فلا بد من تعويدها وتدريبها على أن تكون جاهدة في طاعة الله، وإن أصاب الجسدَ تعبٌ ونصَب، فما نِيْلَت الدنيا إلا بالسهر

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٣١).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ٥١)؛ ومختار الصحاح للرازي (ص: ٣١٣).

والكد والتعب، فكيف لنيل رضا الله تعالىٰ وجنة عرضها السماوات والأرض؟ فلا بد أن يكون البذل والجهد أكبر.

إن الله تعالىٰ أمر نبيه ﷺ بالتعب والنصب في طاعة الله، فقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]، فلا يفرغ من عمل إلا ويدخل في عمل آخر من أعمال العبادة، فالدنيا ليست للراحة؛ ولذلك كان النبي ﷺ يُجهد نفسه في طاعة الله ﷻ؛ عن عائشة ﵂ أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتىٰ تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أُحب أن أكون عبدًا شكورًا»، فلما كثر لحمه صلىٰ جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم: (٤٨٣٧).

٢٧٥

حقيقة الدار الدنيا والدار الآخرة

قال سفيان الثوري رحمه الله: «الدنيا دار ممرٍّ، والنار دار مفرّ، والجنة دار مقرّ، فتزوَّدُوا من دار الممر، واهربوا من دار المفر، واعملوا لدار المقر»(١).

المعنى الإجمالي

المقصود من هذه الحكمة شرح أحوال الدنيا والآخرة ثم توجيه الإنسان إلىٰ ما يجب عليه فعله تجاهها.

إن الدنيا دار ممرٍّ وعبورٍ، ليست دارًا للمكث والبقاء، وبالتالي يجب علىٰ العبد أن يعمل فيه مثلَ ما يعمل الإنسان في مكان لا يريد الإقامة فيه، كالمسافر. قال النبي ﷺ: «كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ»(٢)، فينبغي له أن يتزوَّد ما يحتاجه في سفره حتىٰ يبلغ غايتَه، وخير الزاد هو التقوىٰ والعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

والنار دار مفرٍّ، يجب علىٰ العاقل أن يهرب منها ويجتنب الأعمال التي تقرِّبه منها، لأنه إن علِمَ صفاتها وأحوال أهلِها خاف القرب منها. قال تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (ص: ١٣٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٦).

تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ [الليل: ١٤-١٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦].

أما دار الإقامة والاستقرار النهائي فهي الجنة، ويجب علىٰ الإنسان العاقل أن يعمل لها، ويتزوَّد من أجلها. قال تعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥].

٢٧٦

جهـاد الهـوى

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «أشد الجهاد جهاد الهوى، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظًا ومعافى من أذاها»[(١)].

المعنى الإجمـالي

للجهاد أنواع وصورٌ كثيرة؛ فأعلاها وذروة سنامها الجهاد في سبيل الله بالنفس، ومن أنواع الجهاد كذلك جهاد النفس؛ إذ لا يستطيع الإنسان قهر نفسه وإبعادها عن شواغل الدنيا إن لم تكن هناك مجاهدةٌ حقيقيةٌ للنفس، التي تذكر صاحبها بحب السلامة، والبعد عن المغامرة والمجازفة.

ولمجاهدة النفس فوائد جمة؛ منها: كبح جماح النفس وإلجامها، وإبعادها عن الاطمئنان إلى الدنيا والركون إليها، وقد جعل الله عاقبة من اطمأن إلى الدنيا ورضي بها أنه من أصحاب النار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨]، وقد عاتب الله المؤمنين على رضاهم بالدنيا، وانجذابهم إلى شواغلها الذي أدى إلى تثاقلهم عن النفير للجهاد في سبيل الله، فقال

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٨).

تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

إن من جاهد هوىٰ نفسه فقد رحمها، وجعلها تسير في طريق الله وصراطه المستقيم، فسلم من أذىٰ الدنيا وبلائها ومصائبها، وكان محفوظًا- بتوفيق الله- من أذاها الذي تُلحِقه بأهلها الذين يعيشون ويموتون من أجلها، وليس لهم من العلم إلا ظاهره، ولا من السكنية والطمأنينة إلا مظاهرها.

٢٧٧

الإعداد للفوز بالسباق

قال عون بن عبد الله رحمه الله: «اليوم المضمار، وغدًا السباق، والسبَقة الجنة، والغاية النار، فبالعفو تنجون، وبالرحمة تدخلون، وبالأعمال تقتسمون المنازل»(١).

بيان المفردات

المضمار: الضمر من الهزال ولحوق البطن، والفعل ضمر يضمر ضمورًا، والمضمار: موضع تضمر فيه الخيل، وتضميرها أن تعلف قوتا بعد سمنها. وقد يكون المضمار وقتا للأيام التي تضمر فيها الخيل للسباق أو للركض إلى العدو(٢).

المعنى الإجمالي

لقد حض الله عباده على الاستباق في فعل الخيرات، فقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٤٨]، وجعل العمل للفوز بالجنة من أجَلِّ ما ينبغي أن تصرف إليه الجهود، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٠

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤٧).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ٢٨).

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦٠-٦١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٦].

إن المضمار في السباق إلىٰ الله موضعٌ ووقتٌ، فالموضع الدنيا، والوقتُ العمر المحدد والمهلة المحددة لكل مُضمِّرٍ، والمطلوبُ لهذا المضمار-من خلال المدلول اللفظي- الخفةُ والرشاقةُ وتركُ السِمَن والترهل؛ فإن المثقلين بشحومهم وذنوبهم لا يستطيعون السباق، وتخطي العقبات والعراقيل الموضوعة علىٰ طول خط السباق، وغاية المضمار ونهايته إلىٰ جهتين؛ فريقٍ في الجنة وفريقٍ في السعير.

ومع هذا السبق وشدة الزحام عليه يخاف الناس علىٰ أنفسهم من التعثر والتأخر، غير أن رحمة الله وعفوه منجيان للعبد ومدخلان له الجنة، وبقدر السبق وزمن الوصول والأعمال التي قدمها المتسابقون تكون الدرجات والمنازل عند الله في جنته العالية الغالية.

٢٧٨

صدُّ الشهوات يثمر حلاوة العبادة

قال بشر بن الحارث الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد»[1].

المعنى الإجمالي

إن العبد إن تقرب إلىٰ الله تعالىٰ بقربات متنوعة وقلبه مليءٌ بحب الشهوات المزيِّنةِ لسوء الأفعال، والشهوات المانعة عن الطاعات، والشهوات القاطعة عن الوصول إلىٰ سلم الكمال، فإن الشعور بحلاوة العبادة ولذتها سيتلاشىٰ ويضعف يومًا بعد يومًا.

وإن أراد العبد أن يبقىٰ إيمانه مزيَّنًا بالتقوىٰ محاطًا بالورع فعليه أن يجعل بينه وبين الشهوات التي تُبعِده عن حلاوة العبادة حائطًا وحاجزًا سميكًا من تقوىٰ الله ومراقبته، فإذا كانت الحواجز الحديدية مانعة من وصول الأذىٰ إلىٰ العباد، فإن الحواجز الإيمانية المحلاة بتقوىٰ الله ومراقبته والخوف منه تُبعد العبد من الوقوع في مرض الشهوات، والتي يشتد طلبها في الخلوات. ولذلك إذا أراد العبد أن يجد لذة العبادة وحلاوة الطاعة فلا بد أن يجاهد نفسه ويبعدها عن شهواتها.

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٧).

٢٧٩

الليل والنهار مَطِيَّتا العبد إلى الله تعالى

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «الليل طويلٌ فلا تُقَصِّره بمنامك، والنهار نقيٌّ فلا تُدَنِّسْه بآثامك»(١).

المعنى الإجمالي

لقد جعل الله الليل والنهار آيتين من آياته، يخلف أحدهما الآخر ليتمكن العبد من التفكر وشكر الله على نعمه، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢]؛ أي: كل واحد منهما يخلف الآخر، فمن فاته العمل في أحدهما عمله في الآخر(٢)، وما اختلف أحدهما على الآخر بالطول والقِصَر إلا ليعمل فيهما العبد أعمالًا صالحة تنفعه في دينه ودنياه، وليس لعاقل أن يقضي ليله بالمنام الطويل والغفلة، تاركًا الإقبال على الله بالصلاة والدعاء والذكر والبكاء من خشيته.

جاء في الحديث: «الشتاء ربيع المؤمن؛ قَصُر نهاره فصامه، وطال ليله فقامه»(٣)، جعل النبي ﷺ طول ليل الشتاء مزية للمؤمن؛ ليستغله في القيام والعبادة،

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٤).

(٢) ينظر: سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي (ص: ١٠٧).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بتمامه (٩/ ١١٣) برقم: (٨٥٣٢)؛ وأحمد في مسنده (١٨/ ٢٤٥) برقم: (١١٧١٦) مقتصرًا على بعضه. وفي سنده درّاج، وقد ضعفه جماعة ووثقه يحيى بن معين وابن =

فالمؤمن يُزهر قلبه في مواسم العبادة، ويرتع في رياض الأعمال الميسرة، والغافل يمضي ليله بالنوم، فيقصر عمره، وتفوته لحظات التجلي.

ونقاء النهار بإشراق صباحه وتنفُّسه وإشعاع نور شمسه آيةٌ أخرىٰ من آيات الملك الجليل جل في علاه؛ أناره الله بالشمس ليسعىٰ العباد في كسب أرزاقهم، ويشكروا نعم ربهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص:٧٣]، فلا ينبغي أن يقابل هذا التفضل من الله العلي الملك الوهاب بنكران فضله، ومعصية أمره، وتدنيس نقاء النهار بالموبقات.

= حبان، وللحديث شواهد، فيصير حسنًا لغيره. ينظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٤٠٢)؛ وكشف الخفاء للعجلوني (٢/ ٥).

٢٨٠

نور القلب بالتزام السنة

قال ابن عطاء الأدمي رحمه الله: «من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة»(١).

المعنى الإجمالي

من محبة العبد المسلم لنبينا ﷺ أن يقتدي به في أقواله وأفعاله وأوامره وأخلاقه، فقد أثنىٰ الله علىٰ خُلُقِه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

إن التخلق والالتزام بآداب سنة رسول الله ﷺ يقضي علىٰ كل السبل الشيطانية التي يزينها الشيطان بإغوائه وإغرائه، فتأتي السنة لتبين للعبد أن صراط الله المستقيم وطريقه الذي يوصل العبد إلىٰ رحمة الله ورضوانه، هو ما جاء به النبي ﷺ، فعن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطا عن يمينه، وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «كل

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٨٧) برقم: (٧٥٠)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٠٢)؛ وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٠٨)؛ والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ١٠٣).

أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

إن العارف بالله المتَحَلِّي بآداب السنة يستنير قلبه بنور المعرفة التي تعلمها من هدي رسول الله ﷺ ومن العمل بآدابها وأخلاقها القويمة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٢) برقم: (٧٢٨٠).

٢٨١

قوة البدايات

قال أبو علي الدقّاق[١] رحمه الله: «من لم يكن له في بدايته قَوْمة، لم يكن في نهايته جَلْسة»[٢].

بيان المفردات

القَوْمة: المرة الواحدة من القيام، وهو نقيض الجلوس[٣].

المعنى الإجمالي

علىٰ العبد أن يسير في طريق الإكثار من الطاعات ومجاهدة النفس من أجل الوصول إلىٰ مراتب الإيمان العالية التي يحظىٰ فيها بالطمأنينة والراحة، ونهاية هذه الطريق الإيمانية مرتبطة بأولها، فإذا كانت البداية مشرقة كانت النهاية كذلك، وإذا كانت البداية ضعيفة فلن يصل العبد إلىٰ مبتغاه.

(١) الحسن بن علي بن محمد أبو علي الأستاذ الدقاق، الزاهد النيسابوري، شيخ الصوفية، وشيخ أبي القاسم القشيري، إمام عصره بعلم العربية، تفقه علىٰ القفال المروزي، توفي سنة ٤٠٦هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ١٠٤)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٢/ ١٠٣).

(٢) ينظر: تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٢٤٨)؛ الرسالة القشيرية للذهبي (ص: ١٣٤)؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١١/ ٧٣).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٤٩٦).

فيجب أن يوجد في البداية قومة قوية حتىٰ توصل إلىٰ النهاية المرجوة، وهذه القومة تكون بقوة الهمة والعزيمة، وبصدق النية وصفاء السريرة والإخلاص في القصد لله ﷻ، وفي الاستمرارية والدوام وعدم التكاسل والتراخي، وفي اتباع المنهج الذي يرضىٰ عنه رب العالمين.

فمن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتىٰ اشتغل بالعمل ولازم التقوىٰ ونهىٰ النفس عن الهوىٰ، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة، تحقيقا لوعده ﷻ إذ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين[1].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٩٤).

٢٨٢

الإهمـال مفسـد

قال ابن حزم[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إهمال ساعة يفسد رياضة سنة»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

الإنسان في هذه الدنيا في امتحان مستمر، فهو مُعرّض للفتن والبلاء، ومطالب بالمجاهدة في القيام بالطاعات والابتعاد عن المعاصي، فالشيطان متربص به يلتمس غفلته ليصدَّه عن منهج الله، والنفس تدعوه بشكل مستمر لإشباع نزواتها، وأي خطوة يخطوها في اتجاه تلبية رغبات النفس وإغواء الشيطان قد تفسد عليه كل مجاهداته السابقة وتَزِلّ قدمه بعد ثبوتها.

وقد أمر الله نبيه الكريم ﷺ بالمداومة على العبادة والطاعة فقال: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. فالمداومة على العمل الصالح تُمِدُّ المؤمنَ بالهمَّة على مجاهدة نفسه، وتُبعد عنه الغفلة، وقد حَثَّ الرسولُ ﷺ على المداوَمة

---

(١) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أبو محمد القرطبي، الظاهري، الإمام البحر، ذو الفنون، الفقيه، الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير، ولد سنة ٣٨٤هـ، صاحب التصانيف، من كتبه: المحلى، ومراتب الإجماع، والخصال، توفي سنة ٤٥٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٨٤)؛ شذرات الذهب لابن العماد (١/ ٣٧).

(٢) الأخلاق والسير ومداواة النفوس لابن حزم (ص: ٣٣).

علىٰ الأعمال وإنْ كانت يسيرة قليلة فقال: «أَحبُّ الأعمالِ إلىٰ الله تعالىٰ أَدْوَمُها، وإنْ قَلَّ»[١].

وقد روىٰ القرطبي حادثة فيها عبرة، كان سببها نظرة أدت إلىٰ سوء خاتمة، جاء فيها: كان بمصر رجل ملتزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقي يومًا المنارة علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطلع فيها فرأىٰ ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك ما تريد؟ فقال: أنتِ أريد، قالت: لماذا؟ قال لها: قد سَلَبت لُبِّي وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلىٰ ريبة، قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أَتَنَصَّر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر ليتزوجها، وأقام معها في الدار. فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلىٰ سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٨٩) برقم: (٧٨٣).

(٢) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة للقرطبي (ص: ١٩٣-١٩٤).

٢٨٣

قطع المسافة بقطع العلاقة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إن بين العَبْد وبين ربه مسافةً لا تُقطع إلا بِقطع العلائق ورفض العوائق، وعلى مرآة القلب صدأ لا يجلوه إلا نسيان الخلق في جنب ذكر الخالِق»(١).

بيان المفردات

العلائق: جمع عَلاقة، بفتح العين، وهي الهوىٰ والحبُّ اللازم للقلب، وقد عَلِقها عَلَقًا وعلاقةً، وعَلِق بها علوقًا وتعلَّقها وتعلق بها، بمعنىٰ أحبَّها(٢).

العوائق: جمع عائقة، يقال: عاقه عن الشيء يعوقه عَوْقًا: صرفه وحبسه، ومنه التعويق والاعتياق، وذلك إذا أراد أمرًا فصرفه عنه صارف(٣).

الصَّدأ: مهموز ومقصور، الطَّبْع والدَّنَس يركب الحديدَ، وصدأُ الحديدِ: وسخُه(٤).

يجلوه: من جَلَا يَجْلُو، له معانٍ عديدة تختلف حسب موقع الكلمة، وهنا جلىٰ بمعنىٰ كشف وأذهب عنه الصدأ، يقال: جلا اللهُ عنه المرضَ، أي: كشفه، وانجلىٰ

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٥٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٢٦٢).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٢٧٩).

(٤) لسان العرب لابن منظور (١/ ١٠٩).

الغمُّ، وجلوت عني همِّي جَلْوًا، إذا أذهبْتُه، وجلوتُ السيفَ جِلاءً، أي: صقلتُ[١].

جَنْبٌ: الجَنْب والجنبة والجانب، شِقُّ الإنسان وغيرِه، تقول: قعدت إلىٰ جنب فلان وإلىٰ جانبه، وأصل معناه: الجارحة، ثم استُعِير من الناحية التي تليها[٢].

المعنى الإجمالي

إن بين العبد وربِّه مسافةً وبعدًا لا يقطعها إلا بترك العلائق التي تحول بينه وبين الله، وردِّ العوائق التي تصرفه عن الوصول إلىٰ الله، وعلىٰ قلب الإنسان صدأٌ ودرنٌ طمسَ بصيرتَه، لا يمسحه ولا يزيله إلا نسيان الخلق والإقبال علىٰ الله تعالىٰ بذكره والعبودية له.

وقد أشار الله ﷻ إلىٰ هذين الأمرين في عدد من الآيات الكريمة، ومن أبينها ما يلي:

قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]. وهذه الأمور التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية هي أهمُّ العلائق التي تحول بين الله وبين العبد، فالأهل والأولاد والأصدقاء والأموال والأعمال كالتجارات ونحوها هي المسافة المعنوية التي تُبعِد الإنسانَ عن ربه إذا لم يوازن في مراعاة حقوقها وحقوق الله، فهذه الأمور وإن كانت أمورًا ضرورية للإنسان في حياته لكنَّ تعلُّقه بها والتفاني في الاهتمام بها يصرفه عن الله تعالىٰ ويؤدي إلىٰ تضييع حقوقه.

(١) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ١٥٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٧٥)؛ والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٢٠٥).

وأما صدأ القلب وانطماس بصيرته بسبب الذنوب والمعاصي، فمصداق ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]. أي: صار ذلك كصدأ علىٰ جلاء قلوبهم، فعمي عليهم معرفة الخير من الشر، والرَّيْن: هو صدأٌ يعلو الشيءَ الجليَّ(١).

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٣٧٣).

٢٨٤

عدّة سفر الليل

قال ابن الجوزي رحمه الله: «سفَر الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّر المجاعة»(١).

بيان المفردات

مُضَمَّر: الخيل المضَمَّر: هو الخيل الذي خضع لتدريب خاص لتهيئته للسباق، يقال: ضمَّر الخيل تضميرا: عَلَفها حتى تَسْمَن، ثم ردها إلى القوت بعد السِّمَن فاضطمرت(٢).

المعنى الإجمالي

يكون الاستعداد والتجهيز على قدر جلالة العمل وعظمته، لذلك فالسفر وقطع المفاوز في الليل يحتاج إلى تقوية الجسم بالتعود على الصبر وعدم التخمة الزائدة في المأكل والمشرب، ونفس هذه القاعدة تنسحب على النشاط والجلَد في العبادة وقيام الليل، فلا بد من التأهّل لهذا المقام بالصيام في النهار والاستعداد لهذه المقامات الإيمانية بالبعد عن المعاصي.

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

(٢) تاج العروس للزبيدي (١٢/ ٤٠٢).

فكثرة الطعام مدعاة للكسل والتثاقل، كما أن خفة الطعام سبب في النشاط والقوة، قال سفيان الثوري رحمه الله: بِقِلّة الطعام يُملك سهر الليل، وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا[1]، وقد جاء في الحديث: «ما ملأ آدميٌّ وِعاء شرّا من بطْنٍ، حسبك يا ابن آدم لُقَيْماتٌ يُقِمْن صُلْبَك، فإن كان لا بد فثُلثٌ طعام، وثلثٌ شراب، وثلثٌ نفَس».

والمطلوب من المسلم هو التوازن والوسطية، بعيدا عن الإكثار من الطعام المفضي إلى الكسل والدعة، وبعيدا كذلك عن التقشُّف الزائد وحرمان النفس مما أحله الله من الطيبات من الرزق، وأحسن وسيلة لتحقيق هذا التوازن هو الصيام الذي شرعة الإسلام ترويضا للنفس وتقوية للروح.

(١) الشفا للقاضي عياض (١/ ٨٥).

٢٨٥

أصواتهم مسموعة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «هانَ سَهَرُ الحُرَّاسِ لما علِموا أنّ أصواتَهم بسَمْعِ الملِك»[١].

بيان المفردات

هَانَ: أصله هون من باب قَالَ، هَانَ الشيءُ هَوْنًا لَانَ وسَهُلَ فهو هَيِّنٌ، ويجوز التخفيف فيقال هَيْنٌ لَيْنٌ، وهو الأكثر في المدح[٢].

السَهَر: عدم النوم في الليل كله أو في بعضه، يقال سهِر الليلَ كلَّه أو بعضَه إذا لم يَنَمْ فهو ساهِرٌ وسَهْرانُ[٣].

الحُرّاس: جمع الحارس، من الحِراسة وهو الحفاظ على الشيء، يقال: حَرَسَ الشيءَ يَحرُسُه ويَحرِسُه حَرْسًا: حَفِظَهُ؛ وَهُمُ الحُرَّاسُ والحَرَسُ والأَحْراسُ[٤].

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٢٢٢).

(٢) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٦٤٣).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٩٣).

(٤) لسان العرب لابن منظور (١/ ٤٨).

السَّمْع: الأُذُن وحِسُّ الأُذن، والجمع أَسْماعٌ، يقال: سَمِعَه سَمْعًا وسِمْعًا وسَماعًا، وسَمِعْتُهُ وَسَمِعْتُ لَهُ سَمْعًا أي أصغىٰ إليه وسمع كلامه(١).

المعنى الإجمالي

تشير الحكمة إلىٰ مكابدة الصالحين وسهرهم بالليل في عبادة ربهم وذكره ومناجاته، بأن هذه المكابدة والمجاهدة يهونها شعورهم بمعيّة الله لهم، ويهون عليهم تحمّل هذه المشقة والمواظبة عليها معرفتهم بأن أصواتهم ومناجاتهم لربهم لا تذهب سُدىً، بل هي تصل إلىٰ سَمْع الملِك رب العالمين يسمعها ويستجيب لها. وذلك كما ورد في قوله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثُلُثُ الليلِ الآخِر، يقول: مَن يدعوني فأَستجيبَ له، من يسألني فأُعطيَه، من يستغفرني فأَغفرَ له»(٢)، والمنتظَر أكثر لما في الآية الكريمة عنهم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

(١) المصدر السابق (٨/ ١٦٢)؛ المصباح المنير للفيومي (١/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم: (١١٤٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٥٢١) برقم: (٧٥٨).

٢٨٦

قوت الأجسـاد والأرواح

قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «قُوتُ جسدك ما غذَّيْتَه به من الطيبات، وقوتُ روحك بما ربَّيتَه به من أقوات الطاعات في أوقات الخلوات»(١).

بيـان المفردات

القوت: ما يُمسِك الرَّمَقَ من الرزق، والقِيت مثله، وإنما سمي قُوتًا لأنه مِساكُ البدنِ وقوَّتُه(٢).

الخلوات: جمع خَلْوَة، ومثلها الخلاء، وهي الانفراد بالشيء، خلىٰ المكان خلوًا وخلاءً: فرغ ولا شيء فيه، فهو خالٍ، وخلىٰ به أو إليه أو معه: انفرد به، اجتمع معه في خلوة(٣).

المعنى الإجمالي

قوت الجسد الذي يكون به بقاؤه ونُمُوُّه فيما يتناوله الإنسانُ من الأقوات الحسية، فإن كان ما يتناوله في أوقات الطعام حلالًا طيِّبًا كان جسمه في قوة ونشاط،

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ١٦٣).
(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٣٨)؛ والمحيط في اللغة للصاحب ابن عباد (١/ ٤٩٣).
(٣) معجم متن اللغة لأحمد رضا (٢/ ٣٢٩).

وإن كان ما يتناوله من الحرام والخبيث كان أثره على جسده في فتور جوارحه وضعف قدراته.

وحال الروح في الإنسان مثل حال الجسد؛ فإن كان ما يسمع ويرى ويقرأ ويفكِّر فيه من أمور الطاعات والعبادات، كان أثرها في روحه بما يشعر به من علوٍّ في الهمة وقوةٍ في العزيمة وراحة نفسية وهدوء وسكينة، مما يتمتع به الإنسان الذي غذَّى روحه بأنواع من الطاعات في أوقات الخلوات.

وقد أشار النبيُّ ﷺ فيما حكاه عنه أبو هريرة رضي الله عنه إلى أن من موانع استجابة الدعاء ورفع البلاء ما يتقوَّت به الإنسان من المحرمات؛ وذلك أنه ﷺ ذكر رجلًا يكون في سفر طويل، وهو في حالةٍ مُزْرِيَةٍ: أشعث أغبر[1]، ثم يرفع يديه إلى السماء مناديًا ربَّه: يا رب، يا رب، ثم قال النبي ﷺ: «ومطعمُه حرام، ومشرَبه حرام، وملبَسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يُستَجاب لذلك»[2]، فكيف يستجيب الله له وحالته هذه، غذاؤه كله من الحرام.

فإذا كان غذاء البدن من الأرض، لأنه خُلِق من التراب، فغذاء الروح من السماء، لأن مبدأها من السماء؛ قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، ومنتهاها إلى السماء، لأن الإنسان إذا مات صعدتْ روحه إلى بارئها. وغذاء الروح هو: الصلاة والصيام والحج والصدقة والذكر، وكلها تتعلق بالسماء[3].

---

(١) أشعث أغبر: المُلَبَّد الشعر، المُغبَّر، غير مدْهُون ولا مُرجَّل. ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٨٥) برقم (١٠١٥).

(٣) غذاء الروح وغذاء الجسد لوحيد عبد السلام بالي، مقالةٌ نُشرت على شبكة الألوكة.

ومن أنفع أغذية الروح - بعد الواجبات - هو ذكر الله تعالىٰ. فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه مثلُ الحيِّ والميِّت»(١).

وأفضل أوقات الذكر والعبادة وقتٌ يكون فيه الإنسان صافي الذهن فارغ الهم، في خلوة مع ربه، وهو وقت السحر، حيث يكون المكان والزمان خاليًا مما يشغل الإنسانَ أو يصرفه عن القيام بالطاعة والعبادة، فيدخل الإنسان في خلوة مع الله تعالىٰ. وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ الذين يستغفرون الله في أوقات السحر قائلًا: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٨].

وقال النبي ﷺ: «سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه...»، وذكر منهم: «ورجلٌ ذكر اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه»(٢).

وأشار ابن غانم إلىٰ سيدنا موسىٰ عليه السلام حين سأل اللهَ تعالىٰ ما عنده من الخير، فقال كما أخبرنا سبحانه: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص:٢٤]. وهذا غذاء الجسد، ثم في موطن آخر سأل من الله ما يُغذِّي به روحه، فسأل أعظم ما يُنعَّم به أهلُ الجنة في الجنة، وهو النظر إلىٰ وجهه الكريم، كما أخبرنا سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣](٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٣) برقم: (٩٢٣).

(٣) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ١٦٣).

٢٨٧

طريق الكرامــة شديد الوُعورَة

قال ابن غانم المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ينال الكرامة إلا من قال للكرى: مَهْ»[١].

بيــان الـمفردات

الكرامـة: هي الرِّفعة والمنزلة[٢]. وللكرامة معنىٰ آخر اصطلاحي، وهو: «ظهور أمرٍ خارقٍ للعادة من قبل شخص، غير مُقارِنٍ لدعوىٰ النبـوة»[٣]. ولكـن حمـل الكرامـة هنا علىٰ المعنىٰ العام أولىٰ من المعنىٰ الاصطلاحي.

الكرى: النعاس[٤].

مه: زجر ونهي، بمعنىٰ اكْفُف[٥].

---

(١) حل الرموز لابن غانم المقدسي (ص: ١٧٧).
(٢) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٩/ ٥٨١٤).
(٣) التعريفات للجرجاني (ص: ١٨٤).
(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٤٧٢).
(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٢٥٠).

المعنى الإجمـالي

إن الراغب في الفوز والفلاح والترقّي في مراتب الكمال، لا يمكن أن يدرِك ذلك بالراحة، بل لا بد له من مكابدة السهر والتعب، والجِدّ في الطلب، فمن أَلِف السآمة والنوم لم ينل من حظ المجد شيئًا، ولولا المشقة ساد الناس كلُّهم(١).

وما أحسن كلام ابن القيم في هذا الشأن حيث قال: «المصالح والخيرات واللذات والكمالات كلها لا تُنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يُعبَر إليها إلا علىٰ جسرٍ من التعب، وقد أجمع عقلاءُ كل أمة علىٰ أنَّ النعيم لا يُدرك بالنعيم، وأنَّ من آثر الراحة فاتته الراحة، وأنَّ بحَسب ركوب الأهوال واحتمال المشاقّ تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذَّة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلًا استراح طويلًا، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة»(٢).

وصدق الشافعي حين قال(٣):

بقـدر الكَـدِّ تُكْتَسَـب المعـالي ... ومـن طلـب العُـلا سـهر الليـالي
ومـن رام العُـلا مـن غيـر كـدٍّ ... أضـاع العمـر في طلـب الْمُحـال
تَـرومُ العـزَّ ثـم تنـامُ لـيلًا ... يغـوص البحـرَ مَـن طلـب اللآلـي
عُلُـوُّ الكعـب بـالهِمم العـوالي ... وعـزُّ المـرء في سـهر الليـالي(٤)

---

(١) صدر بيتٍ للمتنبي، وعَجُزه: ... الجود يُفقِر والإقْدام قتالُ. شرح ديوان المتنبي للواحدي (ص: ٣٥٢).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٨٩٥).
(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٠٨).
(٤) زاده الزرنوجي في رسالة تعليم المتعلم طريق التعلم. ينظر: شرح هذه الرسالة لإبراهيم بن إسماعيل (ص: ٦٢).

والهمة العالية لا تزال بصاحبها تضربه بسياط اللوم والتأنيب، وتزجره عن مواقف الذل واكتساب الرذائل وحرمان الفضائل، حتىٰ ترفعه من أدنىٰ دركات الحضيض إلىٰ أعلىٰ مقامات المجد والسُّؤْدُد[١].

(١) من محاضرة: الهمة العالية وأثرها في تحقيق الأهداف لسعيد العنزي، (مفرغة عبر النت بهذا العنوان).

٢٨٨

المجاهدة طريق المشاهدة

قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «لزوم المجاهدة يوصل إلى حضرة المشاهدة»(١).

بيان المفردات

المجاهدة: مفاعلة من الجهد، فتحًا وضمًا، وهو الإبلاغ في الطاعة والمشقة في العمل، ويستعمل في المحاربة. وعند أهل التزكية: محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها مما هو مطلوب في الشرع(٢).

المشاهدة: تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، وتطلق بإزائه على رؤية الحق تعالى بالأشياء(٣).

المعنى الإجمالي

الإنسان إذا سلك طريق العبادة، فإن كان صادقًا في توبته وعبادته يلزم منه كثرة المجاهدة للنفس والهوى واستعمال جوارحه في الطاعات، وملء الأوقات بذلك.

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز ابن غانم المقدسي (ص: ٧١).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي (ص: ٢٩٧).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي (ص: ٢١٥).

فإذا واظب العبدُ على مجاهدة النفس وهواها ومحاربة الشيطان وكيده يظهر أثر ذلك في حركاته الظاهرة وبركاته الباطنة، لأن الله تعالى جعل رابطة بين الظاهر والباطن، فمن أصلح باطنَه بالتوبة والإنابة ظهر أثر ذلك في استقامة سلوكه وكثرة طاعاته في الظاهر. وفي العكس، إذا أقبل الإنسان على باطنه بمجاهدة نفسه ومخالفتها، وإصلاح باطنه بتطهير قلبه من الأمراض والأدران، والانشغال بذكر الله وتدبر آياته، يظهر أثر هذه المجاهدة في الظاهر: في السكينة والهدوء والوقار الذي يظهر على الإنسان المستقيم، إضافة إلى إشغال أوقاته بالطاعات ونوافل العبادات.

فإذا عمِلت الجوارحُ بالطاعات أثَّر ذلك على قلبه، فيخشع قلبه وتصفو روحه وتزكو نفسه، وإذا أخلصَ القلبَ بالطاعة أثَّر ذلك على جوارحه فاستعملها في مصالحه[1].

وهذا الذي يقصده ابن غانم ﵀ بقوله، أن الإنسان إذا واظب على المجاهدة ولازم باب التوبة والإنابة بمخالفة النفس وهواها، فإن هذه المواظبة توصله إلى مقام الإحسان الذي يكون العبد فيه كأنه يرى ربه، وإن لم يره رؤية العين فإنه يعلم يقينًا أن الله تعالى يراه.

وقد قال الله تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء:٧٩]. فإذا كان هذا حال رسول الله ﷺ مع ربه، فماذا يكون حال غيره من عامة البشر؟

(١) المصدر السابق (ص: ٧١).

رأىٰ سعيد بن المسيب رجلًا وهو يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه»[١].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٤٨٦) برقم: (٦٩٥٨)؛ وعبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٥٤٥) برقم: (٣٤٢١)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٤/ ٣٧٨) برقم: (٣٥٩٣).

٢٨٩

أضعف الخلق وأقواهم

قال إبراهيم القصَّار الرقي[(١)] رحمه الله: «أضعف الخلق من ضَعُف عن رَدِّ شهوته؛ وأقوى الخلق من قَوِي على ردِّها»[(٢)].

المعنى الإجمالي

لا تقاس القوة والضعف بالجسد والعقل فحسب، بل إن أحق من يستحق وصف القوي هو العبد الذي يقوى ويتغلب على شهواته وهوى نفسه، وبخاصةٍ شهواته التي تُلحّ عليه وتحاصر تفكيره، وتدفعه نفسه إليها دفعًا عنيفًا، فإن استجاب لنداء الشيطان، ولم ينتهِ عن نهي الرحمن سبحانه وتعالى، فهو الضعيف المخذول؛ ولذلك فقد فُسر الضعف في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النساء:٢٨] بضعفه في أمر النساء[(٣)].

وإنْ طلب الإعانة من الله، وتزود بالإيمان، وابتعد عن مسالك الشيطان التي

(١) إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الرقي الحنبلي، الزاهد، نزيل دمشق، أخذ الروايات عن الشيوخ، وعني بالتفسير والفقه والتذكير وبرع في الطب، وله كتب ومختصرات، ألَّف تفسيرا للفاتحة. ولد سنة نيف و٦٤٠ وتوفي سنة ٧٠٣هـ. ينظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٥/ ٢٠٦)؛ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١/ ٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٥٤)

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٨/ ٢١٦).

يدخل منها؛ فلا يجالس أصحاب الشهوات، ولا يقرأ قصصًا تؤجج شهوته، ولا يمد طرفه إلىٰ ما حرَّم الله عليه فهو القوي المعان من الله تعالىٰ.

فهذا نبي الله يوسف ﷺ عندما راودته امرأة الله العزيز، ثبَّته الله وأعانه، فلم يجبها إلىٰ ما أرادت؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، وهذه الآية مثال يحتذي به كل عبد منيب سالك طريق النجاة.

٢٩٠

خرق العادات

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كيف تُخرق لك العوائد وأنت لم تَخرِق من نفسك العوائد؟!»(١).

بيان المفردات

خرق العوائد: تغيير في السنن الكونية المعتادة.

خرق عوائد النفس: تغيير ما جبلت عليه النفوس من العادات القبيحة والأخلاق الذميمة.

المعنى الإجمالي

كرامات الأولياء ثابتة في الشرع، ومستمرة من لدن الصحابة رضوان الله عليهم وحتى يومنا هذا، ومن أمثلة ذلك ما رزقه الله لمريم بنت عمران عليها السلام حيث كان يوجد عندها العنب في غير زمانه(٢)، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]، ومن أمثلة الكرامات كذلك سماع سارية رضي الله عنه وهو في أرض

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤٢).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٣٥٥).

الفتوح البعيدة لنداء عمر بن الخطاب ﵁ من المدينة على المنبر حين قال: «يا سارية الجبل، يا سارية الجبل»(١).

وهذه الكرامات هي نوع من البشرى للمؤمن ينعم الله بها عليه وتكون سببا لتقويته في وجه ما يلقاه من الصعاب أثناء دعوته إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

والطريق للوصول إلى هذه المرتبة من الصلاح والولاية هو التحقق بمعاني الإيمان والتقوى عن طريق مجاهدة النفس وإحداث خرق في العادات القبيحة التي تعودت النفس عليها مثل الحرص والحسد والأنانية والتعلق بالأسباب.

فهذه الحكمة من ابن عطاء ﵀ فيها تساؤل يحمل معنى النفي؛ إذ كيف تخرق سنن الكون للإنسان وهو لم يخرق عوائد نفسه التي تحول بينه وبين مرتبة القرب من الله ﷻ؟!

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠/ ٢٥).

٢٩١

لزوم الجادة وسير الليل

قال ابن القيم رحمه الله: «إنما يُقطَع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادَّة وسير الليل، فإذا حادَ المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل الى مقصده؟»(١).

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا، وقاربوا، واغدوا، وروحوا، وشيء من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»(٢).

يرشدنا سيدنا محمد ﷺ إلىٰ التزام الوسط في العبادة بلا إفراط ولا تفريط، فمهما عمل العبد لن يدخل الجنة بعمله، بل بفضل الله ورحمته، ويحثنا علىٰ العمل في الأوقات المفضلة الثلاثة، أول النهار وآخره؛ فهما وقتا النشاط في العبادة

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٥).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٥) برقم: (٢٦٨٢).

والعمل، والليل؛ فهو الوقت الذي تطوىٰ به الأرض، ويستعين المسافر فيه علىٰ قطع المسافات(١).

وحكمة ابن القيم ﵀ تنضوي تحت هذا الحديث الشريف، فالمسافر يصل إلىٰ وجهته بالاستقامة علىٰ الجادة الموصلة، وسلوك الطريق الوسط، وعدم تضييع الوقت بالطرق الفرعية، ويقطع السفر بالسير ليلا، لما في الدلجة من البركة، والعبد في هذه الدنيا مسافر، فيا فوز من عرف طريقه فلزمه، واستعان علىٰ اجتيازه بوقت السحر، وقت التجلي الإلهي، وقت إجابته حوائج السائلين، وغفرانه ذنوب المستغفرين، وقبوله توبة التائبين، وقربه من المحبين.

(١) المحجة في سير الدلجة لابن رجب الحنبلي (٤/ ٤١٨).

٢٩٢

الكفاية في الاشتغال بالله

قال ابن القيم رحمه الله: «اشتَغِلْ به في الحياة يَكْفِكَ ما بعدَ الموتِ»[1].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة معنىً عظيما لو يلتزم به العبد فإنه يفوز فوزا عظيما، ألا وهو الاشتغال بالله سبحانه وتعالى، حيث خلق عباده لهذا الغرض كما يقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، والعبادة له وطاعته والبعد عن معصيته هو الاشتغال بالله، فمن اشتغل به في هذه الحياة الدنيوية يكفيه الله في الحياة الأخروية بعد الموت، ومن كان الله له كافيا فما له من همّ وغمّ ولا من خوف وقلق، وذلك في الدنيا والآخرة، كما يصرح به جل وعلا قائلا: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨]، أي لا يخافون مما سيأتي ولا يحزنون على ما فات من الدنيا.

وبعد الموت ينجيه الله من عذاب القبر بسبب اشتغاله به سبحانه وطاعته له كما ورد في حديث ذكر فيه النبي ﷺ حال الإنسان في القبر، وفيه: «يأتيه رجلٌ حسَنُ الوجه طيّب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسُرُّك، وهذا يومك الذي كنت توعَد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجهُ يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح،

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٦).

فيقول: رب أَقِمِ الساعة، رب أَقِم الساعة ثلاثا»[1].

وأما في الآخرة فعطاء ربه له غير محظور، حيث يقول تعالىٰ عنه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩-٢٠].

والاشتغال بالله تعالىٰ في الحياة لا يعني إهمال نصيبه من الدنيا واختيار الرهبنة، فلا رهبانية في الإسلام، بل يعني التوازن بين أموره في الدنيا التي هي معاشه وبين أمور الآخرة التي إليها معاده، وليعمل بالاعتدال لكليهما كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص:٧٧].

(١) أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد (ص: ٤٣٠) برقم: (١٢١٩).

٢٩٣

حـلاوة الوِصـال

قال ابن القيم رحمه الله: «تذكَّرْ حلاوةَ الوصالِ يَهُنْ عليك مُرُّ المجاهدة»(١).

المعنى الإجمـالي

هذه الحكمة مما ساقه ابن القيم رحمه الله في معرض حثِّه للسالك على الصبر والمجاهدة والتحمل، وأن الطريق قد قرب ولم يبق إلا القليل، ومن ضمن ما قاله لتثبيت قلب المؤمن على الجادة في سيره إلى الله قوله: إن ذكرتَ واستحضَرْتَ متعةَ ولذةَ لحظةِ الوصال والقرب من الله تعالى، ومعيَّة الله للصابرين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، فعند ذلك يهون عليك تعب المجاهدة ومشقة العبادة، فتجد الأمر سهلًا ميسورًا.

وهذا المشهد يتكرر كثيرا في القرآن الكريم والحديث النبوي، حيث يذكِّر الله تعالى عبادَه دائمًا بنعيم الجنة وإكرامه لهم في الآخرة، لمن آمن منهم وعمل صالحًا، وهو الأسلوب الذي استخدمه النبي ﷺ لتثبيت أصحابه على طريق الحق والمجاهدة، فقد كان مع توجيهه لعمل حسن يذكر ثواب ذلك العمل، حثًا على القيام به والصبر عليه.

---
(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١١٣).

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥]، وقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢].

٢٩٤

مشقة التزكية

قال ابن القيم رحمه الله: «تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن كل مولود يولد على الإيمان والأمانة، كما ورد في الأحاديث[(٢)]، ولكن نزعات الأهواء والشهوات تَحْرِف فطرة الإنسان عن المنهج القويم، لذلك نزلت الشرائع وأُرسلت الرسل؛ لِتُعيد أخلاق الناس إلى أصالتها، كما ورد في الحديث: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[(٣)].

وقد بين الله أن النفس أمَّارة بالسوء، و(أمَّارة) من صيغ المبالغة، فهذا يدل على إلحاحها بأمر السوء، مما يجعل من علاجها وتزكيتها أمرًا شاقًّا يحتاج إلى مجاهدة مستمرة، وما تزال تتربص بصاحبها، حتى إذا ما غفل عنها لحظة أعادته إلى المخالفة، فمن أراد أن ينهى نفسه عن هواها لا بد أن يكون دائمَ اليقظة، قويَّ العزيمة، مُتَنَبِّهًا لمزالقها الكثيرة الخطيرة.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٦).

(٢) «كل مولود يولد على الفطرة». أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٠)، برقم: (١٣٨٥)، وحديث: «حدَّثَنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال». أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٥٢) برقم: (٧٠٨٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٥١٣). وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ١٨٨).

ومن الأمور التي جعلت تزكية النفس أصعب من علاج البدن: أن آفات النفس كثيرة مُتَشعِّبة، وأنها خَفيّة لا يكاد يُدرك معظمَها إلا من جالس أهل الصلاح والعلم، ثم إن اهتدىٰ إلىٰ معرفة آفاتها يجد صعوبة شديدة في إخضاعها، فلا تكاد تنقاد له، أما علاج الأبدان فهو علاج لأمور واضحة تظهر للأطباء بالفحوصات والأشعة ونحوها.

وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «يطْلُع الآن عليكم رجلٌ من أهل الجنة»، فطلع رجل من الأنصار تنْطِفُ لحيَتُه مِن وَضوئه، وقد تَعَلَّق نعليه بيده الشمال، ثم تكرر الموقف في اليوم الثاني والثالث، ويخرج نفس الرجل، فتبعه عبد الله بن عمرو، فقال: إني لاحَيْت أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتىٰ تمضي فعلت؟ قال: نعم. فبات عنده تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الليالي أخبره عبد الله بما قاله رسول الله صلىٰ الله عنه، وأنه إنما أراد المبيت عنده لينظر إلىٰ عمله الذي أوصله إلىٰ تلك المنزلة، فقال له: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما وليتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشًّا، ولا أحسد أحدًا علىٰ خيرٍ أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق[1].

---

(١) الحديث بكماله أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٩/ ٣١٨) برقم: (١٠٦٣٣)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٦٨٥) برقم: (١٢٨٩٤). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٧٩).

٢٩٥

كن خفيف النوم

قال ابن القيم رحمه الله: «لا بدَّ من سِنَةِ الغفلة ورُقادِ الهوى، ولكن كُنْ خفيفَ النوم؛ فحُرَّاسُ البلد يصيحون: دنا الصباحُ!»[١].

بيان المفردات

السِّنَة: النعاس من غير نوم[٢].

الرُّقاد: النوم[٣].

دنا: قرُب[٤].

المعنى الإجمالي

من طبيعة الإنسان أنه يقوىٰ أحيانا ويضعف أحيانا، ويكون نشيطا مُتحَمِّسًا ثم لا يلبث حتىٰ يصبح كسولًا متثاقلا، وهذه الأحوال تشمل تفكير الإنسان وقلبه وجوارحه، وتشمل مجالات حياته المختلقة ومنها مجال قوة العبادة والطاعة، فمما تقتضيه طبيعة الإنسان وجبلّته أنه لا يثبت علىٰ حال واحدة من القوة والنشاط في

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٥).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٤٩).
(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٨٣).
(٤) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ١٧١).

العبادة، بل لا بد أن يصيبه الضعف أحيانًا، وقد شكا بعض الصحابة هذا الأمر للنبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون علىٰ ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة علىٰ فُرُشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً» ثلاث مرات(١).

إذن لا مناص من مرحلة الفتور التي تشبه ضعف الإنسان بسبب النعاس أو النوم، لكن هذه المرحلة قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة، كما أن درجة الغفلة قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة، والذي ينبغي علىٰ المسلم أن يفعله إزاء هذا هو أن يحاول تقليل درجة الفتور وتقليل مدتها، حتىٰ لا يبتعد كثيرا عن حياة قلبه التي تضعف كلما طالت الفترة وكبرت درجتها، ويشبه ذلك النوم الخفيف الذي لا يغيّب النائم تماما عن الواقع الذي حوله، وإنما يبقىٰ علىٰ أهبة الاستعداد، فإن الحراس ينادون باقتراب الصباح، ولا يقدر علىٰ النهوض إلا خفيفو النوم.

كذلك يجب أن لا تكون الغفلة كبيرة لأن أجل الإنسان محدود، والموت يطرق الأبواب فجأة، وإذا مات الإنسان انقطع عمله، فلْيسارع المسلم في عبادة ربه، ولا يستغرق في اتباع الهوىٰ؛ فإن البداية تكون في الإكثار من المباحات، ثم في التقصير في السنن والنوافل، ثم تمتد إلىٰ التقصير في الفرائض والتجرُّؤ علىٰ المحرمات.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨ / ٩٤) برقم: (٢٧٥٠).

٢٩٦

الحِمْية أسهل من الدواء

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لو احتمَيتَ ساعة لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة»(١).

بيــان الـمفردات

احتميت: احتمىٰ: امتنع(٢)، والحِمْية: منْعُ ما يضرّ من الطعام والشراب(٣).

المعالجة: المِراس والتصارع(٤).

الـمعنى الإجمــالي

كثير من الأمراض يرجع سببها إلىٰ الخلل في النظام الغذائي، فإن الطعام إذا زاد عن حده المطلوب تحوّل إلىٰ تخمة ضارة علىٰ الجسم، فتورث الكسل وتؤدي إلىٰ أنواع مختلفة من الأمراض، وحين ذلك يضطر الإنسان لتعاطي أنواع مختلفة من الأدوية ومن الوصفات الطبية، فيعاني من مرارة الدواء، ويعاني من تنظيم أوقات

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ١٢٠٠).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ١٩٨).
(٣) انظر: تاج العروس للزبيدي (٣٧/ ٤٧٧).
(٤) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣٢٦-٣٢٧).

تناول الجرعات العلاجية، ويعاني من حرمانه من بعض أنواع الطعام والشراب حتىٰ لا تتدهور صحته أكثر، لكنْ لو أنه من البداية التزمَ برنامجا للْحِمْية الغذائية لمدة قصيرة من الزمن وتناول الطعام بالقدر الصحيّ المتوازن، لكان ذلك أسهل عليه وأيسر من المعاناة الطويلة مع تناول الدواء.

وكذلك الحال في الابتعاد عن المعاصي وتجنب الوقوع في أسبابها، فإن مدافعة الإنسان لشهوته ومغالبتها أسهل عليه من معالجة ما يترتب علىٰ الشهوات والمعاصي من آثار، لأن المعصية تجرّ إلىٰ معصية ثانية، وكلما وقعَتْ معصية نُكِت في القلب نكتة سوداء وتسببت في قسوة القلب وامتراء المعاصي، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِت في قلبه نُكْتة[١]، فإن هو نَزَع[٢] واستغفر وتاب صُقِلت[٣]، فإن عاد زيد فيها، فإن عاد زيد فيها حتىٰ تعلوَ فيه، فهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «الصبر علىٰ الشهوة أسهل من الصبر علىٰ ما توجبه الشهوة؛ فإنها إما أن توجب ألما وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرا وجاها قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب هما وغما وحزنا

(١) **النُّكتة**: أثر قليل كالنقطة، شِبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٢) **نزَع**: نزع عن كذا: انتهىٰ عنه. مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٧٣).

(٣) **الصقل**: الجلاء. لسان العرب لابن منظور (١١/ ٣٨٠).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

وخوفا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علما ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوا وتحزن وليا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبا يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»[1].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٣).

٢٩٧

متى يستريح العبد

قال ابن القيم رحمه الله: «ليس للعابد مُستَرَاحٌ إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمُحِب قَرارٌ إلا يوم المَزيد»(١).

بيان المفردات

مُستَراح: المستراح: مكان الراحة، يقال: استَراحَ الرجل يستريح من الراحَة، وهي: وجود رَوح بعد مشقة وذهاب تعب، تقول: أرِحْني إراحةً فأستريح، واستَروحَ إليه، أي استنام(٢).

شجرة طوبى: شجرة في الجنة، ليس في الجنة دارٌ إلا فيها غصن منها، فسر بها ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ [الرعد:٢٩](٣)، وورد في صفاتها أحاديث وآثار متعددة؛ منها حديث: «إن في الجنة لشجرة يقال لها طوبى، لو سخر الراكب الجواد أن يسير في ظلها لسار فيه مائة عام»(٤).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٦)؛ وأصل هذه الحكمة لابن الجوزي في المدهش (ص: ٥٢٤).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٣٧١)؛ لسان العرب لابن منظور (٢/ ٤٦١، ٤٦٧).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣٧)؛ تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٥).

(٤) صفة الجنة وما أعدّ الله لأهلها من النعيم لابن أبي الدنيا (ص: ٨٠).

قَرار: أي مستقَرّ، يقال: قَرَّ الشيءُ قرًّا من باب ضرَب استقرّ بالمكان، والاسم القَرار، والاستقرار: التمكّن، وقرار الأرض المستَقَر الثابت[1].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة المكان الحقيقي للاستراحة والاستقرار للمؤمن، حيث العابد لا مستراح له في الدنيا ولكن تحت شجرة طوبىٰ في الجنة عندما ينتهي الحساب، ويجد كل واحد جزاء عمله، فالعابد المؤمن يستريح هناك لأنه لا خوف بعد ذلك اليوم ولا تكليف فيها وقد حسن مآبه كما يقول تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد:٢٩].

وكذلك المحب الصادق الذي يدعي حب الله تعالىٰ، فقد عمل بمقتضىٰ حبه له وأطاعه وسلك طريق محبوبه، وهو أيضا لا قرار له ولا استقرار إلا يوم المزيد، أي في الجنة عندما يغدق بأنواع من النعم، ولا تقتصر فيها بل هناك مزيد كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

(١) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٤٩٦).

٢٩٨

التدريب النفسي

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «المزاولات تُعطي الملَكات»[(١)].

بيان المفردات

المزاولات: جمع مزاولة، والمزاولة هي: القيام بالشيء وممارسته ومعالجته[(٢)].

الملَكات: جمع ملكة، والملكة هي: صفة راسخة في النفس، تحدث نتيجة لتكرر فعل من الأفعال، بحيث تصبح بطيئة الزوال[(٣)].

المعنى الإجمالي

أن من زاول شيئا واعتاده وتمرن عليه صار ملَكة له وسجية وطبيعة[(٤)].

إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد جعل في الإنسان قوة القبول والتعلم والتهيؤ للكمال واكتساب الفضائل، فنقل الطباع عن مقتضياتها غير مستحيل، غير أن هذا الانتقال قد يكون

(١) مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (١/ ٢٨٤)؛ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (١/ ٣٢).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ١٧٢)؛ أساس البلاغة للزمخشري (١/ ٤٢٧).

(٣) ينظر: التعريفات للجرجاني (ص: ٢٢٩).

(٤) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (١/ ٣٣).

ضعيفا فيعود العبد إلىٰ طبعه بأدنىٰ باعث، وقد يكون قويا ولكن لا ينتقل انتقالا تامّا، فيمكن أن يعود إلىٰ طبعه إذا قوي الباعث واشتدّ، وقد يستحكم الانتقال؛ بحيث يستحدث صاحبه طبعا ثانيا، فهذا لا يكاد يعود إلىٰ طبعه الذي انتقل عنه.

وتهذيب النفس واكتساب الأخلاق الفاضلة بحيث تصبح ملكة راسخة في النفس يكون بالرياضة والتدريب والممارسة العملية، ولو بالتكلف في أول الأمر؛ وذلك عن طريق قسر النفس علىٰ خلاف ما تهوىٰ، ومصاحبة الكاملين وخلطتهم، وقد بين النبي ﷺ إمكان تغيير الأخلاق والطباع، فقال: «ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله»(١).

وضرب ﷺ مثلا دل فيه علىٰ أن التدريب العملي ولو مع التكلف يكسب العادة الخلقية، فقال: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثُدِيِّهما إلىٰ تراقيهما؛ فأما المنفق: فلا ينفق إلا سَبَغَتْ، أو وفَرتْ علىٰ جِلده، حتىٰ تخفيَ بنانه وتعفوَ أثره، وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزِقتْ كل حلْقة مكانها، فهو يوسِّعها ولا تتسع»(٢).

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٢) برقم: (١٤٢٧)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٤) برقم: (١٠٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٥) برقم: (١٤٤٣).

٢٩٩

التعوّد على الإخلاص

قال ابن القيم رحمه الله: «من عوّد نفسه العمل لله لم يكن أشقّ عليه من العمل لغيره»[١].

بيان المفردات

عوّد: بمعنى الاعتياد والمواظبة، يقال: عوَّدته فاعتاد وتعوَّد أي صار عادة له، والمعاود: الرجل المواظب على أمره[٢].

أشَقّ: فعل التفضيل بمعنى الصعوبة والشدة، يقال: شَقَّ الأمرُ علينا يَشُقُّ من باب قَتَلَ فهو شَاقٌّ، والشِقّ المشَقَّةُ[٣].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة فائدة المواظبة على العمل لله وتعويد النفس على طاعته سبحانه وتعالى، بأن التعود على العمل الصالح والمواظبة عليه يجعله عند المرء عادة حسنة تعوّدتْ عليها نفسه ولا ترغب في غيرها، بل صرْفها إلى العمل لغير الله يكون أشد

(١) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: ١٠٧).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٣/ ٨٣)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٥١٤).
(٣) المصباح المنير للفيومي (١/ ٣١٩).

وأصعب عليها.

وهذه من الصفات العظيمة التي قلّما يتصف بها الناس، لأن نفس الإنسان عادة تميل إلىٰ الاستمتاع بلذات الحياة ونِعمها أكثر من التلذذ بالعمل في طاعة الله، وترغب في اتباع الشهوات والهوىٰ أكثر من اتباع المأمورات والابتعاد عن المنهيات، ولذلك وصف النبي ﷺ من عوّد نفسه في طاعة الله بالمجاهد، حيث يقول ﷺ في حجة الوداع: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»(١).

والحديث يدل علىٰ أن تعويد النفس علىٰ طاعة الله يعدّ من أفضل الأعمال، كما أن المصابرة والمثابرة علىٰ أداء الواجبات والبعد عن المحرمات هو من دأب الصالحين، ومن يواظب علىٰ هذه الصفة الحميدة يجد نفسه يشق عليها العمل لغير الله.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/ ٢٨١) برقم: (٢٣٩٥٨).

٣٠٠

فائدة التعود على مخالفة الهوى

قال ابن القيم رحمه الله: «من عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد»[١].

بيـــان الـمفردات

الهوى: إرادة النفس ومحبتها للشيء وغلبته على قلبه، يقول تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠]، معناه نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل، والجمع الأهواء[٢].

الـمعنى الإجمـــالي

تبين الحكمة ضرورة التعود على مخالفة الهوى والنفس، وفائدتها على صاحبها، لأن من لم يجرب مشقة الصبر على المعاصي ومخالفة الشهوات لا يفهم لذة العبادة والطاعات، ومن عوّد نفسه على مخالفة هواه فقد سيطر عليه، وغلبه متى أراد وأمن مكره ووساوسه، ولذلك ينبغي للمؤمن أن يُعوّد نفسه على أمور الدين والشريعة وعلى مخالفة الشيطان والبعد عن المعاصي ليتدرج مع مرور الوقت إلى حسن الطاعة ويدرك لذة العبادة، فتقوى حينئذ هِمته، فإن من ذاق لذة

(١) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: ١٠٦).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣٧٢).

شيء قويت همته في تحصيله ويستطيع مصارعة هواه بقوة أكثر ونشاط أكبر.

وهذا مشاهَد في أمور الدنيا أيضا، فمن اعتاد على ممارسة الأعمال الشاقة والألعاب البدنية كالحمّال أو الرياضي تزيد قوته في تلك الأعمال التي لا تكون عند غيره، وهكذا من يعتاد على مخالفة هواه تزيد قوته الإيمانية ويغلبه بسهولة، وهذا ما أشار إليه ﷻ قائلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، ووعدهم الله بحسن العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٢].

وأما من ترك المجاهدة بالكلية وانصاع لما يشتهي له هواه فتضعف فيه قوته الإيمانية والباعث الديني، وتتقوى نفسه الأمّارة وباعثه الشهواني، فيجد صعوبة ومشقة في مقاومة نفسه، ومع مرور الأيام تنعدم رغبته تماما لاستجابة أوامر الله، ويغرق في سوء عمله كما يقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة:٣٧].

٣٠١

سبيل المجد في بذل الجهد

قال ابن القيم رحمه الله: «من لم يُباشِرْ حَرَّ الهَجيرِ في طِلابِ المجد؛ لم يَقِلْ في ظِلال الشرف»(١).

بيان المفردات

الهَجير: هو نصف النهار وشدة الحر، في القَيْظ خاصة(٢).

طِلاب: الطلبُ.

يَقِلْ: من القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن نوم(٣)، وكذا يقال للنوم في الظهيرة(٤).

المعنى الإجمالي

أنَّ مَن أراد أن يَصِل إلىٰ المجد وسلك لطلبه سُبُلًا تُوصِلُه إليه، ثم لم يرضَ أن يواجه الصعوبات ويقع في المشكلات في سبيل الوصول إلىٰ ما أراد، فامتنع عما

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٥٧).
(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٩٧٣).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٥٧٨).
(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٨٠٨).

قصد إليه واستسلم في وسط الطريق، فمثل هذا الإنسان لن يصل إلىٰ المجد ولن يُحقِّق أهدافَه في الحياة، ولن يكون صاحب شرفٍ ومكانةٍ بين الناس. وهذا الذي أشار إليه بقوله: لم يقِل في ظلال الشرف، لأن لكل شيءٍ ثمنَه، ومن لم يقبل أن يدفع الثمن لن يُحصِّل المطلوبَ.

ثم ذكر ابن القيم بيتًا من الشعر استشهادا لما قاله، وهو **قول عروة بن الورد:**

تقولُ سُليمىٰ لوْ أقمْتَ بِأرْضِنا ... ولم تَدْرِ أنِّي للمُقامِ أطوِّفُ[1].

ومعنى البيت: أن سليمىٰ قالت لصاحبها: لو أقمت في أرضنا ودارنا، ألا تدري أنني أطوف في الأرض وأتجول في البلدان حتىٰ أقِيم في مكان بعد ذلك. ووجه الربط بين الحكمة والبيت، أن من يريد أن يقيم في أرضٍ فلا بد له أن يسير في الأرض ويتردد في البلدان كثيرا، ومعلوم أن الرحلة والسفر قطعة من العذاب وسبب للمشقة والتعب، لكن لا بد من تحمل هذه المشقة والتعب حتىٰ يستطيعَ الإنسانُ الإقامةَ بعد ذلك والاستقرار، وهو مرتاحٌ هادئ البال. والأقرب إلىٰ معنىٰ الحكمة من هذا البيت، **قول الإمام الشافعي:**

بِقَدرِ الكدِّ تُكتسَبُ المَعَالي ... ومَن طَلَب العُلىٰ سَهَر الليالي[2].

فالراحة لا تُنال بالراحة، والنعيم لا يُنال بالنعيم، لكن بالمجاهدة والتعب.

ومصداق كلام ابن القيم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(١) ديوان عروة بن الورد (ص: ١٠٧)؛ والكامل للمبرد (١/ ٢٦٢). ينظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٥٧).
(٢) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٩٩).

[آل عمران:١٤٢]. وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة:٢١٤]. فمن أراد بلوغَ المطالب العالية لا بد أن يبذل جهدًا وتعبًا وصبرًا، حتى يصبح أهلًا لذلك المقام.

٣٠٢

هجر العوائد

قال ابن القيم رحمه الله: «الوصولُ إلى المطلوب موقوفٌ على هَجْر العوائد وقطع العوائق والعلائق»[(١)].

بيان المفردات

العوائد: ما أَلِفَهُ الناس واعتادوه من الرّسوم والعادات التي جعلوها بمنزلة الشرع المُتَّبع.

العوائق: هي أنواع المخالفات الظاهرة والباطنة التي تَعُوق القلبَ عن سيرِه إلىٰ الله، وتقطع عليه طريقَه، وهي ثلاثة: الشركُ، والبدعةُ، والمعصية.

العلائق: هي كُلُّ ما تعلقَ به القلبُ من دون الله من ملاذِّ الدنيا وشهواتها ورئاساتها، وصحبة الناس، والتعلق بهم[(٢)].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢٥).

(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢٥-٢٢٦).

المعنى الإجمالي

طالبُ النفوذِ والوصولِ إلىٰ الله والدار الآخرة -بل وإلىٰ كُلِّ علمٍ وصناعةٍ ورئاسةٍ بحيث يكون رأسًا في ذلك مُقتدىً به فيه- يحتاج أن يكون شجاعًا، مِقدامًا، حاكمًا علىٰ وَهْمه، زاهدًا في كل ما سوىٰ مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه، لا يَثنيِه عن مطلوبه لومُ لائم ولا عذلُ عاذل، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا يخالط الناس إلا علىٰ حذر، غيرَ مرسلٍ شيئًا من حواسِّه عبثًا، ولا مُسرِّحًا خواطره في مراتب الكون.

ومِلاكُ ذلك كُلّه هو هجرُ العوائد وقطعُ العوائق والعلائق الحائلة بينه وبين مطلوبه، لأنَّ الوصول إلىٰ المطلوب المحبوب موقوف علىٰ تركِ هذه الأمور الثلاثة، ولا سبيل للعبد إلىٰ قطعها إلا بقوَّة التعلّق بالمطلوب الأعلىٰ، فإنَّ النفس لا تترك مألوفَها ومحبوبَها إلا لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منه، وكلما قَوِيَ تعلقُه بمطلوبه ضعُفَ تعلقه بغيره، وكذا بالعكس[1].

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢٦ و٢٧٨).

٣٠٣

أنت تَعْمُر جنتك بأعمالك

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا آدم! لم أُخْرِج إقطاعَك إلى غيرك، إنما نَحَّيتُك عنه لأكمل عمارته لك، ولِيَبْعَث إليَّ العمالُ نفقةَ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾»(١).

بيان المفردات

إقطاعك: الإقطاع هنا بمعنى السكنى، يقال: أقطع الناس الدور إذا أنزلهم فيها(٢).

نحّيتك: أي صرفتك عنه وأبعدتك(٣).

المعنى الإجمالي

فالله سبحانه لم يحرم الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنة، ولم يخرجه منها إخراجًا أبديًّا، وإنما أهبطه إلى الأرض ليباشر مهمته التي خلقه من أجلها، وأخبره بأنها مهمة مؤقتة إلى حين، قال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة:٣٦]، يمتعهم فيها إلى يوم

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٢).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٢/ ٣٩).

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٤٠/ ٤٧).

الجزاء؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، وليُعْلِمَهم أن الجنة التي أعدها لهم سلعة غالية، لا ينالها مقصر ومتكاسل مهما كان شأنه في الدنيا ومهما كان قربه من النبي ﷺ، لكن بالعبادة والسهر ومجاهدة النفس، فربيعة الأسلمي رضي الله عنه عندما سأل النبي ﷺ مرافقته في الجنة قال له: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»(١).

وإن الجنة لتُعَمَّر لكلٍّ بحسب عمله، كما ورد في أحاديث كثيرة، فينبغي لمن أراد أن يسكنها الاجتهاد في العبادة ومجاهدة النفس في الطاعة، وترك راحة الدنيا المؤقتة، للحصول على راحة الآخرة المؤبدة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٢) برقم: (٤٨٩).

٣٠٤

أثـر الجوع والشبع في الروح والجسـد

قال بعض الصالحين رحمه الله: «إنّ البطون إذا شبِعَتْ صارت الأرواحُ أجسادا، وإذا جعْنَ صارت الأجسامُ أرواحا»[1].

المعنى الإجمالي

خلق الله عز وجل الإنسان من طين ونفخ فيه الروح، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩]، فالإنسان فيه الجسد الذي أصله الطين، وفيه الروح التي هي من أمر الله سبحانه، وثمّت ارتباط وثيق بين الجسد والروح، وبينهما علاقة تأثّر وتأثير، حيث إنّ أحدهما يمكن أن يكون معاونا للآخر ويمكن أن يطغىٰ عليه.

فإذا غلّب الإنسان جانب الجسد بإعطائه كل ما يطلب من الشهوات المحسوسة كالطعام والشراب، فإن ذلك يجعل الجسد يقوىٰ ويتغوّل علىٰ حساب الروح، فيتثاقل الجسد إلىٰ أرض الكسل والراحة، ويسحب الروح معه إلىٰ هذا التثاقل، حتىٰ تصير الروح وكأنها جثة هامدة لا تقوىٰ علىٰ التحليق في

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٢٢٠)؛ غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري (٣/ ٨).

سماء القيم السامية.

وإذا كبح الإنسان جماح شهوات الجسد وأعطاه من الطعام بقدر حاجته وما يقيم صلبه، فإن ذلك يجعل الروح تقوىٰ وترتفع وترفع الجسد معها إلىٰ المكارم والمعالي، حيث إن الروح تصير قوية قادرة علىٰ الطيران وحمل الجسد معها، والجسد يصير خفيفا نشيطا لأنه تخفف من الأعباء التي أثقلت عليه.

والمقصود هو الحذر من الشبع الزائد عن حاجة الإنسان والذي يورث التباطؤ والكسل، لكن الطعام المباح هو نعمة من الله تعالىٰ علىٰ العبد، يأكل منها بشكل متّزن ويشكر نعمة الله عليه، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٢].

بـاب عمارة الوقت بالطاعات

وترك فضول الخلطة

٣٠٥

الفارغ ممقوت

قال عبد الله بن مسعود ﵁: «إني أكره أن أرى الرجل فارغًا؛ ليس في عمل آخرة ولا دنيا»(١).

المعنى الإجمالي

العبد المسلم عبد ملأ وقته بكل نافع ومفيد؛ فهو يعمل لدنياه وهمته للآخرة، ويحتسب كل عمل من عمل دنياه لآخرته، جعل حياته كلها مصطبغة بصبغة الإسلام، وإذا كان مؤديًا للعبادات فهو يؤديها بقلب منشرح مقبلٍ علىٰ الله تعالىٰ. أما أن يعيش العبد خالي الوفاض ليس له عمل يعود عليه بالنفع في الدنيا، ولا عمل ينفعه في الآخرة، فقد حطّ من قيمة نفسه، وصار عالة علىٰ غيره.

قال سيدنا عمر ﵁: «إني لأرىٰ الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حِرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني»(٢).

وقد حث النبي ﷺ علىٰ العمل والسعي في طلب الرزق، وجعل ذلك من الجهاد، فقال: «ما أكل أحد قطُّ طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده»(٣).

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٢٥٦).

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٧) برقم: (٢٠٧٢).

وفي حديث آخر: مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب النبي ﷺ من جَلَده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخرًا فهو في سبيل الشيطان»[١].

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٥٦) برقم (٦٨٣٥)، ورجاله رجال الصحيح. ينظر: فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب للفيومي (٧/ ٧٤٢).

٣٠٦

المـؤمن بين ثـلاث خـلال

قال خليد بن عبد الله[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن لا تلقاه إلا في ثلاث خلال: في مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة من أمر دنيا لا بأس بها»[٢].

المعنى الإجمالي

يعرف المؤمن نفاسة عمره وقيمة وقته، وحاجته لتعمير حياته بكل نافع مفيد؛ ومن مقتضيات حال العبد المؤمن أنه يرتب حياته علىٰ ثلاث خصال؛ فهو إما في مسجد يعمره، وهذه الخصلة لا تقتضي بقاؤه في المسجد فحسب، بل تدل علىٰ القسم الأول من البرنامج الحياتي للمؤمن فهو يؤدي عبادته من فرائض ونوافل، ويجعل القرآن ربيع حياته، فهو يقرؤه آناء الليل وأطراف النهار، ويقيم به ليله، ويظمأ به نهاره، وهو يطيل الفكر في الخلق والمخلوقات، ويديم الذكر والحمد والشكر لله تعالىٰ.

(١) خُلَيد بن عبد الله، أبو سليمان، العصري، العبدي، البصري، روىٰ عن الأحنف بن قيس وسلمان الفارسي وعلي بن أبي طالب، قيل إنه مولىٰ أبي الدرداء، وروىٰ عنه، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٤/ ٢١٠)؛ تهذيب الكمال لجمال الدين المزي (٨/ ٣٠٩)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٤٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٣٢).

والقسم الثاني من برنامج العبد المؤمن سعيه في عمارة بيته، والسعي نحو كسب معيشته؛ ليتحرر من إيذاء الناس وإهانتهم، فما أهان الناس إلا حاجتهم للناس، ومتىٰ ما استغنوا عنهم كانوا أعزة كرماء.

والقسم الثالث من برنامج المؤمن أن يكون في حاجة من أمر الدنيا مثل صلة أرحامه وأقاربه، وزيارته لإخوانه وقرنائه، أو زيارتهم له، والسعي في مصالح العباد؛ إذ خيرُ الناس أنفعهم للناس.

٣٠٧

ساعـات الدنيا وحسرات ضياعها

قال أبو عمرو الأوزاعي رحمه الله: «ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة؛ يومًا فيومًا وساعةً فساعة، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله تعالى فيها إلا تقطعت نفسه عليها حسرات»[(١)].

المعنى الإجمـالي

سمَّىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة بيوم الحسرة، وقرن الحسرة بالغفلة وغياب الإيمان، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم:٣٩]، ويكثر المتحسرون يوم القيامة، فيقول الله عن من أضاع فرصة وهبت له حتىٰ يكون مسلمًا متبعًا للنبي ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، ويبين الله عن حال الإنسان الذي قضىٰ عمره في الكفر والغي والضلال واللهو واللعب فيقول سبحانه: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر:٢٤].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٤٢).

إنَّ أشدَّ الساعات حسرة يوم القيامة تلك الساعات التي ضاعت في اللهو واللعب في مجالس القيل والقال وهتك الأعراض، ولم يذكر الله فيها. قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ إِلاَّ رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وفي رواية أخرىٰ أن الحسرة تكون حتىٰ للمؤمنين وإن دخلوا الجنة: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يجلسون مجلسًا لا يذكرون الله فيه إلا كانت عليهم حسرة يوم القيامة، وإن دخلوا الجنة»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٩٧) برقم: (٧٠٩٣)؛ وابن حبان في صحيحه برقم: (٥٩٠)؛ والحاكم في المستدرك برقم: (١٨١٤).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٥٧) برقم: (١٠١٧٠)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٠٠٥١).

٣٠٨

الاشتغال بالمفضول عن الفاضل

قال أبو عبيدة مُعمّر بن المثنى[(١)] رحمه الله: «من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن ترتيب الأولويات من أهم المسائل التي تعين المرء على النجاح والتفوق، فإذا ما شغل نفسه بالمفضول على حساب الفاضل، وبالمهم على حساب الأهم؛ ابتعد عن مدارج الكمال، ومنازل العلو والرفعة، ولذلك جعل ابن القيم من العقبات التي يريد الشيطان أن يظفر بالعبد فيها هي عقبة شغل العبد بالأعمال المرجوحة المفضولة، فإن الشيطان يزينها له ويريه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم ربحا، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية[(٣)].

---

(١) معمر بن المثنى، البصري، أبو عبيدة، النحوي، ولد سنة ١١٠هـ، وكان من أئمة العلم بالأدب واللغة، توسع في علم اللسان وأيام الناس، من كتبه: مجاز القرآن، وإعراب القرآن، ومعاني القرآن، توفي سنة ٢٠٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٤٤٥)؛ إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي (٣/ ٢٧٦).

(٢) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٦/ ٢٤١)؛ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ١٦٠).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٥١).

وبما يشير إلىٰ أهمية تقديم الفاضل عن المفضول قوله تعالىٰ: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، فمن الأقوال ما هو حسن ومنها ما هو أحسن، فالبشرىٰ اختصت بمن يتبع الأحسن من الأقوال.

وكذلك ما ورد من حديث عقبة قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعًا، فتخَطَّىٰ رقاب الناس إلىٰ بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأىٰ أنهم عجبوا من سرعته فقال: «ذكرت شيئًا من تِبْرٍ عندنا، فكرهت أن يحبِسَني، فأمَرتُ بقِسمته»[(١)]، وفي رواية للبخاري أيضًا: «كنت خلَّفت في البيت تِبْرًا من الصدقة، فكرهت أن أُبَيِّتَه»، والتِّبْر: قِطَع ذهبٍ أو فضة.[(٢)]

فها هو النبي ﷺ يقدم الأهم علىٰ المهم، فمع أن للصلاة أورادًا وأذكارًا مشروعةً بعد الفراغ منها، إلا أنه لما ذكر شيئًا أهم من تلك الأوراد، قدم الأهم واشتغل به خشية نسيانه وتضييعه، وهذا درس يريد أن يعلمه للأمة بأن تسارع في تقديم الأهم، ولا تنشغل بأشياء أقل أهمية عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧٠) برقم: (٨٥١).

(٢) ينظر: رياض الصالحين للنووي (٥٠/ ٨٨).

٣٠٩

من هـو المغبـون؟

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المغبون من عطَّل أيامه بالبَطالات، وسلَّط جوارحه على الهلَكات، ومات قبل إفاقته من الجنايات»(١).

بيـان المفردات

المغبون: الغبن هو ضعف الرأي ونقصان العقل(٢).

البطالات: جمع بطالة، وأهل البطالات هم الذين لا هَمَّ لهم إلا في ترجئة الأيام بالباطل، فلا هم في عمل دنيا ولا في عمل آخرة(٣).

الهلَكات: جمع هلكة، والاهتلاك: رمي الإنسان نفسه في تهلكة. والتهلكة: كل شيء يصير عاقبته إلىٰ الهلاك(٤).

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٩٤).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٨/ ١٤٠-١٤١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ١٠٩).

(٤) العين للخليل بن أحمد (٣/ ٣٧٧).

المعنى الإجمالي

سمى الله تعالى يوم القيامة بيوم التغابن؛ لأن الناس يتغابنون في المنازل عند الله؛ فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير، وهو يدل على فوت الحظ والمراد(١).

وما سُمِّيَ المغبونُ مغبونًا إلا لغفلته وعدم صحوته من قريب، فهو لا يصحو من رقدته وغفلته إلا بعد فوات الأوان، وحين يرى جزاء الله له في نار جهنم؛ لأنه تجرأ على الله بالمعاصي، وكان في حياته عاطلًا عن الإفادة من عمره في التقرب إلى الله، والتوبة والاستغفار، والفرار منه إليه، فجعل حياته كلها مليئةً بالبطالات، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس، الصحة والفراغ»(٢).

لقد كان المغبون مُسَلَّطًا جوارحه على ما فيه هلاكه وفساده، فلا ينتهي من ذنبٍ حتى يأتي بآخر، فلم يندم على جناياته، وما اجترحته جوارحه، حتى قدم على الله، وهو باقٍ على حاله، لم يغير منه شيئًا.

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٣٩٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم: (٦٤١٢).

٣١٠

أفضل الأعمال

قال أبو عبد الله المغربي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفضل الأعمال عِمارة الأوقات في الموافقات»[(٢)].

المعنى الإجمالي

المؤمن الفطن الكيِّس هو من يعرف واجب كل وقت فيعلم أن كل وقتٍ له واجبه المحتم، قال رسول الله ﷺ: «افعلوا الخير دهرَكم، وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله؛ فإن لله عَزَّ وَجَلَّ نفحاتٍ من رحمته يُصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستر عوراتكم، وأن يُؤَمِّن روعاتكم»[(٣)].

وإذا جاءت أيام النفحات الربانية فليكنْ فيها من المشمرين عن ساعد الجد، الملازمين لكل ما يكون بها من أعمال؛ ففي شهر رمضان أيامه ولياليه، يجتهد في كل يوم وليلة أعظم اجتهاد مما سبقه، وفي العشر الأول من ذي الحجة، ويوم عرفة،

(١) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله المغربي، الزاهد، أستاذ إبراهيم الخواص وغيره، كان كبير الشأن في علم المعاملات والمكاشفات، صحب علي بن رزين وكان أستاذ إبراهيم الخواص، حج على قدميه ٧٩ حجا، من المعمَّرين، مات سنة ٢٧٩هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص١٩٤)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٦/ ٤٠٢)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٣٥).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٣٥)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٩٥).

(٣) الدعاء للطبراني (ص: ٢٩) برقم: (٢٦).

ويوم عاشوراء، وإذا كان في فعل نافلة وفرض فلا ينشغل بالنافلة عن الفرض؛ لأن من شغل نفسه بالفرض عن النافلة فهو معذور، ومن شغل نفسه بالنافلة عن الفريضة فهو مغرور.

٣١١

قيمـة الوقت

قال الحسن بن علوية[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لستُ أبكي على نفسي إن ماتتْ، ولكن أبكي ساعتي إن فاتتْ»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

تبين الحكمة أهمية الوقت والزمن الذي يقضيه الإنسان في هذه الدنيا، لأن الحياة قصيرة والمرء يعمل فيها لحياة أبدية لا نهاية لها، فالمغبون مَن صرفها في أمر لا يفيده في تلك الحياة الأخرىٰ، وغفل عن الحقيقة اليقينية التي يشاهدها كل يوم، وهي انقضاء وقته ودنوّ أجله، فمن لم يستثمر هذه السويعات المحدودة فحريٌّ به أن يبكي، لأنها ضاعت وفاتت ولا يمكن رجوعها.

---

(١) الحسن بن علي بن محمد، أبو محمد القطان، البغدادي، يعرف بابن علويه، الشيخ الإمام الثقة، ولد سنة ٢٠٥هـ، سمع جماعة وروىٰ عنه الشافعي وطائفة، توفي سنة ٢٩٨هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٨/ ٣٦٧)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٥٥٩).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٦٣٤)، هكذا نسب الحكمة إلىٰ ابن علوية، وأما في الحلية ورياض النفوس وغيرها من المصادر نسبها إلىٰ يحيىٰ بن معاذ باختلاف في العبارة، وفيها: «لستُ أبكي علىٰ نفسي إن ماتتْ، إنما أبكي علىٰ حاجتي إن فاتت»، والأول أوضح في موضع الاستشهاد هنا. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥١).

ولذلك يقول ابن علوية: إنني لا أبكي علىٰ نفسي إن ماتت، فالموت حق آتٍ لا محالة ولا فائدة من البكاء عليها، وكل نفس ذائقة الموت ولا تكليف بعده، ولكني أبكي علىٰ ساعتي التي تفوت مني دون عمل صالح وأحاسَب عليها بعد الموت، لأنني خسرتها دون فائدة.

وقد بيّن الله تعالىٰ ونبيه ﷺ أهمية الوقت وقيمته للإنسان، فقد أقسم ﷻ في غير موضعٍ بالوقت وأجزائه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر:١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر:١]، ثم صرح من الخاسر فيه ومن الفائز، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣]، والقسم يكون بشيء قيّم، وفيه إشارة إلىٰ أهميته عند الله ﷻ.

وأما النبي ﷺ فقد قال بوضوح بأن: «نِعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(١)، وقال أيضًا: «لا تزول قدَمَا عبدٍ يوم القيامة حتىٰ يُسْأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه»(٢)، فعلىٰ المرء اغتنام هذه الساعات لئلا يبكي في دار الخلد علىٰ تفريطه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم: (٦٤١٢).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٦١٢) برقم: (٢٤١٧)، وقال: حسن صحيح.

٣١٢

الانشغـال بما لا ينفع

قال سيف اليماني[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من علامة إعراض الله عن العبد أن يَشْغَلَه بما لا ينفعه»[٢].

المعنى الإجمـالي

إنَّ من رضا الله عن عبده أن يشغله بما ينفعه من خيري الدنيا والآخرة، فييسر له عملًا صالحًا يجمع له بين أمري الدنيا والآخرة، ويوفقه برفقة صالحة يعينوه إذا ذكر، ويُذكِّروه إذا نسي، فيكون همه وهمته في حياته كلها مجموعة فيما يُرضي الله عَزَّ وَجَلَّ. وإن لم يرض الله عن عبده أعرض عنه وجعله مشغولًا بما لا يعنيه ولا ينفعه؛ فيتشاغل بتتبع عيوب الآخرين-وبخاصة سقطات الصالحين- وما لا يهمه ولا ينفعه لا في دينه ولا في دنياه.

---

(١) اسمه غَرِيف، وقيل: عُوَيف، وقيل: عَرِيف، العابد، روىٰ عنه علي بن بكار، لم تذكر المصادر ترجمته ولا تاريخ وفاته. ينظر: المؤتلف والمختلف للدارقطني (٣/ ١٦٩١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٣٤).

(٢) طبقات المحدثين بأصبهان الواردين عليها لأبي الشيخ الأصبهاني (٣/ ٢٩٢)؛ ونقل هذا القول في الحلية عن عريف اليماني. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٣٤)؛ ونقله ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٥١٩) عن الحسن.

قال معروف الكرخي: «كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله»[(١)].

ومن علامات إعراض الله عن العبد ألا يوفقه لاتباع الخير، بل يكون صادًّا عن سبيل الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال:٢٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٦١).

٣١٣

علامـة الإفـلاس

قال الشبلي رحمه الله: «علامةُ الإفلاس الاختلاطُ بالناس»(١).

المعنى الإجمالي

المفلس من المال هو الذي خلت جعبته من النقود، والمفلس من الجِدِّيَّة والهمة العالية هو من اشتغل بغير ما يفيده وينفعه، وعلامة الإفلاس في مجال العبادة والطاعة أن يترك الإنسان الاشتغال بما يجلب مرضاة الله تعالىٰ، ويتوجه إلىٰ التخالط الزائد مع الناس.

فالاختلاط بالناس إذا ألهىٰ عن عبادة الله وطاعته كان إفلاسا وخسارة، بل إنه قد يصل إلىٰ درجة العداوة إذا منع المسلم من الطاعة أو دفعه إلىٰ المعصية، حتىٰ ولو كان من قِبَل الأهل والأقرباء، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ [التغابن:١٤].

فالاختلاط المذموم الذي هو علامة علىٰ الإفلاس هو الذي يكون أثره سلبيا علىٰ العبادة والطاعة، لأن الصاحب لا بد وأن يؤثر بصاحبه، فالاختلاط مع صاحب السوء يجلب الضرر علىٰ دين المسلم، أما الاختلاط مع أهل الخير

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٩٠).

والتقوىٰ الذين يدلّون بحالهم ومقالهم علىٰ الله وعلىٰ سبيل مرضاته فهؤلاء أُمرنا بمرافقتهم وصحبتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

كذلك الاختلاط لأجل قضاء حوائج الإنسان الأساسية هو مما لا بدّ منه، مع ضرورة أن ينتبه المرء لدينه باستمرار، وأن لا يغفل عن ذكر الله حين يغفل الناس ويستغرقون في التجارة والأسواق وغيرها، فالأنبياء عليهم السلام كانوا يخالطون الناس ويمشون في الأسواق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

٣١٤

العزلـة قبل التأهل

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إياك والتقرُّبَ من طرف الوَكْر، والخروجَ من بيت العُزلة حتى يتكامل نَباتُ الخوافي، وإلا كنتَ رزقَ الصائد»[(١)].

بيـان المفردات

الوكر: هو عُشّ الطائر وموضعه الذي يبيضُ فيه ويُفرِخ، جمعه: وكور وأوكار[(٢)].

النبات: من النبت، كل ما أنبت الله في الأرض فهو نبت؛ والنبات فعله، ويجري مجرى اسمه، والنابت من كل شيء: الطري حين ينبت صغيرا[(٣)].

الخوافي: هي الريشات التي في طرف جناح الطائر ضد القوادم، وتخفى إذا ضم جناحيه، واحدتها: خافية[(٤)].

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٤٢٦)، وذكره ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/ ١٢٢٠).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٩١).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٩٥ – ٩٦).

(٤) المصدر السابق (١٤/ ٢٣٦).

المعنى الإجمـالي

يبين ابن الجوزي في هذه الحكمة أهمية العزلة المؤقتة والخلوة النسبية في حياة الناس والصلحاء، ولا سيما قبل تمكنه في طريق الخير والعلم والعمل، فإن الخلوة هي مهر أبكار الأفكار، والعزلة تصون أوقات صاحبها وأخلاقه، حيث الطبع لص، ومعاشرة الجهَلة والفسَدة تؤثر عليه بسهولة، فهو يشَبه الخلوة بالأوكار؛ بأن يلتزم السالك في البداية وَكره، ولا يتقرب إلىٰ طرف عُشه ولا يخروج منه قبل أن ينبت ريشه ويتكامل جناحه؛ لأنه لو حاول الطيران قبل ذلك لسقط وصار رزقًا للصياد، وهذا المعنىٰ في فترة النشأة والتربية الأولىٰ وإلا فلا بدّ للطائر من الطيران بعد ذلك.

مفهوم الحكمة ظاهر في خلوته ﷺ قبل النبوة في غار حراء، ثم عند اكتمال الاستعداد جاءه الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١-٢]، وهو المنهج السليم في التربية سواء كانت تربية إيمانية أم تربية أخرىٰ، فيتدرج في التعلم والتأهل ثم يخرج للتعليم والدعوة والإصلاح، وذلك لا يحصل بالعزلة بل بالمخالطة والتودد للناس، وهو من الخصال الحسنة إذا يبعد من المداهنة، كما جاء في قوله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلىٰ الناس»(١)، وقوله: «مُداراةُ الناس صدقة»(٢).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٥/ ٢٢١) برقم: (٢٥٤٢٨).
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٢١٦) برقم: (٤٧١).

٣١٥

اغتنام الأوقات في الدنيا

قال الفاريابي رحمه الله: «العمر في الدنيا قليل، والحسرة في العقبى طويل، والعبد في الآخرة بعمل نفسِه عزيز وذليل»(١).

المعنى الإجمـالي

عمرُ الإنسان مهما بلغ قصير، والأيام التي سيمكثها في الدنيا قليلة بالنسبة لحياته الأبدية في الآخرة، فعلى الإنسان أن يدرك قصر مكثه في الدنيا ويستعد للآخرة، فإنه إن لم يفعل ذلك واشتغل بسفاسف الأمور وبما لا يعنيه، فسيندم على ما يفوته في الآخرة بسبب تقصيره في الدنيا، وهذا لو قضى أيامه في اللهو واللغو، ولكن مَن أمضى عُمرَه في المعاصي والذنوب، ستكون حسرتُه أكبر وندمُه أشدَّ، كما قال: والحسرة في العقبى طويل. ووفقَ ما قام به في الدنيا تكون عاقبتُه في الأخرى، إما عزيزًا أو ذليلًا. قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٢٨).

٣١٦

الندم يوم الحصاد

قال الفاريابي رحمه الله: «مَن ضيَّع أيامَ حراثتِه ندِمَ أيام حصاده»[(١)].

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة متعلقة بالحكمة السابقة وتصبُّ في معناها، وفيها تشبيه لأيام عمرِ الإنسانِ بموسم الحراثة والزراعة، ولحياته في الآخرة بموسم الحصاد، فالإنسان الذي ضيَّع أيام الحراثة في اللهو واللعب، ولم يقم بما يجب عليه من الزرع والسقي وحراثة الأرض، وفوَّت فرصتَه حتىٰ مضىٰ وقتُ العمل وجاء وقت الحصاد وجني الثمار، لن يجني إلا الندامة ولن يجد إلا الحسرةَ، ويتأسف علىٰ حاله عندما يرىٰ غيرَه يحصد نتاجَ ما زرع أو يجني ثمارَ ما غرس. وكذلك الإنسان الذي ضيَّع أيام العمل في الدنيا باللهو والتسويف، سوف يندم في الآخرة يوم حصاد ثمار العمل.

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٢٩).

٣١٧

البركة في العمر

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «رُبَّ عُمْرٍ اتَّسعت آمادُه وقلَّتْ أمداده، ورُبَّ عمر قليلةٌ آماده كثيرةٌ أمداده»[(١)].

بيان المفردات

اتسعت آماده: أي: طال زمنه، والآماد: جمع أَمَد، وهو غاية الشيء ومنتهاه، والمراد هنا غاية العمر؛ أي: رُبّ عمرٍ اتسعت المسافة ما بين أولِهِ ومنتهاه[(٢)].

قليلة أمداده: أي: فوائده، بأن كان الشخص من الغافلين، والأمداد: جمع مَدَد، والمراد به: كل ما يصادف الإنسانَ من التوفيق والفتح وتيسير الصعاب، وتوفُّر أسباب الأنشطة، والجِدّ في القيام بالوظائف والمهامّ، ونظرًا إلى أن مصدر ذلك كله إنما هو لطف الله وعنايته بالعبد -فهو الذي يُمِدُّه بذلك كله- أُطلِق على أسباب ذلك كله اسمُ المدد[(٣)].

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٨٨).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٣١٠).

(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٣١٠).

المعنى الإجمالي

والمعنىٰ القريب لهذه الحكمة، أن عمر الإنسان قد يطول مداه دون أن يتحقق فيه الكثيرُ من النتائج والثمرات المرجوة، وربما قصر مداه ومع ذلك يتحقق فيه من نتائج الجهود والأعمال وثمرات الأنشطة ما لم يكن متوقعا ولا داخلًا في الحسبان.

والتاريخ يفيض بتراجم رجال صالحين - كابن الجوزي، والنووي، وابن تيمية، والسيوطي وغيرهم - يصدق عليهم هذا الواقع الذي لا يتيه عنه العالم ولا يرتاب فيه المؤمن، تركوا من ورائهم ثروات من العلوم والعمران والصناعات، لم تنهض في حياتهم التي متَّعهم الله بها إلا دعامة التوفيق، أي: البركة الربانية التي سرت شعلةً وضَّاءةً في أعمالهم وتحركاتهم(١).

وعن أبي بكرة ﷺ، أن رجلًا قال: يا رسولَ الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «من طال عمرُه وحسُن عملُه». قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «من طال عمره وساء عمله»(٢).

وقريب من هذه الحكمة قول ابن عطاء الله: «من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن مِن مِنَنِ الله تعالىٰ ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة»(٣).

البركة في العمر هي: الرزق؛ من الفطنة واليقظة وما يحمله علىٰ اغتنام الأوقات، فيُبادِر علىٰ الأعمال القلبية والبدنية، ويستفرغ في ذلك مجهودَه بالكلية،

---

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٢٠٤٤٣).

(٣) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٨٩).

فيدرك من المنن الإلهية والمعارف الربانية الشيءَ الكثير[١].

وهذه الحكمة تأتي كالنتيجة لحكمة الباب، وبمثابة الحكم المترتب عليها. فإذا ثبت أن اتساع العمل المقرِّب إلىٰ الله من حيث كمُّه العددي وكيفه النوعي إنما مردُّه إلىٰ توفيق الله والبركة التي يضعها فيه، وليس مرده إلىٰ اتساع أمد العمر، فقد تبين إذن أن من أضفىٰ اللهُ البركةَ في عمرِه، أي: وضع في حياته سرَّ التوفيق، فإنَّ قِصَر العمر لن يكون عائقًا عن بلوغه ما لا يبلغه المعمَّرون من القربات والطاعات المتنوعة الكثيرة في عَدِّها والمتميزة في نوعها؛ وذلك لأن السرَّ ليس في اتساع أيام العمر، وإنما السر في البركة التي يضفيها اللهُ علىٰ العمل والجهد، وهو ما تبين في الحكمة السابقة[٢].

فليست البركة في العمر بكثرة أيامه وطول أزمانه، وإنما البركة في العمر أن تصحبه العناية، وتهبَّ عليه ريح الهداية، فيدرك في يسير من الزمان مِن مِنَنِ الله تعالىٰ، أي: من علومه ومعارفه وأسراره ما لا يدخل تحت دوائر العبارة[٣].

(١) تعليقات الشيخ يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم العطائية (ص: ٨٩).
(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٣١٨).
(٣) ينظر: إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٥٣٨).

٣١٨

العزلة النافعة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما نفع القلبَ شيءٌ مثلَ العُزلة يدخل بها ميدان فكرة»[1].

بيـــان المفردات

النفع: إيصال الفائدة.

العزلة: انفراد القلب بالله، وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس وهو المراد هنا، إذ لا ينفرد القلب في الغالب إلا إذا انفرد القالب[2].

ميدان فكرة: فكرة شبيهة بالميدان لتردد القلب فيها[3].

المعنى الإجمـالي

كثرة الاختلاط بالناس تجلب مجموعة من الآفات على دين المسلم؛ كآفات اللسان من غيبة وغيرها، وآفات البصر من النظر إلى الحرام، وخطر أصحاب السوء من حيث التأثر بأخلاقهم السيئة، والتعرض للخصومات والمشاحنات، إضافة إلى

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٢٦).
(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٥٧).
(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٢٥).

إشغال المسلم عن عبادته وطاعاته، وغير ذلك مما يشغل الإنسان عن التفكر والاعتبار والبر والتقوىٰ.

وأفضل ما يقوم به المسلم للتخلص من هذه الآفات هو الابتعاد عن مصدرها وهو الاختلاط بالناس، وهذا الابتعاد والاعتزال يشترط له حتىٰ يؤدي الغرض المقصود منه أن يصاحبه التفكر والاعتبار؛ من أجل معرفة جوانب قصوره وتصحيحها، ومعرفة عظمة الله وحقه علىٰ العبد، واستشعار سرعة زوال الدنيا والزهد فيها، فليس المقصود فقط هو الجانب الشكلي بحيث ينتقل الإنسان من مكان إلىٰ آخر مع انشغال قلبه في المشاغل السابقة نفسها.

وقد شرع لنا النبي ﷺ الاعتكاف وهو نوع من العزلة المصحوبة بالإكثار من العبادة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنت أضرب له خِباءً، فيصلي الصبح ثم يدخله»[١].

ويشترط للعزلة عدم احتياج الناس إليه أو احتياجه إليهم في أمر ديني أو دنيوي، وإلا مُنعت[٢]. والعزلة لا تعني الاعتزال الدائم عن الناس وتعطيل فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي وسيلة مؤقتة هدفها هو الارتقاء في منازل التقوىٰ، والتخلص من أمراض القلب، والاستعداد لمواجهة أعباء الحياة، والقيام بواجب الدعوة إلىٰ الله بنية وعزيمة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٨) برقم: (٢٠٣٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٧٥) برقم: (١١٧٣).
(٢) سراج الظُّلَم للملا الأحسائي (ص: ١١٧).

٣١٩

مخاطر إضاعة الوقت

قال ابن القيم رحمه الله: «إضاعة الوقت أشدُّ من الموت؛ لأنَّ إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموتُ يقطعك عن الدنيا وأهلها»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن الوقت هو رأس مال الإنسان، وأثمن ما يملك، لا يقدر بحساب ولا ثمن، وهو يمر مر السحاب، ويجري جري الرياح، وما مضىٰ منه لا يعوَّض ولا يعود، فمن الحزم والرشاد أن يُغالي المسلم به مغالاة شديدة، وأن يحرص علىٰ اغتنامه بكل نافع ومفيد حرصًا لا حدود له، وأن يكون علىٰ حذر من أن يَضيع عليه شيء منه دون فائدة في أمر دين أو دنيا.

والوقت أنفَسُ ما عُنيتَ بحفظه وأَراه أسهل ما عليك يضيعُ[(٢)].

يقول الفخر الرازي: «فلو ضَيعتَ ألف سنة، ثم تُبْتَ في اللمحة الأخيرة من العمر بقِيْتَ في الجنة أبد الآباد، فعلمتَ حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به، ونبه علىٰ أن

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٤).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرضية لابن مفلح (٢/ ٢٤٦).

الليل والنهار فرصة يُضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢]»(١).

وبين لنا النبي ﷺ أهمية الوقت وأنه نعمة من الله، فقال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٢). قال ابن الخازن: «النعمة ما يتنعم به الإنسان ويستلذُّه، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل، فمن صح بدنه وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يَسْعَ لصلاح آخرته فهو كالمغبون في البيع اهـ. والمقصود: بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير محالِّهما، فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالًا»(٣).

يقول الحسن البصري: «أدركت أقوامًا كان أحدهم أَشَحَّ علىٰ عمره منه علىٰ دراهمه ودنانيره»(٤).

فتضييع الوقت يقطعك عن الله، ولذلك كانت إضاعة الوقت أشد من الموت، فأيُّ خسارة أشد من خسارة صلتك بربك؟ ومن مات وقد أحسن استغلال وقته فماذا خسر؟

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي، (٣٢/ ٢٧٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم: (٦٤١٢).
(٣) كفاية السندي علىٰ سنن ابن ماجه لنور الدين السندي (٢/ ٥٤٢).
(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٤)؛ وشرح السنة للبغوي (١٤/ ٢٢٥).

٣٢٠

أعظم الربح

الاشتغال بما ينفعك في الآخرة

قال ابن القيم رحمه الله: «أعظم الرِّبْح في الدُّنيا أن تشتغل نفسُك كلَّ وقتٍ بما هو أولى بها وأنفعُ لها في معادها»(١).

المعنى الإجمالي

إن رأس مال الإنسان في هذه الحياة هو عمره؛ وإن الله استخلفنا في الأرض لينظر كيف نعمل، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، والعاقل من اغتنم وقته فيما يعود عليه بالنفع في آخرته، فلا وقت فارغ لدىٰ المؤمن لتضييعه؛ لأن كل لحظة هو مسؤول عنها يوم القيامة؛ مسؤول عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه.

المؤمن ليس عنده وقت فراغ، لأنه أمام كنز عظيم، يأخذ منه بقدر همته، فمن هذا الذي يجد أرضًا خِصْبة يمكن أن تُزرع بما شاء من أنواع الزروع والثمار ثم يهملها ولا يستفيد منها! وهذا حال المؤمن مع الدنيا هو يعلم أنها مزرعة الآخرة، فلا يفرغ من عمل إلا سعىٰ لعمل آخر، وهذا ما أمر الله عز وجل به نبيه ﷺ، فقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]؛ أي: إذا فرغت من شغلك مع الناس

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥).

فتوجه إلىٰ الله واجتهد بالعبادة والطاعة[١].

إن المؤمن ليحزن علىٰ الدنيا إن أحسَّ باقتراب أجله، لا حرصًا عليها؛ ولكن لأنه كان يأنس بالطاعة، ويعلم أنها زاده ليوم لا ينفعه فيه إلا ما قدم في دنياه، فهذا عامر بن قيس لما حضره الموت جعل يبكي، فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا علىٰ الدنيا، ولكن أبكي علىٰ ظمأ الهواجر، وعلىٰ قيام ليل الشتاء[٢].

ومِن حِرْص السلف علىٰ الوقت، ورغبتهم في الاستفادة من كل جزء منه في الطاعة والعبادة، تجد أحدهم يُوَجِّه أصحابه فيقول: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتىٰ اجتمعتم تحدثتم[٣].

(١) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/ ٣٩٣٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٨٣)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١١٩).

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٤٩٢).

٣٢١

تفقّــه ثم اعتـزل

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «عزلة الجاهل فساد، وأما عزلة العالم فمعها حِذاؤها وسِقاؤها»(١).

المعنى الإجمـالي

يُبيِّن رَحِمَهُ اللَّهُ الفرق بين عزلة الجاهل وعزلة العالم، فيقول: «عزلة الجاهل فساد»؛ ذلك لأن الجاهل في اعتزاله غالبا ما يضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، أو تعبُّد في غير محله، ويكون تركيزه علىٰ الكمِّ لا الكيف، ثم لا يسلم من الغرور بنفسه وعبادته، وقد سئل بعض العلماء عن عزلة الجاهل فقال: خبال ووبال، تضره ولا تنفعه.

أما عزلة العالم فيقول: «فمعها حذاؤها وسقاؤها»، وفي هذا اقتباس من حديث ضالة الإبل، عندما سئل عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ما لك ولها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر»(٢)، معها حذاؤها؛ أي: خُفُّها، فهي تقوىٰ علىٰ المشي، وقطع المسافات. وسقاؤها؛ أي: جوفها، فهي تقوىٰ علىٰ ورود الماء، وإذا شربت

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٨).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٠) برقم: (٩١)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١٣٣) برقم: (١٧٢٢).

يومًا تصبر أيامًا على العطش[١].

ولهذا قال إبراهيم النخعي لرجل: «تفقَّه ثم اعتزل»[٢]. فالعالم إذا اعتزل ينتفع بما عنده من العلم، ويتزود بالمطالعة والمدارسة، ويعرف كيف يغتنم عزلته، وبماذا يقضيها، فتكون خيرًا له في دينه ودنياه، بخلاف الجاهل الذي لا يحسن العبادة في عزلته، ولا يعرف جميع ما يلزم فيها، فتضره بدل أن تنفعه.

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٢/ ٢٧٠).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٢٣٦).

٣٢٢

فنــاء العمــر أولى بالحــزن

قال بعض الصالحين رحمه الله: «عجبت ممن يحزن على نقصان ماله، ولا يحزن على فناء عمره»[١].

المعنى الإجمــالي

إن الإنسان إذا أتته الدنيا بزيادة في مالٍ ظلّ فرحًا مسرورًا، بينما الليل والنهار دائبان في هدم عمره، ولا يحزن لذلك، فماذا ينتفع من زيادة المال مع نقصان العمر؟! أين هو من تبدُّل المنازل بعد فترة يسيرة؟ أين هو من الجزاء والحساب؟

قال محمد بن سوقة: «إن لم يعذبنا الله إلا علىٰ هاتين الخصلتين كنا قد استوجبنا أن يعذبنا: نفرح بالشيء اليسير من الدنيا، ما علم الله منا مثل ذلك الفرح في حسنة عملناها، ونحزن علىٰ الشيء اليسير من الدنيا يفوتنا، ما علم الله منا مثل ذلك الحزن في سيئة ارتكبناها»[٢].

إن أكثر الناس يحملهم طلب الدنيا علىٰ الهم والغم وتكدر العيش، ولم نر إلا القليل يحزن لذهاب عمره ودنو أجله!

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٦٩)؛ ونسبه ابن حمكان إلىٰ يحيىٰ بن معاذ. ينظر: الفوائد والأخبار لابن حمكان (ص: ١٤٩).

(٢) القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا (ص: ٦٦).

مَـالِي أَرَىٰ النَّـاسَ والـدُّنيا مُوَلِّيَـةٌ وكُـلُّ حَبْـلٍ عليهـا سـوف يَنْبَتِـرُ
لا يَشْـعرونَ بمـا في ديـنهم نُقِصُـوا جهْـلًا وإنْ نَقَصَـتْ دُنْيَـاهُمُ شَـعَرُوا(١)

إن المال يمكن تعويضه إن فُقِد أو نقص، لكن العمر إن فات فما الذي يعوضه، وما الذي يعيده من بدايته؟ لن يستطيع أحد أن يعوض عمره أو أن يؤخر أجله؛ فالآجال محدودة معلومة.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحزنون علىٰ فوات الطاعات أو التقصير فيها؛ روىٰ السائب بن يزيد رضي الله عنه: «أن عمر خرج إلىٰ ماله بثمْغٍ(٢)، ففاته العصر، فقدَّم المسلمون رجلًا فصَّلىٰ بهم، وأقبل عمر يريد الصلاة، فتلقَّاه الناس راجعين، فسألهم مرتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: شغلتني ثمْغٌ شغلتني، لا تكون لي في مالٍ أبدًا، أشهدكم أنها صدقةٌ لله»(٣).

(١) البيتان لسابق البربري، ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد المستعصمي (٩/ ٢٥).
(٢) ثمْغ: موضع تلقاء المدينة كان فيه نخل لعمر، فتصدق بأصله علىٰ ألا يباع ولا يوهب. ينظر: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني (٥/ ٢٥).
(٣) الزهد لأبي داود السجستاني (ص: ٧٩).

باب الطاعات والمعاصي وآثارها

٣٢٣
آثار المعصية

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الإثم حوَّازُ القلوب»[(١)].

بيان المفردات

حوّاز: بتشديد الواو من الحوز، وهو التملّك والتغلّب[(٢)]، ورُوي: «حَزّاز»؛ وهو القطع والحكّ[(٣)].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة آثار المعاصي وكيفيتها في التأثير، فهي بالرواية الأولىٰ حوّاز تعني استحواذ المعصية علىٰ القلوب والتغلب عليها حتىٰ تجعل الإنسان يستقبح الحسن ويستحسن القبيح كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر:٨]، ويستمر في العمل السيء وهو لا يدري ولا يتوب.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٤٩) برقم: (٨٧٤٨، و٨٧٤٩).
(٢) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٣٦ و٣٤٣).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٥/ ١١٦)؛ لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٣٦).

وأما الرواية الثانية حزّاز القلوب فتعني أن المعصية هي ما تحكّ في الصدور وتقلقها، وتدعها في غير ارتياح، ولا يريد المرء أن يطلع عليها غيره، وذلك كما ورد في الحديث النبوي ﷺ يقول: «البِر حُسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطلع عليه الناس»(١).

فإذا اشتبه عليه أمرٌ فيجب اجتنابه وترْكُه، ويؤيده تمام رواية ابن مسعود للحكمة المذكورة يقول: «فَما حَزَّ في قلبِ أحدكم شيءٌ فليَدَعهُ»، وفيه كمال التقوىٰ والسلامة من الشبهات كما جاء في قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع ما حاك في الصدر»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٠) برقم: (٢٥٥٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٠).

٣٢٤

الفرق بين الأعمال الصالحة والسيئة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «شتَّان ما بين عملين: عملٍ تذهبُ لذَّتُه وتبقى تَبِعَتُه، وعملٍ تذهب مُؤْنَتُه ويبقى ذكرُه»[(١)].

بيـان المفردات

شَتَّانَ: بَعُدَ، يقال: شتّان ما بينهما؛ أي: بَعُدَ ما بينهما، وأصله شَتَتٌ وشَتٌّ؛ أي: الافتراق والتفريق، قال أبو زيد: شتَّانَ منصوبٌ علىٰ كل حال؛ لأنه ليس له واحد، وقيل: يمكن أن تكون تثنية شتٍّ، فتكون بكسر النون لا بنصبها[(٢)].

تَبِعَته: التَبِعة والتِباعَة: ما فيه إثم يُتّبع به، يقال: ما عليه من الله في هذا تبعة ولا تباعة[(٣)].

مؤنته: المؤنَة بضم الميم والهمزة الساكنة: التَّعَب والثِّقَل، والجمع: مُؤَنٌ، ووردت بفتح الميم وضم الهمزة: مَؤُونة علىٰ وزن فَعُولة[(٤)].

---

(١) هكذا ورد في تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٠٨)؛ وأما في بعض المصادر المتقدمة مثل: غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضىٰ علي بن الحسين (ص: ١٥٣)؛ وربيع الأبرار للزمخشري (٤/ ٢١٧) وغيرهما وردت بلفظ: «ويبقىٰ أجره».

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٤٨ – ٥٠).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٣٠).

(٤) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٨٦).

المعنى الإجمـالي

تبين الحكمة الفرق بين العمل الصالح والعمل الطالح، فالعمل السيء الذي يوافق النفس والهوىٰ لا تستمر لذته الظاهرية إلا حين عمله، ولكن إثمه وآثاره -إن لم يتب- تبقىٰ وتستمر في هذه الدنيا وفي الآخرة، فهو عمل قليل الفائدة وكثير التبعة، وأما العمل الصالح ففي الإتيان به يوجد نوع من المشقة والتعب، ولكنه تعب زائل لا محالة، إلا أن أجره وذكره مستمر إلىٰ ما بعد الدنيا كذلك، وعلىٰ العاقل أن يوازن بين عمل فيه لذة مؤقتة ومشقة طويلة وبين عمل فيه مشقة مؤقتة ولذة أبدية، ويختار ما هو فيه أكثر فائدة بأقل تكلفة.

والناظر في نصوص الشريعة يجد هذا المعنىٰ يتجلىٰ بوضوح، كما في الآية الكريمة: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦]، أو في قوله ﷺ: «ما يجد الشهيد من مَسّ القتل إلا كما يجد أحدكم مس القَرْصَة»(١)، حيث يَذهب ألم الموت في لمح البصر، ويبقىٰ حيًّا يُرزق عند الله إلىٰ يوم القيامة، وأما العكس، فتتلاشىٰ لذته سريعًا، ويبقىٰ وزره طويلًا.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٩٠) برقم: (١٦٦٨)، وقال: حسن صحيح غريب.

٣٢٥

الحزن على مفارقة الصلاة

قال مسروق بن الأجدع[(١)] رحمه الله: «ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود»[(٢)].

بيان المفردات

آسى: أَسِيَ علىٰ مصيبته بالكسر يأسىٰ أسىً؛ أي: حزن، وقد أسيْتُ لفلان؛ أي: حزنت له[(٣)].

المعنى الإجمالي

يخبرنا مسروق عن حاله فيقول: لا أحزن علىٰ شيء فاتني من الدنيا ولا علىٰ أعمال فاتتني فيها ولم أُكثِر منها كما أحزن وأندم علىٰ وقت لم أستغلَّه لكثرة السجود، ويشير بالسجود إلىٰ الصلاة، لأنها موضعها.

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك، أبو عائشة، الهمداني، الوادعي، تابعي ثقة، الإمام القدوة، من أهل اليمن، قدم المدينة في أيام أبي بكر، وسكن الكوفة، وشهد حروب عليّ، وكان عالما بالفتيا، توفي سنة ٦٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٦٣)؛ الأعلام للزركلي (٧/ ٢١٥).

(٢) التاريخ الكبير لابن أبي خيثمة (٣/١٣١)؛ ومجموع مصنفات أبي جعفر ابن البختري لابن البختري (ص: ٣١٨).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٢٦٩).

ورد في المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتهن حين ينادى بهن أنها من أفضل الأعمال عند الله تعالى؛ كما جاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألتُ النبي ﷺ أيُّ العمل أحبُّ إلى الله ﷻ؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(١).

وخصَّ الله السجود بالذكر لأهميته في الصلاة فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق:٤٠]، وتقدم السجود على الركوع في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٣].

وأوصى رسول الله ربيعة بن كعب الأسلمي بكثرة السجود، فعن ربيعة بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «سلني أعطك»، قلت: يا رسول الله، أنظِرني أنظر في أمري، قال: «فانظر في أمرك»، قال: فنظرت فقلت: إن أمر الدنيا ينقطع، فلا أرى شيئًا خيرًا من شيءٍ آخذه لنفسي لآخرتي، فدخلت على النبي ﷺ فقال: «ما حاجتك»؟ فقلت: يا رسول الله، اشفع لي إلى ربك ﷻ فليعتقني من النار، فقال: «من أمرك بهذا؟»، فقلت: لا والله يا رسول الله، ما أمرني به أحد، ولكني نظرت في أمري فرأيت أن الدنيا زائلة من أهلها، فأحببت أن آخذ لآخرتي، قال: «فأَعِنّي على نفسك بكثرة السجود»(٢).

والسجود مظنة الإجابة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا؛ فأما الركوع فعَظِّموا فيه الرب ﷻ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء؛ فقَمِنٌ أن يستجاب لكم»(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١١٢) برقم: (٥٢٧)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (٨٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/ ١١٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٨) برقم: (٤٧٩).

٣٢٦

الصلاة تكتنف المسلم

قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «يموت المسلم بين حسنتين؛ حسنةٍ قضاها، وحسنة ينتظرها»(١).

المعنى الإجمالي

إن في تعاقب الصلوات الخمس في الليل والنهار حِكمًا عظيمة؛ منها: أن يبقى العبد المسلم على صلة واتصال بالله تعالى دون انقطاع، وأن ترتفع درجاته عند الله، وتمحى خطاياه، فقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]، وانتظار الصلاة بعد الصلاة من الرباط كما قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات، ويكفر به الخطايا؟، إسباغ الوضوء في المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة»(٢).

فمن بركات الحسنات أنها تجلب الحسنات بعدها، ومن أعظم الحسنات المحافظة على الصلوات الخمس جماعة، حيث ينادى بهن، فيكون المسلم حينئذ بين خيرين وحسنتين صلاة ذاهبة وصلاة آتية، وهذا من رحمة الله وفضله بعباده المسلمين.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢١٩) برقم: (٤١).

٣٢٧

العصيـان جهالـة

قال مجاهد[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ عَصَى اللهَ فهو جاهلٌ حتَّى يَنْزِعَ عن معصيتهِ»[(٢)].

بيـان المفردات

ينزع: أي يترك[(٣)].

المعنى الإجمـالي

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء:١٧].

وقد نقل قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع الصحابة علىٰ جهالة العاصي فقال: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ أنَّ كلَّ ما عُصِيَ به الله فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكلَّ

(١) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج، المكي، القارئ، من الطبقة الثانية من التابعين، كان زاهدا عابدا، فقيها ثقة عالمًا، كثير الحديث، أسند عن جماعة من الصحابة وروىٰ عنه أئمة التابعين، توفي بمكة وهو ساجد سنة ١٠٤هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٧٩)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٠/ ٣٩٧).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٥٠٨).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤١٥).

من عصىٰ الله فهو جاهل»(١).

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية - معلِّلا سبب تسمية العاصي بالجاهل -: «السبب في إطلاق اسم الجاهل علىٰ العاصي لربه: أنه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب لما أقدم علىٰ المعصية، فلمَّا لم يستعمل ذلك العلم صار كأنه لا علم له، فعلىٰ هذا الطريق سُمِّي العاصي لربه جاهلًا، وعلىٰ هذا الوجه يدخل فيه المعصية سواء أتىٰ بها الإنسان مع العلم بكونها معصية أو مع الجهل بذلك»(٢).

فالمراد بالجاهل هنا، من يطغىٰ هواه علىٰ علمه فيتجاهل ما يعلمه من مراقبة الله سبحانه له، ومن العقوبة المترتبة علىٰ معصيته، ويقع في المعصية، فيسمىٰ جاهلًا حتىٰ يترك المعصية ويتوب إلىٰ الله ﷻ.

(١) تفسير البغوي (١/ ٥٨٦).
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٠/ ٧).

٣٢٨

عواقب الحسنـات والسيئـات

قال الحسن بن صالح[(١)] رحمه الله: «العمل بالحسنة قوةٌ في البدن، ونورٌ في القلب، وضَوءٌ في البصر، والعمل بالسيئة وهْنٌ في البدن، وظُلْمةٌ في القلب، وعَمًى في البصر»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

جعل الله تعالىٰ للحسنات أثرها الطيب في علاقة العبد مع ربه، ثم مع نفسه ثم مع الناس من حوله؛ فالحسنة تقوي البدن، وتجعله في أتم حالاته، وتبعد عنه الوهن والضعف، حتىٰ لو تقدم به العمر يكون العبد الطائع لله محفوظا في جوارحه كلها. ويكون لها نورٌ في القلب، ونور الطاعات من نور الله وهدايته، وحدة في البصر. وقد حُكي أن أحد الصالحين كان كبيرًا في السن، فوَثب ذات يوم وثبة، فعوتب في ذلك، فقال: جوارح حفظناها في الصغر فحفظها الله لنا في الكِبَر[(٣)]. وما كان لهذا العبد الصالح أن يفعل ذلك لولا حفظه لحدود الله والتزامه بطاعته.

---

(١) الحسن بن صالح بن صالح، أبو عبد الله، الهمداني، الثوري، الكوفي، الإمام الكبير، الفقيه، العابد، ولد سنة ١١٠هـ، روىٰ عن التابعين، وروىٰ عنه الأئمة، توفي سنة ١٦٩هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ١٦٨)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٣٦١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٣٣٠).

(٣) روائع التفسير لابن رجب الحنبلي (١/ ٥٧٥-٥٧٦).

أما من لم يكن له حظ من الطاعات، وكان شغله بالمعاصي عن الطاعات، وبالسيئات عن الحسنات فإنَّ للسيئات آثارا سيئة عليه في دينه ودنياه؛ فهي تضعف البدن بعلل ظاهرة لا تخفىٰ علىٰ من يقعون في الذنوب وبخاصة كبائرها، من الزنىٰ وشرب الخمور والمسكرات. وتترك الذنوب سوادها وظلمتها علىٰ القلب، فيمتلئ ظلمة وسوادًا، ويضعف البصر، وتُشدَّد الظلمةُ علىٰ الذين يطلقون لأبصارهم العنان في النظر إلىٰ عورات المسلمين، والنظر إلىٰ النساء بالحرام.

إن المساواة بين من هداهم لنوره، وبين من لم يزرقهم ذلك النور غير متحققة، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

٣٢٩

ثمرة طاعة الله والخوف منه

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «من أطاع الله تعالى أطاعه كل شيء، ومن خاف الله خاف منه كل شيء»[1].

المعنى الإجمالي

جعل الله تعالىٰ لمن أطاعه واتبع هداه وخاف منه جزاء عظيمًا في جنته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [النساء:١٣].

والمخلوقون كلهم -أمرهم ونفعهم وضرهم- بيد الله؛ فهو الذي سخر بعضهم لبعض، وجعل بعضهم يخاف من بعض، لكن الله تعالىٰ إن علم من عبده طاعة له، وقربًا منه، واستعانة به، وتوكلًا عليه، أطاعه كل شيء، وطاعته بتسخير الله له كل ما يرغب فيه من مخلوقاته، وتذليل له كل صعب، وإعانته علىٰ كل أمر، فإذا أراد شيئًا وجد الله قد جعل ذلك الأمر سهلًا مطيعا؛ ومما يستدل علىٰ ذلك أن الله ضمن لمن اتقاه وأطاعه بأن يفتح له بركات السماء والأرض، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦]، وأخبر تعالىٰ عن ما سخر الله لداود عليه السلام،

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٦٧).

فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠]، وقال تعالىٰ عن تسخيره لسليمان عليه السلام: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ:١٢].

وهذا التسخير والطاعة من المخلوقين والمخلوقات كلها لمن قوي عمله وطاعته لله تعالىٰ. فمن أطاع الله ورسوله، وعبد الله بما شرع رسوله، مخلصًا لربه، سخر الله له المخلوقات، وجعلها في خدمته ونصرته، كما سخر الماء لنوح وموسىٰ، والنار لإبراهيم، والريح لهود، والصاعقة لصالح، والملائكة لمحمد ولوط صلوات الله وسلامه عليهم(١).

والخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق، ويدل ذلك علىٰ قلة الفقه عن الله تعالىٰ، وقد قال الله تعالىٰ في هذا المعنىٰ: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر:١٣].

فإذا تمَّ خوف العبد من الله تعالىٰ أزال ذلك الخوف خوف المخلوقين عن قلبه، وحوّل ذلك في قلوب المخلوقات فصارت هي تخافه إن لم يخفها هو(٢).

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٧١٢).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٦)،

٣٣٠

قُبح السيئات وحُسن الحسنات

قال عون بن عبد الله رحمه الله: «ما أقبح السيئات بعد السيئات، وما أحسن الحسنات بعد السيئات، وأحسن من ذلك الحسنات بعد الحسنات»[1].

المعنى الإجمالي

إن من أقبح حالات العبد أن يتطبع مع السيئات فتجيء السيئات حاملات لأخواتها، ومن أفضل الحالات أن تأتي الحسنات بعد السيئات، فتُذْهِب الحسنات السيئات.

ومن بركة الحسنات أنهن يأتين بحسنات بعدَهُنَّ، ومن شؤم السيئات جلبهن لسيئات مثلهن؛ فالحسنات لها نظائرها، والسيئات كذلك، فإن الحسنة بعد الحسنة توفيق من الله لعبده لفعله الطاعة، ومجيء السيئة بعد السيئة تدل على خذلان الله لعبده.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالَجْتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها ما دون أن أَمَسَّها، فأنا هذا، فاقض فيَّ ما شئت، فقال له عمر: لقد ستَرك الله لو سترتَ نفسك، قال: فلم يَرُدّ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤٩).

النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلًا دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤]، فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصة؟ قال: «بل للناس كافة»[١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠٢)؛ وذكره الطبري سببًا لنزول هذه الآية. ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ٥٢٣).

٣٣١

الحياء من لقاء الله بسبب المعاصي

قالت أم هارون الدمشقية[١] رحمها الله: «لو عصيتُ آدميًا ما أحببتُ لقاءَه، فكيف أُحب لقاءَ الله وقد عصيتُه؟!»[٢].

المعنى الإجمالي

تقول المرأة الصالحة أم هارون أنها لو عصت آدميًّا أحسنَ إليها ولم تقم بواجب الشكر تجاهه لاستحيت من ملاقاته ومواجهته، فكيف لا تستحيي من لقاء الله سبحانه بعد أن عصته وخالفت أمرَه؟ وليس المراد عدم حب لقاء الله تعالىٰ في الآخرة - وحاشا العبد أن لا يحب لقاء الله ورؤيته - بل المقصود هو التعبير عن شدة الحياء عند لقائه عز وجل.

من صفات الخير ودلائله التي تبقىٰ في النفس البشرية، وتدل علىٰ سلامة فطرتها وطيب معدنها، صفة الحياء، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ إذا لم تستحِ فاصنع ما شئتَ»[٣].

(١) من كبار نساء الشام، وكان أبو سليمان الداراني يُجلها، أهملت المصادر ذكر اسمها ونسبها وتاريخ وفاتها، ويحتمل أن تكون وفاتها في أواخر القرن الثاني أو بداية القرن الثالث للهجرة. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٠٢).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٠٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٣١٩) برقم: (١٧٠٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٣٠٧-٣٠٨) برقم: (٥٩٧).

والحياء صفةٌ ملازمة لصاحب الخلق القويم؛ فتراه مستحييًا ممن أحسن إليه، وممن وقف معه في ساعات الشدائد، ومدَّ يد العون والمساعدة إليه.

فإذا كان الحياء من العبد تجاه العبيد إن أحسنوا إليه، فكيف يكون الحال مع الله تعالىٰ الذي خلق فسوىٰ، وقدر فهدىٰ، وأعطىٰ فأجزل، وحفظ العبد من كل المكاره والمساوئ، فإذا بالعبد يتنكر للباري ﷻ، ويجحد نعيمه، ويكفره ولا يشكره، ويعصيه ولا يعبده، وينساه ولا يذكره. أليس الله أحق أن يُستحيا منه حق الحياء من عبيده بعضهم ببعض؟

٣٣٢

لذة العيش في الطاعة

قال صالح بن عبد الجليل[(١)] رحمه الله: «ذهب المطيعون لله بلذيذ العيش في الدنيا والآخرة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الباحثون عن اللذة في الدنيا من أهل الدنيا يبحثون عنها في منظر بهي، وملمس ناعم، ومأكل شهي، ومشرب رائق، وملبس فاخر، وبيت عامر، ومركب فاره، وزوجة حسناء جميلة، ومال وفير. وهذه كل ما يطمعون إليه ويرغبون بالوصول إليه، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

ومع أن هذه التمنيات إن وجدها العبد المؤمن فهي من نعم الله التي يؤدي عليها الحمد والشكر غير أن النعمة واللذة الحقيقية التي يجدها العبد المؤمن، هي ما يبقىٰ لا ما يفنىٰ.

---

(١) صالح بن عبد الجليل، البصري، من قدماء مشايخ بغداد، وكان واعظا زاهدا، صحب الفضيل، وكان من أقران بشر الحافي، روىٰ عنه أبو سليمان الداراني، ويحتمل أن تكون وفاته في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري. ينظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/ ٤-٨)؛ طبقات الأولياء لابن الملقن (ص: ٢٤٥).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣١٧).

إن المطيعين لله تعالىٰ قد بذلوا أعمارهم وعمروها بالطاعة لله تعالىٰ، فزال التعب والمشقة التي صاحبت تلك الطاعات، وبقيت لذاتها وحلاوتها وبركتها في الدنيا، وجزاؤها في الآخرة. وشعر العاصون لله تعالىٰ بلذة المعاصي حينها، فكانت لذات عابرة، ثم انقضت تلك اللذات، وبقيت آلامها وحسراتها في الدنيا، والعقاب والعذاب الشديد في الآخرة. قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [فاطر:٧].

٣٣٣

هوان العصاة على الله

قال أبو سليمان الداراني ﵀: «إنما هانوا عليه فعصوه، ولو كرموا عليه لمنعهم منها»(١).

المعنى الإجمالي

من أهانه الله فلا مُكْرم له، ومن وضعه الله فلا رافع له، ومن أذله الله فلا مُعِزَّ له، وليس أعظمُ ذلةً وهوانًا على العبد أن يتركه ربه في الدنيا، فلا يعينه، ولا يوفقه، ولا يسلك به مسلك الأخيار، وفي الآخرة يجعله في نار جهنم من المنسيين.

لقد سجد لله تعالى كل من وما في الأرض والسماء، ولم يعصه سوى عاصي الجن والإنس، فهم الذين وضعوا أنفسهم في المهانة والذلة، ولو كرموا على الله لمنعهم وحجزهم عن غشيان محارمه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨]، أي: ومن يُهِنْه الله من خلقه فيُشقِيه فما له من مكرم بالسعادة يُسعده بها؛

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٦١).

لأن الأمور كلها بيد الله، يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء، ويشقي من أراد، ويسعد من يحب[(١)].

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٥٨٧).

٣٣٤

الاستماع إلى الباطل

قال عبد الله بن خبيق الأنطاكي[(١)] رحمه الله: «طول الاستماع إلى الباطل يُطفئ حلاوة الطاعة من القلب»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الاستماع للباطل من الغناء واللهو ينبت النفاق كما ينبت الماء الزرع، والاستماع للغو من الكلام، والاستماع لكلام الفحش والتفاحش والتمادي فيه، كل ذلك من الاستماع للباطل الذي ينزه المؤمن منه نفسه. وقد ذكر الله تعالىٰ عن المعرضين عن سماع اللغو، وموقفهم ممن يجهل عليهم، فقال عنهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥].

(١) عبد الله بن خبيق بن سابق، أبو محمد الأنطاكي، من زهاد الصوفية، أصله من الكوفة ثم سكن من الثغور أنطاكية، صحب يوسف بن أسباط، وأسند الحديث، توفي سنة ٢٦٠هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٦٩)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٢٤)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ١٠٢).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٧٢).

لقد قرن الله تعالىٰ الاستماع إلىٰ الباطل والقول بالإثم بأكل الحرام، ولولا أن في المسموعات والمقولات حرامًا لما قرنهما بأكل الحرام، وهو من الكبائر[١]، فقال تعالىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣].

وإن الاستماع للباطل والتلذذ به والإكثار منه يذيب الإيمان وحلاوته؛ ذلك أن للإيمان مكانةً رفيعةً، وهيبةً في قلب العبد، وحلاوة تصاحب الطاعات، ونورًا يجده العبد في قلبه بعد الطاعات، فإذا قام العبد بالاستماع للباطل، وأكثر من ذلك، ولم يتب ويستغفر فإن تلك المكانة والهيبة تهتز وتضمحل، والحلاوة تزول وتختفي، ونور الإيمان الذي يتلألأ في قلبه يزول وينطفئ، كما تنطفئ أنوار المصابيح التي انعدم منها زيتها ووقودها.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٣٥).

٣٣٥

في الطاعات آفات

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «إن في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون معه إلى أن تطلبوا المعاصي»(١).

المعنى الإجمالي

المعاصي كما تكون بمفارقة الطاعات، فقد تكون من الطاعات نفسها؛ ومردُّ ذلك ليس إلىٰ الطاعة نفسها، بل إلىٰ ما صاحبها من فساد في الاعتقاد أو في السلوك؛ فالعبادات طاعة لله إن كانت خالصة وصائبة، لكن إن كانت مبتدعة، أو خالطها الرياء والسمعة، فإنها ترتدُّ إلىٰ معاصٍ يأثم صاحبها ولا يؤجر، ويعاقب ولا يُكافأ.

فمن ابتدع في طاعته لله تعالىٰ، وجاء بأمر ليس له أصل في شرع الله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن عمله مردود عليه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد»(٢).

ومن عمل عملًا صالحًا مَشوبًا بالرياء والسمعة فإن عمله مردود عليه، ومن قدّم معروفا وأتبع معروفه وخيره بالمنِّ والأذىٰ فإن معروفه وخيره لا يؤجر عليه.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٨٤) برقم: (٢٦٩٧)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٤٣) برقم: (١٧١٨).

٣٣٦

وسائل الوصول والقرب من الله تعالى

قال النصرآباذي رحمه الله: «باتباعِ السنةِ تُنالُ المعرفةُ، وبأداء الفرائض تُنالُ القربةُ، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبةُ»(١).

بيان المفردات

المعرفة: هي عبارة عمَّا يحصل في النفس بعد الجهل، وقيل: هي إدراك الشيء بتفكر وتدبّر لأثره، فهي أخص من العلم، ويضاده الإنكار، يقال: فلان يعرف اللهَ ورسولَه، ولا يقال: يعلم الله لما كان معرفة البشر لله تعالىٰ هو تدبر آثاره دون إدراك ذاته(٢).

القربة: هي الدنوّ، ضد البعد، يقال: قَرَّبْتُه تقريبًا، أي أدنيته، وتقرّب إلىٰ الله بشيء؛ أي: طلب به القربة عنده، والقُربان بالضم ما يتقرب به إلىٰ الله عز وجل(٣).

المحبّة: اسم للحب، نقيض البغض. والحِباب بالكسر: المحابَّةُ والموادَّةُ والحبُّ(٤).

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٤٩٥).
(٢) تاج العروس للزبيدي (١/ ٦٥، و٢٤/ ١٣٣).
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ١٩٨ - ١٩٩).
(٤) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٩٠).

المعنى الإجمالي

تبين هذه الحكمة وسائل وصول العبد إلىٰ منزلة المعرفة والقرب من الله تعالىٰ ومحبته، وتبين له أمورا لو واظب عليها ويستمر فيها يحصل بها القرب من الله ومحبته، وينال بها معرفة الله ولذة أنواره، ألا وهي اتباع السنة وأداء الفرائض والمواظبة علىٰ النوافل.

وقد ربط الله تعالىٰ حبه ومغفرته باتباع سنة نبيه ﷺ قائلا: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران:٣١]، وفي اتباع السنن صِدق محبة حبيبه ﷺ، ومن صدق في دعواه لحبه طوعا لا كرها ولا التزاما كشفت له أسرار معرفة الله ونور عرفانه.

وأما الفرائض فمع كونها ملزمة هي أكثر ما يتقرب به العبد إلىٰ الله، كما جاء في حديث قدسي يقول الله ﷻ: «وما تقرّبَ إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضتُ عليه»، وفيه: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه»(١)، فمن واظب علىٰ النوافل غرست محبة الله في قلبه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

٣٣٧

الحذر من صغائر الذنوب

قال أبو الحسين بن سمعون[(١)] رحمه الله: «احذروا الصغائر؛ فإن النُّقَط الصغار آثارٌ في الثوب النقي»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يجب الحذر من الذنوب الصغيرة كما يُحذر من الكبائر، فإنها تؤثِّر على القلب كما تؤثر النقاط السوداء الصغيرة في بياض الثوب النقي.

يحاسب العباد أنفسهم على كبائر الذنوب، ليجتنبها، لكنهم لا يتورعون عن الصغائر التي تبدأ في التجمع شيئًا فشيئًا، حتى تشكل كتلة كبيرة من الذنوب، تغلف الغلف وتطبع فيه الران. كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]، فصغائر الذنوب يجتمعن على العبد حتى يهلكنه؛ فإن الجبال من الحصا، والسيل الجارف يبدأ بقطرات، والغفلة تبدأ بذنب، فإذا استحكمت الغفلة

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل ابن سمعون البغدادي، الواعظ، المعروف بابن سمعون، كان واحد دهره في الكلام على علم الخواطر والإشارات ولسان الوعظ. حدَّث عن أهل عصره وحدّث عنه جماعة. ولد سنة ٣٠٠هـ وتوفي سنة ٣٨٧هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب (٢/ ٩٥)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٦٢٠).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٥٥٠).

في العبد كثرت الذنوب، حتىٰ يصير القلب أسود، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه.

ومثل الذنوب وأثرها علىٰ القلب مثل الثوب الأبيض الصافي النقي، لكنه شديد التأثر بأي مغاير يغايره من الغبار والتراب، وما ينطبع عليه من البقع المغيرة للونه. وهكذا الأمر مع المعاصي والذنوب فإنها تبدأ بنقطة واحدة صغيرة سوداء -من سواد المعصية وشؤمها- علىٰ قلب أبيض، فتزداد نُقَطُ السواد وتتكاثر وتكبر، حتىٰ يصبح القلب ليس محلًا لأن يكون مصدر نور وإشعاع للعبد؛ إذ لا يجتمع فيه أمران بياض وسواد، وصفاء وتخليط.

٣٣٨

الأدب يسبق الطاعـة

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: «العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه في طاعته إلى الله»[(١)].

المعنى الإجمـالي

يصل بقيامه بالواجبات الشرعية وأداء الفرائض والنوافل من الطاعات إلىٰ الجنة، ويُنقِذ نفسَه من النار في الآخرة، لكن إذا كان العبد عند قيامه بالطاعات خاشعا متضرعا، متأدبًا مع الله تعالىٰ، مبتعدا عن جميع معاني الرياء والسمعة، فإن الله يفتح عليه النفحات الإلهية ويُشعِره بلذَّة المناجاة والقرب منه سبحانه، وهذا الأمر لا يتأتىٰ بمجرد القيام بالطاعات الظاهرة من غير مراعاة آدابها.

إن طاعة الله ورسوله ترفع المؤمن مقامًا رفيعًا من الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

وقد قرن الله تعالىٰ بين الإيمان به وبرسوله وبين الأدب الذي يجب علىٰ العبد

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٤٤٥)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٥٦).

التحلي والعمل به، فقال تعالىٰ: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح:٩].

وإنَّ للأدب مع الله منزلةً عظيمةً يرتفع بها العبد ليعيش عارفًا بالله، ويكون ذلك بتقدير العبد لربه حقَّ قدره، وتعظيمه، والثناء عليه بما أثنىٰ علىٰ نفسه، وبما أثنىٰ عليه نبيه ورسوله ﷺ، والاعتراف بالعبودية الكاملة له، والإقرار بالعجز والتقصير والضعف والنسيان، ونسبة ما وصل إليه العبد من خير إلىٰ ربه تعالىٰ، والتخلي من حول العبد وقوته، والالتجاء واللوذ والاعتصام بحول الله وقوته.

إن كل هذه الأعمال هي في المقام الأول طاعات لله وقربة له، لكنها تدل علىٰ حسن الأدب مع الله، فيجعل الله عبده المتصف بهذه الصفات من المقربين منه العارفين به، الذين يصلون بأدبهم معه إلىٰ طاعته؛ ولذلك جعل الله العلماء أشد خشية لمعرفتهم به وحسن تأدبهم معه.

٣٣٩

ثمرة الكفّ عن الحرام

قال ابن الجوزي رحمه الله: «تذوَّقْ حلاوةَ الكفِّ عن المنهيِّ؛ فإنها شجرةٌ تُثْمر عزَّ الدنيا وشرف الآخرة»[(١)].

المعنى الإجمالي

الكفّ عن الحرام ومقاومة الشهوات يقوّي الإيمان ويشعر بحلاوته في القلب، جاء في الحديث: «النظرة سهمٌ من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»[(٢)]، فمن ترك الحرام خوفًا من الله وابتغاء مرضاته عوّضه الله بدلًا من ذلك أن يرزقه بحلاوة الإيمان، قال ابن القيم رحمه الله: «وقولهم: من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه، حق، والعوض أنواع مختلفة، وأجَلُّ ما يعوض به: الأنس بالله، ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوته، ونشاطه، وفرحه، ورضاه عن ربه تعالىٰ»[(٣)].

ومن الأمثلة التي ضربها لنا القرآن علىٰ الكف عن الحرام وما أعقب ذلك من حلاوة الإيمان والعز والرفعة قصة يوسف عليه السلام حين راودته امرة العزيز عن نفسها

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٤) برقم (٧٩٧٠).

(٣) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٦ – ١٥٧).

فكفّ وامتنع وقال معاذ الله، فقد اختار السجن على الفاحشة، فعوضه الله أنْ مكّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة، وأذلّ له العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالىٰ في عباده قديمًا وحديثًا إلىٰ يوم القيامة[(١)].

فالكفّ عن المنهيات والمحرمات يزرع في قلب المؤمن شجرة راسخة من مخافة الله وخشيته، وبعد ذلك تكون الثمرة هي العزّ في الدنيا والشرف في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

(١) روضة المحبين لابن القيم (ص: ٦٠٠).

٣٤٠

إهانة النفس بالمعاصي

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ويحك! لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي، إنما أبعَدْنا إبليس لأجلك؛ لم يسجد لك، فالعَجَب منك كيف صالحْتَه وهجرْتَنا؟!»[1].

المعنى الإجمالي

يتحدث ابن الجوزي رحمه الله في هذه الحكمة عن أمر مهم يخفىٰ علىٰ معظم الناس المبتلين بالغفلة عن الله، ويتوهم أكثر الناس أنهم بإقلاعهم عن المعاصي يُحرَمون من حريتهم الشهوانية ويُقيَّدون عن إراداتهم الحرة، والحق أن الله بتحريم المعاصي علىٰ عبده يمنعه بذلك عما يضره، سواء كان ضررًا حسيًّا أو معنويًا؛ لأن مرتكب المعاصي إما أن يضر بجسمه وبدنه، أو يضر بروحه وعقله، كما تظهر آثار وأعراض المعاصي في سلوك الإنسان وصحته النفسية والبدنية.

فيقول ابن الجوزي بلسان الحال عن ربه ﷻ، أن الله تعالىٰ حين حرَّم المعاصي علىٰ عبده أكرمه بذلك لأن له قيمة وكرامةً عنده سبحانه، ثم هو أهان نفسه الكريمة بارتكاب المعاصي والشهوات، فوقع بذلك في طاعة إبليس، إذ أقسم

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٥١٤).

إبليس أنه سيسعىٰ دائمًا لإغواء بني آدم عن الصراط المستقيم، وبدأ هذا الصراع بين إبليس وأبينا آدم عليه السلام حين طلب الله تعالىٰ منه أن يسجد له، فأبىٰ وتكبر، ثم حسده وعاداه، فأخرجه الله من الجنة وطرده، وحذَّر اللهُ سيدَنا آدم عليه السلام وجميعَ ذريته وهم في أصلابه من شر هذا العدو، وأمره أن يتخذه عدوًا، ثم يأتي ابن آدم ويتصالح مع عدوِّه إبليس الذي امتنع عن السجود له، فيطيعه ويعادي ربَّه؟

ومصداق آخر كلامه في قوله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٤].

٣٤١

التشبه بالملائكة

قال الفاريابي رحمه الله: «الطاعةُ طلبُ المشاركةِ بأعمالِ الملائكة»[(١)].

بيان المفردات

الطاعة: اسم وُضِعَ موضع المصدر، بمعنى: اللين والانقياد، قال ابن السكيت: يقال: طاَع له وأَطاع سواء، فمن قال: طاع، قال: يُطاعُ، ومن قال: أَطاعَ، قال: يُطيع[(٢)].

المعنى الإجمالي

تبين هذه الحكمة فضل الطاعة وبعض ثمراتها لصاحبها، منها التشبه بالملائكة؛ لأن طاعة الله مطلوبة من عباده جميعا، ولكن أكثرهم لا يلتزمون بها، فمن أطاع الله كأنه شارك في عمل الملائكة في وظائفهم الأبدية، فإنهم يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله أبدا، وجاء ذلك في قوله تعالى عند بيان وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٠٦).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٨/ ٢٤٠-٢٤١).

ومشاركة الإنسان بالملائكة في هذا الوصف رفعٌ لمكانته الإنسانية، فهم قوم طاهرون لا يملّون من عبادة الله ولا يغفلون عن ذكره، ولا يستكبرون، ولا يستحسرون، ويستغفرون لأهل الإيمان الذين يشاركونهم في طاعة الله وذكره، وفيهم يقول ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [غافر:٧].

وأما العاصي فإنه يشارك الشياطين في أعمالهم ويجعل نفسه تحرم من سعادة الطاعة كما حرمت الشياطين منها، ولا ينبغي للمؤمن العاقل أن يكون من هذه الفئة المحجوبة المشاركة للشياطين، بل يسعىٰ أن يكون من الفئة الصالحة الأولىٰ المشاركة بأعمالها للملائكة المكرمين.

٣٤٢

السجود سبيل الجود

قال ابن غانم المقدسي رَحِمَهُ اللهُ: «معنى قربه منك وقربك منه: أنك تتقرب منه بالخدمة وهو يتقرب إليك بالرحمة، وأنت تتقرب منه بالسجود وهو يتقرب منك بالجود، وأنت تتقرب منه بالطاعة وهو يتقرب بتوفيقك الاستطاعةَ»[(١)].

بيان المفردات

الخدمة: المهنة، خَدَم خدمةً، فهو خادم، أي: أدَّىٰ مهنةً[(٢)].

الجود: بمعنىٰ السخاء، وهو بذل المقتنيات مالًا كان أو علمًا، ويقابله: البخل[(٣)].

التوفيق: أصله الوِفْق بكسر الواو، وبفتحها هو الموافقة والوِفاق، واستوفق اللهَ؛ أي: سأله التوفيقَ، وهو جعلُ اللهِ تعالىٰ فِعلَ عبادِهِ موافقًا بما يحبه ويرضاه[(٤)].

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ٩٧).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٢٤)؛ ومعجم متن اللغة لأحمد رضا (٢/ ٢٣٨).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٣٨)؛ والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٢١١).

(٤) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٣٨٢-٣٨٣)؛ والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (ص: ١٥٦٧)؛ والتعريفات للجرجاني (ص: ٦٩).

المعنى الإجمالي

المقصود من الحكمة هو تفسير معنىٰ قرب الله تعالىٰ من عبده وتقرُّبِ العبد إلىٰ ربه الذي وردت به نصوص الشرع. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقرب العبد من الله يكون بقيامه بالخدمة التي أمر الله بها، والمراد بالخدمة: فعل المأمورات وترك المنهيات، كما ورد في الحديث القدسي: «وما تقرَّبَ إليَّ عبْدي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ مما افْتَرَضْتُ عليه»[١]، والفرائض تشمل الأوامر والنواهي، وإذا تقرَّب العبد إلىٰ ربه بالطاعة تقرب منه ربه تعالىٰ بالمحبة والتوفيق؛ ففي الحديث السابق يقول تعالىٰ: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبْطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لَأُعْطينّه، ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّه، وما تَرَدَّدتُ عن شيء أنا فاعله تَرَدُّدي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مَساءَته»[٢]. وهذا المعنىٰ الذي قصده ابن غانم بقوله: «وأنت تتقرب منه بالسجود وهو يتقرب منك بالجود»، لأن كثرة السجود والصلاة من أعظم القربات، سواء كان فرضا أم نافلة؛ وقد قال النبي ﷺ: «أَقَرَبُ ما يكون العبد مِن ربّه وهو ساجِد»[٣]، فإذا تقرب العبد من الله بالسجود والصلوات تقرب الله تعالىٰ منه بالجود، وهو البذل والعطاء، فالجود والمحبة من صفات الله تعالىٰ، ومن مظاهر قربه من العبد، وأثر ذلك: أنه يعطي عبدَه ما سأل، ويدفع عنه ما استعاذ منه، ويظهر توفيق الله له في كل ما يقوم به وتحركت به جوارحه، كما أشار إليه الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٩) برقم: (٤٨٢).

وهذا القيام من العبد للطاعة واستطاعته ذلك إنما هو من آثار توفيق الله له، ولولا توفيقه لَما استطاع أن يقوم بالطاعة، فالله تعالىٰ كما أنه يستحق الشكر لرحمته ونعمه، يستحق شكرا جديدا لتوفيقه للقيام بالشكر وأداء الطاعات. قال تعالىٰ علىٰ لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود:٨٨].

٣٤٣

تعجيـل الثواب في الدنيـا

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «جَلَّ ربُّنا أن يُعاملَه العبدُ نقدًا فيُجازيه نَسيئةً»[١].

بيـان المفردات

نقدًا: ما كان معجَّلًا.

نسيئة: ما كان مؤخَّرًا[٢].

المعنى الإجمـالي

جل ربنا، أي: تنزَّه وترفع أن يُعامِلَه العبدُ نقدًا، أي: معجلًا، فيجازيه نسيئة، أي: مؤخرًا، بل لا بد أن يعجل له ما يليق به في هذه الدار ويدَّخر له ما يليق به في تلك الدار، فتعالى الله وتعظَّم عن ذلك الوصف؛ لأن ذلك ينبئ عن العجز والعدم أو المماطلة، وهو منزَّه عن ذلك، بل له أن يفيض على عباده جزاءهم في الدنيا ويُثيبهم في العقبى، لأن خزائن جوده لا تتوقف على محل دون محل، فهو الذي يجازي عبادَه في الدنيا بأعمالهم بما يجدونه من ثمرات الأعمال[٣].

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٧).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٢٨).

(٣) شرح الحكم العطائية للكندي الدوعني (ص: ٤٠١)؛ وإيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٢٨).

فمن شأن الكريم إذا اشترىٰ شيئًا أن يُنجِزه نقدَه ويزيد إحسانَه، وقد اشترىٰ الحق تعالىٰ منا أنفسَنا وأموالنا، فعوَّضنا بها الجنةَ. والأصل في الدنيا أنها دار تكليف، والأصل في الجزاء أن يكون في الآخرة، يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]؛ كما أن العامل لا يستحق أجرته إلا بعد نهاية عملِهِ، ولكن الله تعالىٰ - لطفًا منه بالعباد - قد يُعجِّل لهم بعضَ ثمرات أعمالِهِم، وثوابَ طاعتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧].

والذي عجَّل له سبحانه في هذه الدار أمور: منها: ما يدفع عنه من المضار ويجلب له من المنافع والمسارّ، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦].
وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].
وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء:١٠٠].
وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢].

ومنها: ما يشرق عليه من الأنوار، ويكشف لقلبه من الأسرار. قال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩]، وهو نور يفرِّق بين الحق والباطل.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧]؛ يخرجهم من ظلمة الكفر إلىٰ نور الإيمان، ومن ظلمة المعصية إلىٰ نور الطاعة، ومن ظلمة الغفلة إلىٰ نور اليقظة(١).

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٢٨-٢٢٩).

٣٤٤

التوفيق للطاعة هو أكبر مكافأة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كفى مِن جزائه إياك على الطاعة أنْ رضِيَك لها أهلاً»(١).

المعنى الإجمالي

قصد المسلم عندما يؤدي الطاعات والعبادات هو طلب رضوان الله ومحبته والفوز برحمته، وهو يقوم بهذه العبادات والطاعات لأنه عبد مملوك مأمور خلقه الله من أجل هذه الغاية، فالعبد وظيفته أن يطيع سيّده فيما أمره، وهو في الأصل لا يستحق الأجر والثواب؛ لأنه بمنزلة العبد وليس بمنزلة الأجير الذي يستحق الأجر بمقابل عمله، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١].

هذا هو الأصل، إلا أن الله ﷻ كتب علىٰ نفسه الرحمة وأوجب بمحض المنة والفضل علىٰ نفسه أن يعطي الأجر والثواب لمن يعمل الصالحات، وهذا الثواب هو دخول الجنات في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤).

وفي بعض الأحيان يكرم الله تعالىٰ عباده الصالحين بالبشريات والكرامات في الحياة الدنيا، لكن المسلم يبقىٰ خائفا من عدم قبول عمله، متوجِّسًا من خاتمة أعماله، وبذلك يكون همه متوجها إلىٰ الازدياد من العمل الصالح، وتصحيح نيته وتخليصها من الشوائب، والاستمرار علىٰ ذلك حتىٰ يلقىٰ الله علىٰ أحسن أحواله.

فالمسلم لا ينبغي أن يطلب الجزاء العاجل في مقابل عمله الصالح؛ لأنه مستغرق في إصلاح نفسه وعبادة ربه، وحسْب المسلم جزاء بمقابل عمله الصالح أن الله هداه ووفقه ويسر له القيام بهذا العمل، فالتوفيق للعمل الصالح نعمة محروم منها كثير من الناس، وإذا استحضر المسلم هذه النعمة عدل عن التفكير الخاطئ باستعجال الجزاء إلىٰ شكر نعمة الله عليه أنْ رضيه أهلا للقيام بهذا العمل الصالح.

وهكذا يرجع المسلم إلىٰ المطلوب الأول منه وهو الاعتراف بخطئه وتقصيره، وعلاج آفات النفس من العُجب والكبر وغير ذلك، فمطلوب المسلم هو الاستقامة لا الكرامة، فإذا جاءته الكرامة استبشر وشكر ولم يتكبر أو يغترّ.

٣٤٥

حـلاوة الطاعـة

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا فاتَّهمه؛ فإنَّ الربَّ تعالى شَكورٌ»(١).

بيـان المفردات

شَكور: صيغة مبالغة من الشكر، وهو عرفان الإحسان ونشره، والشَّكور: من صفات الله ﷻ، معناه: أن يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء(٢).

المعنى الإجمـالي

من فضل الله سبحانه على عباده المطيعين أنه يرزقهم حلاوة يذوقونها عقب طاعتهم، وانشراحًا، وسرورًا يبعثهم على دوام السير إليه والقرب منه.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]. فسر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الحياة الطيبة بالسعادة.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٠٩).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٤٢٣).

وعن أبي بكر الوراق رحمه الله، قال: «حلاوة الطاعة»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[٢].

فإذا لم يجد العبد هذه الحلاوة ولم يحس بالانشراح فليتهم نفسه، وليفتش في عمله ونيته، وليبحث عن الخلل والتقصير فيه، وليستحضر مراقبة الله في عمله؛ لأن الله سبحانه وتعالى شكور لا بد أن يثيب المطيع بما وعده من الطمأنينة والانشراح ويذيقه حلاوة الإيمان ولذة الطاعة كرمًا ورحمةً منه.

(١) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (١٦/ ١١٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٨) برقم: (٤٣).

٣٤٦

المعاصي تجلب الـذلّ والحرمـان

قال ابن القيم رحمه الله: «إياك والمعاصي؛ فإنها أذلّت عِزَّ ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾، وأَخرجَتْ إقطاعَ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾»(١).

بيـان المفردات

الإقطـاع: هنا بمعنىٰ السكنىٰ، يقال: أقطع الناس الدور إذا أنزلهم فيها، أو أعطاهم إياها(٢).

المعنى الإجمـالي

كرّم الله آدم عليه السلام حين أمر الملائكة بالسجود له، وهذا مقام عزّ وتفضيل أنعم الله به علىٰ آدم وذريته، كذلك أنعم الله عليه وأكرمه بأن أقطَعه وملّكه الجنة يأكل هو وزوجه منها رغدا حيث شاءا، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة:٣٥].

لكن هذا العزّ الذي حظِي به آدم حين أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود له، وهذه الجنة التي ملّكها الله لآدم وأباح له سكناها، كل ذلك انعكس وانقلب وضاع بسبب

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥١).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٢/ ٣٩).

معصية واحدة تلبّس بها آدم وزوجه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].

وهذه الحادثة محل عبرة لبني آدم علىٰ مر الزمان، وملخص لما تؤدي إليه المعاصي من الذلّ والحرمان، فعلىٰ المسلم أن يتجنب المعاصي لينجو من وبالها؛ فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمةً نعمةً حتىٰ يُسلب النعم كلها، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وفي هذا قيل:

إذا كنتَ في نعمة فارْعَها ... فإن المعاصي تُزيل النعمْ[1].

وحين يبتعد المسلم عن المعاصي ويجعل بينه وبينها حائلا من تقوىٰ الله وخشيته، حين ذاك يستعيد هذا العزّ بإرغام الشيطان وقهره، ويوشك أن يستعيد هذا الإقطاع في الجنة حين يؤتىٰ كتابه بيمينه، ومن أمثلة قهر الشيطان بترك المعاصي وفعل الطاعات ما يحصل للشيطان عند السجود؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله - وفي رواية: يا ويلي - أُمر ابن آدم بالسجود، فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود، فأبيتُ، فلِي النار»[2].

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٥٨٨-٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦١) برقم: (٨١).

٣٤٧

الذنوب جراحـات

قال ابن القيم رحمه الله: «الذنوبُ جِراحاتٌ، ورُبَّ جُرْحٍ وقع في مَقْتَل»(١).

المعنى الإجمـالي

شبه رحمه الله الذنب بالجرح، أي كأن العبد باقترافه الذنب يطعن قلبه، وبمقدار كبر الذنب يكون كبر الجرح وعمقه، وإن من الجراحات ما يؤدي إلى موت صاحبه، فليحذر العبد كل الحذر من ذنب يميت قلبه؛ لأنه إذا مات القلب ما نفعته حياة الجسد.

ورحم الله الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك؛ حيث قال:

رأيتُ الذُّنوبَ تُميتُ القلوبَ ... ويُتبِعُها الذلَّ إدمانُها.

وتركُ الذُّنوبِ حياةُ القلوبِ ... وخَيرٌ لنفسِك عِصيانُها(٢).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٥).

(٢) ديوان ابن المبارك (ص: ١١٤).